PAG 2/28.910/06
سجل تحت رقم: 790
تاريخ: 2011
الرمز: ....

الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان–

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم اللّغة العربيّة وآدابها

شعبة الدّراسات البلاغيّة والنّقديّة بين أصالة التّراث والمعاصرة

الموضوع:

التّضامّ في القرآن الكريم في سورتيّ هود وطه

مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في البلاغة والنّقد

إعداد الطّالب

بوضياف محمّد الصّالح

إشراف

أ. الدّكتور: محمّد عبّاس

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د/ عبد الجليل مرتاض	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د/ محمّد عبّاس	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د/ محمّد طول	أستاذ التّعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
د/ محمّد محيي الدّين	أستاذ محاضر	جامعة تلمسان	عضوا
د/ عبد الجليل منقور	أستاذ محاضر	جامعة سيدي بلعبّاس	عضوا

السّنة الجامعيّة

1430هـ/1431هـ

2009م/2010م

إنّ طبيعة الموضوع فرضت علينا منهجا هو المنهج الوصفي التّحليلي، باعتبار أنّ الدّراسة تخضع تارة في بعضها إلى مسائل نحوية وبلاغية دون أحكام أو تعليل، وهي تارة أخرى تعتمد على عرض النّصوص بغرض التّطبيق والتّحليل، ولقد رافقتنا في الدّراسة مجموعة من المصادر والمراجع الرّئيسة، فمن القديم الكتاب لسيبويه، والإنصاف لابن الأنباري، وإعجاز القرآن للباقلاّني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والبرهان للزّركشي، ونظم الدّرر للبقاعي وتفسير الكشّاف للزّمخشري، وتفسير روح المعاني للألوسي، ومن الحديث المعتمَد في الدّراسة كتبُ تمّام حسّان وبخاصّة كتابه اللّغة العربية معناها ومبناها، إلى جانب بعض كتبه الأخرى كالبيان والخلاصة النّحوية، ومن المراجع أيضا معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب. أمّا أهمّ الصّعوبات التي تعرّضت طريق البحث فلعلّها تكمن في صعوبة التّعامل مع مختلف أقوال العلماء ولا سيما ما يتعلّق بتفسير القرآن الكريم وأوجهه البيانية، كما تكمن أهمّها في دقّة المسالك وتداخل الحقول تصوّرا واصطلاحا.

هذا ما وُفّقنا إلى الوصول إليه، وليس في وسعنا إلاّ أن نتقدّم أوّلا بالحمد لله الذي أن شرّفنا بالانتساب إلى هذه الأمّة الجليلة، وعلى أن فتق ألسنتنا على لغتها الشّريفة الأصيلة، وعلى أن رزقنا من بيانها ما يستقيم به لساننا، ثمّ أن نسجّل شكرنا وامتناننا الكبيرين لأستاذنا المشرف؛ الأستاذ الدّكتور محمّد عبّاس، على تفضّله بالإشراف، وتجشّمه عناء القراءة والتّصحيح والمتابعة مادحين فيه صبره وخصاله، كما نشكر لأساتذتنا الكرام توجيهاتهم ونصائحهم وكلّ حرف علّمونا إيّاه.

وعلى الله قصد السّبيل.

بوضياف محمّـــد الصّالـــح

تيسمسيلت في: الأربعاء 24 جمادى الأولى 1430هـ

الموافـــق لــ: 20 مـــــاي 2009م.

الفصل الأوّل

التّضامّ، أصوله وامتداداته.

1. مفهومه ومجالاته.
2. التّضامّ في الموروث النّحويّ.
3. التّضام في الموروث البلاغي.
4. التّضام في الدّرس اللّساني الحديث.

إنّ المقصود بالتّضام أن يستلزم أحد العنصرين التّحليليين النّحويَين عنصرا آخر، فيُسمّى التضام في هذه الحالة "التّلازم" أو يتنافى معه فلا يلتقي به فيسمّى "التّنافي".[تمّام حسّان:اللّغة العربيّة، معناها ومبناها– ص 216] وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة العلاقات النّحوية والقرائن اللّفظية منه إلى دراسة الأساليب التّركيبية البلاغية الجمالية.

أوّلا: مفهومـــه ومجالاتـــه.

1. التّعريف اللّغويّ والاصطلاحيّ:

التّضـــامّ لغـــة:

التّضام مصدر من الفعل "ضَمَمَ"، جاء في كتاب العين:« الضّم: ضَمُّك الشيء إلى الشيء وضاممت فلانا أي: قمت معه في أمر واحد». ومنه الضِّمام: كلّ شيء يُضَمّ به شيء إلى شيء. والإضمامة الجماعة من الناس[1]، ومن معاني الضّم الاشتمال، تقول: تضامّ القوم إذا انضمّ بعضهم إلى بعض، واضطمّت عليه الضلوع أي: اشتملت[2].

وقد أرجع ابن فارس اجتماع "الضّاد" و "الميم" إلى أصل واحد يدلّ على ملاءة بين الشيئين. يقال: هذه إضمامة من خيل أي: جماعة[3]. والضّم أيضا اجتماع الشيء إلى الشيء فضامَّ الشيءُ الشيءَ انضمّ معه، ومنه الضِّمام: كلّ ما ضُمَّ به شيء إلى شيء. قال الشاعر[4]:

فألفى القومَ قد شرِبُوا فضمّوا أمامَ القومِ منطقهم نسيفُ

أي: إنّهم اجتمعوا وضُمّوا إليهم ورجالهم[5]. ومما تدلّ عليه هذه المادّة اللغوية كذلك معنى

1 الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ): كتاب العين – تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي- د ط – د ت – ج07- ص 16،17.

2 اسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت393هـ): تاج اللغة وصحاح العربية- تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- بيروت- دار العلم للملايين- ط04- 1990م- مج 06-ص 1972،1973.

3 أبو الحسن أحمد ابن فارس (ت395هـ): معجم مقاييس اللغة- تحقيق و ضبط: عبد السلام محمد هارون- بيروت- دار الجيل- د ط – د ت- مج 03- ص 357.

4 أبو ذؤيب الهذلي: الدّيوان – تحقيق وشرح: سهام المصري – بيروت- دمشق- عمان- المكتب الإسلامي- 1419هـ/1998م -ص 170.

5 أبو الحسن ابن سيده (ت458هـ): المحكم والمحيط الأعظم- تحقيق: عبد الحميد هنداوي- بيروت- منشورات محمد علي بيضون- ط01-1421هـ/2000مـ - مج 08- ص 166.

المعانقة والانطواء[1]، فقولك: ضممتُ الشيء إلى الشيء، وضممتُه إلى صدري ضمّةً: عانقته. وانضمّ إلى كذا انطوى عليه. وأرسلت فلانا وجعلتُ غلامه ضميما لي، والضمّ أيضا القبض[2]. قيل:« قَبَضَ الشّيء إلى الشّيء، وضمَّهُ إليه يضمُّه ضمّاً فانضمّ وتضامّ، ضممتُ هذا إلى هذا فأنا ضامٌّ وهو مضموم ». واضطمّ الشّيءَ جمعه إلى نفسه[3].

والمعاني نفسها تكرّرت فيما بعد في المعاجم والقواميس الحديثة، فقد جاء في المعجم الوسيط أنّ فلانا ضمّ الأشياء بمعنى جمعها وقبض بعضها إلى بعض[4]، وضمّ الشيء إلى الشيء: أضافه إليه، واضطمّ انضمّ إليه، واشتمل وانطوى. وانضمّ الشيء اجتمع بعضه إلى بعض، والضّميم المضموم إلى غيره.

إذا كانت المعاني اللغوية التي حملتها هذه المادّة المعجمية – مادّة ضَمَم- تدلّ في مجملها على عبارات الاجتماع، والملاءة والقبض، و المعانقة والإضافة والانطواء والاشتمال، فإننا سننقلها إلى جانب الاصطلاح لنرى مدى التّقارب أو التّباعد بين المعنيين اللّغوي والاصطلاحيّ.

التّضامّ اصطلاحــا:

إذا كانت اللّغة هي المتن الذي يأخذ منه الاصطلاح مادّته؛ فإنّه لابدّ أن نحتكم في تعريف التّضام اصطلاحا إلى مادّته اللغوية، وأن ننتخب من مفردات هذه المادّة ما يناسبه ويجرّده عن دلالته اللّغوية، بغية اكتساب دلالة اصطلاحية تخصّه من جهة، ومن جهة أخرى فإنّنا سنعتمد في تعريفه كتابات وإشارات بعض المؤلفين وتحديداتهم له.

---

1 أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري (ت538هـ): أساس البلاغة- حقّقه وقدّم له ووضع فهارسه: مزيد نعيم وشوقي المعرّي – بيروت- مكتبة لبنان ناشرون- – ط 01- 1998م – ص487،488.

2 جمال الدين أبو الفضل ابن منظور (ت711هـ): لسان العـرب- بـيروت – دار صـادر- ط 06- 1417هـ 1997م – مج 12 – ص 357.

3 مجد الدين الفيروز آبادي (ت817هـ): القاموس المحيط – ضبط وتحقيق:يوسف الشيخ محمد البقاعي- إشراف: مكتب البحوث والدراسات- بيروت – دار الفكر – د ط – 1420هـ/1999م – ص 1020،1021.

4 المعجم الوسيط: قام بإخراج هذه الطبعة: إبراهيم أنيس، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد – أشرف على الطبع: حسن علي عطية، ومحمد شوقي أمين- بيروت – دار الفكر – د ط – د ت – ج01 – ص 544.

يجعل تمّام حسّان[1] فهم التّضام ممكنا من وجهين، ويلخّصهما على هذا النّحو :

الوجه الأوّل: إنّ التّضام هو الطّرق الممكنة في رصف جملة ما، فتختلف طريقة منها عن الأخرى، تقديما وتأخيرا، وفصلا ووصلا، وهلم جرا، وقد أطلق عليه اصطلاح "التّوارد" فقال:«يمكن أن نطلق على هذا الفرع من التّضام اصطلاح التّوارد »[2]، بيد أنّ هذا الوجه بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التّركيبيّة البلاغيّة الجماليّة منه إلى دراسة العلاقات النّحويّة والقرائن اللّفظيّة.

الوجه الآخر: إنّ المقصود بالتّضام أن يستلزم أحد العنصرين التّحليليين النّحويين عنصرا آخر، فإنّ التّضام في هذه الحالة "التّلازم"[3]، أو يتنافى معه فلا يلتقي به، فيسمّى "التّنافي"[4].

والتّضام في نظره ليس اتّصال اللّواصق بالكلمة، فاتّصال اللّواصق ضمّ جزء كلمة إلى بقيّة هذه الكلمة؛ بل هو تطلّب إحدى الكلمتين للأخرى في الاستعمال على صورة تجعل إحداهما تستدعي الأخرى، فياء النّداء كلمة مستقلة وليست جزء كلمة، والعلاقة بينها وبين المنادى علاقة

---

[1] تمّام حسّان عمر (أبو هاني):أحد الأساتذة المتميّزين في الأدب العربي في "دار العلوم" بالقاهرة، رحل إلى لندن ليناقش رسالة الماجيستير في موضوع" لهجة الكَرْنك" ثمّ رسالة الدّكتوراه في موضوع"لهجة عَدَن"، يدرّس مادّة "النّحو" منذ سنة 1959مـ، من تصانيفه: مناهج البحث في اللّغة، نشر سنة 1955مـ، كتاب " اللغة بين المعيارية والوصفية" نشر سنة 1958مـ، ثم كتاب" اللغة العربية معناها ومبناها" في حدود 1973مـ. أخذا عن: مبارك عبد القادر: آراء تمام حسان في نقد النّحو العربي- مخطوط رسالة ماجستير – إشراف: عبّاس محمّد- جامعة تلمسان- قسم اللّغة العربيّة وأدابها- 2002م/2003م – ص 10 .ويعدّ كتاب" مفاهيم ومواقف في النّصّ القرآني"آخر ما صنّف إذ تبلغ تصانيفه ما يزيد عن خمسة عشر كتابا، يقطن حاليا بشارع 206 شركة شيل. المعادي- القاهرة.

[2] تمّام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها- القاهرة - عالم الكتب- ط04- 1425هـ/2004مـ - ص 216.

[3] ستكون لنا وقفات مع مثل هذه المصطلحات فيما يستقبل من البحث إن شاء الله، نحو مصطلحات: "التلازم" و"التنافي" و"التوارد" و"الافتقار" و"الرتبة" والعلامة الإعرابية" و"الصيغة" والسّمات و"القرائن الشّكلية "وغيرها.

[4] تمام حسان: السابق – ص 217.

التضام، لا علاقة الإلصاق[1]. وعلى هذا المعنى والمقصود قد أقام تمّام حسّان في كتابه "اللّغة العربيّة معناها ومبناها" دراسته بالوصف والتحليل، وحصر مباحث التّضام على هذا الوجه الأخير بالخصوص دون الوجه الأوّل؛ الأمر الذي تنهض به إحدى إشكاليات هذا البحث.

نلاحظ أنّ تعريفه للتّضام وفهمه له صاحبته معاني الاستلزام والرصف، وهي معان قريبة من معاني الملاءة والقبض والإحكام التي وجدناها تتكرّر في التّعريف اللّغوي.

وقد يعني التّضام:« إيراد كلمتين أو أكثر لخلق معنى أعمّ من معنى أيّها؛ كضمّ حرف النّداء أو حرف الجرّ إلى الاسم، أو ضمّ الصلة إلى الموصول، أو ضمّ فعلي الشّرط إلى الشّرط»[2] وهو بهذا المفهوم يعدّ من العناصر البارزة التي تكوّن نظام تأليف العبارة في اللّغة العربيّة، ومن هنا:« تبرز أهميّة التّضام باعتباره ظاهرة شكليّة كبرى تصوّر أسلوب تآلف الكلمات في اللّغة ثم استخدام صورة التّآلف في إعطاء المعنى العام للتّركيب الكلامي»[3] ومردُّ عدِّه إحدى الظّواهر الشّكلية أنّه يشترك مع العلامة الإعرابية والرّتبة والصّيغة في كون كل واحدة منها من السّمات الشّكلية التي يتعرّض موضوعاتها في الغالب للأجزاء التّحليلية من التّركيب الكلامي، بيد أنّه يتعلّق بالسّياق، في حين إنّ بقيّة السّمات الشكلية تتعلّق بمكوّنات السّياق، ومادام يعدّ من السّمات الشّكليّة فإنّه يعين على تحديد مواقع الكلمات بين أقسام الكلام، فالكلمة التي تكون بعد حرف النّداء مثلا لا تكون إلاّ اسما، والعلاقة بين حرف النّداء والمنادى علاقة تضامّ[4].

والتّضام أيضا هو التّرابط الأفقي الطّبيعي بين الكلمات أو رفقة الكلمات وجيرتها لكلمات أخرى في السياق، نحو:"أهلا وسهلا"، وقد تطوّر هذا المفهوم[5]، فأصبح يعني دخـــول

---

[1] المرجع السّابق– ص 94.

[2] فاضل مصطفى السّاقي: أقسام الكلام العربي من حيث الشّكل والوظيفة– تقديم: تمام حسان– القاهرة– مكتبة الخانجي– دط– 1397هـ/ 1977م – ص 195.

[3] المرجع نفسه – ص 196 وما بعدها.

[4] المرجع نفسه– ص196.

[5] نادية رمضان النّجار: أبحاث نحويّة ولغويّة؛ القسم الأوّل– الإسكندرية– دار الوفاء للنّشر– ط01– 2006م– ص 15.

الكلمة في سياق مقبول مع الكلمات الأخرى، نحو الفعل "أطلق" في قولك:"أطلق لحيته" ونحو:"أطلق ساقيه للرّيح" ونحو:"أطلق له الحبل على الغارب" ولكل منها معنى سياقيّ يخالف غيره.

إنّ التّضام من خلال هذه الآراء والتّعريفات وعلى هذا التّقدير سيتعلّق موضوعه بالتّلازم بين العناصر اللّغويّة لتكوين الجمل والتّراكيب وسيكون إحدى العلاقات التّركيبية الأفقية في النّحو العربي، ميدَ أنّ دراستنا لموضوع التّضام ستكون دراسة بلاغية أكثر منها نحوية، كما سبق بيانه في مقدّمة البحث.

1. التّضـــامّ قرينـــة لفظيّة:

إنّ المقصود بالقرينة عموما :«الأمر الدّال على شيء من غير استعمال فيه، وقيل هي أمر يشير إلى المطلوب، فبها نعرف الحقيقة من المجاز ونعرف المقصود بالألفاظ المشتركة، ونعرف الذّكر والحذف وخروج الكلام عن ظاهره، وما إلى ذلك ممّا يحتمل أكثر من دلالة»[1]، والقرينة هي الدّلالة اللّفظية أو المعنوية التي تمحض المدلول وتصرفه إلى المراد منه مع منع غيره من الدخول فيه و قد تكون لفظية أو معنوية أو حالية[2]، فهي عنصر مهمّ لفهم الجملة. أمّا إذا خصّصناها وميّزناها عن مجموعة من القرائن الأخرى وقلنا هذه قرينة لفظية فإنّ منحى الدّراسة يختلف عن معناها السّابق، وسيرتبط موضوعها بقضايا التّعليق النّحوي، الذي تصدّى له جملة من العلماء أمثال تمّام حسان حين راح يبحثه بالتفصيل في كثير من مؤلّفاته[3] تحت عناوين "العلاقات السّياقيّة" والقرائن اللّفظيّة" و"القرائن المعنويّة"و"تضافر القرائن"، وجعل التّعليق الفكرة الرّئيسة في النّحو العربيّ، لأنّ فهمه يقود حتما إلى الغاية الكبرى من التّحليل الإعرابيّ، إذ التّأمل في هذه القرائن يقود في أغلب الأحيان إلى متاهات الأفكار الظّنيّة التي لا تتّصل اتّصالا مباشرا بالتّفكير النّحويّ[4].

1 فاضل صالح السّامرّائي: الجملة العربية والمعنى- بيروت- دار ابن حزم- ط01- 1421هـ/ 2000م - ص 60.

2 محمّد سمير اللّبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية- ص 186.أخذا عن:عبد الجبار توامة: القرائن المعنوية في النّحو العربي- مخطوط رسالة دكتوراه- جامعة الجزائر- معهد الآداب واللغة العربية - 1995م- ص 17.

3 تمّام حسان: اللغة العربية، معناها ومبناها – ص 188.

4 المرجع نفسه- ص 182.

يقسّم تمّام حسّان قرائن التّعليق إلى قرائن لفظية وأخرى معنوية؛ كلاهما تعرف من المقال لا من المقام، وجعل تحت كل قرينة منهما عناصرَ وفروعا.

01- القرائن المعنوية في أبسط تعاريفها:«هي معاني النّحو أو العلاقات السّياقيّة»[1] وتشمل الإسناد والتّخصيص والنسبة والتّبعيّة والمخالفة[2].

02- القرائن اللّفظيّة: هي ما يقدّمه علما الأصوات و الصّرف للنّحو من قرائن صرفيّة ونحويّة[3] وتشمل: الإعراب والرّتبة والصّيغة والمطابقة والرّبط والتّضام والأداة والنّغمة[4].

ولا بأس أن نستعرض هذه القرائن اللّفظيّة [5] بشيء من الإيجاز:

1) العلامة الإعرابيّة:إنّ ما دفع النّحاة إلى البحث في العامل الذي يحدث الإعراب هو بروز هذه العلامات الإعرابية في العربيّة الفصحى.

2) الرّتبة: وصفٌ لمواقع الكلمات في التّراكيب، والرتبة نوعان؛ رتبة محفوظة تخصّ النّحو لأنّ أي اختلال يمسّها يجعل التّركيبّ مختلاً غير مقبول، ورتبة غير محفوظة تخصّ البلاغة، إذ اهتمّ به علم المعاني الذي بيّن أغراض التّقديم والتّأخير ضمن دراسة الأسلوب لا التّراكيب الأمر الذي ينهض به أحد مباحث هذه الدراسة إن شاء الله.

3) الصّيغة: قرينة يقدّمها علم الصّرف للنّحو، وهي المبنى الصّرفي للأسماء والأفعال والصّفات.

---

1 أحمد محمّد قدّور: مبادئ اللّسانيّات- بيروت- دار الفكر المعاصر- دمشق- دار الفكر- ط02- 1419هـ- 1999م- 228. وحسين رفعت حسين:الموقعية في النحو العربي- تقديم: تمام حسان- عالم الكتب-ط01- 2005م- ص 19.

2 تمام حسّان: اللغة العربيّة، معناها ومبناها – ص 192.

3 أحمد محمّد قدّور: السّابق – ص 228.

4 تمام حسّان: السّابق – ص 192 وما بعدها.

5 أحمد محمّد قدّور: السّابق- ص 331 وما بعدها.

4) المطابقة: دورها توثيق الصّلة بين أجزاء التّركيب، وتكون في الشّخص والعدد والعلامة الإعرابيّة والنّوع والتّعيين[1].

5) الرّبط: قرينة تدلّ على اتّصال أحد المترابطين بالآخر.

6) التّضامّ: قرينة لفظية، لأنّها ذات أثر في انسجام العناصر النّحوية ولأنّها تحدّد وظائفها، وما تشير إليه من معان في السّياق النّحويّ، ومن الأمثلة على ذلك أنّ اسم الموصول وصلته يمثّلان عنصرين لا يقوى أحدهما على الاستغناء عن الآخر أو الحلول محلّه، فقولك:"جاء الذي أحبّه" يعني انصراف معنى الصّلة إلى "الذي" مباشرة دونما تطرّق احتمال كونها خبرا أو صفة أو حالا ... لأنّها جزء متمّم للموصول لا يُغنى عنه، كما أنّ الموصول مفتقر لهذا الجزء- أي الصّلة- افتقارا واضحا، كذلك الشّأن بين المضاف والمضاف إليه، فالظّرف الذي يُهيَّأ للإضافة لابدّ من الاتّصال بالمضاف إليه، وإن لم يكن اسما صريحا، فقد يأتي بعد تركيب نحويّ مستقل يحل محل المفرد لأنّ الفائدة لا تتمّ إلا به، نحو قوله تعالى:﴿ وَالسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾[2] فيظهر من الآية الكريمة أنّ المضاف والمضاف إليه – وهو جملة هنا- لا يقوى على الانفراد بالمعنى، لأنّ المعنى شركة بين الجزأين معا[3].

7) الأداة : قد تكون وسيلة للرّبط، أو تعبيرا عن التّضام، أو دليلا عن الرّتبة، أو عاملا يؤثّر في العلامات الإعرابيّة.

8) النّغمة: وهي الإطار الصّوتي الذي تقال به الجملة في السّياق[4].

---

[1] المرجع السّابق – ص 331... 333.

[2] سورة مريم – الآية 33.

[3] أحمد محمّد قدّور: مبادئ اللّسانيات – ص 335...337 . وحسين رفعت حسين:الموقعية في النّحو العربي– ص 21.

[4] المرجع نفسه – ص 338.

والجدول الموالي يوضّح مجموع هذه القرائن[1]:

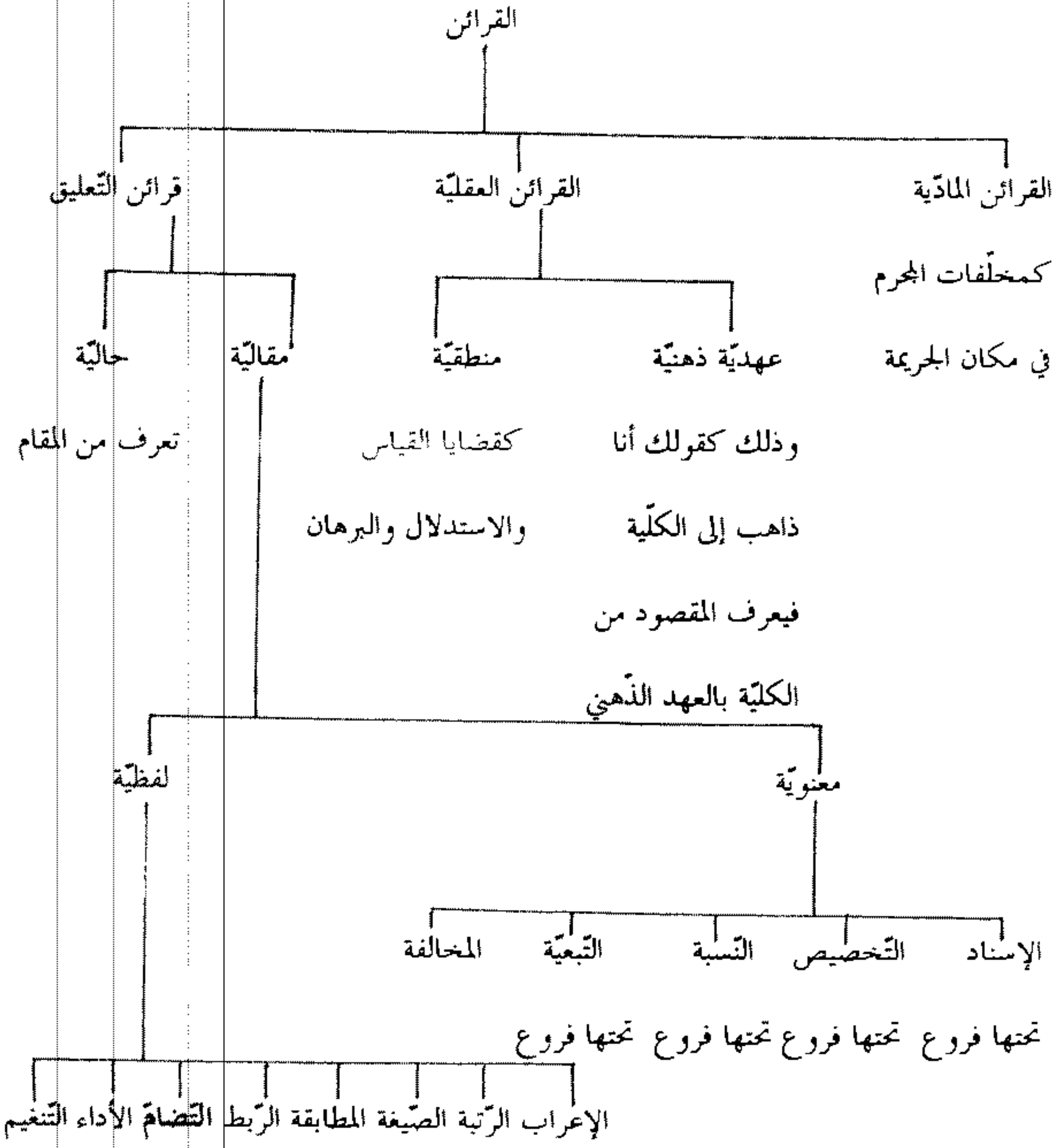

1 تمّام حسّان: اللّغة العربية، معناها ومبناها — ص 192.

وتندرج تحت قرينة التّضام كذلك مجموعة أخرى من القرائن المتداخلة مع عنوانه، لها علاقة به، يبرزها هذا الجدول[1]:

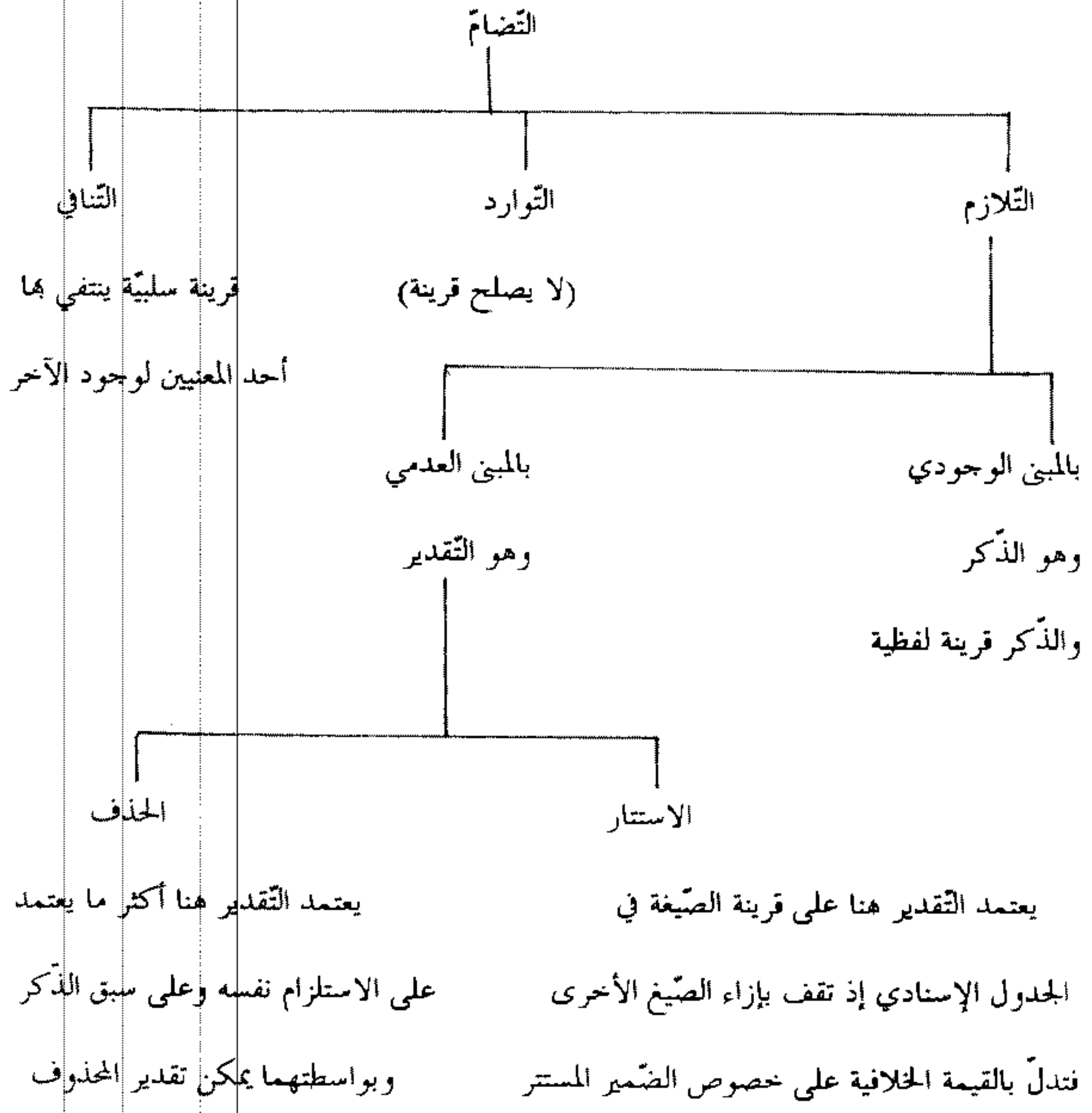

1 المرجع السّابق: ص 222.

وسنقفُ على سبيل المثال عند بعض الأمثلة الخاصّة بكون التّضام قرينة لفظية:

إنّ عدّ التّضام قرينة لفظيّة يعني أنّ الذي يتطلّب جملة ما هو الذي يحدِّد معناها فـــ:«الموصول مثلا قرينة على أنّ الجملة التي بعده صلة، وأنّه لو لم يتقدّمها الموصول لصلحت بصورتها الخبرية أن تكون صفة إذا تطلّبها الموصوف أو حالا إذا تطلّبها صاحب الحال، أو خبرا إذا تطلّبها المبتدأ، أو في محلّ جرّ بالإضافة إذا تطلّبها الظّرف»[1]... وأنّ الاسم الواقع بعد الأدوات التي لا تدخل إلاّ على الأفعال في الإشتغال لا يكون إلاّ منصوبا على المفعوليّة لفعل محذوف مقدّر يفسّره المذكور، لأنّه لو ارتفع لكان مبتدأ، ولعُدّت هذه الأدوات داخلة على الأسماء على عكس حظّها من التّضام[2]، على أنّه سيكون لنا مبحث من مباحث هذا الفصل نخصّصه للتّضام في الدّرس النّحويّ نحاول فيه أن نوسّع بعضا من هذه الجوانب إن شاء الله.

ما دام الحديث عن التّضام من الجانب النّحوي، والأمثلة التي ضربناها لهذه القرينة نحوية خالصة فلا غرو أن نذكر تعداد مختلف مصادر القرائن النّحوية وأن نذكر ما تشتمل عليه قرينة التّضام النّحوية.

إنّ للقرائن النّحويّة خمسةَ مصادر هي:«النّظام الصّوتيّ، والنّظام الصّرفيّ، والنّظام النّحويّ ودلالة السّياق، والدّلالة الحالية»[3]، والقرينة النّحوية تندرج تحتها ثلاث قرائن هي: التّضام والرّبط والرّتبة. وقرينة التّضام بدورها تندرج تحتها خمسة مباحث هي: الذّكر والحذف، والفصل والوصل، والزّيادة، والحيّز بنوعيه- الافتقار والاختصاص- والمناسبة بنوعيها كذلك- النّحويّة والمعجميّة- وفيما يلي جدول[4] يصوّر مجموع مصادر هذه القرائن .

---

[1] تمّام حسّان: اللّغة العربيّة، معناها ومبناها – ص 223.

[2] المرجع نفسه – ص 224.

[3] تمّام حسّان: الخلاصة النّحويّة- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1420هـ/2000م – ص 22.

4 المرجع نفسه – ص 24.

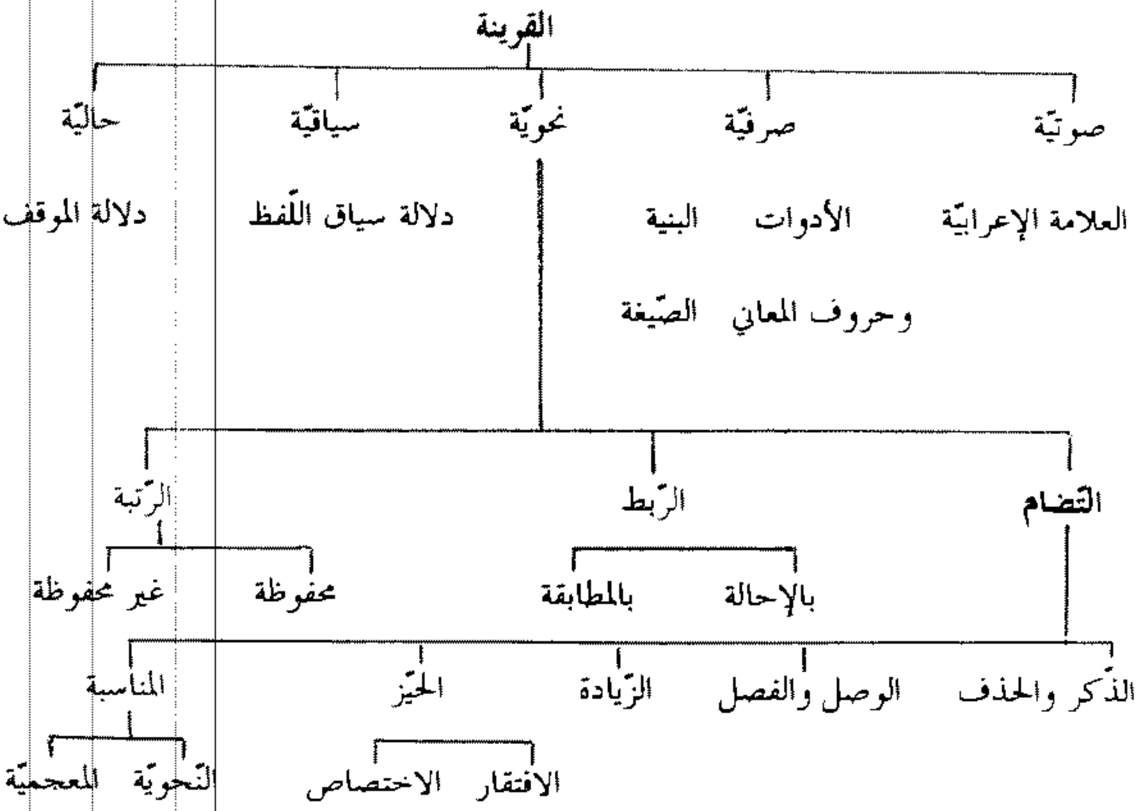

وإذا كان تأليف الجملة تحكمه تلك المبادئ والقواعد التي تتوقّف عليها إفادة الكلام وأنّ تأليف الجملة من مفرداها لا يتمّ بالمصادفة فإنّ: « الكلمة في الجملة يغلب أن تتطلّب كلمة أخرى تقع في حيّزها بشروط خاصّة تتّصل بإحدى القرائن كالإعراب أوالرّتبة أوالتّضام أو الرّبط»[1] وإذا كان جانب الإعراب مثلا قد فُسِّر بفكرة العمل النّحوي حيث الكلمات يعمل بعضها في بعض نصبا أوجراً أو بفكرة العمل المعنوي حيث لم يوجد العامل اللّفظي فإنّ هذا الأمر هو ما دعا النّحاة إلى الاعتراف بفكرة الحيّز المحدِّد لوظيفة الكلمة[2]، والذي عدّدوا طابعه بين الافتقار والاختصاص والمناسبة النّحوية والمعجمية، يقول تمّام حسّان:«.. ومعنى كلّ ما تقدّم أنّ التّضام قرينة على المعنى بحسب ما يرهص به حيّز اللفظ من افتقار إلى لفظ آخر أو اختصاص به أو مناسبة بين هذا اللّفظ وغيره أو مفارقة بين اللّفظين»[3]، وما حدا كذلك بتمّام حسان أن يلاحظ أنّ

[1] المرجع السابق – ص 80.
[2] المرجع نفسه – ص 80.
[3] المرجع نفسه – ص 81.

القدامى بالغوا في الارتكاز على قرينة الإعراب، لذلك نجده يربط دراسة العلاقات بين المعاني النّحوية بواسطة ما دعاه بالقرائن اللّفظية والقرائن المعنوية، حتّى إذا تسنّى لنا فهم فكرة التعليق على هذا النّحو فإنّه حينئذ استُطِيع القضاء على ما سمّاه خرافة العمل النّحوي أو العوامل النّحوية إذ يقول:« التّعليق هو الفكرة المركزيّة في النّحو العربي، وأنّ فهم التّعليق كاف وحده للقضاء على خرافة العمل النّحوي والعوامل النّحوية، لأنّ التعليق بواسطة القرائن يحدّد معاني الأبواب في السّياق»[1]، إلاّ أنّه مثلما لا يكتفي الطّبيب بدرجة الحرارة ليحدّد المرض حين تراه يكشف بالسّماعة وينظر في العينين ويطلب من المريض فتح فمه فإنّ القرائن النّحوية أيضا:«مثلها مثل الأضراس المتعددة [illegible][2] [illegible] التآلف هذه لا [illegible] فهم الجملة، إذ يمكن أن تكون الجملة ملبسة لبسا مفرطا في أكثر الأحوال حتى مع مساعدة السّياق، والذي يحكم الجملة في هذا هو العوامل... بالإضافة إلى وسائل أخرى مثل التأكيد والسّكتة أو طبقة الصّوت، ومثل التّرتيبات المتميّزة»[3] سواء في الدرس العربي أو الغربي لأنّ هذه العوامل- التي تقابلها كلمة:operators عند الغربيين – لا يقصد بها هؤلاء الغربيين أكثر من قرائن التّعليق اللّفظية[4].

3. أقســام التضـــامّ:

يمكن أن يقسّم التّضام إلى ضربين؛ تضام معجميّ وتضام نحويّ:

1.التّضام المعجميّ:

إنّ مفردات المعجم تنتظم في طوائف معيّنة، تقع كلّ واحدة مع ما يناسبها، إمّا عن طريق توارد بعضها مع بعض، وإمّا عن طريق تنافر بعضها مع بعضها الآخر، فلكلّ طائفة منها طابعها

---

[1] تمام حسان: اللّغة العربيّة معناها ومبناها – ص 198، 199.

[2] يضرب تمّام حسان هذا المثال لتوضيح فكرة تضافر القرائن النّحوية؛ تمام حسان:عنوان المقال: اللغة والنّقد الأدبي- عنـــوان المجلة :فصول، مجلة النّقد الأدبي- العدد01- المجلّد 04- 1983م- ص 120.

[3] مصطفى حميدة: نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربية- مكتبة لبنان ناشرون- الشركة المصرية العالميـــة للنشـــر لونجمان- ط01- 1997م- ص 32، 33.

[4] المرجع نفســه – ص 34.

الخاصّ :«الذي يطبع أسماءها وأفعالها بسمة خاصّة تجمعها تحت ظل معنوي واحد»1، فالأفعال مثلا طوائف تتوارد كلّ طائفة منها مع طائفة خاصة من الأسماء وتتنافر مع طائفة الأسماء الأخرى إذ من غير المقبول أن يقال:«انكسر الخيط»2 لأنّ في الخيط من المرونة ما يحول بينه وبين الوصف بالكسر، و هذا النوع من الجمل التي تكون سليمة من جهة البنية النّحوية وفاسدة من جهة المعنى قد اصطلح عليه تمّام حسّان:«الإحالة المعجميّة»3 التي يقصد ها أن يكون بناء الجملة صحيحا بخلاف معناها الفاسد نحو قولك أيضا:«جلس الكرسيّ على زيد»، وليس كذلك من المناسبة المعجمية أن تقول:«صرخ اللّون»، لأنّ الصّراخ يسند في الحقيقة إلى كائن حيّ ذي حنجرة تصدر منها الأصوات، ويبيّن تمام حسان هذا فيقول:« من الأفعال ما يتطلب فاعلا عاقلا نحو فهم وقرأ وخطب وأرشد، ومنها ما يتطلب فاعلا مهاجما نحو هزم واغتال وافترس، ومنها ما يتطلب فاعلا حيّا وإن كان دون تخصيص نحو أكل وشبع وشرب وصاح.. »4 والمناسبة إذا كانت غير معجمية وغير مقبولة قد سمّاها في أكثر من بحث:"المفارقة"5 وجعلها فرعا على التّوارد، وأنّ الكلام فيها يأتي من جهة الكلام في المناسبة المعجمية بين كلمة وكلمة أخرى دون كلمة ثالثة، لأنّك إذا علّقت فعل القراءة بلفظ الحجر في قولك:«قرأ الحجر دم الغزال» فأنت واجدٌ هذه المفارقة جليّةً لا تحتاج إلى دليل؛ فلا الحجر يقرأ، ولا هو يقرأ الدم، ولا الدّم ممّا يخضع لعمليّة القراءة، ولا النّخلة من ذوات الدّماء، وهكذا:"تنعدم علاقة التضام بين مفردات الجملة»6، بيد أنّ من البلاغيين مَن بيّن بعضا من هذه المفارقة وعرض مغزاها وأرشد إلى جدواها بواسطة تغيير نوع العلاقة من عرفية

---

[1] تمام حسان: الخلاصة النّحويّة – ص 81.

[2] تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنّص القرآني- القاهرة- عالم الكتب-ط01-1413هـ/1993م. – ص 155 و156، إلى جانب عدد من الأمثلة التي استدل بها في هذا المجال نحو:"دهنت الهواء بزيد"، و نحو"فهم الحجر المسألة".

[3] تمام حسان: اللغة والنّقد الأدبيّ – مجلّة: فصول- مجلة النقد الأدبي- المجلد 04- العدد01- سنة 1983م(أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) – ص 126. وينظر أيضا: البيان في روائع القرآن – ص 156.

[4] تمام حسان: الخلاصة النحوية – ص 81.

[5] تمام حسّان: اللغة والنقد الأدبي (المقال السابق) – ص 126.

[6] تمام حسّان: الخلاصة النحوية – ص 81.

معجمية إلى علاقة فنّيّة، بمعنى أنّهم:« أرشدوا إلى جدواها في أسلوب المجاز لأنّ هذا الأسلوب يعتمد على العلاقة والقرينة، ولكلٍّ منهما أثره في علاج هذه المفارقة»1، وبالتّالي يمكن أن نغير من قولنا:«صرخ اللّون» إلى نحو قولنا:«هذا لون صارخ»2، والذي تظهر فيه العلاقة فنّية غير معجمية عرفية، وهنا يتجلّى دور العلاقة بين المعنيين الذي يسمح بتخفيف وقع المفارقة بعد أن جعل بينهما رحما وقربى، ويتجلّى معه دور القرينة الذي يسمح أيضا باستبعاد فكرة المفارقة بسبب دلالتها على عدم إرادة المعنى الأصلي، لأنّها:«كانت مبنيّة على زعم إرادة هذا المعنى الأصليّ، فأمّا وقد أُريد معنى غير المعنى الأصلي المعجمي فلا مجال للقول بالمفارقة وإن بنى عليها المجاز»3، وقد اقترنت مفاهيم التّضام المعجمي على هذا الأساس كثيرا بمعنى قول البلاغيين:«إسناد الفعل إلى من هو له أو إلى غير من هو له»4 وربطهم المجاز بإسناده إلى غير من هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي الذي هو له في الأصل، لأنّ التّراكيب السابقة التي مرّت معنا في هذه الأمثلة تشتمل على كلمات متنافرة، ولو بقت على هذه الحالة لفقدت عنصر الإفادة، ولاتّسمت بالإحالة5، على على الرّغم من أنّها حقّقت صحّة التّركيب النّحوي الذي يوجّه إعرابها ويمكّنه.

بعد هذا التنظير للتّضام المعجمي لزمنا أن نورد بعض الأمثلة النحوية والشّروط التي تضبط هذا النوع من التّضام:

1- جاء في شرح المفصّل:«إنّ المصدر هو المفعول الحقيقيّ، لأنّ الفاعل يحدثه ويخرجه من العدم إلى الوجود، وصيغة الفعل تدلّ عليه، والأفعال كلّها متعدّية إليه سواء كان يتعدّى الفاعل أو لم يتعدّه نحو:"ضربت زيدا ضربا، وقام زيد قياما"، وإنّما سمّي مصدرا لأنّ الفعل صدر عنه، وأُخذ

---

1 المرجع السابق – ص 81.

2 تمام حسان: مقال: اللغة والنقد الأدبي– ص 126.

3 تمام حسان: الخلاصة النّحوية – ص 82.

4 نادية رمضان النجار: أبحاث لغوية ونحوية؛ القسم الأول – ص 16، أمّا ما يتعلّق بمباحث الإسناد والمجاز البلاغيـــة فينظـــر المبحث الثالث من هذا الفصل بحول الله وقوّته.

5 المرجع نفسه – ص 16.

منه»[1]، معنى هذا أنّ المفعول المطلق يُشترط فيه أن يشارك فعله في مادّة اشتقاقه، وأن يتعدّى إلى مفعوله.

2- التّأكيد يكون على ضربين؛ لفظي ومعنوي، اللّفظيّ يكون بتكرير اللّفظ أو الجمل وذلك نحو"ضربت زيدا زيدا" ونحو"ضربت زيدا ضربت زيدا"، أمّا المعنوي فيكون بتكرير المعنى دون لفظه نحو قولك"رأيت زيدا نفسه"[2]، فالتّوكيد اللفظي لا يكون إلاّ مع تكرير اللّفظ.

3- إضافة الشّيء إلى نفسه ممّا لا يصحّ، وذلك من قِبَل أنّ الغرض من الإضافة التّعريف والتّخصيص، والشيء لا يعرف بنفسه...والتّضايف إنّما يقع بين شيئين كلّ واحد منهما غير الآخر، وهي على ضربين؛ "إضافة محضة" و"غير محضة"، والإضافة المحضة بدورها على ضربين[3]؛ إضافة اسم إلى اسم هو بعضه لبيان جنس المضاف لا لتعريف شخصه، ويقدر ذلك بــ"من"نحو:"ثوب خزّ، وباب ساج"، والثّاني إضافة اسم إلى اسم غيره بمعنى "اللاّم" لتعريف شخص المضاف وتخصيصه بالتّعريف، نحو"غلام زيدٍ"، عرفت الغلام بإضافتك ايّاه على معرفة.

4- إذا أفاد الفعل مشاركة أو تسوية أو مخالفة وجب أن يكون فاعله مثنى أو جمعا أو معطوفا عليه، نحو:"تضارب الرّجلان" و"تضارب الرّجال" و"تضارب عمرو وزيد"[4].

إذا خيف اللّبس لزم الرّبط5، نحو قوله تعالى:﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ أَجِدُ عَلَى هُدًى "ٱلنَّارِ﴾ 6، فتكرّر ذكر النّار بدلا من"عليها".

---

1 موفّق الدّين ابن يعيش النحوي(ت643هـ): شرح المفصّل- بيروت- عالم الكتـــب- د ط – د ت- ج01- ص 110،109.

2 ينظر: المصدر نفسه- ج03- ص 41،40.

3 المصدر نفسه – ج03- ص09،08.

4 نادية رمضان النّجار: أبحاث لغويّة ونحويّة- القسم الأوّل- ص 16.

5 زين كامل الخويـــكي: مواضع اللبس عند النحاة والصرفيين- ص 190.أخذا عن: نادية رمضـــان النجـــار: الســـابق – ص 17.

6 سورة طه – الآية 10.

5- لا يأتي المطاوع إلاّ من فعل يمكن لمفعوله أن يتأبّى على قبول الحدث، فلا يجوز"انقتل، أوانضرب"، لأنّ معنى المطاوعة «أن تريد من الشيء أمرا ما فتبلغه إمّا بأن يفعل ما تريدُه إذا كان ممّا يصحّ منه الفعل، وإمّا أن يصير إلى مثل حال الفاعل الذي يصحّ منه الفعل و إن كان ممّا لا يصحّ منه الفعل»1. نحو: قطعت الحبل فانقطع وكسرتُ الحبّ فانكسر، ألا ترى أنّ الحبل والحبّ لا يصحّ منهما الفعل.

6- (أنْ) المصدرية لا تدخل على فعل لا مصدر له، نحو: عسى، بئس، نعم، ليس. لكونها أفعالا جامدة غير مشتقّة.

وسيكون لنا مبحث خاصّ بالمصطلحات المتعلّقة بالتّضام من مثل: التّوارد، والتنافي، والافتقار، والاختصاص.

2. التّضامّ النّحويّ:

علاقة تنشأ بين عنصرين تحليليين داخل منظومة نحوية إمّا عن طريق الاستلزام فيُسمّى التّضام في هذه الحالة "التّلازم" وإلاّ فيتنافى فلا يلتقي به فيُسمّى عندئذ هذا التضام"التّنافي"، فإذا استلزم أحد العنصرين النحويّيْن الآخر فإنّ هذا الأخير يستدلّ عليه بإحدى طريقتين[2]:

- قد يدلّ عليه مبنى وجودي على سبيل الذّكر.

- قد يدلّ عليه مبنى عدمي على سبيل التّقدير الاستتار أوالحذف[3].

وطريقة الذّكر الأولى يكون فيها هذان العنصران المتلازمان مذكورين في المنظومة الكلامية إمّا ذكر اختصاص وإمّا ذكر افتقار.

1 أبو الفتح عثمان ابن جني(ت393هـ): المنصف، شرح كتاب التّصريف للمازني- تحقيق: إبراهيم مصطفى- عبد الله أمين- وزارة المعارف العمومية- إحياء التراث العربي- ط01- 1973م- ج01- ص 71.

2 نادية رمضان النجار: أبحاث لغوية ونحوية – ص 18.

3 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 216.

أمّا طريقة العدم (الحذف) ففيها يستدلّ بقرائن سبق الذّكر أو الاستلزام على العنصر غير المذكور في النّص إمّا لاستتار واجب أو لحذف[1].

وأكثر ما ظهر هذا التّضام النّحوي بوضوح[2] إذا كان بين التّابع والمتبوع والمفسِّر والمفسَّر والتمييز والمميِّز، والضّمير ومرجعه، وتحمّل الضمير وعدمه، والمطابقة بين العنصرين والرّتبة بينهما، والفصل والوصل، والافتقار والاختصاص والاقتران، والعامل والمعمول.

أنواع التّضـــام النّحوي:

سبق أن ذكرنا أنّ التّضام يستدلّ عليه بطريقتين؛ طريقة الذّكر وطريقة الحذف، وأنّ الطّريقة الأولى هي الصّورة الإيجابية لهذا التضام، وتكون إمّا بالاختصاص وإمّا بالافتقار، وهذا ما نعنيه بأنواع التّضام النّحوي.

1. الاختصاص:

هو ظاهرة من ظواهر استعمال العناصر التّركيبية يأتي في صورة التضام الإيجابية، ومعناه:«أن يدخل الحرف على مدخوله بعينه وإن كان له بسبب لفظه لا بسبب معناه»[3]، ومادام هذا العنصر من صفات الحروف والأداة فإنّ الأداة مثلا: «إمّا أن تدخل على نوع معيّن من الكلمات لا تتعدّاه فتُسمّى مختصّة كاختصاص إنّ وأخواتها بالدّخول على الأسماء، واختصاص حروف الجر بذلك أيضا، واختصاص الجوازم بالدّخول على المضارع، وإمّا أن تصلح الأداة للدّخول على مختلف أنواع الكلمات مثل (ما) النّافية وأدوات الاستفهام فتكون غير مختصّة»[4].

1 نادية رمضان النجار: أبحاث نحوية ولغوية – ص 18.

2 ينظر : البيان في روائع القرآن: تمام حسان – ص 153.

3 تمام حسان : الخلاصة النّحوية – ص80.

4 تمام حسان: البيان في روائع القرآن– ص 155.

ومن المختصة مثلا أدوات النفي التي لا تؤثّر إعرابا بدليل قول النحاة: «نسلّم أن الحرف لا يعمل إلاّ إذا كان مختصّا»[1]، أو إنّ «الحرف إنّما يعمل إذا كان مختصّا»[2]، وقد حاول تمام حسان استنباط بعض القواعد الخاصّة بضميمة الاختصاص منطلقا من استقراء بعض كتب النّحو في الأصول ومسائل الخلاف، وسنقف بدورنا عند هذه الأمثلة من خلال هذه الأبحاث والقواعد التي وضعها النحاة، وغيرها، محاولين وضع نماذج من اختصاص الأفعال والسماء والحروف.

● **اختصـاص الأفعــال:**

- الأفعال تختصّ بالتّصرّف[3].
- الأفعال تختصّ بتاء التّأنيث[4].
- الأفعال تختصّ بالجزم وعلامته السّكون[5].
- تختصّ (أفعل) بنصب النّكرات بعدها على التميز[6].
- تختصّ الأفعال بدخول نون الوقاية، يقول ابن الأنباري: «ونون الوقاية إنّما تدخل على الفعل لا الاسم، ألا ترى أنّك تقول في الفعل أرشدني وأسعدني.. ولا تقول في الفعل: مرشدني. »[7].
- تختصّ الأفعال بنون التّوكيد، في حين تختصّ الأسماء بـــ إنّ واللاّم.

1ابن الأنباري، أبو البركات(ت577هـ): الإنصاف في مسائل الخلاف، بين البصريين والكوفيين- تحقيق:محمّد محيي الدّين عبد الحميد- بيروت- مكتبة صيدا العصرية- د ط- 1419هـ/1998م - ج01- ص 75.

2 المصدر نفسه - ج01- ص 73.

3 المصدر نفسه - ج01- 126. وينظر: الأصول : تمام حسان - ص 224.

4 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف - ج01- ص 104.

5 بهاء الدين ابن عقيل(ت769هـ): : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق: محمد محيي الدين- بيروت- المكتبة العصرية- صيدا- 1426هـ/2005م- ج01- ص26 و ج2- ص 335..

6 ابن الأنباري: السابق - ج01 - 129.

7 المصدر نفسه - ج01- ص 80

● اختصاص الأسماء:

- تختصّ الأسماء بالنّداء[1].

- تختصّ الأسماء بدخول (إنّ) وأخواتها.

- تختصّ الأسماء بالخفض، و احتجّ الكوفيون على أنّ (بئس ونعم) اسمان بدليل دخول حرف الخفض[2].

- تختصّ الأسماء بعلامات التثنية بخلاف الأفعال، يقول الأنباري:" والتثنية تكون للأسماء لا الأفعال"[3].

- تختصّ الأسماء بالتّصغير[4].

● اختصاص الحروف:

- إنّ (إنّ) المشدّدة من عوامل الأسماء، و(إن) المخفّفة من عوامل الأفعال[5]،فكل واحدة مختصّة بما تعمل فيه.

- تختصّ (اللاّم) و (من) بالقسم مع لفظ الجلالة، بدليل قول النحاة:"اعلم أن مِن العرب مَن يقول: مِن ربّي لأفعلنّ ذلك. ومُن ربّي إنّك لأشر. يجعلها في هذا الموضع بمنزلة الواو والباء.. ولا يدخلونها في غير ربّي.."[6].

1- المصدر السابق ج01 – ص 99.
2 المصدر نفسه – ج01- ص 75.
3 المصدر نفسه – ج01- ص 80.
4 المصدر نفسه – ج01- ص127. وينظر: تمام حسان : الأصول – ص 224.
5 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف – ج01- 195.
6 سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(ت180هـ): الكتاب – تحقيق:عبد السلام هارون–ط01- 1411هـ/1991م- ج03- ص 498.

- تختصّ حروف النّصب بالدّخول على المضارع[1].

- تختصّ بعض حروف الجرّ بالدّخول على أفعال بعينها، نحو الحرف (في) الذي يختص بالفعل: دخل للدلالة على الأزمنة والأمكنة[2].

- تختصّ الحروف(إنْ وإذ ولو وإذا) بالشّرطية ويكثر حذف الفعل بعد (إذا)[3]، وكذلك التّحضيض (ألا، هلاّ، لولا، لوما) بحذف الفعل بعدها[4].

2. الافتقـــار:

معنى الافتقار:«أنّ لفظا ما لا يستقلّ بالإفادة ولا يوقف عليه في الكلام غالبا وإنّما يتطلّب في حيّزه لفظا آخر لا غنى له عنه، وهذه هي السّمة المشتركة بين الألفاظ الدّالة على معنى عامّ حقُّه أن يُؤدّى بالحرف»[5]، وهو قسمان:

- افتقار متأصّل: أن يكون للفظ بحسب الوضع وهو:«افتقار العناصر التي لا يصحّ إفرادها في الاستعمال وإن صحّ ذلك عند إرادة الدراسة والتحليل، مثال ذلك افتقار حرف الجرّ إلى المجرور وحرف العطف إلى المعطوف وحروف الاستثناء إلى المستثنى»[6].

- افتقار غير متأصّل: سُمّي غير متأصّل لأنّ الافتقار هنا غير منسوب إلى الكلمة، فحين تقع الكلمة موقعها للتعبير عن الباب لا يكون الافتقار للكلمة لأنّها غير مفتقرة بحسب الأصل. وإنّما الافتقار للباب، فكلّ كلمة تقع هذا الموقع يفرض عليها الباب هذا النّوع من الافتقار[7].

1 المصدر السابق- ج01- – ص 208.
2 إبراهيم السامرائي: الفعل زمانه وأبنيته- بغداد- مطبعة العاني- د ط- 1966م – ص 84.
3 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 248.
4 ينظر: الكتاب – سيبويه – ج01- ص 98 . و ج01- ص 268.
5 تمام حسان: الخلاصة النحوية – ص 80.
6 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 154.
7 المرجع نفسه – ص 154.

وإذا ما رجعنا إلى الموروث النّحوي قليلا نجد نصوصا لقضيّة الافتقار تسمية ومفهوما، فمن استعمالات الافتقار تسمية على الأقلّ افتقار الأعداد إلى ما يبيّنها لأنّ« الأعداد لّما كانت مبهمة كالمقادير افتقرت إلى ما يبيّنها»[1]، ومن تعريفات الافتقار في استعمالات النّحويين:

قول ابن هشام والأشموني على ألفية ابن مالك في باب المعرب والمبنيّ حين يقول هذا الأخير:

والاســـــم منه مُعربٌ ومبنيّ لشبهٍ من الحروف مُـــــــدني

كالشّبه الوضعيّ في اسمي جئتنا والمعنويّ في متى وفي هنـــــــا

وكنيابةٍ عن الفــعل بـــــــلا تأثّر وكافتقار أُصّـــــــلا

يقول ابن هشام:« الشّبه الاستعمالي..كأن يفتقر افتقارا متأصّلا إلى جملة»[2] وضرب أمثلة على ذلك من افتقار المضاف إلى المضاف إليه، ومن كلام الأشموني : « كافتقار أصّلا ويسمىّ الشّبه الافتقاري وهو أن يفتقر الاسم إلى الجملة افتقارا مؤصلا أي لازما كالحرف في: إذ، وإذا وحيث والموصولات الاسمية، أمّا ما افتقر إلى مفرد كـــ"سبحان" أو إلى جملة، لكن افتقارا غير متأصّل أي غير لازم كافتقار المضاف في نحو قوله تعالى:﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[3]، إلى جملة بعده فلا يُبنى، لأنّ افتقار (يوم) إلى الجملة بعد ليس لذاته وإنّما هو لعارض كونه مضافا إليها، والمضاف من حيث هو مضاف مفتقر إلى المضاف إليه، ألا ترى

1 عبد القاهر الجرجاني(ت471هـــ): المقتصد في شرح الإيضاح – تحقيق كاظم بحر المرجان– الجمهورية العراقية منشورات وزارة الثقافة والإعلام– د ط– 1982م– مج02– ص 729.

2 ابن هشام الأنصاري (ت 671هــ): أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك– تحقيق: محمود مصطفى الحلاوي، أحمد سـليم الحموي– بيروت– مؤسسة التاريخ الإسلامي– دار إحياء التراث العربي – ط01– 1418هـــ/1998م– ج01– ص 60، 61.

3 سورة المائدة – الآية 119.

أن(يوم) في غير هذا التركيب لا يفتقر إليها نحو:هذا يوم مبارك»[1] ، وممّا يترتّب على مبدأ الافتقار ألاّ يُستغنى بحرف العطف عن المعطوف ولا بالحروف المصدرية عن الفعل ولا بالموصول عن الصّلة، وعكس الافتقار في مصطلح النّحاة "الاستغناء" إذ إنّ «اللّفظ قد يستغني بنفسه عن غيره كاستغناء الفعل اللاّزم عن المفعول به»[2]. و من قواعد الاستغناء التي قد تجدها مبثوثة في كتب النّحو المتقدّمة هذه الأمثلة وما عداها كثير:

- الفعل لابدّ له من فاعل، لأنّ الفعل والفاعل بمنزلة الشيء الواحد[3].

- افتقار المبتدأ إلى الخبر[4].

-الجار يفتقر إلى ما يتعلّق به لأنّ «حروف الجرّ لابدّ لها من شيء تتعلّق به»[5].

-افتقار الصفة إلى الموصوف[6]، إذ لا يجوز «الفصل بين الصفة والموصوف لأنهما كشيء واحد بخلاف المعطوف والمعطوف عليه»[7].

-افتقار المحذوف إلى دليل الحذف[8].

-افتقار حروف العطف إلى معطوف والجر إلى المجرور وحروف الاستثناء إلى مستثنى[9].

---

1 الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو والصرف– على هامش: حاشية الصبان على شرح العلامة الأشموني– مصر– مطبعة السعادة– 1343هـ – ج01– ص 50.

2 تمام حسان: الخلاصة النحوية – ص 80.

3 ابن الأنباري: الإنصاف – ج01– ص 79،80. وتمام حسان: الخلاصة – ص 80. وكتابه:الأصول، دراسة ابتستيمولوجية للفكر اللّغوي عند العرب، النّحو.الفقه.البلاغة– الهيئة المصرية العامّة للكتاب– 1982م– ص 225.

4 ابن الأنباري: السابق – ج01– ص245.

5 المصدر نفسه – ج01– ص246.

6 ينظر: شرح الأشموني – ج01– ص 50.

7 جلال الدّين السيوطي: الأشباه والنظائر في النّحو – اعتنى به:محمد فاضلي– الجزائر– أبحاث للنشر والتوزيع– ط01– 2007م– ج01– 649.

8 تمام حسان: الأصول – ص 225. وكتابه: الخلاصة النحوية – ص 80.

9 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 154.

-افتقار المضاف إلى المضاف إليه[1].

- افتقار الأسماء الموصولة إلى جملة الصّلة فالموصول ما لا يتمّ حتّى تصله بما بكلام عده تام..والموصول وحده اسم ناقص[2].

-افتقار جملة الصلة والنّعت والحال والخبر إلى ضمير يعود إلى مرجع مذكور أو متصيّد أو مدلول عليه في السياق[3].

-افتقار فعل التّعجّب إلى اسم نكرة فـ « (أفعل) إذا كان اسما لا ينصب إلاّ النّكرات خاصّة على التّمييز نحو قولك: زيد أكبر منك سنّا»[4].

-أسماء ليست ظروفا تفتقر إلى الإضافة فيما بعدها وهي على ضربين لازمة وغير لازمة[5].

-افتقار الاسم إلى الجملة كالحرف كما في : إذ وإذا وحيث[6].

-تطلّب (كلا وكلتا) مضافا إليه[7].

-افتقار المبهمات إلى ما يخصّصها[8].

التّضـــامّ السّلبيّ :

إلى هنا نكون قد استعرضنا أهمّ العناصر التّركيبية لظاهرة التّضام في صورها الإيجابية مكتفين بعنصرين؛ الاختصاص والافتقار، على أن تكون لنا وقفة مع التّوارد في مبحث على حده، وقبل ذلك يلزمنا أن نشير إلى الصّورة المقابلة للاختصاص والافتقار، أيّ الصّورة السّلبيّة للتّضام

---

1 ابن هشام:أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – ج01 – ص 61.

2 ابن يعيش: شرح المفصّل- ج01- ص 150.

3 تمام حسان : الخلاصة النحوية – ص 80 .

4 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف – ج01 – ص 132.

5 ابن يعيش: السّابق - ج02- ص 128،128.

6 ينظر:شرح الأشموني على ألفية ابن مالك – ص ج01- ص 50.

7 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 218.

8 عبد القاهر الجرجاني: المقتصد في شرح الإيضاح – مج02 - ص 729.

كالتّنافي والتّنافر. وما دمنا سابقا اكتفينا بذكر العناصر التّركيبية التي يجسّدها الاختصاص والافتقار فإنّنا كذلك نكتفي بإيراد مفهوم التّنافي الذي يُعدّ من ظواهر استعمال العناصر التّركيبية.

إنّ موضوع التّضام في النّحو لا يخلو من أمرين؛ إمّا أن يستلزم أحد العنصرين النّحويين عنصرا آخر، وحينئذ يُسمّى هذا النوع منه"التّلازم"، وإمّا أن يتنافى معه وحينئذ يُسمى "التنافي" وبالتّالي فالتّلازم عكس التّنافي، وإنْ أُدخِل تحته باعتباره قسيما له. وهو :"قرينة لفظية سلبية يمكن بواسطتها أن نستبعد من المعنى أحد المتضايفين عند وجود الآخر، فإذا وجدنا (أل) استبعدنا معنى الإضافة المحضة"[1]، وقواعد هذا عند النّحاة:«قواعد سلبيّة لا تخلو من (لا) النافية كقولهم:لا يدخل الحرف على الحرف»[2]، ومن شواهد هذا في الدّرس النّحوي هذه الأمثلة:

- لا تجتمع علامتا تأنيث في كلمة واحدة، فالأصل في جمع مسلمة وصالحة: مسلمتات وصالحتات؛ إلاّ أنّ واحدة من التّاءين تدلّ على ما تدلّ عليه الأخرى من التّأنيث، وتقوم مقامها فلم يجمعوا بينهما، وحَذْفُ التّاء الأُولى أَوْلى لأنّ في الثّانية زيادة معنى[3]، وقالوا: مسلمات وصالحات.

- لا تجتمع أداة النّداء مع الاسم المعرّف بـــ (أل) إلاّ في وجود أيّها أو أيّتها[4].

- استبعاد معنى الإضافة في وجود (أل) التعريف، كما لا يجمع بين التنوين والإضافة بقسميها[5].

- في وجود كلا وكلتا نستبعد فيما أُضيف إليهما أن يكون اسما مفردا أو جمعا أو نكرة، وهذا معنى قول ابن مالك:

لمفهمِ اثنين معرّف بلا تفرُّقٍ أُضيفَ كلتا وكلا

---

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 221.

2 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 155.

3 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف – ج01- ص 20 و ص 43.

4 ابن يعيش: شرح المفصّل – ج02- ص 08.

5 تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها –ص 221.

إذ لابدّ من إضافة كلتا وكلا إلى ضمير يطابق المؤكّد، ومنه قول ابن عقيل:« ومن الأسماء الملازمة للإضافة لفظا ومعنى كلتا وكلا، ولا يضافان إلاّ إلى معرفة مثنى لفظا أو معنى»[1].

- لا يدخل حرف الجرّ على الجمل المحكيّة أ والأفعال أو الضّمائر[2].

- لا وجود لخبر للمبتدأ في وجود لولا[3].

- لا يجمع بين العوض والمعوَّض[4]، وفيه شاهد أورده ابن الأنباري للعبّاس بن مرداس[5]:

أبا خراشة أمّا أنتَ ذا نفرٍ فإنّ قومي لم تأكلهم الضّبُعُ

والتّقدير فيه: أنْ كنت ذا نفر، فحذف الفعل وزاد(ما) على (أن) عِوضا عن الفعل والذي يدلّ على أنّهما عوض عن الفعل أنّه لا يجوز ذكر الفعل معهما لئلاّ يجمع بين العوض والمعوّض.

-الحرف لا يتعلّق بالحرف[6].

- لا يدخل العامل العامل[7].

- لا يجتمع ساكنان[8].

- لا يوصف الضّمير ولا يضاف[9].

---

1 شرح ابن عقيل- تحقيق: محمد محي الدّين – ج2- ص90 و ص192. وينظر: شرح الأشموني – ج01- ص 196.

2 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف – ج02- ص 570.

3 تمام حسان:البيان في روائع القرآن – ص 221.

4 تمام حسان: الأصول – ص 227.

5 ينظر الدّيوان – جمع وتحقيق: يحي العبدوري- بغداد- نشر مديرية الثّقافة- د ط- 1968م- ص 128. وينظر:الإنصاف في مسائل الخلاف: ابن الأنباري –ج 01- ص 71.

6 ابن الأنباري: السّابق – ج01- ص 280 .

7المصدر نفسه – ج01- ص 48.

8 تمام حسان : الأصول – ص 227.

9 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 155.

- لا يجمع بين علامتي تعريف[1].

- لا يعطف الاسم على الفعل[2].

- لا يجتمع الضّدّان كالتّنوين والإضافة[3].

- ألاّ تتوالى في الأصل أربع حركات[4].

- لا تعمل عوامل الأسماء في الأفعال ولا عوامل الأفعال في الأسماء[5].

- لا يقع الإعراب على أحرف المعاني[6].

- لا يؤكّد الظّاهر بالمضمر[7].

- لا تجرُّ (حتى)إلاّ ما كان آخرا أو متّصلا بالآخر[8].

نحو قوله تعالى:﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾[9] ، كمثال على ما كان متّصلا بالآخر، أمّا ما ما كان آخرا فنحو: أكلت السّمكة حتّى رأسِها، وفي هذا يقول ابن مالك[10]:

للانتها حتّى ولامٌ وإلى ومِن وباءٌ يفهمان بـــدلا

---

1 المرجع السابق – ج01 – ص 343.
2 تمام حسان: الأصول – ص 227.
3 المرجع نفسه – ص 228.
4 المرجع نفسه – ص 228.
5 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف – ج01 – ص 195،196.
6 المصدر نفسه – ج01 – ص 167.
7 تمام حسان: السّابق – ص 228.
8 شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك– تحقيق:محمّد محي الدّين – ج02– ص 192.
9 سورة القارعة – الآية 05.
10 شرح ابن عقيل – ج02 – ص 192.

وقد أجاز بعضهم: أكلتُ السّمكة حتّى رأسَها، أيّ ورأسها. وقولك: رأسُها، أي ورأسُها مأكول، ونحو قول جرير[1]:

فمازالت القتلى تمجُّ دماءها بدجلةَ حتّى ماءُ دجلة أشكلُ

وفي كلّ هذه الحالات تفيد أنّ ما بعدها غاية ونهاية.

4. التّضام والتّوارد والمصاحبة اللّغوية:

01. التّوارد والتّضامّ:

التّوارد في اللغة من ورد يرد، جاء في لسان العرب: «ورد فلان وروداً بمعنى حضر، وورد الماء و ورد عليه أشرف»[2]، أمّا اصطلاحا فهو: « اتّفاق شاعرين على معنى واحد يريدانه جميعـــا بلفظ واحد من غير أخذ ولا سماع»[3]، أوأن يقول شاعر بيتا فيقوله آخر من غير أن يسمعه[4]، وقد يعني توارد الخواطر والأذهان[5].

بيد أنّ التّوارد الذي نبحثه في هذا الموضوع بخلاف هذه التّعاريف والمفاهيم، إذ لا يعـــدو ما اصطلح عليه تمّام حسّان المرادف للتّضام من النّاحية البلاغية والمعجميّة.

إنّ دراسة المعنى المعجميّ تتعدّد وتتراوح بين عدّة قضايا وأبواب منها ما يُعرف بالحقول المعجمية ومنها التّرادف والتّضاد والمشترك اللّفظيّ، والتّوارد، ثمّ إنّ بعض الوحـــدات المعجميّـــة تنتظم مع بعضها الآخر بغرض تكوين عبارة إذا ما كانت: « مشحونة بسمات دلالية وسمـــات

---

1 تموج: تمور ؛ الأشكل: متغيّر اللّون. ينظر :الدّيوان- بيروت- دار صادر- دط-1398هـ/ 1978م – ص 367. وينظر: كتاب الجمل في النحو: عبد القاهر الجرجاني – ص 86.

2 ابن منظور: لسان العرب – مج03- ص 558. 561.

3 أحمد مطلوب: معجم مصطلحات النّقد العربي القديم- لبنان- مكتبة ناشرون- ط01- 2001م – ص 192.

4 أسامة بن منقذ (ت584هـ): البديع في البديع في نقد الشّعر – حقّقه وقدّم له: عبد آ. علي مهنـــاّ- بـــيروت- دار الكتب العلمية- ط01-1407هـ/1987م- ص 217.

5 القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت366هـ) :الوساطة بين المتنبّي وخصومه- تحقيق وشرح: محمّد أبـــو الفضـــل إبراهيم، علي محمد البجاوي- مطبعة عيسى بابي الحلبي – د ط – 1386هـ/ 1966م- ص 52.

صرفية و سمات نحويّة وقيود توارد»[1]، وما يعنينا من تلك الأبواب وهذه العناصر كلّها مبحــث التّوارد.

لقد سبق أن أشرنا إلى الصّورة الإيجابية لقرينة التّضام من جانبي الاختصاص والافتقار وإلى الصّورة السلبية لها من جانب التّنافي، وأرجأنا الحديث عن التّوارد والتنافر باعتبار أنّ الاختصاص والافتقار والتّنافي من ظواهر استعمال العناصر التّركيبية، وأنّ التّوارد من ظواهر استعمال العناصر المعجمية.

إنّ المقصود بالتّوارد هو : «أنّ بعض الكلمات يرد مع بعضها الآخر ولا يرد مع بعــض ثالث"[2] وهو:" نصيب العلاقات المعجمية في تحقيق الدّلالة النّحوية أو الإفادة من الجملة»[3] وأنّــه أحد المفاهيم التي تشكّل قرينة التّضام إلى جانب التلازم والتّنافي، والكلام على التّوارد يأتي مــن جهة الكلام في المناسبة المعجمية بين كلمة وأخرى دون ثالثة[4]؛ فمفردات المعجم تتوارد بعــض طوائفها مع بعض، وتتنافر مع أخرى، وقد أورد تمّام حسان بعضا من هذه الأمثلة نخالها توضّــح هذا المقصود حيث يقول:«إنّ كلمة "جلالة" تتوارد بالإضافة مع كلمة واحدة هــي(المَلِــك) وأنّ كلمة الصّديق تتوارد بالوصفية مع كلمات مثل: الوفيّ والحميم، وأنّ كلمة دجلة تــرد بواســطة العطف مع كلمة الفرات، وأنّ كلمة الطّواف تتوارد مع كلمة (حول الكعبة)، كما أنّ السّــعي يكون بين الصّفا والمروة»[5]، ومع ذلك لم يجعل التّوارد صالحاً أن يكون قرينة نحوية[6] وإنْ كان ذا ذا نفع عظيم في دراسة الأساليب الاستعمالية والتركيبية البلاغية؛ لأنّ التّوارد متى قُصد به الطّرق الممكنة في رصف جملة ما واختلفت طريقة منها عن الأخرى تقديما وتأخيرا وفصلا ووصلا فإنّــه

---

1 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربية– ص 112.

2 تمام حسان : الأصول – ص 336.

3 تمام حسّان: اجتهادات لغوية– القاهرة– عالم الكتب– 2007م– ص 65. وتمّام حسان: إعادة وصــف اللغــة العربيــة ألسنيا– مجلّة اللسانيات في اللغة العربية– جامعة تونس– 1987م – ص 162. أخذا عن: اسماعيل غازي اسماعيل دويدار: قرينة التضام في القرآن الكريم، مخطوط رسالة ماجيستير– جامعة القاهرة–كلية دار العلوم– 1425هـ/2004م – ص 03.

4 تمام حسان:اللّغة والنقد الأدبي– مجلّة فصول– ص 126.

5 المرجع نفسه – ص 336.

6 تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 222.

أقرب إلى اهتمام التّراكيب البلاغية الجمالية منه إلى العلاقات النّحوية والقرائن اللّفظية[1]، بخـــلاف التّلازم الذي يُعدّ الوجه الثّاني لقرينة التّضام اللّفظية في جانبها النّحوي.

وعلى الرّغم من أنّ تمّام حسّان قد أفاد من أصحاب النّظرية التّحويلية في فهم معناه حيث أشار في أحد أبحاثه إلى هذا الأمر فقال:« أفدت في عرض فكرة التّوارد من أفكار أصحاب النّحو التّوليدي»[2]؛ إلاّ أنّه يبقى صاحب الفضل في اصطلاحه في الدّرس النحوي، إذ كثيرا ما نراه يتردّد في أبحاثه ودراساته.

إنّ التّـــــوارد قد يستعمـــــل في اصطلاح النّحاة بمعنى"الاجتمـــاع"[3]، ومـــن ذلـــك استدلالهم على عدم توارد الواو مع الفاعل – أي عدم اجتماعهما– في نحو:جاؤوا الأولاد، لأنّـــه لا يمكن توارد فاعلين للفعل نفسه، ولأنّ الواو هنا ضمير بمعنى أنّها اسم، بخلاف مذهب المازني[4] الذي يرى أنّها علامة أي أنّها حرف.

02. التّوارد والمصاحبة اللّغوية:

إنّ للتّوارد – بغضّ النّظر عن هذه الاستعمالات – تداخلا مع استعمالات أخرى لـــدى بعض الباحثين، فمنهم من يصطلح عليه اسم "المصاحبة اللّغوية" التي تشير إلى« القرينة التي يمكن من خلالها انتظام الكلمات معا، وإلى القيود المستعملة لبيان كيفية تضام الكلمات معـــا، مثـــل حروف الجرّ ومعمولها »[5]، هنا نلاحظ كيف أنّه انتقل بنا من استعماله المصاحبة اللّفظية إلـــى القيود إلى التّضام، بعد أن ترجم المفردة الإنجليزية collocation بالمصاحبة اللّغوية[6]، التي تشمل

1 المرجع السّابق ص 216.وينظر كتابه:مقالات في اللّغة والأدب– عالم الكتب– ط1–1427هـ/ 2006م– ص 135.

2 من خلال مقال لتمّام حسّان ضمن كتابه: اجتهادات لغوية – ص 61 – وينظر: قرينة التّضام في القرآن الكريم : اسماعيل غازي اسماعيل دويدار ص 229.

3 ابن يعيش: شرح المفصّل – ج03– ص 87.

4 عبد القادر الفاسي الفهري: اللّسانيات و اللغة العربية، نماذج تركيبية – بيروت– منشورات عويدات– ط01– 1986م– ص 334.

5صبحي إبراهيم الفقّي: علم اللّغة النّصّي بين النّظرية والتّطبيق، دراسة تطبيقية على السّور المكّية– القاهرة–دار قباء– ط01–1421هـ/2000م. ج01– ص41.

6 المرجع نفسه –ج01 ــ ص 42.في حين يترجم تمّام حسّان هذه المفردة بالتّضام .

عنده العناصر المعجمية السّابقة: التّرادف والتّضاد، وعلى هذا الأساس فإنّ المصاحبات اللّغوية بين أجزاء الجملة الواحدة أو أجزاء النّص هي نوع من الاتّساق المعجمي[1]، وبالتّالي فمعنى المصاحبة المعجمية الذي يعني: « توارد زوج من الكلمات بالفعل أو القوّة نظرا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك »[2] يُظهِرُ لنا جليّا مدى التّداخل بين المصطلحين، فكلا الاستعمالين يعني المفهوم نفسه.

5. مظاهره ومتعلّقاته:

تبيّن أنّ التّضام تتقاسمه ثلاثة مفاهيم: تلازم العنصرين النّحويين أو تنافيهما أو تواردهما إلاّ أنّ هذا الاستعمال الأصلي المتمثّل في الالتزام قد يعدل إلى استعمال آخر يخالف القياس النّحوي يُصطلح عليه الاستعمال العدولي[3]، وهذا الاستعمال العدولي يُمثّل له في نطاق كلّ قرينة على حده؛ منها الحذف والفصل والاعتراض، والإحالة، والمفارقة.

- الحذف: ويكون لأحد المتلازمين[4]، حذف أحد ركني الجملة،إذ لا يستغني أحدهما عن الآخر أو حذف ما يتطلّبه التّركيب نحو:حذف الرّابط أو المفعول أو الصفة أو الموصوف.
- الفصل: كذلك بين المتلازمين أو ما يتطلّب التّركيب وصله من العناصر اللّغوية.

فالأوّل نحو: إنّ في السّويداء رجالا، والثّاني كحذف حرف العطف بين الجمل[5].

- الاعتراض: إذا كان الفصل يتمّ بواسطة العنصر المفرد أو حذف ما يربط الجملتين فإنّ

1 المرجع السّابق–ج01– ص42. و محمّد الخطّابي: لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب – 1988م– ص 237. وينظر: مقالات في اللّغة والأدب: تمام حسّان – ص 138.

2 صبحي إبراهيم الفقّي: علم اللّغة النّصّي بين النّظرية والتّطبيق، دراسة تطبيقية على السّور المكّية –ج01– ص42.

3 يعرّف تمام حسان الاستعمال العدولي بأنّه خلاف الأصلي وهو الاستعمال الفني المقصود من حيث هو تصرّف أدبي يخالف القياس النحوي، ومعنى ذلك أنّ الاستعمال الأصلي التزام والاستعمال العدولي حرّية– ينظر: مقاله: اللّغة والنّقد الأدبي– مجلّة فصول– مج04– ص 122.

4 المرجع نفسه – ص 123.

5 المرجع نفسه .

الاعتراض يتمّ بواسطة الجملة لا المفرد[1].

- الإحالة[2]: فرع على التّنافي النّحوي او المعجمي، فمن الإحالة النّحوي دخول حرف الجرّ على الفعل أو حرف الجزم على الاسم، ومنها تشويش رتبة عناصر الجملة، نحو: زيد على جلس الكرسيّ، أمّا الإحالة المعجمية فأن يصحّ بناء الجملة ويفسد معناها نحو:جلس الكرسي على زيد.

- المفارقة:فرع على التّوارد، والكلام فيها يأتي من جهة الكلام في المناسبة المعجمية[3].

علاقات التّضام: co-occurance relation

إنّ علاقات التّضام علاقات داخلية موجودة بين عناصر من داخل نمط معيّن[4] ، وإنّ مجموعة من العلاقات التي تنتمي إلى أقسام مختلفة من أقسام الكلام قد يسمح أو يتطلّب تواجد كلمة من قسم آخر لكي يكون الجميع جملة أو جزء معيّنا من جملة، هذا ما يقصده روبنز[5] بعلاقات التّضام التي جعلها تشكل مع علاقات التّرتيب ما يُسمّى العلاقات السانتاجمتية في مقابل العلاقات البرادجمتية، وسنخصّص الحديث عن علاقات التّضام من بين مجموع هذه العلاقات تاركين تفصيلها إلى المباحث الموالية.

تؤدّي علاقات التّضام دورا رئيسا في تحديد أقسام الكلام، ففي عبارة «إنّ النّسيم يداعب الأشجار الوارفة» نلحظ أنّ « كلّ قسم من أقسامها لابدّ أن يكون رابطا طالما أنّه يتضام ويتعلّق بما يسبقه أو يتلوه من الكلمات بأحد صور التّعلّق سواء بالتّضام المباشر أو بالتّضام في وجود كلمات أخرى »[6]، فالمباشر قد يكون بالأدوات، وغيره قد يكون دون أدوات، و في هذا المثـــال

---

1 المرجع السّابق — ص 125.

2 المرجع نفسه — ص126.

3 المرجع نفسه — ص 126.

4 نلحظ أنّ المؤلف هنا استعمل لفظة"نمط" لأنّه يبغي من دراسته أن تكون دراسة بنيوية، لذلك نجد استعماله متكرّرا لهـــذه المصطلحات وغيرها.جلال شمس الدّين: الأنماط الشّكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراســـة بنيويـــة – الإســـكندرية – مؤسسة الثقافة الجامعية – د ط – 2005م – ج01- ص 435.

5 المرجع نفسه – ج01- ص 150.

6 المرجع نفسه – ج01- ص 143، وهنا نلاحظ تداخلا كبيرا في المصطلح فقد ترادف عند المصطلحان: التّعلّق والتّضام من جهة، والرّبط والتّرابط والتّضام من جهة أخرى في أكثر من موضع، ثمّ استعماله للأداة بدل الحرف مثلا.

نستطيع اعتبار كلمة(النسيم) رابطة، فقد ربطت كلمة النسيم الأداة (إنّ) بالفعل (يداعب) لأنّك تقول: إنّ النسيم، كما تقول: النسيم يداعب، أو تقول مباشرة: إنّ النّسيم يداعب، وبالمثل: النسيم يداعب/يداعب الأشجار. وبالمثل أيضا:يداعب الأشجار/الأشجار الوارفة. فإذا أدخلت الأداة (إنّ) تشكّل لك:إنّ النّسيم يداعب الأشجار الوارفة. فتكون عبارة على أحسن ما يكون الترابط، وقد لا تترابط كلمة ما مع ما يجاورها مباشرة، لكن قد تترابط معها بعد أن ينضمّ لهما كلمة ثالثة[1]، وبالتّالي فهذه العلاقة لا تعمل على ربط عنصر واحد بالعنصر الذي يليه فقط؛ بل قد تعمل مع علاقة الاستلزام على ربط أكثر من عنصر بعنصر آخر، لينتج في الأخير نمط أكبر حجما وكلام أطول استمرارا وتسلسلا، ومن العلاقات التي تعمل من خلال علاقات التّضام والتّرتيب: علاقات الاستلزام– التّطابق– عدم التّطابق– الاشتقاق[2]، على أنّ أهمّ هذه العلاقات علاقة الاستلزام، وهذه بعض صورها:

- سوف: لابدّ أن يأتي بعدها فعل مضارع أو الأداة (لا)، أي إنّ بينها وبين الفعل المضارع – أو الأداة – التّالي لها علاقة تضام وترتيب واستلزام.

- قد : لابدّ أن يأتي بعدها فعل ماض أو مضارع.

- من تلك الصّور والحالات ما يكون بين مجموعة من العناصر معا وعنصر آخر نحو:إذا جاء عليٌّ ذهبنا إلى المسرح.

- من العلاقات ما نجده في هذه السلسلة (على هذا النّحو) فالعنصر(النّحو) لا يتضام مجرورا مع العنصر(هذا) إلاّ في وجود العنصر(على)، وذلك لانعدام العلاقة الإعرابية، إذاً بين العنصرين(هذا النّحو) و(على) علاقة استلزام. والعنصر(هذا) لا يتضام مجرورا مع العنصر (النّحو) إلاّ في وجود العنصر(على) سابقا عليهما، وهذا يعني أنّ "علاقة الاستلزام تعمل داخل علاقتي التّضام والترتيب"[3] لذلك كانت فرعا عليهما، وهنا يظهر أمر آخر هو أنّ العلاقة بين

---

1 المرجع السابق– ج01– ص 143.
2 المرجع نفسه – ج01 – ص166 وما بعدها.
3 المرجع نفسه – ج01– ص 169.

الأداة(على) والإشارة (هذا) في هذه السلسلة علاقة ترابط[1]، في حين إنّ العلاقة بين (هذا) و(النّحو) ليست مباشرة إلاّ في وجود (على) سابقا لهما، فالعلاقة بين (هذا النحو) و (على) تشابك، فالتّشابك « ضرورة تضام أكثر من عنصرين معا بحيث يتكوّن لدينا نسق مغلق»[2]، وعلامة (+) في المثال الموالي هي التي تعبّر عن الأنماط المتشابكة:

[(على هذا) + (النّحو)] أو قولك: [(كان) + (الموضوع) + (مناسبا)]

القاعدة النحويّة والتضام:

المقصود بالقاعدة الأصلية في النّحو العربي « تلك القاعدة السّابقة على القيود والتّعريفات كقاعدة رفع الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ وتقدّم الفعل على الفاعل وتقدّم الموصول على صلته، وافتقار الحرف إلى مدخوله كقول النّحاة:"الأصل في الصّفة أن تصبح الموصوف" فالقرينـة هنـا قرينة تضام، ونحو: الأصل في المعارف ألاّ توصف، وأنّ حرف الخفض لا يدخل علـى حـرف الخفض »[3]، فهذه الأمثلة وغيرها هي نماذج من مجموعة من القواعد التي تدور حول ما تتحقّق به الإفادة من القرائن.

وممّا تتناوله هذه القواعد في كتب الخلاف وأصول النحـو تتنـاول أصـول القـرائن «كالإعراب والإعمال والبناء والرّتبة والتّقدم والتأخير والإفراد والتّركيب والافتقار والاستغناء والتّقدير والتّصرّف والتّغيير والتّأثير والتّضام والتّناقض والحذف والزيادة والوصل والفصل والتّوسّع والضّرائر والتّنقل والتّعلّق والإضمار والاختصاص والقوّة والضّعف »[4]، وهذه القواعد التّوجيهيـة في مجموعها تجمل في هذه الثّلاثة؛ القواعد الاستدلالية، القواعد المعنوية، القواعد المبنوية، ومرادنا تبيان قواعد التّضام التي نجدها ضمن القواعد المبنوية المنقسمة كذلك إلى قسـمين؛ تحليليـة

---

1 المقصود بالتّرابط أنّ علاقة التّضام بين عنصر واحد وعنصر تال هي علاقة دون حاجة إلى تضام عنصر ثالث معهما.المرجع السّابق – ج01- ص 170.

2 المرجع نفسه – ج01- ص 171.

3 تمام حسان:الأصول – ص 131، 132.

4 المرجع نفسه – ص 209 ..211.

وتركيبة، وما التّضام إلاّ عنصر من عناصر القواعد التّركيبية[1]، لأنّه تركيب وبناء، ومثلما وقفنا على بعض النّماذج من قواعد الاختصاص والتنافي والافتقار لا بأس أن نقف على نماذج أخرى لقواعد التضام على سبيل المثال لا الحصر:

- الحرف لا تعلّق بالحرف.
- لا يجوز الفصل بين حرف الجزم والفعل باسم لم يعمل فيه ذلك الفعل.
- عوامل الأفعال لا تعمل في الأسماء وعوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال.
- قد تكون الحروف في موضع المبتدأ ولا تتعلّق بشيء، نحو: بحسبك درهم[2].

6. عوارض التّضـــام :

إنّ للتّضام عوارضَ تتمثّل في قسمين رئيسين هما الفصل والاعتراض.

أوّلا: الفصــــل: وهو نوعان؛ فصل نحويّ، وآخر بلاغيّ[3]، أمّا البلاغي فيكون بحذف حرف الرّبط الذي يربط جملة بأخرى، والفصل ينمُّ دائما عن موقف انفعالي قد يكون خوفا أوغضبا أو استعجالا أو استغرابا أو تعجّبا، وهو من المواقف الجديّة[4]، وله ما له من خصوصية المقام تجعله شيئا آخر غير مجرّد حذف حرف العطف، فهو وسيلة نحوية تختلف عن الفصل النّحوي، أمّا الفصل النّحوي فهو الفصل بين أجزاء الجملة المتلازمة أو المرتبطة برابط السّياق بعنصر من عناصر الجملة غير أجنبيّ عنها، فإذا كان بكلمة مفردة فهو فصل، وإذا كان بجملة فهو اعتراض، والنّحاة يكرهون الفصل بأجنبي في حين إنّهم يجيزون الاعتراض بجملة أجنبية لما لها من إفادة معنى جديد تضيفه إلى التّركيب[5]،ولما لها من استقلال في الفهم يحول دون نسبتها إلى مجرى

---

1 القواعد التّركيبية من بين مجموع ما سبق ذكره من القرائن: الأعمال – الاختصاص– الافتقار– الاستغناء– التغيير– التأثر– التّضام– الحذف– التنافي– الفصل . المرجع السّابق – ص210.

2 المرجع نفسه – ص 226.

3 تمّام حسّان : البيان في روائع القرآن – ص 175.

4 المرجع نفسه – ص 180.

5 نادية رمضان النّجار: أبحاث نحوية ولغوية – ص 180.

الكلام، وممّا يوصف بالمتلازمين[1] الأداة ودخولها، الفعل والفاعل، المضاف والمضاف إليه أو المتبوع وتابعه بصورة عامّة.

الفصل النّحوي:

- الفصل بين الفعل والفاعل والمفعول به:

إنّ العلاقة بين الفعل والفاعل شبيهة بعلاقة الجزء بالكلّ، فلا يجوز الفصل بينهما بأجنبي وأجاز النّحاة هذا النوع من الفصل إذا كان الفاصل غير أجنبي نحو قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2]، فُصل بين الفعل وفاعله لإفادة تقييد التّسبيح بالجار والمجرور، ثمّ بالفاعل بين الجار وصفاته لئلاّ تطول بين ركني الجملة بما ليس من أركانها[3]، وقد يفصل بالمفعول والظّرف والجار والمجرور بين الفعل والفاعل نحو: «حضر القاضي اليوم امرأة» بإسقاط علم التأنيث من الفعل لأنّ الفاصل سدّ مسدّ علم التأنيث بالاعتماد على دلالة الفاعل[4].

ومنه الفصل بالمفعول بين الفعل وفاعله نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾[5] لئلاّ يعود الضّمير على متأخر لفظا ورتبة، ثمّ فصل بين المفعول وصفته بالفاعل لئلاّ تطول الشُّقّة بين ركني الجملة بواسطة الفضلة[6].

---

1 ينظر: البيان في روائع القرآن – تمّام حسّان– ص 176، 177.

2 سورة الجمعة – الآية 01.

3 تمام حسّان: السّابق – ص 176.

4 ابن يعيش: شرح المفصّل – ج05 – ص91،92.

5 سورة الأنعام – الآية 158.

6 تمام حسان: السابق ص 178.

ومنه الفصل بين فعل الأمر (آتوني) ومفعول (قطرا) بجواب الأمر في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾[1] . وهذا الفصل لم يكن اعتراضا مع كونه مستوفيا للشّروط بسبب أنّه جملة أجنبية.

● الفصل بين التّابع والمتبوع:

أ‌- الموصوف وصفته: نحو قوله تعالى:﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، فصل بينهما (لفظ الجلالة) وفاطر بمبتدأ مؤخّر (شكّ)، لأنّ الفصل بالصّفة المركّبة من الإضافة بين الخبر المقدّم والمبتدأ المؤخّر ليصير الكلام:"أفي الله فاطر السماوات والأرض شكّ" هذا الفصل يضعف ما بين الخبر المقدّم والمبتدأ المؤخّر من رابطة ويجعل التّركيب قلقا[3]، ونحو قوله تعالى﴿ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾[4].

ب‌- بين المتعاطفين: نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[5]، أي كفى بالله ومن عنده علم الكتاب للشّهادة بيني وبينكم، ففصل بين التّمييز وما تعلّق به من ظرفية بين المتعاطفين[6]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[7]، ففصل بين المتعاطفين بالمفعول الثاني، ولا يقال فصل بين نائب الفاعل والمفعول الثاني لأنّ الفعل من أخوات (أعطى) ومفعولاها ليسا متلازمين، لأنّه ليس بينهما علاقة

---

1 سورة الكهف – الآية 96.
2 سورة إبراهيم – الآية 10.
3 تمام حسان : البيان في روائع القرآن – ص 179.
4 سورة سبأ – الآية 03.
5 سورة الرّعد – الآية 43.
6 تمام حسّان :السّابق – ص 176.
7 سورة هود – الآية 60.

إسناد ملحوظة كالتي بين مفعولي (ظنّ) ، ومنه الفصل في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾[1]، حيث كان تركيب الاستثناء فاصلا بين المعطوف وغايته، لأنّ للنّهي في هذه الآية غايتين تمثّلان على هذا النّحو:وأنتم سكارى حتّى تعلموا ما تقولون. ولا جنبا حتّى تغتسلوا، ومنه الفصل بالمصدر المنصوب على معنى الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾[2] لأنّ المصدر لو تقدّم فقيل: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وإحسانا بالوالدين؛ لظنّه السّامع معطوفا على"شيئا" أي: لا تشركوا به شيئا ولا تشركوا به إحسانا بالوالدين[3]. فبرّ الوالدين لا ينبغي أن يكون على حساب عبادة الله وحده.

ت– الفصل بين التّوكيد والمؤكّد، نحو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ ﴾[4].

●الفصل بين المتضايفين: إنّ من الفصل بين المتضايفين ما هو جائز في السّعة خلافا للبصريين في تخصيصهم ذلك بالشّعر مطلقا، فجائز في السّعة ثلاث مسائل:

أ– أن يكون المضاف مصدرا والمضاف إليه فاعله نحو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾[5]، وقول الشّاعر[6]:

1 سورة النّساء – الآية 43.

2 سورة النساء – الآية 36.

3 تمام حسان : البيان في روائع القرآن – ص 179.

4 سورة الأحزاب – الآية 51.

5 سورة الأنعام – الآية 137.

6 البيت لم يُسمّ قائله، رُوي عند: ابن هشام: أوضح المسالك ج03- ص 134. الأشموني: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك- ج02- 208. الصبّان: حاشية الصبّان على شرح الأشموني- ج02- ص 208. البغاث مفعول به منصوب بالمصدر(سوق)، ووجه الاستدلال أن (سوق) مضاف إلى (الأجادل) من قبيل إضافة المصدر إلى فاعله وهو جائز عند الكوفيين.

عتوا إذا أجبناهم إلى السّلمِ رأفةً فسقناهم سَوْقَ البغاثَ الأجادلِ

وقول الشّاعر[1]:

فزججتُها بمزجَّة زجّ القلوصِ أبي مزاده

وإمّا ظرفه كقول بعضهم: تركُ نفسَك وهواها سعيٌ لها في رداها[2].

ب- أن يكون المضاف وصفا والمضاف إليه مفعوله الأول والفاصل مفعوله الثاني: نحو قول الشّاعر[3]:

فَرِشْني بخير لا أكونَن ومِدْحتي كناحت يوما صخرةٍ بعسيل

وقول الآخر[4]:

ما زال يوقنُ مَن يؤمُّك بالغنى وسواكَ مانعٌ فضلَه المحتاجِ

ج- أن يكون الفاصل القسم:نحو:" هذا غلام والله زيد"، حكى ذلك الكسائي، وحكى أبو عبيدة:« أنّ الشّاة لتجترّ فتسمع والله صوت ربِّها»[5]، وما سوى ذلك فمختصّ بالشّعر، وقد جاءت المسائل ثلاثاً عند الصّبان والأشموني[6].

1 ابن يعيش: شرح المفصّل- ج03- ص 19.
2 المصدر نفسه – ج02 – ص 206.
3 البيت لم يُسمّ صاحبه. رشني: قوّني وأصْلِح حالي. العسيل:المكنسة. ووجه الاستدلال أنّ (ناحت) مضاف إلى (صخرة) من قبيل إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله، وهذا جائز في السّعة. ابن هشام: أوضح المسالك – ج03- ص 135.
4 لم يسمّ صاحبه . يؤمّك : يقصدك. مانع: خبر المبتدأ(سواك). فضلَه: مفعول به باسم الفاعل وهو مضاف. الهاء: مضاف إليه. المحتاج: مضاف إليه. وموضع الشّاهد أنّ(مانع) مضاف إلى (المحتاج) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله الأوّل، وقد فُصل بينهما بمفعوله. ينظر: المصدر نفسه – ج03- ص 136.
5 شرح الأشموني – ج02- ص 208.
6 حاشيته على شرح الأشموني- ج02- ص208.

وجاءت أربعاً عند ابن هشام[1]، ومهما يكن؛ فإنّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه قبيح لأنّهما:«كالشيء الواحد، فالمضاف إليه من تمام المضاف، يقوم مقام التنوين، فكما لا يحسن الفصل بين التنوين والمنوّن كذلك لا يحسن الفصل بينهما»[2].

- الفصل في أسلوب المدح والذّمّ:

يقول تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلاً﴾[3]، في الآية فصل بالمجرور بين الضّمير في (بئس)ومميّزه (بدلا)، والتّقدير: بئس بدلا للظّالمين ذرّية إبليس[4]. والمقصود بالذّم ذرّية إبليس وحُذف للدّلالة عليه.

- الفصل بين الفعلين والمتعجّب منه:

إنْ لم يتعلّق الفصل بهما فلا يجوز اتّفاقا الفصل بين المعمول وعامله الضّعيف الأجنبي، فلا يجوز: لقيته فما أحسن زيدا، على أن يتعلّق أمس بلقيت، وكذا إنْ تعلّق بهما وكان غير ظرف نحو:ما أحسن قائما زيدا، وذلك لأنّه نوع تصرُّف في عَلَم التّعجّب، وأمّا بالظّرف فمنعه الأخفش والمبرّد وأجازه الفرّاء والجرمي وأبو علي والمازني، نحو: ما أحسن بالرّجل أن يصدق، أحسِن اليومَ بزيدٍ. ويجوّز المبرّد:ما أقبح بالرّجل أن يفعل كذا[5].

---

1 لأنّ كثيرا من النحويين زعم أنّه لا يفصل بين المتضايفين إلاّ في الشعر، والحقّ أنّ مسائل الفصل سبع: منها ثلاثة جائزة في السعة، مرّت معنا، والأربعة الباقية تختصّ بالشعر: الفصل بالأجنبي- الفصل بفاعل المضاف- الفصل بنعت المضاف- الفصل بالنّداء. ينظر: أوضح المسالك –ج03- ص 135،136.

2 ابن يعيش: شرح المفصّل – ج03- ص 19.

3 سورة الكهف – الآية50.

4 البيان في إعراب غريب القرآن: ابن الأنباري-ج2- ص112. أخذا عن: نادية النجار: أبحاث نحوية ولغوية – ص 33.

5 أبو العبّاس المبرّد (ت285هـ): كتاب المقتضب – تحقيق: محمّد عبد الخالق عضيمة- القاهرة- 1399هـ/1979م- ج04- ص 178.

●الفصل بين كم ومميّزها:

يجوز الفصل بين كم ومميّزها بالظّرف وحروف الجرّ جوازا حسنا من غير قبح نحو: كم لك غلاما، وكم عندك جاريةً، ولا يحسن ذلك فيما كان معناه من الأعداد نحو: عشرين وثلاثين ونحوهما من الأعداد المنوّنة، والفصل بينهما إن كانت كم مستحقّة للتمكّن في الأصل بحكم الاسمية ثمّ منعته بما أوجب البناء لها فصار الفصل.

وإنّ من الشّواهد على اختلاف الإعراب بعد الفصل أيكون منصوبا أم مجرورا قول القطامي[1]: **كم نالني منهم فضلاً على عدمٍ   إذ لا أكادُ من الإقتار أحتملُ**

فلمّا فصل بـــ (فضل) عدل إلى لغة من ينصب لقبح الفصل بين الجار والمجرور[2]، والتّقدير في هذا البيت: كم فضلٍ، إلاّ أنّهما لمّا فُصل بينهما بـــ (نالني منهم) نُصب (فضلا) فرارا من الجار والمجرور[3]، وسيبويه لا يوجز ذلك إلاّ في ضرورة شعر، حيث يقول:« وإن شاء رفع فجعل (كم) المرارَ التي ناله فيها الفضل فارتفع بـــ (نالني) فصار كقولك: كم قد أتاني زيد، فزيد فاعل، وكم مفعول فيها، وهي المرار التي أتاه فيها»[4].

وإذا كان الفصل في هذه النّماذج وغيرها جائزًا عند النّحاة؛ فإنّ الفصل في مواطن أخرى غير جائز، ومن هذه النماذج والأمثلة ما يلي:

- عدم الفصل بين (لا) ومدخولها الفعل المضارع، نحو قول لبيد بن ربيعة [5].

ولقد علمت لتأتينّ منيّتي   إنّ المنايا لا تطيشُ سهامها

- عدم جواز الفصل بين الفعل والعامل فيه باسم.

---

1 ديوانه – ص 30. أخذا عن: المعجم المفصّل في شواهد اللّغة العربية: إميل بديع يعقوب- لبنان- دار الكتب العلمية- ط01-1417هـــ/ 1996م- مج 06- ص 274.

2 ابن يعيش : شرح المفصّل – ج04- ص 129، 131.

3 ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف – ج01- ص 306.

4 الكتاب –ج02 – ص 165.

5 رواية البيت في المعلّقة: صادفن منها غرّة فأصبنها. ينظر الدّيوان- بيروت – دار صادر – دط – دت – ص 171.

– لا يجوز أن تفصل بين الاسم وبين إنّ وأخواتها بفعل.

– لا يجوز أن تقول: لم زيدٌ يأتِك[1].

– لا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف لأنهما كشيء واحد بخلاف المعطوف والمعطوف عليه[2].

ثانيـــا: الاعتـــراض:

إنّ ما سبق الكلام عنه في عوارض التّضام لم يخرج عن دائرة الفصل النّحوي الذي قوامه الفصل بين المتلازمين بفاصل هو دون الجملة، أمّا إذا كان الفصل بالجملة، وكانت هذه الجملة أجنبية ولا محلّ لها من الإعراب وكانت مستقلّة بمعناها وإفادتها فإنّ هذا النّوع من الفصل يُسمّى الاعتراض، فالاعتراض أن « يأتي في أثناء الكلام كلام أو بين كلامين متلازمين معنى بجملة أوأكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكتة سوى رفع الإبهام»[3]، والجملة المعترضة التي تتوسط بين أجزاء الجملة المستقلّة لتقرير معنى يتعلّق بها أو بأحد أجزائها مثل: زيد طال عمره قائم[4]، وقد جوّز النّحاة الفصل بها لما لها من استقلال في الفهم يحول دون نسبتها إلى مجرى الكلام، لأنّ الجملة المعترضة في كلّ أحوالها تعبر عن خاطر طارئ من دعاء أو قسم أو قيد بشرط أو نفي أو نهي أو تنبيه، وهو جار عند العرب مجرى التّأكيد، فلذلك لا يشنع عليهم، ولا يُستنكَر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره[5]، فالمقصود بالاعتراض:« اعتراض مجرى النّمط التّركيبي بما يحول دون اتّصال عناصر الجملة بعضها ببعض اتّصالا تتحقّق به مطالب التّضام النّحوي فيما بينها»[6] ومن الأمثلة على هذا الاعتراض ما يلي:

---

1 ينظر: الكتاب: سيبويه – ج03- ص 110.

2 جلال الدّين السّيوطي: الأشباه والنّظائر في النحو – ج01 -649.

3 السّيد الشريف الجرجاني(ت816هـ): التعريفات – وضع حواشيه:باسل عيون السّود- بيروت–دار الكتب العلمية-ط02-1424هـ/2003م- ص34.

4 المصدر نفسه – ص 83.

5 أبو الفتح عثمان بن جنّي: الخصائص – حقّقه: محمّد عليّ النّجار- بيروت- عالم الكتب- ط01-1427هـ/2006م- ص 267.

6 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن – ص 184.

- الاعتراض بجملة الشرط المحذوفة الجواب لتعظيم هذا القسم وتفخيمه ثم لبيان جهلهم لهذه الحقيقة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1]، وهنا اعتراضان:

أ- بين فعل القسم (لا أقسم) وجوابه (إنّه لقرآن كريم) بجملة : إنّه لقسم لو تعلمون عظيم.

ب- بين قسم الموصوف و (عظيم) صفته بجملة الشرط (لو تعلمون).

- الاعتراض في النّداء: نحو قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾[2]، ليكون التّهديد بالإخراج أكثر توجّها إلى شعيب عليه السلام، وإن شاركه أتباعه في تلقّي التّهديد.

- الاعتراض لإعلان التّوحيد والتّتريه في نحو قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3].

إنّ من عـــوارض التّضـــام ما يلاحـــظ في بعض الجمل التي لا تحتاج إلى عاطف يعطفها عليها، فكما لا يجوز أن تضمّ التّوكيد على مؤكّد بضامّ كذلك لا يجوز أن تضمّ الجملة المترلة من التي قبلها مترلة التّوكيد بعاطف لأنّها تتصّل بها اتّصالا داخليا وهو أقوى من الاتّصال الخارجي لأنّ:«التّوكيد هو عين المؤكّد والصفة عين الموصوف»[4]، والواو لا تقع بين الشّيء ونفسه، وإنّما تقع بين متغايريْن متناسبين، كما تقول: لقيت فلانا نفسه، فلا تدخل الواو بين التّوكيد والمؤكّد.

إنّ ما يقع في حيّز القول في ظاهرة التّضام الشّيء الكثير، فإلى جانب الفصل والاعتراض هناك جوانب أخرى نحو الحذف والزيادة وإدخال اللّفظ على غير مدخوله، والتّضمين، واستغناء

1 سورة الواقعة – الآية 76. ينظر: تخريجها عند: ابن جنّي: السابق – ص 267.

2 سورة الأعراف –الآية 88.

3 سورة الأنعام –الآية 106.

4 محمّد محمّد أبو موسى : دلالات التّراكيب، دراسة بلاغية – القاهرة– مكتبة وهبة – ط02– 1408هـ/1987م– ص 293، 294.

أحد العنصرين عن الآخر والشّروط التّركيبية الضرورية لتأليف ألفاظ السّياق ممّا قد يخرجنا عن موضوع البحث بعيدا، وحسبنا ما جئنا به، لأنّ مظاهر عوارض التّضام متعدّدة وكثيرة لا تستطيع دراسة أو دراستان أن تحيط بها.

7. قرينة التّضام بين قرائن التّعليق النّحوي:

يُعدّ التّضام من أهمّ القرائن النّحوية التي تعرّض لها تمّام حسّان بالبحث والتفصيل، وإذا ما جئنا إلى الاصطلاح النّحوي بين مجموع تلك القرائن فإنّنا نجد تمام حسان نفسه يرجع بنا إلى موروثنا النّحوي ليكشف عن موقع هذه القرينة بين غيرها، إذ يقول:« ولقد حاولت في كتابي (اللّغة العربية معناها ومبناها) أن أكشف عن قيمة هذه الظّاهرة، ظاهرة التّضام في النّحو العربي فاتّضح لي أنّها واحدة من القرائن اللّفظية الدّالّة على المعنى النّحوي،شأنها في ذلك شأن العلامة الإعرابية، والمطابقة والرّبط بالضّمير أو بالحرف والرّتبة والأداة والنّغمة في الكلام المنطوق، ومن هنا كان منّي أن أعطيت هذه الظّاهرة لفظها الاصطلاحي(التضام) التي دللت بها عليها وقسّمتها إلى ثلاثة أقسام؛ التلازم، التّوارد والتّنافي»[1]، وليس أمر التّضام وحده هو المعروف في تراثنا النّحوي بهذا المفهوم، وإنّما يتّسع الأمر ليشمل هذه القرائن النّحوية، وهو ما يؤكّده عبد اللّطيف حماسة بقوله:« ينبغي أن نشير إلى أنّ نحاتنا – رحمهم الله- لم يغفلوا عمّا نسمّيه القرائن النّحوية، فلقد وُجدت لديهم مبثوثة في الأبواب النّحوية المختلفة موزّعة عند تعريف الأبواب المتعدّدة، وأحيانا توجد في صورة شروط خاصّة ما في أدائها لوظيفة نحوية خاصّة»[2]، يقول ابن مالك:

الحال وصف فضلةٌ منتصبُ   مفهمٌ في حال كفرداً أذهبُ[3]

إنّ تعريف ابن مالك :«يتضمّن عددا من القرائن الخاصّة لهذه الوظيفة النّحويـــة، فكـــون الحال (وصفا) تحديدٌ للصّيغة وهي قرينة لفظية، وكونه (فضلة) رتبة، لأنّ الفضلة رتبتها التّـــأخير

---

1 تمام حـــان: التّضام وقيود التوارد- مجلّة المناهل- العدد السادس- السّنة الثالثة- رجـــب 1396هـــــ/ يوليـــو1976م- ص 110، 111. أخذا عن: إسماعيل غازي اسماعيل دويدار: قرينة التّضام في القرآن الكريم- مخطوط رســالة ماجيســتير- القاهرة- كلّية دار العلوم- 1425هـــ/2004م – ص 07.

2 العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث – القاهرة – دار الفكر العربي- د ط- د ت – ص 112.

3 ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك- تحقيق محمّد محي الدين- ج02- ص 242.

وهي قرينة لفظية، وكونه (منتصب) علامة إعرابية وهي قرينة لفظية، وكونه (مفهما في حـــال) ملابسة وهي قرينة معنوية، وهكذا لو تتبّعنا بقيّة الأبواب النّحوية»[1]، إلاّ أنّ من حاول أن يسلك النّحو العربي في إطار القرائن النّحوية بحيث يمثّل نظرية متكاملة فتمّام حسّان عمر في كتابه "اللّغة العربية معناها ومبناها" وقد قسّم هذه القرائن إلى نوعين؛ قرائن معنوية(العلاقات السّياقية) وهـــي خمس، ولها فروع؛ فقرينة الإسناد وتشمل المسند والمسند إليه، وقرينة التخصيص وتشمل التّعديـــة والغائية والمعيّة والظّرفية والتأكيد والتّحديد والملابسة والإخراج والتّفسير، وقرينة النّسبة وتشـــمل معاني الحروف والإضافة، وقرينة التّبعية وتشمل النّعت والعطف والتّوكيـــد والإبـــدال، وقرينـــة المخالفة. أمّا اللفظية فهي: العلامة الإعرابية، الرّتبة، الصّيغة، والمطابقة، والرّبط، والتّضام، والأداة، والتّنغيم.

وهذه القرائن المعنوية واللّفظية يصطلح عليهما القرائن المقالية لأنّها تُعرف من المقـــال لا من المقام، وإنّ فهم الجملة متوقّف ضرورةً :« على فهم هذه القرائن ودورها في إحكـــام نســـيج الجملة»[2] لأنّ الجملة:« نسيج محكم متشابك، وهي تمثّل خليّة حيّة من جسم اللّغة...وكلا النّوعين من القرائن اللّفظية والمعنوية يتعانقان بحيث يتوقّف فهم إحداها على فهم الأخـــرى»[3]، فقرينـــة التّضام مع أهمّيتها الكبرى في نظم وتأليف عناصر الجملة وتحديد أركانها لا يمكن أن يُنسَب إليهـــا «الفضل وحدها في الدّلالة على المعنى النّحوي وهي بمعزل عـــن القـــرائن الأخـــرى في ســـياق الجملة»[4]، فليس لواحدة من هذه القرائن حقّ الاستقلال بمفردها في بيان المعنى النّحوي.

1 عبد اللّطيف حماسة: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث- 112.
2 المرجع نفسه 114.
3 المرجع نفسه – ص 111.
4 إسماعيل غازي اسماعيل دويدار: قرينة التّضام في القرآن الكريم – ص 13.

ثانيا: التّضامّ في الموروث النّحويّ:

1. أقسام الكلم:

إنّ الظّاهرة النّحوية بصفة عامّة يمكن تمثيلها في جزأين كـــبيرين؛ الأوّل منـــهما تجسّـــده الكلمات، والآخر يتمثّل في العلاقات، والمشكلة ليست في الوحدات نفســـها، وإنّمـــا في نظـــام تصنيفها الذي خالف فيه كثيرٌ من اللّغويين المعاصرين نحاتنا القدامى خلافا بعيدا[1]، فبعد أن استقر عند النّحاة في الموروث العربي أنّ الكَلِم ثلاثة أقسام؛ اسم وفعل وحرف، اُتّخِذت مناهج جديدة لدراسة اللغة، وأصبح ما يعرف بالمنهج الوصفيّ سائدا في الدّراسات الغربية والعربية علـــى حـــدّ سواء، وكان نتيجة ذلك أن كثُر الخلاف في مسائل نحويّة متعدّدة ترأسها قضيّة تقسيم الكلـــم في العربية حيث « قدّم هذا الدّرس الوصفي لأقسام الكلم مسلّمات متعدّدة؛ منها اعتمادهـــا علـــى المنطق والفلسفة، وعدم صلاحيتها للدرس اللّغوي الوصفي، وقيامها على ثمانية أقسام علـــى مـــا انتهت إليه لغويات الحضارة اللاتينية وساد القرون الوسطى، بعد أن كانت قد وصلت إلى عشرة أقسام على يد اليونانيين، وهذا ما انعكس في درسنا العربي المعاصر، وذلك في كتاب (اللّغة العربية معناها ومبناها) »[2]، وسنعرض بشكل مختصر أهمّ المحاولات لتقسيم الكلم في العربية.

إنّ معرفة نوع الكلمة يقود بالبحث إلى معرفة المعاني التي تتضمّنها الجملة في ضوء معرفـــة القرائن الأخرى[3]، وبالتّالي فمسألة التّفريق بين أقسام الكلم تعدّ أساسا في تعيين المعنى المقصود في الجملة.

إذا بدأنا تقسيم الكلم منذ القدم فإنّنا نستحضر دراسات أرسطو أوّلا وطريقـــة تناولـــه، والحقّ أنّ أرسطو لم يتناول الكلام تناولا مباشرا، ولم يعرض له في موضع واحد..لقد« تعـــرّض للاسم onoma في كتابه (العبارة)..ثمّ تحدّث عنها وعن أشياء أو شيء من بينها يُسمّى الرّابطة

---

1 محمد عبد العزيز عبد الدّايم: النّظريّة اللّغويّة في التّراث العربي- القاهرة- دار الســلام- ط 01- 1427هـــ/2006م- ص211.

2 المرجع نفسه- ص 112.

3 كريم حسين ناصح الخالدي: نظرية المعنى في الدّراسات النّحوية- الأردن- دار صفاء- ط 01- 1427هـــ/2006م- ص 179.

syndesmoi في البلاغة والشّعر، وهذا التّقسيم لم يستمر في الدّرس اليوناني»[1]، ولعلّ مردّ ذلك أنّ « أرسطو لم يدرس اللغة للغة، بل درس اللّغة للفكر، ولذلك فدراسته لبعض الظواهر اللغوية لم تكن إطلاقا ذات نية ولا علاقة بالبحوث اللغوية، بل كانت جزءًا من المنطق والفلسفة»[2]، فحديثه عن الرابطة مثلا لم يضف شيئا إلى ما كان يسمّيه النّحاة العربُ الحرفَ لدى البصـــريين أو الأداة لدى الكوفيين، وإذا ما سلّمنا أنّه تحدّث عن أقسام الكلم فلأنّها « ترتبط عنده بالقضـــية وكـــل قضية تتكوّن من اسم وفعل ورابط»[3]، أمّا الدرس العربي فقد ظهرت فيه آراء وتقسيمات أخـــرى وتأتي محاولة إبراهيم أنيس[4] «أوّل مقاربة تنقد أسس النّحو العربي ومنهجه نقدا يترع إلى الشمول بهدف أن يغيّر منهج البحث اللّغوي»[5]، حيث نادى هو وجماعة من المحدثين بضمّ علم المعاني إلى علم النّحو، ومن هؤلاء مهدي المخزومي، أحد تلامذته، الذي يعد أوّل من طبّق أفكار أســتاذه وتوسّع فيها، يقول: « دارسون آخرون سُمّوا بعلماء المعاني، وهم النّحاة الحقيقيون فيما أزعـــم، وهم الذين دفعوا بالدرس النحوي إلى أمام وقدّموا للدّارسين فيه نتائج طيّبة خليقة بـــأن يســـتفاد منها»[6]، وفيما يخصّ جانب تقسيم الكلم فإنّ مناهج الدراسة اختلفت حسب منهج كلّ واحد من المحدثين في تحديد المعايير المستعملة في التّفريق بين الكلمات، ومن هؤلاء المحدثين:

1–إبراهيم أنيس: حيث قسّم الكلم إلى أربعة أقسام، يقول: « وفّق المحدثون إلى تقسيم ربـــاعي أحسب أنّه أدقّ من تقسيم النّحاة الأقدمين، وقد بنوه على تلك الأسس الثلاثة التي أشرنا إليهـــا؛ الاسم، الضمير، الفعل، الأداة»[7].

---

1 عبده الرّاجحي: النّحو العربي والدّرس الحديث، بحث في المنهج– بيروت– دار النّهضة العربية– د ط– 1979م– ص 79.

2 عبد الجليل مرتاض: في رحاب اللّغة العربية– الجزائر– بن عكنون– ديـــوان المطبوعـــات الجامعيـــة–ط 01– 2004م– ص 16.

3 المرجع نفسه– ص 16.

4 ينظر كتابه: إحياء النّحو– ط 02– 1413هـ/ 1992م– القاهرة.

5 عبد الحميد السيد: دراسات في اللسانيات العربية، بنية الجملة العربية، التراكيب النحوية والتداولية، علـــم النحـــو وعلـــم المعاني– عمان– دار الحامد للنشر– ط01– 1424هـ/2004م– ص 183.

6 ينظر كتابه: النحو العربي، نقد وتوجيه– بيروت– دار الرائد العربي– ط02– 1406هـ/1986م.

7 عن هذه الأسس يقول:" من رأينا أنّه يجب أن تتخذ في تحديد أجزاء الكلام وتعريفها أســـا ثلاثة: المعنى، الصيغة، وظيفـــة اللفظ في الكلام" ينظر: من أسرار اللغة – القاهرة– مكتبة الأنجلو المصرية– ط07 – 1985م– ص 292– 294.

2-تمّام حسّان: وكانت بدايته الأولى مع كتاب"مناهج البحث في اللغة" حيث يقول:«إذا قسّمنا الكلمات العربية على هذه الأسس الخمسة المذكورة[1]، فسنجد أنّ هذه الأقسام التي تنتج من ذلك أربعة: الاسم، الفعل، الضمير، الأداة»[2]، إلاّ أنّه أعاد النّظر في هذا التقسيم بعد مـــدّة، وخـــرج بتقسيم آخر جعل فيه للكلم سبعة أقسام: الاسم، الصفة، الفعل، الضـــمير، الخالفـــة، الظـــرف والأداة[3].

3-محمّد صلاح الدّين مصطفى: قسّم الكلم إلى ســـتّة أقســـام؛ الاســـم، الفعـــل، الوصـــف الظرف،الضمير، الأداة[4].

4-فاضل مصطفى الساقي: وتعدّ آراؤه امتدادا لآراء أستاذه تمام حسان، حيث وضع كتابا قسّم في الكلم من حيث الشكل والوظيفة[5].

إنّ الملاحِظ في تقسيم تمام حسان مثلا يجد أنّه اعتمد على معايير معنوية وأخرى شكلية[6].

ونتيجة لهذا الاعتماد أصبحت أقسام الكلم سبعة بدلا من ثلاثة[7]، ونحاتنـــا القـــدامى لم يقدّموا تقسيما وحيدا للكلمة، وإنّما قدّموا اثنين، جاء كل واحد منهما بحسَب الغرض منه، قدّموا

---

1 هذه الأس الخمسة هي: الشكل الإملائي المكتوب، التوزيع الصرفي، الأسس السياقية، المعنى الأعم أو معنى الوظيفة، الوظيفة الاجتماعية. ينظر: مناهج البحث في اللغة – الدار البيضاء- دار الثقافة- د ط- 1407هـــ/1986م – ص229.

2 المرجع نفسه – ص 236، 237.

3 اللغة العربية معناها ومبناها – ص 90.

4 في كتابه: النّحو الوصفي في القرآن الكريم- القاهرة- مؤسسة علي جراح الصباح – د ط – دت – ص 36.

5 ينظر كتابه: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة- تقديم تمام حسان- القـــاهرة- مكتبـــة الخـــانجي- دط – 1497هـــ/1977م.

6 المعنوية هي: التسمية- الحدث- الزمن- التعليق- المعنى الجملي، أما الشكلية فهي: الصورة الإعرابية- الرتبـــة- الصـــيغة- الجدول- الإلصاق- التضام- الرسم الإملائي. ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها- ص 88.

7 ممّا يلاحَظ أنّ تقسيم تمام حسّان يقرب من التقسيم الفرنسي و الانجليزي ، فأقسام الكلم في الفرنســـية تســـعة؛ الاســـم- الضمير- أداة التعريف- الصفة- الفعل- الظرف- حرف الجر- أداة ربط الجمل- صيحة الهتاف(اسم الفعل)، وفي الانجليزيـــة ثمانية هي: الاسم –الضمير- الصفة- الفعل- الظرف- حرف الجر- حرف العطف- التعجب... فاللغات الثلاثة تشـــترك في خمسة أقسام: الاسم- الفعل – الصفة- الضمير- الظرف، وكذلك الفارسية لها تسعة أقسام، ينظر كتاب: مبادئ اللسانيات: أحمد محمّد قدّور- ص 174.

تصنيفا عاما يضمّ أقسام الكلمة الرّئيسة دون فروعها، وآخر تفصيليا ذكروا فيه ما لكل قسم من أقسام الكلمة الرّئيسة من أقسام فرعية كأقسام الاسم الفرعية التي تتمثـــل في الضّـــمير والصّـــفة والظّرف، وزادوا على ذلك فذكروا الأقسام الفرعية لكلّ قسم فرعي، كحديثهم عـــن المشـــتقّ العامل والمشتقّ غير العامل، وحديثهم عن أقسام الصّفة(المشتقّ العامل التي تتمثّل في اسم الفاعل، وصيغة المبالغة، الصّفة المشبّهة، وكأقسام الضّمير) وحسبنا أن ليس ثمّة قسم عرضه هذا التقســـيم الجديد لم يدركه النّحاة[1]، ولئن كتب مصطفى السّاقي كتابه مراعيا فيه الجانب الشّكلي والوظيفيّ لتقسيم الكلام فقد فاته أنّ العرب قد:«سلكوا منهجا تتآزر في الشّكلية والوظيفيـــة والدّلاليـــة»[2] وحُقّ للزجاجي أن يقول: « ليس ثمّة قسم رابع»[3]، لأنّ تقسيم نحاتنا القدامى يظهَر أنّه الأقـــرب لوظيفة اللغة.

ومهما تعدّدت وجهات الرّأي حول تقسيم الكلم، فإنّ هذا البحث منوط بـــأن يتنـــاول أقسام الكلم في ضوء قضية التّضام، وليس البحث في دقّة هذا التقسيم أو ذاك إذ الجدل فيه كـــثير والكتابات متضاربة قد يجمعها مفهوم واحد[4] أوضحه ابن السراج بقوله: «الاسم ما دلّ على معنى مفرد..والفعل ما دلّ على معنى ذالزمن..أمّا الحرف فلم يزيدوا على ما حدّه به سيبويه[5] شيئا مفيدا سوى اختلافهم في دلالته على المعنى إذ عدّوا ذلك ناقصا، لأنّ الفعل يدلّ على معـــنى والاسم كذلك لذا زادوا في غيره لأنّ الاسم والفعل جاء المعنى في أنفسهما، والحرف ليس كذلك لأنّه لا معنى له إلاّ باسم أو فعل ينضمّ إليه»[6]، وهذا الذي اطمأنّ إليه البحث في تقسيم الكلم على على أنّنا حين ننتقل إلى تطبيق قرينة التّضام على أقسام الكلم فسيدفعنا البحث دفعا إلى الاستعانة

---

1 ينظر: النظرية اللغوية في التراث العربي :محمد عبد العزيز عبد الدائم– ص 211، 212.

2 عبد الجليل مرتاض: في رحاب اللغة العربية – ص 17.

3 الإيضاح في علل النحو ص 42، أخذا عن: المرجع نفسه – ص 28.

4 كريم حسين ناصح الخالدي: نظرية المعنى في الدراسات النحوية– ص 179.

5 إذ يقول في باب: علم ما الكلم من العربية:" فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل..أمّا ما جاء لمعـــنى وليس باسم ولا فعل فنحو:ثمّ، وسوف، وواو القسم ولام الإضافة ونحوها". ينظر: الكتاب–– ج01– ص 12.

6 أبو بكر بن السـراج: الأصول في النحو– تحقيق: عبد الحسين الفتلي– بيروت– مؤسسة الرسالة– 1405هـــ/1985م– ج01– ص 36.

بتلك الأقسام كلّها متفقّين في ذلك آثار النّتائج التي خرج بها تمّام حسّان عند حديثه عن أقســام الكلم بين التّراث والحداثة، وقد أجملها في حدود الأنواع الآتية:

1- بواكير عربية نبتت في أرض التراث.

2- أفكار أجنبية حديثة وفي التراث ما يشبهها.

3- فهم عربي حديث يصحّح فهما قديما في التراث[1].

ففيما يخصّ الفرق بين التّقسيمين أنّ النظرة الحديثة كشفتّ عن عموم في مفهوم الاســم لدى النّحاة يشمل أقساما أخرى كالصّفات والضمائر والظروف، وأن الفعل اتّسع فشمل بعــض الخوالف والنواسخ، وأنّ مفهوم الأداة في الفهم الحديث يشمل الحروف والتّواسخ كمــا فهمهــا النّحاة، على الرّغم من أنّ الحرف والأداة عند نحاتنا القدامى يتّجه إلى معنى واحد يفيد في غــيره فكلاهما: « يحدّد بأنّه ما دلّ على معنى في غيره بتوظيفه داخل التّركيب اللّغوي واقترانه بعناصــر الجملة»[2]، فالقضية على الأقل في جانبها هذا قضية مصطلح[3]، فالبصريون يستعملون الحــرف، في حين إنّ الكوفيين يستعملون الأداة للتعبير عن بعض الأبواب النّحوية كأدوات الاستفهام والشرط مثلا.

2. التّضامّ في الأبواب النّحويّة:

إنّ للتّضام أثرا بالغ الأهمّيّة في انسجام العناصر النّحوية، إذ إنّ هذه القرينة: «تحدّد وظائفها وما تشير إليه في السّياق النحوي»[4] وسنكون هنا بصدد البحث في أقسام الكلم وبعض الأبــواب النّحوية في ضوء قرينة التّضام وسنتطرّق إلى العناصر الآتية: التّضام في الجملة الاسمية والجملة الفعلية والجملة الشّرطية، والتّضام في الحروف، وإلى التّضام في التّقسيم السّباعي الجديد للكلم، وســنتّخذ

1 تمام حسان: عنوان المقال: اللّغة العربية والحداثة -مجلّة فصول، مجلّة النقد الأدبي- مج04-العدد03، أبريل، مايو، يونيــه- 1984م- ص 133.

2 عمر ديلوح: الأدوات العاملة في التراكيب العربية، دراسة لسانية صورية- مخطوط رسالة دكتوراه- جامعــة تلمســان- 2003/2004م- ص 111.

3 لمزيد من التفصيل في المصطلحات النحوية واستعمالات النحويين يُنظر:كتاب: المصطلح النحوي، نشأته وتطــوّره حتّــى أواخر القرن الثالث الهجري- محمد القوزي- الجزائر- ط03- 1983م.

4 أحمد محمّد قدّور: مبادئ اللسانيات- ص 331.

كتاب"المقتصد في شرح الإيضاح" نموذجا لدراسة التّضام في المورروث النّحويّ، وبعدها نتطرّق إلى قضيّة التّرخص في التّضام.

01. التّضام في الجملة الاسميّة:

أ- المبتدأ والخبر[1]:يتّضح المبتدأ والخبر بعدد من القرائن بعضها معنويّ وبعضها لفظيّ، فمن القرائن المعنوية العهد والإسناد، ومن اللّفظية البنية والتّضام والرّتبة والإعراب، أمّا قرينـــة التّضـــام فتشمل الافتقار والاختصاص والمناسبة والذّكر والحذف والإظهار والإضمار.

- من قبيل الافتقار قول ابن مالك:

والخبرُ الجزءُ المتمُّ الفائده كاللّه بَرٌّ، والأيادي شاهده[2]

إذ لا غنى للمبتدأ عن الخبر.

- ومن قبيل الاختصاص أنّه إذا جرى الضّمير على غير من هو له وجب إظهاره مخافة اللّبس ففي قولنا: "زيد عمرو ضاربه"، يتبادر إلى الفهم أنّ الضّارب هو عمرو، فإذا قصد المتكلّم أنّ الضّارب هو زيد، قال:"زيد عمرو ضاربه هو". أمّا نحو:"زيد هند ضاربها" يفهم من ذلك على الرّغم مـــن عدم إبراز الضمير؛ ولكن: «من ثوابت النّحو العربي الاطّراد ومن ثمّ ظلّ إبراز الضمير واجبـــا»[3] فيقال:"زيد هند ضاربها هو" وهذا هو معنى قول ابن مالك:

والمفردُ الجامد فارغ وإنْ يُشتقَّ فهو ذو ضميرٍ مُستكِن[4]

وأبرزْنه مطلقا حيث تلاَ ما ليسَ معناهُ له محصّـــــلاَ

---

1 وهما عند سيبويه:"ما لا يغنى أحدهما عن الآخر ولا يجد المتكلّم منه بدّا"ينظر: الكتاب – ج01- 23.

2 بهاءالدّين بن عبد الله بن عقيل:شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك– تحقيق:محمّد محيي الدّين عبد الحميد- القـــاهرة- دار التراث- د ط- دت- ج01- ص 201.

3 تمام حسان: الخلاصة النّحوية – ص 106.

4 ابن عقيل: السّابق- ج01- ص 205، 206.

- ومن قبيل المناسبة المعجمية قول ابن مالك:

ولا يكون اسمُ زمانٍ خبراً عن جثّة وإن يُفِدْ فأخبرا[1]

ومعنى المناسبة المعجمية:"أن يكون الخبر صالحا لأن يسند إلى المبتدأ"[2]، فلا يجوز مثلا أن نقول:"السماء تحتنا" لعدم المناسبة.

- ومن قبيل الذّكر والحذف يقول ابن مالك:

وحذف ما يُعلَمُ جائزٌ كما تقول: زيدٌ بعد من عندكما؟

وفي جواب كيف زيد؟قل دنف فزيد استُغنِيَ عنه إذا عُرِف

وبعد لولا غالبا حذفُ الخبر حتمٌ، وفي نصّ يمين ذا استقرّ

وبعد واو عيَّنَتْ مفهوم مع كمثلِ: كلّ صانع وما صنع

وقبل حال لا يكون خبـــرا عن الذي خبرُهُ قد أُضمِرا

كـــضربي العبدَ مسيئا، وأتم تبيينَ الحقّ منوطا بالحِكَـــم[3]

- ومن قبيل التّضام في باب المبتدأ والخبر تعدّد الخبر للمبتدأ الواحد، يقول ابن مالك:

وأخبَروا باثنين أو بأكثراَ عن واحدٍ كهم سَراةٌ شعرا[4]

ب- نواسخ الجملة الاسمية:

- كان وأخواتها: تُربط الجملة المنسوخة بـــ"كان وأخواتها" بقرائنَ هي: البنية، التّضام، الـــرّبط، الإعراب، وفيما يلي ارتباطها بقرينة التّضام بإيجاز.

---

1 المصدر السّابق – ج01- ص213.

2 تمام حسان : الخلاصة النحوية- ص106.

3 ابن عقيل: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – ج01 – 243،246.

4 المصدر نفسه – ج01- ص256.

إنّ مّما يمكن أن يندرج تحت عنوان التضام في نواسخ الجملة الاسمية: الافتقار، الاستغناء، المعاقبة، الحذف، الزيادة.

فـــ"كان وأخواتها" قد تكون تامّة فتكتفي بمرفوعها وقد تكون ناقصة فتدخل على المبتدأ والخبر، ومثلها في أخواتها المنقولة جميعا عدا: فتئ وليس وزال؛ الذي مضارعه يزال، فلا تكون إلاّ ناقصة تفتقر إلى منصوبها، وهو المقصود من قول ابن مالك:

ومنعُ سبقِ خبرٍ ليس اصطُفِي وذو تمام ما برفعٍ يكتفي

وما سواهُ ناقصٌ، والنّقص في فتئ، ليس، زال دائما قُفي[1]

- وقد تأتي زائدة كزيادتها بين المبتدأ والخبر، أو بين الفعل ومرفوعه، أو بين الموصـــول وصـــلته أوبين الموصوف وصفته، «وكلّ عنصرين بينهما علاقة تضام»[2]، نحو" ما كان أحسن زيـــدا، ولم يوجد كان أحسن منه"، ومثل قول الشّاعر:

فكيف إذا مررتَ بدارِ قومٍ وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ3.

وإلى هذا يشير ابن مالك:

وقد تُزادُ كان في حشوٍ: كما كان أصحَّ علمَ ما تقدّما4

- وقد تحذف مع اسمها ويبقى خبرها بعد إنْ الشّرطية، وبعد لو، وبعد أنْ، إذا تعاقبتها "ما" نحو: "أمّا أنت غنيّا فأنا غير فقير"، يقول ابن مالك:

ويحذفونهـــــــا ويبقون الخبر وبعد"إن" و"لو" كثيرا ذا اشتهر[5]

1 المصدر السّابق – ج01 – ص277.

2 تمام حسان: الخلاصة النحوية– ص116.

3 البيت للفرزدق من قصيدة له يمدح فيها هشام بن عبد الملك، وقيل يمدح سليمان بن عبد الملك. ينظر: السّديوان– شـــرح وتحقيق: كرم البستاني– بيروت– دار صادر– دط– دت– مج 02– ص 290.وينظر: شرح ابن عقيل – ج01– ص289.

4 شرح ابن عقيل – ج01– ص288.

5 المصدر نفسه – ج01– ص 293.

**وبعد"أنْ" تعويض ما عنها ارتكب	كمثل"أمّا أنت برّاً" فاقتــرب**[1]

- "ما" و"لات" وإن" النّافية المشبّهات بـــ"ليس":

أوّلا(ما):

– "ما" تدخل على الأسماء والأفعال.

– قد يتّصل خبرها بالباء الزّائدة، نحو قول ابن مالك:

**وبعد ما وليس جرّ البا الخبر	وبعد لا ونفي كان قد يجرّ**[2]

– العطف على خبرها:ما زيد قائما بل قاعدٌ، ما زيد قائما ولا قاعد.

ثانيا (لا):

– قد يتّصل خبرها بالباء الزائدة.

– لا تدخل إلاّ على نكرة، نحو قول ابن مالك:

**في النّكرات أعمِلت كليس(لا)	وقد تلي (لات) و(إنْ) ذا العملاَ**[3]

ثالثا(لات):

– تدخل مع "ما" في معنى الحين.

– لا يذكر اسمها وخبرها معا، والأكثر حذف الاسم، يقول ابن مالك:

**وما لـــ"لات" في سوى حينٍ عمل	وحذفُ ذِي الرّفع فَشَا، والعكسُ قَلْ**[4]

– خبرها منصوب دائما.

رابعا (إنْ):

– تدخل على النكرة والمعرفة.

---

1 المصدر السابق – ج01- ص 296.

2 المصدر نفسه – ج01- ص308.

3 المصدر نفسه – ج01- ص 313.

4 المصدر نفسه – ج01- ص 312.

- إنّ وأخواتها:

إنّ هذه الأدوات من حيث التّضامُ «تدخل الجملة الاسمية فينتصب المبتدأ في حيّزها ويسمى اسمها، ويرتفع الخبر، إماّ مقترنا باللاّم المزحلقة من موقع الابتداء أو غير مقترن بها»[1]، وهو مـــا عناه ابن مالك بقوله:

لـــ إنّ، أنّ،ليت، لكنّ، لعلْ كأنّ، عكس ما لكان من عمل[2]

- لا النّافية للجنس: أحكامها من حيث التضام على هذا النحو:

أوّلا: تدخل على النكرتين، يقول ابن مالك:

عملَ "إنّ" اجعل للا في نكِره مفردةً جاءتْكَ أو مكرّره[3]

ثانيا: تقع في جملة بسيطة أو ذات تابع، يقول ابن مالك:

وركّبِ المفردَ فاتحا كلا حول ولا قوّةَ، والثّاني اجعلاَ[4]

ثالثا: تسبقها الهمزة جوازا نحو: ألا خوف عندك من الموت، يقول ابن مالك:

وأعْطِ "لا" مع همزة استفهام ما تستحقّ دون الاستفهام [5]

رابعا: تنفي الجنس.

02. التّضام في الجملة الفعليّة:

يتكوّن تركيب الجملة الفعلية من فعل وفاعل، أو فعل ونائب فاعل، فأمّا الفعل والفاعـــل من حيث التّضام فتوضّحه هذه النّقاط:

---

1 تمام حسان: الخلاصة النّحوية- ص119.

2 ابن عقيل: شرح ابن عقيل – ج01- 344.

3 المصدر نفسه – ج02 – ص05.

4 المصدر نفسه– ج02 – ص07.

5 المصدر نفسه – ج02 – ص20.

- الفعل مفتقر إلى فاعل كما في قول ابن مالك:

الفاعل الذي في مرفوعي (أتى زيدٌ) (منيرا وجهُه)(نعم الفتى) [1]

ومن تضام الفعل والفاعل قول ابن مالك:

والأصل في الفاعل أن يتّصلا والأصل في المفعول أن ينفصلا[2]

مشيرا بذلك إلى: « تضام الفعل والفاعل، وعدم وجود علاقة تضام بين الفعل والمفعول به»[3].

- قد يحذف الفعل إذا دلّ عليه دليل، وإلى هذا أشار ابن مالك:

ويرفَعُ الفاعلَ فعلٌ أضمِرا كمثل: زيدٌ في جواب من قرأَ [4]

- الفعل يستتر في صورة الفعل ولا يحذف.

أمّا نائب الفاعل من حيث التضام فإنّ الفعل المبنيّ للمفعول مفتقر إلى نائب الفاعل يعقب الفاعل بعد تحول بنية الفعل، ولا يجوز تعدّده.

يقول ابن مالك: **ينوبُ مفعولٌ به عن فاعلٍ فيما له كنيلَ خيرٌ نائلٍ**[5]

03. ظنّ وأخواتها: يقول ابن مالك:

انصب بفعل القلب جزأى ابتِداَ أعني: رأىَ، خالَ، علمتُ، وجداَ

ظنّ، حسِبتُ، وزعمتُ، مع عَد حجا، درى، وجعل اللّذ كاعتقَد

وهبْ، تعلّمْ، والتي كصيّرا أيضا بها انصب مبتدأً وخبـــــرا [6]

1 المصدر السابق– ج02 – ص 74.
2 المصدر نفسه – ج02 – ص 96.
3 مصطفى الساقي: أقسام الكلام العربي – ص 11.
4 شرح ابن عقيل – ج02 – ص 85.
5 المصدر نفسه – ج02- ص111.
6 المصدر نفسه – ج02 – ص 28.

فظنّ وأخواتها من حيث التّضام يدخل كلّ واحد من هذه الأفعال على المبتــدأ والخــبر فينتصبان بعده بالمفعولية نحو: ظننتُ زيدا حاضرا، ويصدق ذلك على كلّ تصرّفات الأفعــال إلاّ: هب، وتعلّم، لأنّهما يلزمان صيغة الأمر دائما.

04. التعدّد في جملة النّعت: فمن حيث التضام إنّه «إذا اتّضح المعنى دون النّعت أو المنعوت وقام الدّليل على حذف أحدهما جاز الحذف نحو قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[1]، أي: غير معيبة»[2]. نحو قول ابن مالك:

وما من المنعوت والنعت عُقِل يجوز حذفه وفي النّعت يقل[3]

05. التوكيد:

أولاً: من حيث التضام أنّه يتمّ التّوكيد بواسطة التكرار، نحو: من جهل قدره فهو مهين مهين. وهذا معنى قول ابن مالك:

وما من التوكيد لفظي يجي مكرّرا كقولك:(ادرُجي ادرُجي)[4]

ثانيا: لا يجوز تكرار الضمير المتّصل إلاّ متّصلا بما صاحبه نحو: والله إنّك إنّك لفاضل، وهو ما يريده ابن مالك بقوله:

ولا تُعِد لفظ ضمير متّصل إلاّ مع اللّفظ الذي به وُصِل[5]

---

1 سورة الكهف- الآية 79.
2 تمام حسان : الخلاصة النحوية- ص 177.
3 ابن عقيل: شرح ابن عقيل- ج03- ص 205.
4 المصدر نفسه – ج03 – ص 213.
5 المصدر نفسه – ج03 – ص 215.

ثالثا: وكذلك حال الحرف المؤكّد إذا تكرّر[1] نحو المثال السابق، ونحو: في الدّار في الدّار زيدٌ، ونحو قول ابن مالك:

كذا الحروفُ غير ما تحصّلا　　به جواب: كنعم، وكبلى[2]

06. التضام في الحروف:

لقد درس القدماء من النّحاة الحرف على أنّه جزء قاصر لا يمكن إلاّ أن يكون تابعا للجزأين من الكلام[3]، وكلّ من تعرّض للحرف لم يخرج عن المعنى العامّ لهذه التعريفات، سوى ابن مالك الذي يعرّفه «بالعلامة الصّفرية أو العدمية من حيث إنّه ما سوى الاسم والفعل»[4]، حين قوله:

سواهما الحرف كهل وفي ولم　　فعل مضارع يلي لم كيشم[5]

فتعريف النّحاة يعني أنّ معنى الحرف متوقّف على تضامّه مع كلمة أو كلمات أخر بعكس الأسماء والأفعال التي تدلّ على معان في نفسها، أمّا منزلته في السياق النحوي فإنّ دوره في الجملة يقوم به تضام الجملة وترابطها وتقوية الضعيف من أجزائها، بخاصّة حروف الجر التي تعتبر واسطة بين عامل الجملة والاسم المجرور ممّا يجعلهما «يرتبطان بمحور الجملة ارتباطا معنويا، كارتبـــاط الجزء بكلّه أو الفرع بأصله»[6] باعتبار أنّ السّياق النحوي « وحده هو الذي يضفي على الحـــرف

---

1 تمام حسان: الخلاصة النحوية – ص 177.

2 ابن عقيل: شرح ابن عقيل – ج03 – ص 215.

3 يعرّفه سيبويه بأنّه" ما جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"ينظر: الكتاب- ج01- ص12. ويعرّفه السّهيلي بأنّه "ما دلّ علـــى معنى في غيره، وليس يفهم العرب من الحرف ذلك المعنى".ينظر: نتائج الفكر في النحو- تحقيق: محمّـــد البنّـــا- دار الرّيـــاض للنشر- ط02- 1404هـــ/1984م. والحرف ما جاء لمعنى ليس فيه معنى اسم ولا فعـــل نحـــو: هـــل، وبـــل ، وقـــد، وثمّ.ينظر:كتاب: الجمل في النحو: عبد القاهر الجرجاني- شرح ودراسة وتحقيق: يسري عبد الغني عبـــد الله- بـــيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1410هـــ/1990م- ص 41. فتعريف السهيلي يعني أنّ معنى الحرف متوقّف على تضامّه مـــع كلمة أو كلمات أخر، بعكس الأسماء والأفعال التي علة معان في نفسها.

4 الصادق خليفة راشد: دور الحرف في أداء معنى الجملة- ص 36.

5 شرح ابن عقيل – ج 01 – ص 23.

6 ريمون طحان : الألسـنية العربية- ج02-ص27.أخذا عن : الصادق خليفة راشد: السابق- ص 41.

قيمة خاصّة فيما يتعلّق بالجمل»[1]، وباعتبار أنّ الحروف بخاصة حروف الجر إنّما يجيء لتوصـــيل بعض الأفعال إلى الأسماء[2] وفقا لما يراه بعض النحاة.

– نماذج من التّضامّ في الحروف:

بين الجار والمجرور: إنّ الفصل بين حرف الجرّ والاسم المجرور في الاختيار غير جائز، أمّا في الاضطرار فقد يفصل بظرف أو مجرور كقولك: إنّ عمرا لا خير في اليوم عمرو. وقولك: ليس إلى منها النّزول سبيل، ونَدُر الفصل بينهما في النثر بالقسم نحو: اشتريته بوالله درهم[3].

07. الجرّ بعد الحرف: من الحروف ما هو أصلي وما هو منقول، فمن الأصلية مفرد ومركّب ومن المنقول ما هو عن الظّرفية وما هو منقول عن الفعلية.

الأصلية: المفردة: الباء، التّاء، الكاف، الواو، اللاّم. والمركّبة: من، عن، في ، كي، ربّ، إلى، على، متى، حتّى.

المنقولة: عن الظّرفية: مذ، منذ. وعن الفعلية: حاشا، عدا، خلا.

أمّا من حيث تضامّها فإنّ: هذه الحروف مختصّة بالأسماء، ولبعضها اختصاصات فرعية كما يلي:

أ– (كي): تدخل على "ما" الاستفهامية فيقال:كيمه، بهاء السّكت، وعلى المضارع المنصوب بعد "أن" المضمرة، أي: على مصدر مؤوّل من "أن" الناصبة والفعل، نحو:ذاكرتُ كي أنجحَ[4].

ب– (مذ، منذ، حتى، الكاف، الواو، ربّ، التاء): تدخل على الظّاهر دون الضّمير إلاّ "مذ ومنذ" فقد يدخلان على الفعل أو يُرفع ما بعدهما.

---

1 المرجع السّابق – ص 43.

2 عبد القاهر الجرجاني:المقتصد في شرح الإيضاح– مج 01– ص 274،275.

3 شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النّحو والصّرف–ج01– ص 178.

4 تمام حسان: الخلاصة النحوية– ص 169.

ج- (ربّ): تختصّ بالدّخول على الأسماء، إلى جانب أنّه يختصّ بالدّخول على النّكرة فقط يقول سيبويه: «ربّ لا يقع بعدها إلاّ نكرة»[1] وهو حرف جرّ يجرّ ما بعده.

08. (ما): لها حالات متعدّدة، فقد تكون اسما في: الاستفهامية- الشّرطية- التّعجّبية- الموصولة وقد تكون حرفا إذا كانت نافية أو مصدرية مؤوّلة مع الفعل، وقد تقع في حالات أُخَر زائدة وهذه الزّائدة تنقسم إلى قسمين؛ كافّة عن العمل، وغير كافّة[2]، فالكافّة هي التي تدخل على الجمل الواقعة تحت تأثير عامل من العوامل فتفصل بينه وبين ما عمل فيه، وتلغي أثره الإعرابي، وهي كافّة عن عمل الرّفع، وعن عمل النّصب وعن عمل الجرّ.

- الكافّة عن عمل الرّفع: وهي المتّصلة بالأفعال الثّلاثة (قلّ، كثر، طال) فإذا ما تضامت (ما) مع أحد الأفعال أدّى هذا التضام وحقّق هدفا يتمثّل في:«صلاحية الفعل بأن يليه ما لم يكن يليه بدونها»[3]، فلا يُعقل أن يقال: «قلّ يبرح اللّبيب».

وأصل البيت:

قلّما يبرح اللّبيب إلى ما يورث المجد داعيا أو مجيبا[4]

- الكافّة عن عمل النّصب والرّفع: وهي التي تتصّل بإنّ وأخواتها، وشواهد هذا كثيرة في القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ

1 الكتاب- ج01- ص 427.

2 الصادق خليفة راشد: دور الحرف في أداء معنى الجملة- ص 53.

3 المرجع نفسه – ص 53.

4 البيت بلا نسبة، ينظر المعجم المفصّل في شواهد اللّغة العربية: إميل بديع يعقوب- مج01- ص 08. وينظر: مغني اللّبيـــب عن كتب الأعاريب: جمال الدّين بن هشام- تحقيق: صلاح عبد العزيز علـــي الســـيد- القـــاهرة- دار الســـلام- ط01- 1424هـــ/2004م- ص413. و جلال الدين السيوطي: شرح شواهد المغني- ذُيّل بتصحيحات وتعليقات العلامة الشيخ محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي- بيروت- منشورات دار مكتبة الحياة- د ط - د ت - ص 717.

5 سورة التّغابن – الآية 15.

إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾[1]، فقد أدّى هذا التضام إلى عدم إعمال هذه الأحرف.

● الكافّة عن عمل الجرّ: وهي كثيرا ما تدخل على (رُبَّ) فتكفّها عن العمل وتمنع تأثيرها في الجملة وتسمح بوقوع الفعل بعد (رُبَّ) نحو قوله تعالى:﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[2]، فحين تضامّها مع (رُبَّ) تفقد خصائصها، فتلغي عملها وهو الجرّ، وتلغي اختصاصها بالأسماء وتؤهّلها لمضامّة الفعل[3]، وإمكانية وقوع الحرف بعدها بعدما كانت تختصّ بالدّخول على النّكرة، نحو: ربّما الرّجل ذاهب.

وأمثلة تضامها مع بعض الحروف وسلبها عملها كثيرة، فمنها تضامها مع (الكاف) فتكفّها عن العمل غالبا، نحو قوله تعالى:﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[4]، على أنّه وردت ما الكافّة عاملة وهي في حالة تضام مع (الكاف) كما في قول الشاعر:

ونَنصر مولانا ونعلمُ أنّه   كما النّاسُ مجرومٌ عليه وجارمُ[5]

- أو مضامّتها لـــ "الباء" مع بقاء عملها نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[1].

---

1 سورة النّساء – الآية 171.

2 سورة الحجر – الآية 02.

3 ابن هشام: مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب – ص185.

4 سورة البقرة – الآية 198. وينظر تخريجها في : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك- قدّم له ووضع هوامشه وفهارســه: إميل بديع يعقوب- بيروت- دار الكتب العلمية- 1418هــ/1997م- ج01 – ص356.

5 الشاعر عمرو بن براقة، ينظر : مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب:الـسابق – ص 92. و شرح شواهد المغني: السّـــيوطي- الصفحات: 202، 778، 150،500. وشرح ابن عقيل: الـسابق – ج01 – ص 362.

6 سورة آ عمران – الآية 159. وينظر تخريجها في شرح ابن عقيل – ج 01- ص 360.

- وتدخل بعد (بعد) التي هي ظرف مبهم يلزم الظرفية دائما نحو قول الشاعر:

أعلاقة أمّ الوليدِ بعدما أفنان رأسك كالثغام المخْلس[2]

- وتدخل بعد (حيث) وهذا التضام يحدث تركيبا غير الترتيب الأول الذي كانت فيه ظرف مكان-حيث- مضافة غالبا إلى الجملة، وهذا التغيير من جانبين[3]:

* من حيث النوع: ينقلها من الاسمية إلى الحرفية وتصير مع (ما) بمنزلة إنّما وكأنّما.

* من حيث الوظيفة: يؤدّي تضامّها وظيفة حرف الشرط، وتصبح جازمة لفعلين نحو قول الشاعر:

حيثما تستقم يقدّر لك الله نجاحا في غابر الأزمان[4].

- وتدخل بعد (إذ) و (إذا) ظرف زمان للوقت الماضي، لازم الإضافة إلى جملة، وتتصل به (ما) فتنقله من الظرفية إلى الحرفية، ويصبح حرف شرط جازما لفعلين، يقول العبّاس بن مرداس:

إذْ ما أتيتَ على الرّسول فقل له حقاً عليك إذا اطمأنّ المجلس[5]

والصّحيح ما ذهب إليه سيبويه خواصّ الحرفية فيها ولا دليل على القطع باسميتها[6]، إذ يقول:" (إذ) تكون حرف شرط إذا قرنت بـ (ما) "[7]،إلى جانب العديد من الأمثلة الخاصّة بتضامّ الحروف في الدّرس النحوي؛ ومن هذه الأمثلة ما جاء في "الكتاب":

1 سورة النساء – الآية 155.

2 الشاعر هو المرار بن منقذ الأسدي. الثّغام: شجر إذا يبس صار أبيضا، والمخلس من النبات المختلط رطبه بيابسه. ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبد النور المالقي– تحقيق: أحمد محمد الخراط– دمشق– مطبوعات مجمع اللغة العربية– د ط– 1394هـ – 314. و يُنظر: مَغني اللبيب ص 419، وشرح وشواهد المغني ص 722.

3 الصادق خليفة راشد:دور الحرف في أداء معنى الجملة– ص 57.

4 ينظر: مغني اللّبيب – ص 391. وشرح شواهد المغني– ص 181.

5 العباس بن مرداس في غزوة حنين. المجلس: النّاس. اطمأنّ: سكت. ينظر: الدّيوان– 72. والشّاهد فيه المجازاة بـ "إذ" بدليل وقوع الفاء في الجواب – ينظر: الكتاب: سيبويه – ج 03 – ص 57.

6 المالقي: رصف المباني – ص60.

7 الكتاب – ج03 – ص 56،57.

❖ اعلم أنّك لا تفصل بين (لا) و النفي، كما لا تفصل بين (من) وبين ما تعمل فيه، وكذلك أنّه لا يجوز أن تقول: «لا فيها رجلَ»، كما أنّه لا يجوز لك أن تقول: «في الذي جوابه:" هل مِـــنْ فيها رجلٍ؟»[1] .

❖ الحروف العوامل: لا يجوز لك أن تفصل بينهما وبين الأفعال بشيء، فلا تقـــول: « لم زيـــدٌ يأتِكَ»[2]، وهي الحروف العوامل في الأفعال الجازمة.

❖ لا يجوز الفصل بين الجار والمجرور بحشو[3].

❖ باب الحروف التي لا يليها إلاّ الفعل[4] نحو:

- قد: لا يفصل بينها وبين الفعل بغيره.
- سوف: لأنّها بمنزلة السين، وإنّما هي إثبات لقولك: «لن يفعل».
- ربّما، وقلّما وأشباههما، وجعلوا (رُبَّ) مع (ما) بمنزلة كلمة واحدة.
- إلاّ، لولا، ألاّ : ألزموهنّ (لا) وجعلوا كلّ واحدة مع (لا) بمنزلة حرف واحد.

التّضام في كتاب" المقتصد في شرح الإيضاح" لعبد القاهر الجرجاني:

نودّ في هذا المبحث أن نستقري بعض حالات التضام من خلال بعض المسائل النّحوية في كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبد القاهر الجرجاني وهـــذه المســـائل المنتقـــاة هـــي:المـــدح والذم**و**التعجب**و** الظرف والأداة.

1- المدح والذم: لقد اصطلح "تمّام حسان" على النّوع من الأساليب «الخوالـــف»[5] وهو مبنى تقسيمي جديد، ويعني ما كان أسماه النّحاة أفعال المدح والذمّ وأسماء الأفعـــال وصـــيغة التعجب وأسماء الأصوات، أما من حيث التّضام فإنه خالفة المدح والذم تفتقر إلى أنها تتضامّ مـــع

---

1 المصدر السّابق – ج02 – ص 276.

2 المصدر نفسه – ج03 – ص110.

3 المصدر نفسه – ج03 – ص. 113.110.

4 المصدر نفسه – ج03 – ص114.

5 اللغة العربية معناها ومبناها – ص 113.

فاعل يستغرق الجنس، وهذا الفاعل إما أن يكون ظاهرا باللام أو معرفا به كقولك:نعم الرجل زيد ونعم غلام الرجل زيد، وإمّا مضمرا مميّزا بنكرة نحو:نعم رجلا زيد[1].

إن المخصوص بهذا المدح والذمّ ينبغي أن يكون مجانسا لفاعل نعم وبئس فلا تقول:نعم الرجل فرس زيد.

2- التعجب: هذا النّوع أحد الأنواع الأربعة التي قسّمها "تمام حسان" للخوالف[2]، فمن حيث تضامها فإنّ هذه الخالفة تفتقر إلى الأداة (ما) في صيغة التعجب (ما أفعل) وإلى الباء في صيغة (أفعل بـــ) وأن لكلّ من الأداتين مع هذه الصيغة رتبتها المحفوظة فلا تتقدّم الخالفـــة علـــى الضّميمة أو الأداة في الصيغة الأولى، كما لا تتقدم الضّميمة (الباء) على الباء في الصيغة الأخرى[3].

3- الظرف: الظّروف كما يراها تمام حسان:« مبان تقع في المبنّيات غير المتصرّفة بأقراب الوشائج بالضّمائر والأدوات»[4] ويمكن التّمثيل لها على النّحو الآتي:

ظرف زمان:إذْ ، إذا، إذاً، لّما، أيّان، متى.

ظرف مكان: أين، أنّى ،حيث.

والظّرف «عنصر أساس أيضا من عناصر التّشكيل الصرفي ... بيْدَ أن النّحاة – ومنهم عبد القادر الجرجاني– توسّعوا في الظّروف كثيراً فعاملوا بعض الأبنية الأخرى معاملة الظّروف فـــأدّت هذه الأبنية داخل سياقها أو تشكيلها اللّغوي، وظائف الظّروف واستوعبـت من وجهة التّرتيـــب كل خصائصها ومميّزاتها »[5]، أمّا من حيث التّضام فإنّها ذات افتقار متأصّل إلى الإضافة، ولكنّهـــا تختلف فيما بينها فـــ (إذْ، ولما، وحيث) لا تتضامّ إلاّ مع الجمل على عكس(متى) و(أيّان) و(أين)

---

1 المقتصد في شرح الإيضاح – مج 01 – ص 363. وينظر: الجمل في النحو – ص63.

2 يقسّم تمام حسان الخوالف إلى أربعة أنواع: خالفة الإخالة(اسم الفعل) – خالفة الصّوت (اســم الصّــوت) – وخالفـــة التّعجّب– خالفة المدح والذّم. ينظر : اللغة العربيّة معناها ومبناها– ص 113...115.

3المقتصد في شرح الإيضاح : مج 01– ص 373. و الجمل في النحو – ص 64.

4 اللغة العربية معناها ومبناها – ص 119.

5 تامر سلّوم: نظريّة اللّغة والجمال في النّقد العربيّ – سوريا– اللاّذقية– دار الحوار للنّشر– ط01 – 1983م – ص 85.

.(أنّى) التي تتضامّ مع المفرد والجملة/ومن تضامها أيضا أن بعضها يختص بتضامه مع الأداة (مــا) نحو:(متى ، أين، حيث، وإذ وإذا).

يقول عبد القاهر الجرجاني:« والظّروف التي يجازى بها:(متى، أين، وأنّى وأيّ، وحيثمــا، وإذ ما) ولا يجازى بحيث، ولا بــ (إذ) حتّى يلزم كلّ منهما (ما). تقول: متى تأته آتــه- هــذا الكلام لأبي علي الفارسي- وأنّ هذه الظّروف بمنزلة السماء التي تقدّم ذكرها في القصد في المجازاة بهذا الاختصار والإيجاز. فإن قلت: أين تقم أقم اشتمل على سائر الأمكنة»[1] .

4- الأداة: وهي من عناصر التّشكيل الصّرفي أيضا، وهي« مبنى تقسيمي يــؤدّي معــنى التعليق»[2]، لأنّ التعليق بالأداة من أشهر أنواع التعليق في اللغة العربية الفصحى؛ فمن حيث التضّام فإنها« تفتقر إلى التضّام مع بنائها أو تركيبها، لأنها لا تنتقل بأنفسها وتقتضي دائما شــيئا ينضــم إليها وبعبارة أوضح: لأنّه لا معنى لها خارج التركيب أو السياق»[3] فأدوات الجمل تفتقر إلى ذكر الجملة بعدها[4] وأدوات العطف لا تفيد إلاّ مع المعطوف والجّر إلاّ مع المجرور... ولا تظهر مزاياها وخصائصها من غير أن ينظر إلى مكانها في التركيب وإلى موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض[5].

ومن تضامّ هذه الأدوات الذي يميّزها عن الضّمائر والظّروف أنّها أشدّ تأصُّــلاً في حقــل الرّتبة منهما، فأدوات الجمل مثلاً لها الصّدارة في تركيبها، ومرتبة حروف الجّر دائماً التقدم على المجرور[6] وحروف العطف على المعطوف[7] وحرف القسم على المقسم به وواو المعية على المفعول المفعول معه وواو الحال على جملة الحال.

---

1 المقتصد في شرح الإيضاح – مج 02 – ص 1111. وينظر: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي: تامر سلّوم – ص 86.

2 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 123.

3 تامر سلّوم : السابق – ص 91.

4 عبد القاهر: المقتصد في شرح الإيضاح – مج 1- ص 671.

5 المصدر نفســه – مج2 – ص 822.

6 المصدر نفســه – مج 2- ص 937.

7 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها- ص 107.

التضـام في التقسـيم السّباعي للكلم:

سنتناول التّضامّ في تقسيم تمّام حسّان السّباعي الجديد للكلم سالكين في ذلك طريقتـه التي عرض بها تقسيمه هذا في (كتابه: اللغة العربية معناها ومبناها).

1. الفعل من حيث التضـامّ:

تختصّ الأفعال بقبول التضامّ مع (قد، سوف، ولم ولن ولا الناهية)، وتلك الأدوات التي قرّر النحاة أنها مختصّة بالدّخول على الأفعال كالأدوات المستعملة في الجمل الشرطية، وحين يكون الفعل لازما يصل إلى ضميمته بواسطة حرف خاص من حروف الجر يحدّد معنى السياق[1] على أنّ الأفعال تشارك الصّفات في أنّ كلاً منهما يضام المرفوعات والمنصوبات في حـالتي الإسـناد والتعدية، فمن المعلوم أنّ لكلّ فعل فاعلاً، وقد يتعدى الفعل إلى مفعول واحد أو مفعولين أو ثلاثة إذا اقتضى المعنى والسياق .

وتتضام كذلك الأفعال مع حروف الجزم (لمّا ولا في النهي واللام في الأمـر وإنْ ولـو الشرط والجزاء)[2] وتتضام مع أنْ ولنْ وكي وإذن ، ومن ذلك أيضاً تضامها مع مفعولها بواسـطة الهمزة والتضعيف[3].

2. الاسـم من حيث التضـام:

تتضام الأسماء مع الأدوات النداء[4] و واو المعية وإلاّ في الاستثناء وواو القســم، ومـن تضامها أيضا وقوعها دون غيرها من أقسام الكلام مضافا[5]، وافتقار المبهمات[6] منها إلى ضـميمة

---

1 مصطفى الساقي: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة – ص 197.

2 عبد القاهر الجرجاني: المقتصد – مج 2– ص 1091. والشرط والجزاء عند الجرجـاني في بـاب المجـازاة : مـج 2– ص 1095.

3 تامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي – ص 76.

4 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 94. وعبد القاهر الجرجاني: السّابق – مج 02– ص 753.

5 عبد القاهر الجرجاني: السّابق – مج 02 – ص 870. وتمام حسان: السابق – ص 94. وتامر سلوم: السابق – مج01 – ص 66. وعبد القاهر الجرجاني: السّابق – مج 02 – ص 870.

6 الأقسام المبهمة تشمل:الأعداد، والموازين، والمكاييل، والجهات، والأوقات، والمقاييس. ينظر: أقسـام الكـلام العـربي – مصطفى الساقي– ص 197.

الإضافة أو التميز أو الوصف حيث يقول عبد القاهر الجرجاني:«إنّ الأعداد لمّا كانت مبهمة كالمقادير افتقرت إلى ما يبيّنها، والتبيين يكون على ضربين أحدهما أن يكون بالإضافة والثاني أن يكون بالمنصوب»[1]، وأما الصّفات والضّمائر وإنْ كانت تشارك الأسماء في بعض تضامّها فإنّها تتميز عنها في الإضافة مع الصفات .. وأنّ النداء معها لا يكون إلاّ على تقدير مخاطب أو مشار إليه، أمّا الصّفات بعد النّداء فتكون على تقدير موصوف محذوف نحو: يا ضارباً، إذا قُصد بها الإبهام والشيوع[2].

3. الصّفة:

وهي صفة الفاعل[3] وصفة المفعول والصفة المشبهة[4] وصيغة المبالغة والتفضيل، ومن تضامّها أنّهـا لا تعمل عمل أفعالها إلاّ إذا كانت نكرة بمعنى الحال أو الاستقبال، وأنّها تفتقد في تضامها[5] هذا إلى اعتمادها على موصوف أو مبتدأ أو ذي حال أو حرف استفهام أو نفي.

تشترك الأسماء و الصّفات من حيث التضام في كون الصفات تقبل النداء، وأن تكون مسندا إليه فاعلاً أو نائب فاعل أو في قبولها التنوين، وأن تكون مضافاً أو مضافاً إليه[6]، وتشترك مع الأفعال في أن تكون مسندا ، وأن تكون متعدّية أو لازمة فتضام المفعول به مباشرة أو بواسطة الحرف، وهذه المشابهة ووقوعها بين الأفعال والأسماء هو ما حدا بتمّام حسّان أن يجعلها قسماً قائماً بذاته بين أقسام الكلم على حده[7].

---

1 المقتصد في شرح الإيضاح– مج 02- ص 729.

2 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 94 . وتامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي – ص 66 .

3 عبد القاهر الجرجاني: السابق- مج 01- ص 505.

4 المصدر نفسه – مج 01- ص 532.

5 تامر سلوم: السابق– ص 70.

6 عبد القاهر الجرجاني: السابق – مج01- ص 344 عند حديثه عن نائب الفاعل. وتمّام حسان: السابق – ص 102. وتامر سلوم : السابق – ص 70.

7 تمّام حسان: السابق – ص 102. وتامر سلوم : السابق – ص 71.

4. الخالفة:

وهي « كلمات تستعمل في أساليب إفصاحية، أيّ في الأساليب التي تستعمل للكشف عن موقف انفعالي ما والإفصاح عنه وهي قريبة الشبه بما يسمونه في الإنجليزية exclamation وهذه الكلمات أربعة أنواع: خالفة الإحالة وخالفة الصوت وخالفة التعجب وخالفة المدح والذّمّ»[1].

5. الضمير:

إنّ للضّمائر دوراً مهمًّا في تماسك الكلمات بعضها ببعض فمن المعلوم« أنّ الضّمائر تمثّل عامل ربط اللاّحق بالسّابق»[2]، أمّا من حيث التّضام فإنّها تضام الأدوات في حالة النّداء[3] والقسم[4] والاستفهام والتّوكيد وهي تضام كذلك حروف الجرّ[5] والعطف[6] والاستثناء[7]. ومن أمثلة قولك: (يا هذا) و(والذي نفسي بيده لأدافعنّ عن وطني) و(أأنت الذي تريد الاستشهاد)[8]، في مثال النّداء والقسم على الترتيب، ومن ذلك أيضا أنّ الضمائر الموصولة تحتاج إلى تضامّ الصّلة، ويحتاج الضّمير إلى ضميمة المرجع وحين يكون الضّمير المتّصل مضافاً إليه يكون بحاجة إلى ضميمة المضاف[9].

6. الظرف والأداة:

قد سبق أن وقفنا عند هذين القسمين في المبحث السّابق.

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 113. وقد مرّت معنا نماذج تخصّ هذا القسم.
2 هدى عطيّة عبد الغفاّر: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية – مخطوط رسالة ماجستير- جامعة عين شمس- كلية الآداب- القاهرة – 2001م- ص 217.
3 تمام حسان: السابق – ص 113.
4 عبد القاهر الجرجاني: المقتصد في شرح الإيضاح – مج 02- ص 862.
5 المصدر نفسه – مج02- ص 822.
6 المصدر نفسه – مج02 – ص 937.
7 المصدر نفسه – مج02 – ص 699.
8 مصطفى الساقي: أقسام الكلام العربي – ص 198.
9 مصطفى الساقي: السابق – ص 198. وتامر سلوم: نظرية اللغة والجمال في النقد العربي- ص 80.

التّرخُّـص في التّضـــــام:

لا مشاحة في أنّ اللغة أوسع من النّحو الذي لا يعدو أن يكون قواعد أُنيط بها تنظيم مـــا اطّرد من اللغة لأنها تشمل إلى جانب ذلك المطّرد الشاذ والقليل والنادر، والتركيب القرآني«يتّسم بحرّية اللّغة لا بقيود النّحو فيتحدّى قواعد النّحاة عند أمن اللّبس، يفعل ذلك لأغراض بيانية معيّنة فيصل إلى هذه الأغراض دون تضحية بوضوح المعنى .. والقرآن نزل بلساني عربي مبين، لا نحـــو عربي مبين»[1] ، وهكذا « امتدّت تراكيبه على رحاب اللغة، ولم ينْحـــبس في بوتقـــة القواعـــد النحوية، فالقرآن يهيمن على اللغة كلّها ما اُطّرد منها وما لم يطّرد»[2]، وعن مدى سماح اللغة بهذا بهذا التّرخّص يقول عبد اللّطيف حماسة:« ينبغي أن يكون واضحا منذ البدء أن ليس المقصـــود بالتّرخّص هو فتح الباب على مصراعيه أمام العبث في علاقات الجملة وقرائنها اعتمادا على فهـــم المعنى وعدم اللّبس»[3]، ومعنى هذا أنّ التّرخص يعدّ في لغة النّقد كسرا للبناء يُؤتى به لغرض معيّن ومعناه أيضا أنّ اللغة لا تترخّص في قرائن الجملة جزافا، بل يكون ذلك في موقعيات خاصّة يمكن النّسج على منوالها أو– على تعبير النّحاة – يقاس عليها[4]، ولقد أسمى تمام حسّان التّرخّص بـــدل التوسّع الذي شاع في اصطلاح النحاة[5] ، والتّرخّص والتوسّع أو الضّرورة عند قيـــام الضّـــرورة أولزوم ما لا يلزم هي ما يُعرف في الموروث البلاغي، وهو ما يقابـــل مصـــطلح "الانحـــراف" في البلاغة الجديدة، وقد عبّرت عنه البلاغة العربية بالعدول، ميدَ أن اختيار القدماء تعبير العدول أدقّ من لفظة الانحراف التي « تشمل إيحاءات إضافية لا تتناسب مع طبيعة اللّغة الشعرية، ولعلّ أهـــمّ هذه الإيحاءات هو إيحاء الخطأ، هو أمر غير وارد في تعبير العدول»[6]، أمّا اختيار البحث للتّرخّص فمرجعه إلى ما تحمله الكلمة من معنى ضمني يحتّم وجود سبب أو آخر وراء الخروج عن القاعدة الأصلية في النّظام اللّغويّ، وأنّه – الترخّص– ما عُرف باسم الشّذوذ والقلّة والنّدرة، وطابعه العام

---

1 تمام حسـان: اللغة العربية معناها ومبناها– ص 227.

2 المرجع نفسه – ص 283.

3 العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث – ص 321.

4 المرجع نفسه – ص 324.

5 تمام حسـان: اللغة العربية والحداثة – مجلّة فصول– مج04– ع 03– 1984م– ص 134.

6 هدى عطيّة عبد الغفّار: السجع القرآني، دراسة أسلوبية – ص 156.

أنّه مخالف لقواعد عمل القرائن النّحويّة اللّفظيّة، ومرتكزه هو المبدأ العام الذي يُســمّى« تضــافر القرائن»[1]، وفائدة تضافر القرائن ضمان أمن اللّبس مع التّرخّص في إحدى القرائن إذا لم يتوقّــف عليها المعنى. وفيما يلي بعض الأمثلة التي استدلّ به "تمّام حسان" على التّرخّص في التّضامّ باعتباره قرينة لفظيّة .

- كل ما دلّت عليه قرينة أمكن حذفه.
- ورد إسقاط صلة الموصول في قول الشّاعر:

نحن الأولى فاجمع جمو عَكَ ثمّ وجّههم إلينـــــا[2]

- ورد حذف المبتدأ من الجملة الحالية في قول الشّاعر:

فلمّا خشينا أظافيرهم نَجوتُ وأرهنهم مالكا[3]

- قد تسقط الضّميمة التي بعد الظّرف وينوّن الظّرف نحو: حينئذٍ، وقول الشاعر:

فساغَ لي الشرابُ وكنت قبلاً أكاد أُغلّ الماءَ الفرات[4]

- قد تسقط ضميمة المرجع كما في ضمير الشأن نحو قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5].

ولعلّ أوضح مظاهر الترخّص في هذه القرينة قضيّة الفصل بين المتضامين، كالفصل بــين المضاف والمضاف إليه، والتّمييز والمميّز، والفصل بين الجار والمجرور، والفصل بين (لم) ومجزومهــا وبين أداة الشّرط وفعل الشرط المجزوم، والفصل بين (لن) ومنصوبها، والفصل بين (كم) ومميزهــا

1 تمام حسّان: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة – مجلّة فصول – مجلّة النّقد الأدبي- الهيئة المصــريّة العامّــة للكتّاب-- مج07- العددان03 و 04- أبريل، سبتمبر- 1987م- ص28.

2 البيت في الأصل: نحن الأولى جمّع جموعك. ينظر: ديــوان عبيــد بــن الأبــرص- بــيروت – دار صــادر – د ط – 1418هـــ/1998م – ص 142. وينظر: اللغة العربية معناها مبناها : تمام حسان – ص 239.

3 الشاعر هو عبد الله بن همام السلولي. ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – ج02 – 279.

4 البيت ليزيد بن الصّعق- ينظر:المعجم المفصّل في شواهد اللّغة العربية: إميل بديع يعقوب- مج07- ص 449. ينظر: اللغة العربية معناها مبناها: تمّام حسان – ص 239.

5 سورة الأنعام – الآية 21 .

،الفصل بين حرف العطف والمعطوف، و من هذه الشّواهد على الفصل بين المضاف والمضـــاف إليه قول ذي الرّمّة: **كأن أصواتَ مِن إيغالهنّ بنـــا أواخرِ الميسِ أصواتُ الفراريجِ**[1]

وقول أبي حيّة النميري:

كماَ خُطّ الكتابُ بكفِّ يوماً يهوديٍّ يُقاربُ أو يُزيلُ

إنّ معظم هذه النماذج التي يُفصل فيها بين المضاف والمضاف إليه من الشّعر وذلك«لحاجة الشعر في بنائه الفنيّ إلى مرونة وضع الكلمات مع مراعاة انسجامها مع القواعد النحوية»[2]، ومـــا ينبغي أن نعرفه أنّ هذا التّرخّص ليس ضرباً من البحث في القواعد وإهدارا لها؛ ولكن هذا التضامّ اللغويّ هو الذي «يسمح ببعض الترخص في القرائن التي تعمل متعاونة على تماسك الجملة، على أن هذا الترخص نفسه جزء من النظام اللغوي يُسْمَحُ به في الموضع المعيّن لأداء غرض مخصوص»[3] وتبقى الدّعوة ملحّة في الحاجة بنا إلى محاولة الكشف عن أسرار هذا التّرخّص ومعرفة دلالته.

3. صلة التّضامّ بالدّراسة النّحويّة:

ليس من اليسير ان نحاول الرّبط بين الدّراسة النّحوية وموضوع التّضامّ، وأن نَرجِعَ هـــذا الأخير إلى دراسات النّحاة السابقين لأسباب كثيرة أهمّها كثرة المفاهيم وتعدّد الـــرُّؤى وتـــداخل الدراسات، ولعلّ أبرز المجالات التي تقترب من موضوع التّضامّ من هذه الناحيـــة هـــي قضـــايا التركيب والدّلالة والإعراب.

لقد وَجَد المتقدّمون« أن تصوّر اللغة أو فلسفتها يحتاج إلى تعديل أساسي، ورأوا أنّ الاهتمام بموضوع تأليف الكلمات وربطها وتنظيمها يكفل توضيحَ القيم الكامنة في كثير من الشعر» [4]، ورأوا كذلك أنّ « دراسة الظّرف أو الضّمير أو الأداة بمعزل عن التّركيب أو السّياق

1 ديوان ذي الرّمّة:شرح أحمد الباهلي، رواية أبي العبّاس ثعلب- تحقيق:عبد القدوس أبي صالح- بيروت –مؤسّسة الإيمـــان- ط01- 1982م- ص 696.

2 محمّد عبد اللّطيف حماسة: العلامة الإعرابية في الجملة بين القدم والحديث- ص 336.

3 المرجع نفسه – ص 237.

4 تامر سلّوم :نظرية اللغة والجمال في النقد العربي – ص 26.

محاولة مشكوك في قيمتها وأنّه لا يمكن لأيّ تحليل أن يفصلها عنه.. واهتمّوا بأجزاء العبارة الأدبيّة وما تنطوي عليه من تعريف أو تنكير أو تقديم أو حذف أو فصل ووصل أو تأكيد »[1]، وإذا ما أُريد الاستدلال على هذه القيم وجماليتها فإنّنا نُلفي عبد القاهر الجرجاني[2] يلحّ في دراساته على معاني النّحو والاهتمام بالتّركيب النّحوي، وقد راح يقارب بين قوله تعالى:﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[3]، وبين اشتعل شيب الرّأس" أو "اشتعل الشّيب في الرّأس، ورأى أنّ نشاط الاستعارة الجمالي يجب أن يُتذوّق في ضوء التّركيب النّحوي المستخدم في تركيبها، ويلحّ على أنّ الاهتمام بمعاني النّحو يكفل توضيح فاعليّة اللّغة والشّعر فضلا عن فاعليّة الاستعارة[4]، وستكون لنا وقفة إزاء علاقة التّضامّ بمعاني النّحو ونظريّة النّظم في المبحث الخاصّ بالموروث البلاغيّ، على أنّنا نحاول في هذا المبحث أن نخرج من مجال النحو والتّركيب اللغوي باعتبار أن دراسة النّحو وموضوع التّضامّ ذات خاصية مشتركة بينهما لأن دراسة النحو تفرض علينا ملاحظة العلاقات المتشابكة في الجمل بعضها ببعض[5]، الأمر الذي ينهض به موضوع التّضامّ إذ إنّ التركيب يحمل في تعريفه مفهوم الضّمّ[6].

ومادام الحديث عن التّركيب فإنّ:« بناء اللّغة ووظيفتها يظلاّن رهن إدراك خاصيّة التّركيب الذي تقوم عليه، ولذلك تعذّر النّفاذ إليها من غير باب علم التّركيب أساسا»[7] وهنا

---

1 المرجع السّابق – ص 26.
2 دلائل الإعجاز:اعتنى به: محمد علي زينو– بيروت– مؤسّسة الرّسالة ناشرون– ط01– 1426هـ/2005م – ص 90.
3 سورة مريم – الآية 04.
4 تامر سلّوم : نظرية اللغة والجمال في النقد العربي – ص 282.
5 ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية : تمام حسّان– القاهرة– مكتبة الأنجلو المصريّة– د ط– 1958م– ص 158.
6 يقول ابن منظور في مادّة (ركب) :" ركّب الشيء : وضع بعضه على بعض، وقد تركّب وتراكب. تراكب السّحاب: صار بعضه فوق بعض". لسان العرب – بيروت– دار صادر– ط06– 1417هـ/1997م– مج 01– 423. ووردت بمعنى أن يتبع شيء شيئا، ويفيد الضّمّ والالتئام في نظام واحد، وهو يرد للتراكم ووضع الشيء على الشيء نفسه، فركّب الشّيء إذا ضمّه إلى غيره فصار شيئا واحدا في المنظر، يقال: ركّب الفصّ في الخاتم وركّب السّنان في الرّمح، وركّب الكلمة أو الجملة . ينظر: المعجم الوسيط– القاهرة– دار المعارف– ط03– 1973م– ج01– ص281.
7 عبد السّلام المسدّي:اللّسانيات وأسسها المعرفية – الدار التونسية للنّشر– المؤسّسة الوطنية للكتاب– د ط– أوت 1986م– ص149.

يتجلّى بوضوح دور التّركيب والنّظام اللّغويّيْن، إذ بناء اللّغة وتركيبها وتضامّ الكلمات يشكّل ما يُسمّى النّظام، وهذا النّظام منطلقه البنية المتشكّلة كذلك من تضام الحروف والأصوات الكلمات فإذا تعدّدت وصارت بين يتماسك بعضها إلى بعض تماسكا كلّيا، ثمّ ارتصفت أفقيا وعموديا في تجاور حينا، وتراكب حينا آخر تأسّست منضدة متكاثفة لها طواعية الإذعان إلى قوانين علم التّصنيف المعرفيّ، وعندئذ تتحوّل البُنى المتراصّة إلى نظام[1]، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإنّ«تجميع عناصر الكلمات المفردة لابدّ أن يتّسم بالتّآلف من حيث الصّوت، ومن حيث الدّلالة ومن حيث التّركيب ليأخذ صورة النّظم المتكامل»[2]، وإذا كان التّركيب على قدر كبير من الأهمّية وذا صلة بالتّضام فإنّ الأمر نفسه حين يتعلّق موضوع التّضام بموضوع الدّلالة، إذ ليس من المعقول أن تضمّ الكلمات والحروف كيفما جاءت وعلى أيّ جهة أردت، وإنّما على أصول ثابتة، وعلى قواعد تمليها عليك اللّغة والنّظام مراعيا في ذلك جانب الدّلالة والمعنى والوضوح.

إنّ النّحو كفيل بأن يحقّق الهدف النّظمي دون إغفال للجوانب الدلالية، وإنّ غياب التّركيب النحوي يؤدّي بالضّرورة إلى فقدان الجوانب الدّلالية[3]، ولذلك طالب البنيويون مثلا في حلقتهم اللّسانية ببراغ أن تتآزر كلّ من العناصر الصّوتية والصّرفية والمعجمية والنّحوية جنبا إلى جنب على نحو متبادل لتكوين بنية[4]، وهنا يُلاحَظ أنّ هذا الأمر ليس مقصورا على النّحو العربي؛ بل إنّ النّظام النّحوي عند الغربيين لا يركّز على مستوى واحد من العبارة، ولكن أيضا على المدلول[5]، بل ويجب أن نكون واعين للمركّبات الدّلالية والصّوتية المتّصلة اتّصالا وثيقا بالإطار التّركيبي لتكون معه كلاّ متكاملا[6]، وهذا المعنى الدّلالي لا يكون بتضافر وظيفة المبنى التّحليلي –

---

1 المرجع السّابق – ص 33.

2 محمّد عبد المطّلب: النّحو بين عبد القاهر وتشومسكي- مجلّة فصول، مجلّة النّقد الأدبي- الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب- مـــج 05- العدد 01- أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر- 1984م- ص 30.

3: المرجع نفسه – ص 29.

4 ينظر: في عالم النّص والقراءة: عبد الجليل مرتاض- الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية- د ط- 2007م- ص 218.

Jean-Louis CHISS; Jacques FILLIOLET; Dominique MAINGUENEAU: 5 LINGUISTIQUE FRANCAISE; initiation a la problématique structurale.syntaxe.communication.poétique – CLASSIQUES HACHETTE.PARIS .P 158.

6 Ibidem – p 108.

النّظام الصّوتي والصّرفي والنّحوي- ومعنى الكلمة المفردة؛ المعنى المعجمي، مضافا إليهما القرينة الاجتماعية- المقام- أيّ إنّ«كلّ ذلك يصنع المعنى الدّلالي»[1]، وفي الجهة المقابلة للمعنى الدلالي هناك المعنى الوظيفي الذي نودّ أن نقرنه بالتّضام من حيث إنّ التّضام استلزام عنصر نحوي تحليلي لعنصر نحويّ آخر سواء على مستوى كلمة واحدة وكلمة واحدة أخرى أو كلمة واحدة وكلمات أخر، ولتبيّن الفرق بين الإعراب والمعنى الدّلالي يضرب تمام حسان هنا مثالا بيت شعر:

قاصَ التّجينُ شِحاله بتريسه فاخي فلم يَسْتِفْ بطاسيةِ البَرن[2]

حيث يمكن أن تعرب النّص بنجاح تامّ، فهو مستوف للمطالب الشّكلية حتّى من النّاحية العروضية، إذ البيت من بحر الكامل، إلى غير ذلك من النصوص التي يستدل بها في أكثر من موضع[3]، وإن كان غرضنا حين استدللنا بهذا المثال غير ما يقصده تمام حسان، فهو يقصد الوصول إلى عملية التّعليق انطلاقا من وضوح المعنى الوظيفي دون الحاجة إلى المعجم أو المقام، أمّا مقصودنا فعلاقة تضام الحروف والكلمات بالمعجم والدلالة والإعراب، خلافا ربّما لمن يرى[4] أنّ تلك الحركات الإعرابية لم تكن تحدّد المعاني بين أذهان العرب، وأنّها لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض، لأنّه إذا كان الإعراب لا يفيد معنى فكيف نميّز نحو قولنا: لا تكذب تدخل النّار، فإنّه يلزم رفع (تدخل)، ولا يصحّ جزمه، لأنّ المعنى سيكون: إن لا تكذب تدخل النّار، وهو لا يصحّ[5]، وهنا تظهر علاقة الإعراب بالمعنى وهنا يظهر مدى استلزام المعنى الوظيفي والدلالي معا في عملية التّضام، وأنّه لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على أحد هذه العوامل دون الآخر أو الفصل بينها والاكتفاء ببعضها، فعملية التضام

---

1 تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها — ص 112.

2 المرجع نفسه — ص 183.

3 على سبيل المثال له نصّ مطوّل على هذه الشاكلة يقول في بعض منه:" إنّ الذي يرى خواطر التاريخ المقبل، وما تنطـوي عليه تماويل الترغات الدقيقة، لابدّ أن تبهره أحلام الواقعية التي تمتد على روافد التاريخ، ولقد كان الانسان في كل ناحية مـن نواحي الوشائج الفارهة في التطور العاطفي قائما بالقسط بين النّية والطوية في تعامله مع الآخرين... " .ينظر كتابه: الأصول — ص322.

4 يرى إبراهيم أنيس أنّ الحركات الإعرابية ليس لها مدلول. ينظر كتابه: أسرار اللّغة — ص 237.

5 فاضل صالح السّامرّائي: الجملة العربية والمعنى — ص 34 .

تطلّبها جميعا دون استثناء، كما يبيّن الكفوي علاقة التّركيب بكلّ من مصطلحي التأليف والترتيب، يقول:« التّركيب ضمّ الأشياء المؤتلفة كانت أوّلا مرتّبة أو لا، فالمركّب أعمّ من المؤلف والمرتّب مطلقا»[1]، وقد جاء في كتاب التعّريفات أنّ«التّركيب جمع الحروف البسيطة ونظمها لتكون كلمة»[2].

ولا يخرج معنى المقابل الإنجليزي للتّركيب وهو كلمة structure عمّا تقرّرَ لها لغة في العربية، إذ إنّ لفظ structure مشتقّ من الفعل اللاّتيني ، ويفيد تراسك trask أنّ التّركيب « مجموعة العلاقات الأفقية syntagmatic relation التي تحمل بين عناصر جملة أوجزء فرعي لها، وبتعبير آخر هو الطّريقة التي توضع فيها هذه العناصر من أجل صياغة الجملة أوجزء منها»[3] وهو علم قائم بذاته يتأسّس في نظرنا على معرفة العلاقات بين الوحدات المكونة للقول باعتبار معانيها[4]، وليس مرادنا أن نبرز دور الدراسات التي أبداها النّحاة في وقت مبكّر ومقارنتها لما استُحدث من نظريات جديدة إذ أصبح التّركيب في الدراسة الألسنية يختصّ بدراسة بنية الجملة وتركيبها وتحديد نوعية العلاقات النّاظمة لها[5]، أو دراسة علاقات النّظام اللّغوي، وإنّما محاولة الرّبط بين مفهوم التّضامّ من جهة ودراسة العلاقات بين الوحدات التركيبية للجملة مثلاً ليتهيّأ من خلالها فهم تشكّل هذه الوحدات في بنية متواصلة ومتماسكة نحوياً ودلالياً.

علاقة التضّامّ ببعض القرائن الأخرى:

يمكن أن تتّضح هذه العلاقة فيما يكون بين الإسناد والتّضام من جهة، وبين الرّتبة والتّضام من جهة أخرى، لأنّ الإسناد قرينة معنوية مهمّة ودراسته «في الأساليب العربية وأنمـــاط الجملـــة

1 كتاب الكلّيات– ص288. أخذا عن: محمد عبد العزيز عبد الدّايم :النظرية اللغوية في التراث العربي– ص 288.
2 الشريف الجرجاني : التعريفات – ص 60.
3 المرجع نفسه — ص 254.
4 سعدي الزبير: العلاقات التّركيـية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية – مخطوط رسالة دكتوراه دولة– جامعة الجزائر– معهد اللغة العربية وآدابها– 1410هـــ/1989م– ص 46.
5 أحمد عرس الله: الجملة الفعلية البسيطة — 35. أخذا عن: لحسن بلبشير: التّركيب وعلاقته بالنّحو– مجلّة المصطلح– جامعة تلمسان مخبر: تحليلية إحصائية في العلوم الانسانية– ع01– مارس 2002م. – ص 215.

السائدة في التعبير اللغوي الفصيح من شأنها أن تميط اللثام عن أسرار التّركيب وأسس البيان»[1] إذ الإسناد في عرف النّحاة عبارة عن ضمّ إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التّامّة، وفي اللّغة إضافة الشّيء إلى الشّيء[2]، وإذا كان التضام يحمل معاني الاستلزام والجمع والارتباط فإنّ الإسناد من حيث المصطلح كذلك يقصد منه الرّبط الدّلالي بين أجزاء الجملة الذي يجعلها كلاما مفيدا يؤدّي معنى، وهو يقوم على أمرين متلازمين يساند أحدهما الآخر؛ التّركيب اللّغوي، الفائدة الدّلالية منه، وهو عند أهل البلاغة «ضمّ كلمة إلى أخرى، على وجه يفيد بثبوت إحداهما في الأخرى أو نفيها عنها»[3]، وهنا تتجلّى العلاقة بينهما ناهيك عن المصطلحات المستعملة نفسها من ضمّ، واستلزام، ونفي، وقد مرّت معنا في أكثر من مرّة، فكون الإسناد قرينة يعني أنّ له علاقة مع التّضام بطريقة أو أخرى دون الرّجوع به إلى مجاله النّحوي الذي يبحث في المسند والمسند إليه والعلاقة بينهما فذاك بحث على حده.

فعلاقة قرينة الرّتبة بقرينة التّضام إذا ما حاولنا إيجادها فنحن ملزمون بالنّظر إلى المحور الأفقي لدراسة اللّغة لأنّه يرتبط بعلاقات أجزاء التّركيب بعضها ببعض الذي يشمل فيما يشمل رتبة الكلمة[4]، وبالنّظر أيضا إلى بعض النّصوص النّحوية كقول ابن الأنباري:«والاسم لا تتقدّم صلته عليه، ولا يفرق بينها وبينه»[5]، ولعلّ هذه العلاقة تتّضح إذا اتّبعنا النّماذج التي مثّل بها في التّضام بين الموصول وصلته، و التّوكيد والمؤكّد، والتّمييز عن الفعل، وهو من قبيل ما يُعرف بالرّتبة المحفوظة، ومنه أيضا تقدّم حرف الجر على المجرور، والمضاف على المضاف إليه، والفعل

1 مبروك زيد الخير: العلاقات الإسنادية في القرآن الكريم وأثرها في البلاغة والإعراب– كلّية الآداب– جامعة الجزائر– 2007/ 2008م – ص أ من المقدّمة.

2 عدنان بن ذريل: اللّغة و الأسلوب – مراجعة وتقديم: حسن حميد– الأردن– مجدولاي للنشر والتوزيع– ط02– 1427هـ/ 2006م – ص 218.

3 الشريف الجرجاني: التعريفات – ص 27.

4 تمام حسان: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة – مجلّة فصول ، مجلّة النّقد الأدبي – مج 07– ع 03/04– ص 23.

5 الإنصاف في مسائل الخلاف – ج01 – ص 174.

على الفاعل، في مقابل الرّتب غير المحفوظة كرتبة المبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول به، والمفعول به والفعل[1].

ولقد تنبّه نحاتنا إلى ملاحظة « دور الرّتبة في الجملة ولكنّهم لم يعالجوها في مبحث مستقلّ؛ بل توزّعت على جميع أبواب النّحو، ولعلّ هذا التّوزيع يسبّب تضافر القرائن»[2]. ولا بأس أن نستعرض أهمّ الفروق التي تفصل بين قرينتي الرّتبة والتّضام:

- في حالة التّضام ندرس حالة واحدة فقط، وهي هل يمكن أن تتضامّ الكلمة (س) مع الكلمة (ص) ، أمّا في التّرتيب فإنّنا ندرس أحوالا أخرى هي: ما مدى إمكانية أن تأتي (ص) قبل (س) وهل هذه الإمكانية جائزة أم واجبة؟.
- إنّ التّضام دائما يكون بين كلمتين متتابعتين، أمّا التّرتيب فقد يكون بين كلمتين متتابعتين أو متباعدتين[3].

وهو ما خوّل لنا أن نبحث في العلاقة بين هذه القرينة وقرينة التّضام، لأنّهما من أبرز التي أولاها النّحاة القدامى اهتماما كبيرا باعتبارها مؤشّرا أسلوبيا ووسيلة إبداع ، وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبي[4]، بخاصّة في التّركيب القرآني.

التّضامّ والمنهج الشّكليّ:

لم يهمل النّحو العربي الجانب الشّكلي قديما، فقد أولى به اهتماما إلى جانب المعنى لأنّنا «نجد كثيرا من الأوصاف التي تعتمد على الشكل إلى جانب تلك المعتمدة على المعنى غير أنّه جعل المعنى أساسا للتّصنيف، أمّا الشكل فهو فرع على المعنى»[5]، وعلى الرّغم من اعتماد النّحو معيار الشّكل فإنّ هذا المنهج التّحليلي الشّكلي للّغة لا يصلح أن يطبّق على القرآن، إذ «لكلّ

---

1 اللّغة العربية معناها ومبناها – ص 207.

2 عبد اللّطيف حماسة: العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث – ص 314.

3 جلال شمس الدّين: الأنماط الشّكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيوية – ج01 – ص 117.

4 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 91.

5 جلال شمس الدّين: السّابق– ج01- ص 30

مستوى لغوي نُظمُه وأنساقُه»[1]، أمّا النّماذج المبثوثة في كتب النّحو والمعتمدة أحيانا هذه المعايير الشّكلية فإنّنا نجدها على هذا النّحو:

- المبتدأ اسم مرفوع يقع في أوّل الجملة غالبا وخبره إذا كان مفردا عادة ما يأتي بعده مرفوعا.
- لا يتغيّر موضع المبتدأ بالنّسبة للخبر إلاّ بشروط.
- الفاعل مرفوع رتبته بعد الفعل ولا يتقدّم إلاّ بشروط.
- الابتداء أن يقع الاسم في أوّل الكلام وهو وضع شكليّ[2]، إلى غير ذلك من الأمثلة.

ولا نعدم أن نجد كبار النّحاة يعتمدون معيار التّضام، وهو معيار شكليّ في تحديد بعض المسائل النّحويّة وتصنيفها، فابن مالك مثلا ينحو منحى شكليا يقتصر عليه في تقسيم الكلم حيث يقول في تحديد الاسم مبتعدا عن فكرتي الحدث والذّات المعتمدتين على المعنى إذ يقول:

بالجرِّ والتّنوينِ والنّدا وأل   ومسندٍ للاسم تميز حصل[3]

وفي تحديد الفعل يقول:

بتا فعلتَ وأتتْ ويا افعلِي   ونون أقبلنَّ فعل ينجلِي[4]

فأنت ترى أنّه استعمل هذه الخاصّية لتحديد أقسام الكلم وهو معيار شكلي.

والأمر نفسه حين استعمل هذا المقياس في تحديد الحرف حين قال:

سواهما الحرف كهل وفي ولم   فعل مضارع يلي لم كيشم[5]

فالأسماء تقبل مثلا تضام ياء النّداء إليها، أمّا الأفعال المضارعة فيمكن مثلا تمييزها بقبولها التّضام مع (لم) التي تسبقها، وبهذا تبيّن أن ابن مالك اتّخذ التّضام وهو معيار شكلي وسيلة من

1 المرجع السّابق – ج01- ص 22.
2 المرجع نفسه – ج01 – ص 30.
3 ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق محمد محي الدّين – ج01- ص16.
4 المصدر نفسه – ج01 – ص 22.
5 المصدر نفسه – ج01 - ص 23.

وسائل الكشف عن أقسام الكلام، والاعتماد نفسه كذلك اتّخذه ابن هشام في تعريف الاسم إذ يقول:« الاسم ما يقبل أل أو النّداء أو الإسناد إليه»[1]، على الرّغم من اهتمامه الشّديد بالمعنى في تقسيم الكلم، إذ يقول:« ودليل الحصر أنّ المعاني ثلاثة؛ ذات وحدث ورابطة للحدث بالذّات»[2] وقد حدّد أقسام الكلم مصرّحا أنّ:«الكلمة جنس تحته هذه الأنواع الثلاثة لا غير- اسم وفعل وحرف- أجمع على ذلك من يُعتدّ بقوله»[3]، فهو يعتمد معيار التّضام في تحديد الاسم وهو معيار شكلي، وكذا في تعريف المضارع إذ يقول:« علامات المضارع أن يقبل دخول (لم) كقولك: لم يقم، لم يقعد، ولابدّ من كونه مفتتحا من أحرف (نأيت) نحو: نقوم، تقوم، أقوم، يقوم»[4] وهو معيار شكلي. ومن الذين اعتمدوا معيار الشّكل في تحديد الاسم والفعل والحرف عبد القاهر الجرجاني، إذ يعرّف الاسم بقوله:« الاسم ما دخله التّنوين، نحو: زيدٌ، والألف واللاّم نحو الرّجل وحرف الجرّ نحو: بزيد، وجاز الإخبار عنه نحو: خرج زيد»[5]، ويعرّف الفعل بقوله:« ما دخله: قد، والسّين، وسوف نحو: قد قام، وتاء الضّمير وواوه وألفه، وتاء التّأنيث السّاكنة نحو: نعمت، بئست، وحرف الجزم نحو: لم يضرب»[6] ، ويعرّف الحرف جامعا بين الشّكل والمعنى بقوله:«الحرف ما جاء لمعنى ليس فيه معنى اسم ولا فعل نحو: هل، وبل، وقد، وثمّ»[7]. وكلّها وسائل شكليّة تعبّر عن علاقات تضام هذه الأقسام مع باقي الجزاء النّحويّة والكلمات والحروف.

---

1 شرح شذور الذّهب – مراجعة وتصحيح : يوسف الشيخ محمد البقاعي – ص 29.

2 المصدر نفسه – ص 27.

3 خالف هذا الإجماع جعفر بن صابر حيث زاد قسما رابعا سمّاه الخالفة، أي خليفة الفعل ونائبة في معناه وعمله وزمنه و أراد به اسم الفعل نحو: هيهات، وأف، وصه، غير أنّ ابن هشام لم يأخذ برأيه، لأنّ اسم الفعل يدخل في باب الاسم. ينظر : المصدر نفسه- ص26.

4 المصدر نفسه – ص 29.

5 كتاب الجمل في النّحو – 37.

6 المصدر نفسه – ص 38.

7 المصدر نفسه – ص 41.

ثالثا: التّضـــامّ في الموروث البــــلاغيّ.

لقد بات من الضروري العودة بالدّراســـات إلى أصـــولها الأولى وإنجـــازات السّـــابقين ومصادرهم ولا يمكن لنا بحال من الأحوال أن نضرب صفحا عن تلك الدّراسات، وما يكون لنا حقّا « إذا كنّا من أولي الألباب أن نلوي رؤوسنا إعراضاً عن كنوز هي عمر هذه الأمّة ومركّب جوهري من مركّبات ثقافتنا »[1]، ولقد آثرنا من هذا الإنجاز الضّخم التراثين النّحوي والبلاغيّ لما لهما من صلة بينهما وبين موضوع التّضام، ولقد تطرّقنا إلى قرينة التّضام وموقعها في الدّراســـات النّحوية التي انبثقت منها مفهوما واستعمالاً[2]. مرورا إلى الدّرس البلاغي في محاولة الرّجوع بالتّضام إلى الجذور البلاغية وإبراز أهمّ المحطّات الكبرى المتعلّقة بالتّضام في مباحث البلاغة وتاريخها، وقبل أن نشرع في هذه المباحث رأينا من الواجب ذكر اجتهادات التّراث البلاغي وأســـبقيته وبعـــض القضايا بإيجاز.

إنّ الدّرس البلاغي يشمل اجتهادات كثيرة، وعودتنا للتنقيب في التراث «ليس من بـــاب التعصّب له، ولا من جرّاء تأثير وَهْم التأصيل الذي نازع الكثيرين»[3] ولكنها ســـتكون مرجعيـــة تراثية نستند عليها في أثناء كلامنا عن علم المعاني والتّضام، ونظرية النّظم ومباحـــث التّضـــام ثم لسانيات النص والتّضام فيما بعد.

منذ نزول القرآن بدأت الدّراسات تزداد يومًا بعد يوم، فكانت هناك إرهاصات تلوح في أفق الثقافة العربية في شكل أسئلة وأجوبة « أغلبها تتعلق بمعنى الكلمة المفردة والبيـــت المفـــرد ثم بدأت تنمو هذه الدّراسة شيئاً فشيئاً حتى تجمّعت في التفاسير وبعض الشّروح الشّعرية وشـــروح الأحاديث»[4] ثم تكاثفت الدراسات وتوسّعت حتى انتقلت إلى دراسة النّصـــوص مـــن الـــدّاخل

---

1 سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية، آفاق جديدة – جامعة الكويت – فهرس مكتبة الكويت الوطنية– ط01– 2003م – ص 224.

2 إذ لا تعدو أن تكون دراسة تمام حسان لقرينة التّضام دراسة نحوية خالصة.

3 – رياض مسيس:لسانيات النّص، حول بعض المفاهيم والمرجعيات والأبعاد. مجلّة المبرّز– بوزريعة– الجزائر– عدد خـــاص بالملتقى الوطني حول"دور اللسانيات في العلوم الانسانية" فيفري 2002م – ص162.

4 سالم علوي: الدّرس النّحوي بين التّنظير والتّطبيق – مجلّة اللّغة والأدب – جامعة الجزائر– ع05– 1994م – ص 167.

وملاحظة العلاقات المؤلّفة للكلام، وعلاقة الكلم بعضه ببعض، فتشكّلت هناك عوامل ضـــرورية لدراسة النّص[1]، منها معرفة التّأليف الذي يقتضي التّناسق والتّجانس والتّلاحم كما تتلاحم اللّحمة في النّسيج ومعرفة معاني النّحو وتوخّيه و الرّبط بين النّص وقائله، إلى غير ذلك من العوامل الـــتي يمكن ملاحظتها في هذا الشأن، وقد كانت الدراسات القرآنية ملاذ العلماء وراحتهم، والمــورد العذب الزّلال الذي تصدق فيه هذه الدّراسات المرتبطة بإعجازه على اختلاف وجوهه سواء تعلّق الأمر بالمفردة القرآنية أو الجملة وما تجده فيها من التّلاؤم والاتّساق الكاملين بين كلماتها، وبـــين تلاحق حركاتها، فالجملة في القرآن تجدها:« مؤلّفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتآلفها السّمع والصّوت والنّطق، وسيكون من تضامّها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ما كـــان لــو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب»[2]، وإنّ هذا التّلاؤم والتّـــآلف والاتّســـاق والتّلاحق بين المفردات والجمل ليُعدُّ الرّحم الواصلة بين مباحث البلاغة وموضوع التّضام الـــذي تتوزّعه هذه العناصر: منزلة التّضام بين وجوه الإعجاز – التّضام في ضوء نظرية الـــنّظم – أثـــر السّياق في عملية التّضام – التّضام والمصطلح البلاغي.

- مدخل عام لعلم المعاني:

المعاني جمع معنى، ومعنى كل شيء كما في لسان العرب:« محنته وحاله التي يصـــير إليهـــا أمره. والمعنى والتفسير والتأويل واحد ... وعنيتُ بالقول كـــذا: أردت. ومعـــنى كـــلّ كـــلام: مقصده»[3]، والمعنى أيضا:« الصّورة الذّهنية من حيث إنّه وُضع بإزائها اللّفظ، أي من حيث تقصد من اللّفظ، وذلك إنّما يكون بالوضع »[4]. أمّا معنى علم المعاني فإنّه ذلك العلم الذي يُعـــرف بـــه أحوال اللّفظ العربي التي يُطابق بها مقتضى الحال، والمراد بأحوال اللّفظ ما يشمل أحوال الجمـــل وأجزائها، فأحوال الجمل كالفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، وأحوال أجزائها أحوال

1 المرجع السّابق – ص 169.

2 محمود السّيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن- القاهرة- مكتبة الكليات الأزهريـــة- ط01- 1398هـــ/1978م- ص 86.

3 ابن منظور: مادّة (عنا) – مج 15- ص 122.

4 محمّد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون – تقديم وإشراف ومرجعة: رفيق العجم- تحقيق:علي دحروج- لبنان- مكتبة ناشرون- ج02 – ص 1600.

المسند إليه والمسند والإسناد، ومتعلّقات الفعل، وهو من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون علـــى المباحث البلاغية المتعلّقة بالجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير، أو ذكر وحذف، أو تعريـــف وتنكير،أو قصد وخلافه، أو فصل ووصل، أو إيجاز وإطناب ومساواة[1]، وقد كان الأوائل يكتفون باستعمال كلمة المعاني مضافة إلى القرآن أو إلى الشّعر فيقولون: معاني القرآن أو معاني الشّعر، و لم يستقرّ علم المعاني إلاّ بعد فترة من الزّمن كان قد ظهر فيها ما يعرف بمعاني النّحو والنّظم،ويُعـــدّ كتاب" الأدب الصّغير" أوّل مصدر يشير إلى تسمية الصّياغة والنّظم التي صيغت فيمـــا بعـــد في نظريات أعقبتها دراسات قائمة بذاتها.

يقول ابن المقفّع(ت142هـ) موازيا بين نظم الكلام ونظم القلائد والفصـــوص:«فلـــيعلم الواصفون أنّ أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وَجدَ ياقوتـــا وزبرجدا ومَرجانا فنظمه قلائدَ وسموطا وأكاليلَ ووضع كلّ فصّ موضعه، وجمع إلى كـــلّ لـــون شبهه وما يزيده بذلك حسنا فسُمّي بذلك صائغا رقيقا، وكصاغة الذّهب والفضّة صنعوا منها ما يعجب النّاس من الحليّ والآنية»[2]، ليتلخّص مفهوم النّظم في كون الألفاظ موضوعة في مواضعها، حاله حال الصّائغ الواضع كلّ فصّ موضعه الأليق به، أمّا عبارة(معاني النّحـــو) الـــتي وردت في المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السّيرافي (ت368هـ) وأبي بشر متّى بن يونس في مجلس الـــوزير أبي الفتح، والتي رواها أبو حيان التوحيدي (ت414هـ)[3]؛ فلعلّها أقدم الإشارات إلى هذا المصطلح بمعناه القريب من البلاغة، في حين يُعدّ ابن فارس (ت395هـ) أوّل من أطلق عبارة"معاني الكلام"[4] على مباحث الخبر والإنشاء التي أصبحت أهمّ أبواب علم المعاني.

---

1 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها- لبنان- مكتبة ناشرون- ط02- 1996م- ص 631.

2 الأدب الصّغير – بيروت- دار صادر- د ط – د ت – ص 12، 13.

3 مما جاء عنه:"..فقال أبو سعيد: معاني النّحو منقسمة بين حركات اللّفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخّي الصّواب في ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك". ينظر كتابه: الإمتاع والمؤانســـة – صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين، أحمد الزين- بيروت- د ط – د ت – ج01 – ص 121.

4 ينظر كتابه: الصّاحبي في فقه اللّغة العربية وسنن العرب في كلامها – علّق عليه ووضع حواشيه: أحمـــد حســـن بســـج- بيروت- دار الكتب العلمية – ط01- 1418هـ/1997م – ص 133.

كلّ هذه المعاني والتّسميات والملاحظات العابرة شكّلت نظرية قائمة بذاتها كـــان لعبـــد القاهر الجرجاني(ت471هـــ) الفضل في النّهوض بها في حلّة جديدة ودراسة على حده بخاصّـــة في كتابه"دلائل الإعجاز"، على أنّ علم المعاني الذي سمّاه عبد القاهر معاني النّحو أو النّظم لم تُشر إليه كتب البلاغة الأولى، و لم يُستعمل بمعناه المعـــروف إلاّ علـــى يـــد السّـــكاكي(ت 626هـــ) إذ يقول:«علم المعاني هو تتبّع تراكيب الكلام في الإفادة وما يتّصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكرُه"[1]، ولـــيس القـــول بـــأنّ السّكاكي صاحب الفضل في ظهور المصطلح يعني إهدار تلك القرون السّابقة له، بل إنّ مباحـــث علم المعاني لم تُعدم يوما من الدّراسة، بل كانت" مدرجة ضمن الحلقـــات الموســـوعية لعلمائنـــا القدامى»[2]، والإشكالية التي تبقى محلّ نقاش هي أنّنا لا نتمكّن من عقد صلة بين معـــاني التّضـــام وعلم المعاني دون التّطرّق إلى قضايا النّظم والإعجاز أو دون الاستشهاد بالنّصوص البلاغية مـــن التّراث العربي، فإذا تمكّنّا من استقراء هذه النّصوص آن لنا التّطرّق إلى مباحث التّضام انطلاقا من مباحث علم المعاني في الجانب التّطبيقي في الفصلين الثاني والثالث من هذه الدّراسة.

- **منزلة التّضام بين وجوه الإعجاز:**

نبغي في هذا الفصل أن نقف عند بعض إشارات العلماء في إعجاز القـــرآن مـــن جهـــة البلاغة، ومحاولة إثبات أنّ التّضام بمفهومه الشامل الذي يعني الجمع والتأليف والرّبط والتّعليق جزء لا يتجزّأ من خصائص أسلوب القرآن ومميّزات مفرداته وتراكيبه.

وهذه الوقفة سوف لا تكاد تتجاوز ظلال قضيّة الإعحاز، إذ ليس من مهمّة البحـــث في النّشأة والتّطوّر والمذاهب والآراء، فلعلّ بحثا آخر ينهض بها، وإنّما البحث منوط أن يميط اللّثام عن بعض النّصوص المتعلّقة بأسلوب القرآن بتضامّ حروفه وكلماته وجمله.

1 كتاب مفتاح العلوم — بيروت —دار الكتب العلمية– د ط — د ت — ص 70.

2 محمّد حسين علي الصّغير: علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي — بغداد — وزارة الثقافة والإعـــلام– ط01– 1989م– ص 50.ومن هؤلاء العلماء الفراء، أبو عبيدة، الجاحظ ، القاضي الجرجـــاني، الرماني،الخطـــابي، العســـكري.. وستكون لنا وقفة عند هؤلاء العلماء في مباحث مقبلة.

إنّ مسألة إعجاز القرآن ووجوهه شغلت كثيرا من العلماء منذ فجر الإسلام، وتعددت رؤاهم لها، وتشعّبت أفكارهم فتنوّعت الدّراسات وتوسّعوا فيها على قدر تنوّع مناحي نظرهم فحصرها بعضهم في أربعة وجوه وبعضهم في عشرة أو أقلّ أو أكثر[1]، ومهما حاولنا أن نخرج برأي في قضية الإعجاز ومعرفة كنهه فإنّ محاولتنا لاشكّ ستبوء بالفشل لأنّ للبلاغة « وجوها متلثّمة ربّما تيسّرت إماطة اللّثام عنها لتجلّى عليك أمّا نفس وجه الإعجاز فلا »[2]. ولكن على الرّغم من ذلك فإنّ وجه الإعجاز الذي يخدم هذا الموضوع هو كونه معجزا في ألفاظه وأسلوبه وأن الحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية، وهو معجز في بيانه ونظمه[3]، وقد أردنا قضية الإعجاز أوّلا قبل كلّ قضية بلاغية لها علاقة بموضوع التّضام بسبب أنّ «الدّراسات السّاعية إلى بيان الإعجاز القرآني —كانت- سببا مباشرا في تطوّر الدّرس البلاغي ونضج مباحثه المختلفة إذ يرجع الفضل في وضع كثير من الأسس التي قامت عليها

---

1 يذكر القاضي عياض(ت544هـ) أن القرآن معجز من أربعة وجوه:"حسن تأليفه، صورة نظمه العجيب، الإخبار عن المغيبات، إخباره عن القرون السالفة". ينظر: الشّفا بتعريف حقوق المصطفى – خرّج أحاديثه: أحمد بن أحمد محمد بن يحيى المعروف بالشّمني- القاهرة- دار ابن الهيثم- ط01- 1427هـ/2006م – ص 237 وما بعدها. ويجعل القرطبي(ت671هـ) الإعجاز من عشرة وجوه .ينظر تفسيره: الجامع لأحكام القرآن- بيروت- دار إحياء التراث العربي- 1405هـ/1985م – ج01 – ص 71، 75. ويذهب السّكاكي إلى أنّ وجوه الإعجاز أربعة ثم أضاف وجها آخر خامسا رآه أحسنها، فقال:"هذه أقول أربعة يخمّسها ما يجده أصحاب الذّوق أنّ وجه الإعجاز هو أمر من جنس الفصاحة والبلاغة ولا طريق إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين؛ المعاني و البيان" ينظر: كتاب مفتاح العلوم – ص 243.ولمعرفة وجوه الأعجاز كذلك ينظر كتاب: البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزّركشي(ت794هـ)- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- القاهرة- مكتبة دار التّراث- ط03- 1404هـ/1984م – ج02- ص 93. وينظر: الإتقان في علوم القرآن: جلال الدّين السيوطي(ت911هـ) – عناية خالد العطّار- بيروت- دار الفكر- ط01- 1423هـ/2003م- ج02- ص467، 469. ومن المحدثين الذين كتبوا في وجوه الإعجاز: محمّد عبده: تفسير القرآن الكريم(المنار) —مصر- مطبعة المنار حيث جعل الإعجاز من سبعة وجوه. أمّا عبد العظيم الزرقاني فيجعل الإعجاز من أربعة عشر وجها. ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن – دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي وشركاه- ط03- د ت- ج02- ص 228.

2 السكاكي: السابق – ص 196.

3 منّاع القطّان: مباحث في علوم القرآن- القاهرة - مكتبة وهبة - ط10- 1417هـ/1997م- ص 254.

الدّراسات البلاغية بعد ذلك»[1]، ولئن كان التّضام بوصفه قرينة لفظية من القرائن النّحوية فإنّه في جانب الدّرس البلاغي لا يعني ما يعنيه في جانبه النّحوي، وكنّا قد أشرنا في مقدّمـــة البحـــث أنّ الدراسة في جانبها البلاغي ستنحو منحى غير الذي كانت عليه.

يورد القاضي عياض نصّا نستشفّ منه ذلك الرّبط والتّضام الذي يحصل بـــين كلمـــات القرآن وحروفه عند حديثه عن قصص القرآن وأخباره، يقول: «ثمّ هو في سرد القصص الطّـــوال وأخبار القرون السّوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان آيةٌ لمتأمّله من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصّة يوسف على طولها»، فـــإذا كان الفصحاء يعجزون عن الكلام ويجبُنوا أثناء عرض القصص والأخبار وسرد بعضها إلى بعـــض فإنّ القرآن لم يتّصف بما يوصفون به البتّة، ولك أن ترى حسن ارتباط بعضه ببعض وضمّ بعـــض كلمه إلى بعض، وهذا هو حال القرآن وديدنه في كلّ تركيب منه، وإنّ روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصّيغ، ثمّ طريقة النّسق والسّرد في الجملة ووجه الحذف والإيجاز في القرآن « على أتمّه وليس فيه اضطراب أو التواء، ولا يجوز فيه عذر ولا تسويغ وهو منه بحيث يدعو بعضه إلى بعض ويريد بعضه بعضا، ممّا ينفي التّصنّع والتّكلّف والمحاولة»[2]، وما أمر هذه العبارة الأخيرة عن مفهوم قرينة التّضام عند تمام حسان ببعيد؛ فكلاهما استدعاء كلمة لأخرى استلزاما وتواردا، تفصح عنـــه كلمتا:يدعو، ويريد. فمن الأولى الاستدعاء ومن الأخرى التوارد، وزاد الرّافعي أن قال:« ممّا ينفي عنه التّصنّع والتّكلّف والمحاولة» فلم يدع مجالا للشّكّ في شيء، وأنّ القرآن انفرد نظمه عن كلام العرب بروح التّركيب إذ تراه ينظر إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثمّ إلى تأليف هذا النّظم، فمن ههنـــا يتعلّق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الرّوح صفة واحدة؛ هي صفة إعجـــازه في جملـــة التّركيب[3]. وقد رأينا قبلا علاقة التّركيب اللّغوي بمعاني التّضام في جانبها النّحوي، وهاهي تلتقي مع النّظم والتأليف في الاحتمالات نفسها حتّى يصعب الفصل بينها وتمييز بعضها عن بعض، وأنّ

---

1 كما الدّين المرسي وأحمد المصري: دراسات في الإعجاز القـــرآني – الإســـكندرية – دار الوفـــاء- ط01- 2007م- ص 16.

2 مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة العربية – القاهرة- مؤســـة المختـــار- ط01- 1423هـــ/2003م- ص 203.

3 المرجع نفسه– ص 191.

جهات التّضام التي رأيناها في القواعد النّحوية بين الحروف والكلمات والجمل لتتكـــرّر في ســـرّ إعجاز القرآن بالنّظم بدءًا من الحروف وأصواتها إلى الكلمة وحروفها إلى الجمل وكلماتها.

وهكذا كاع القوم أن يأتوا بمثل هذا النّظم والتأليف وأن الانسان: « يطمع أن يخرج لــه ديوان كامل التّقسيم والتّرتيب، جيّد التّنسيق، مترابط متماسك في جمله وتفصيله كلمـــة وحرفـــا حرفا، فتلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنّى»[1].

- **التّضام في ضوء نظرية النّظم:**

الجذور البلاغية لمادّة (ضمم) ومعانيها:

ارتبطت مادّة (ضمم) بموضوع البلاغة وإعجاز القرآن في كثير من نصـــوص اللّغـــويين القدامى[2]، دالّة على معاني الجمع والتأليف[3]، ولعلّ ارتباطها بالوجه الذي له يقـــع التّفاضـــل في فصاحة الكلام من أقدم تلك النّصوص وأبرزها، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي(ت415هـــ) في بيان هذا: « اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنّما تظهر في الكلام في الضّمّ علـــى طريقة مخصوصة، ولابدّ مع الضّم من أن يكون لكلّ كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصّـــفة بـــأن تكون بالمواضعة التي تتناول الضّم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بـــالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع»[4]، فما تكاد تنهي النّصّ حتى تجزم أنّ أكثر الكلمة تردّدا فيه كلمة (ضمّ) والتي تلتقي في أكثر من معنى مع ما يدلّ عليه التّضام من جمع وائتلاف وتماسك والتئام بين الكلمات، فمزيّة الفصاحة – على اختلاف مفاهيمها عند البلاغيين- ترتبط ارتباطا وثيقا بمعـــنى الضّم والتضام، وبهذا التّضام تظهر وتبينُ بخلاف ما إذا بقيت فرادى معزول بعضها عن بعض، وقد

---

1 محمد عبد الله دراز: النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن- الكويت- دار القلم- د ط- 1957م – ص 153.

2 ليس من مهمّة البحث تتبّع هذه المادّة اللّغوية تاريخيا، وإنّما الاكتفاء ببعض الإشارات العابرة والاستعمالات الوفيرة لجملـــة من العلماء أمثال القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني وأضرابهما..

3 من ذلك ما قاله أبو هلال العسكري:"وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يســـتعمل فيها التّقديم والتّأخير والحذف والزّيادة إلاّ حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى، ويضمّ كلّ لفظة منها إلى شكلها وتضـــاف إلى لفقها". ينظر: كتاب الصّناعتين، الكتابة والشّعر- بيروت- دار الكتب العلمية- 1409هـــ/1989م- ص 179.

4 المغني في أبواب التوحيد والعدل – قوّم نصّه: أمين الخولي – القاهرة- مطبعـــة دار الكتـــب – ط01-1380هـــ/ 1960م- ج16- ص199.

وازن ابن طباطبا(ت422هـــ) بين النّسج والنّظم وجعل كلاهما بمعنى واحد هو ضـــمّ الكلمـــات بعضها إلى بعض متّفقة مع معاني النّحو أو النّظم بمعناه البلاغي، ومتّفقة مع الوزن، أي على البحر المبني[1] عليه الشّعر، و من ألطف ما تقرأ عن الضمّ والتّضام في القرآن الكريم قـــول ابـــن ســـنان الخفاجي(ت466هـــ):«ويكون القرآن في الطّبقة العليا لما ضامَّ تأليف حروفه من شروط الفصـــاحة التي التّأليف جزء يسير منها»[2]، ومن النّصوص المبكّرة التي تستعمل الضّم بمعنى المجاورة والتـــأليف والرّصف قول عبد القاهر الجرجاني(ت471هـــ) إثر تحليله لهذه الأبيات:

ولّما قضينا من مِنًى كلَّ حاجـــة ومسَّح بالأركانِ من هو ماسحُ

وشُدّت على دهم المَهارى رحالُنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننـــا وسالت بأعناقِ المطيّ الأباطحُ

يقول الجرجاني:« حتّى إنّ فضل الحسنة يبقى لتلك اللّفظة ولو ذُكرت علـــى الانفـــراد وأُزيلت عن موقعها من نظم الشاعر، ونسجه وتأليفه وترصيفه، وحتّى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي- وإن ازدادت حسنا بمصاحبة أخواتها واكتست بمضامّة أترابها- فإنّها إذا جليت للعـــين فردة، وتركت في الخيط، لم تعدم الفضيلة الذّاتية والبهجة التي في ذاتها مطوية والشّذرة من الذّهب تراها بصحبة الجواهر لها في القلادة، واكتنافها لها في عنق الغادة، وصلتها بريق جمرها، والتـــهاب جوهرها بأنوار تلك الدّرر التي تجاورها، و لألاء اللآلئ التي تناظرها وتزداد جمالا في العين.. »[3]، وقد استدلّ غير واحد بهذا النّص وغيره من نصوص عبد القـــاهر، وقارنهـــا بمـــا اســـتُحدث في الدّراسات المعاصرة وربط نظرية عبد القاهر في النّظم بما جدّ في الدراسات الحديثـــة[4]، علـــى أن وجهتنا حتّى الآن هي استعمالات قدامى البلاغيين معاني التّضام واحتمالاته.

1 عيار الشّعر:دراسة وتحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام- الإسكندرية – منشأة المعارف- ط03- د ت – ص 32.

2 سرّ الفصاحة- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1402هـــ/1982م- ص 100.

3 الأبيات في ملحق ديوان كثيّر عزّة- تحقيق:إحسان عبّاس-بيروت- دار الثّقافـــة- ط01- 1971م- ص 525. أســـرار البلاغة – صحّحه وعلّق على حواشيه: السيد محمد رشيد رضا- القاهرة- مكتبة ابن تيمية – د ط – د ت – ص 15.

4 لبيان أن مصطلحات المجاورة والنظم والمصاحبة هي ثمرة جهود عبد القاهر ودراساته ينظر: قضايا النّقد الأدبي بين القـــديم والحديث: محمد زكي العشماوي – بيروت- دار النهضة العربية- 1404هـــ/1984م- ص 293. وينظر: المرايا المقعّرة ،

في هذا السابق نلاحظ استعمالات لموادّ لغوية كثيرة مقاربة المفهوم كالتـأليف والرّصـف والمصاحبة والتّضام والتّجاور وكلّها ذات صلة مباشرة بموضوع التّضام في القرآن الـذي يعـالج تماسك الحروف والكلمات، وتراصّها وتراصفها ومصاحبة بعضها بعضا وتأليفها على وجه هـو غاية في الإعجاز، ومن مرادفات مادّة (ضمم) التي يستعملها عبد القاهر في الاستدلال على التأليف مادّة (نضد) حيث يقول:" الألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من الترتيب والتّركيب، فلو أنّك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتّفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجري وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في(قفا نبك من ذكرى وحبيب ومنزل) :منزل، قفا، ذكرى، من، نبك، حبيب. أخرجته من كمـال البيـان إلى محـال الهذيان"[1]، فقوله نضده ونظامه يعني: ضمّ بعضه إلى بعض متّسعا أو مركوما وقد أجراه في تركيب الكلام تجوّزا[2]، فأنت ترى كيف أردف النّضد بالنظام وكيف أن الألفاظ لم تكن لتفيد في شـيء بعيدا عن التأليف، وأنّ التأليف هو المزيّة في إفادة الألفاظ. ومن المصطلحات البلاغية الـتي تعـني التّضام بين الكلمات والجمل مادّة لفق في نحو هذا النّص:« ...وأنّ الأولى لم تلقِ الثانية في معناها وأنّ السّابقة لم تصلُح أن تكون لِفقا للتّالية في مؤدّاها»[3]، وإن كان التّلفيق يعدّ من السّرقات بحيث يلفق الشاعر بيته من عدّة أبيات لغيره؛ فإنّ مادّته اللّغوية تتّصل اتّصالا وثيقا بمعنى التّضام، فقولك: لفقت الثّوب ألفق لفقا بمعنى أن تضمّ شقّة إلى أخرى فتخيطها، ولفق الشّفتين ضمّ إحـداها إلى الأخرى فخاطهما.. وكلاهما لفقان ماداما مضمومتين[4]، فلاحِظ المعاني اللّغوية التي تحتملها هـذه

نحو نظرية نقدية عربية: عبد العزيز حمودة- الكويـت- سلسـلة عـالم المعرفـة- العـدد 272- - مطـابع الـوطن- 1422هـ/2001م- ص 255. 257.

1 أسرار البلاغة – ص 01، 02 من فاتحة الكتاب.

2 من كلام المحقّق – ص 02.وينظر مادّة(نضد) في لسـان العرب: ابن منظور: حقّقه وعلّق عليه ووضع حواشيه: أحمد عامر حيدر- راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم- بيروت- منشورات محمـد علـي بيضـون- ط01- 1424هـ/2003م – مج03- ص 519.

3 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز- ص 51.

4 ابن منظور: لسـان العرب – مج10- ص 397.

المادّة واستعمال عبد القاهر له في جانب البلاغة لترى أنّ معنى لفق مرادف- إن جاز ذلك- لمعنى التّضام والجمع والنّظم والتّأليف.

وتلتقي معاني الضّم والتضّام مع معاني النّظم ورسومه الذي به تنتظم أجزاء الكلام وتلتئم في هذا النص الذي جاء به الخطابي(ت388هـ) لبيان أنّ النظّم وجه من وجوه إعجاز القرآن حيث يقول:« أمّا رسوم النّظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنّها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعضه فتقوم له صورة في النّفس يتشكّل بها البيـــان»[1]، ولـــيس قوله:"يلتئم بعضه بعضا" بعيدا عن كون التّضام استلزام كلمة لأخرى حتّى تلتئم وتصبح كالشّيء الواحد بحيث لا يفصل بينهما، فهذا النّص على الرّغم من تعريفه لرسوم النّظم وأثرها في الألفاظ والمعاني إلاّ أنّ استعماله لكلمة اللّجام والزّمام والالتئام ليوحي بما توحي دلالة التّضام نفسها، ولك أن تبحث في دلالات هذه الكلمات لتدرك هذه الملاقاة، وكلّها نصوص تدور في فلـــك إعجـــاز القرآن اللّغوي والبلاغي على وجه الخصوص.

وفي باب التأليف والائتلاف يورد صاحب "الطّراز" نصّا طويلا يجمع فيه بين الائتلاف ومعنى الضّم والملاءة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[2]، حيث يقول:«..وهكذا حال الضّمأ فإنّه يُحرقُ كبد الانسان ويوُقد في فؤاده النّار، والضّحى يحرق جسده الظاهر، فلأجل هذا ضمّ كلّ واحد منهما إلى ما له به تعلّق لتحصل المناسبة»[3]، فلم تجئ الآية: فإنّك لا تجوع فيها وتضمأ وإنّك لا تعرى ولا تضحى، بل أراد مناسبةً أدخلَ من ذلك فجاء في هذا الصّدد بكلمتي(ضمّ) و(تعلّق) فضمّ كل واحد منهما إلى ما له به تعلّق شديدُ الصّلة بمقولة التّضام وعينها، وهو ما يعرب عنه نصّ آخر له:« فالألفاظ الرّائقة بمنزلة الدّرر واللآلئ وهو علم المعاني، وتأليفها وضمّ بعضها إلى بعض هو علم البيان، ثمّ وضعها في

---

1 بيان إعجاز القرآن- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله، محمد زغلـــول ســـلام- مصر- دار السلام- د ط- د ت – ص 33.

2 سورة طه – الآيتان 119.118.

3 يحي بن حمزة العلوي (ت8 74هـــ): الطّراز المتضمّن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجـــاز- تحقيـــق: عبـــد الحميـــد هنداوي- بيروت- المكتبة العصرية- ط01- 1423هـــ/2002م- ج03- ص 82.

المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها هو علم البديع»[1]، وهذا النّص في بيان علوم البلاغة المشتملة عليها آية من القرآن الكريم[2] يستعمل فيها كلمة التأليف مردفا إيّاها بكلمة الضّم حتّى كأنّهما الشيء نفسه.

ومن المعاني البلاغية التي تحملها دلالة الضّم والتّضام "الإلصاق" الذي تجده في تعبير حازم القرطاجني (ت 684هـ) عن القوّة التّاسعة وفي القسم الخاصّ بالمباني قائلا في موضع:« موضع القوّة التّاسعة: القوّة على تحسين وصل الفصول ببعض، والأبيات ببعض، وإلصاق بعض الكلام ببعض إلى الوجوه التي تجد النّفوس عنها نبوة»[3]، وقائلا في موضع آخر عند حديثه عن الوضع اللّفظي للكلام وما يجب فيه: «...ومن ذلك وضع اللّفظ إزاء اللّفظ الذي بين معنييْهما تقاربٌ وتناظر من جهة ما لأحدهما إلى الآخر انتساب، وله به علقة»[4]، فعند استقراء هذين النّصّين على اختلاف موضوعيهما تتبيّن تلك المعاني الوثيقة القربى بمعاني التّضام، فما استعمله البلاغيون في الّضم والنّظم والتّأليف اصطلح على تسميته حازم الإلصاق والوصل من جهة والتّقارب والتّناسب والعلقة من جهة أخرى.

فهل يعني إلصاق بعض الكلام ببعض ووصل الفصول بعضها ببعض غير ما يعني التّضام من استدعاء كلمة كلمةً أخرى على وجه الاستلزام، أم أنّ التّقارب والتّناسب والعلقة يعني غير ما يعني التّضام بين الكلمات على وجه التّوارد المعجمي الذي يبحث في المناسبة المعجمية بين مفردات التّعبير كما سبقت الإشارة إليه؟

أضف إلى هذه المعاني التي تحملها مادّة (ضمم) طائفة من المصطلحات النّقدية الأخرى تتوارد معها على نحو ما تجده في معاني الرّصف والنّسج والوحدة واتّساق البناء، فكلّها تدور حول ضمّ الشّيء بعضه إلى بعض، فالرّصف كما يقول السّجلماسي: « أهل الرّصف عند الجمهور هو

---

1 المصدر السّابق – ج03- ص 126، 139.

2 الآية المقصودة هنا قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. [سورة هود- الآية 44].

3منهاج البلغاء وسراج الأدباء – تقديم وتحقيق:محمد الحبيب بن خوجة- تونس- د ط- 1966م- ص 200.

4 المصدر نفسه – ص 224.

مثال أوّل قولهم: رَصَفَ بين قدميه ضمَّ بينهما، والرّصف حجارة مضمومة في مسيل، وهو يرادف النّضد»[1]، والرّصف عنده هو الجنس الخامس من أجناس البيان العشرة، قد أشرنا قبلا إلى كلمة (نضد) التي يستعملها مرادفة للرّصف، أمّا الوحدة فمعناها التّلاؤم والتّرابط والالتحام وكلّها ترادف من قريب أو بعيد التّضام في جانبيه اللّغوي والاصطلاحي، وقد جعل غيرُ واحد هذه الوحدة والاتّصال السّمة الموضّحة للقصيدة كما يبيّن الحاتمي:« أنّ القصيدة مثلها مثل خلق الانسان في اتّصال بعض أجزائه ببعض»[2]، وإنّ كان استدلاله في الشّعر بهذه الصّورة من الاتّصال فإنّه في القرآن من باب أولى.

وقولك وسق الليل واتّسق أي: انتظم، والطريق يأتسق ويتّسق: ينظمّ، ومنه اتّساق البناء الذي اصطلح عليه قدامة بن جعفر وقرنه بالسّجع[3]، أمّا النّسج فكذلك يعني التّضام والتّلاؤم والنّسج في اصطلاح النّقاد والبلاغيين هو الأسلوب أو التعبير عن المعاني والأفكار بألفاظ وعبارات يشدّ بعضها بعضا، ليصبح الكلام كالنّسيج الذي انضمّت خيوطه وترابطت وأصبحت محبوكة ليس فيها خيط مضطرب ولا لون ضال[4]، فما من مصطلح من هذه المصطلحات النّقدية إلاّ وله صلة بمعنى الضّم والتّأليف، ناهيك عن تلك المصطلحات البلاغية باعتبار أنّ المصطلحات البلاغية«أجزاء في صّورة البلاغة العامّة التي تتمثل في الضّم الفنّي، والعلائق السليمة، والتّعليق والمواءمة، والانسجام التي يتطلبها المقام والحال ويقتضيها الاعتبار المناسب»[5]، ليلخّص لنا هذا النّص معاني التّضام المحتملُ ورودها في الدّرس البلاغي، وفي اصطلاح البلاغيين، وحُقّ لعبد القاهر أن يكون نموذج هؤلاء في الاصطلاح مفهوما و استعمالا إلى جانب كثير من البلاغيين واصطلاحاتهم التي تخدم موضوع التّضام وتثريه أيّماإثراء، ولئن كانت معاني هذه المصطلحات

1 أبو محمّد القاسم السّجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع-تقديم وتحقيق:علاء الغازي- القاهرة- دار المعارف- ط01-1401هـ/ 1980م- ص 337.

2 حلية المحاضرة-ج01- ص215. أخذا عن: المرجع نفسه – ص 439.

3 جواهر الألفاظ- ص03. أخذا عن المرجع نفسه – ص 30.

4 ينظر: الموشّح للمرزباني – ص70. أخذا عن: المرجع نفســه- ص 424.

5 محمّد بركات حمدي أبو علي: البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل – عمّان – دار البشير- ط01-1412هـ/1992م – ص 55.

واحتمالاهّا تمتُّ إلى الموضوع من عدّة جوانب؛ فإنّ مصطلح النّظم الذي تجسّد فيما بعد في نظرية قائمة بذاهّا قد لا تقلّ أهمّيّة عمّا سبق، وعليه ستنظر الدّراسة في هذا الصّدد في مدى علاقة التّضام بنظرية النّظم، وسيكون موضوع التّضام في ضوئها.

التّضامّ في ضوء نظريّة النّظم:

إنّ المتتبّع لمادّة نظم في جانبها اللّغوي لا يجدها تخرج عن معنى الضّم والالتئام والتأليف[1]، وهذا المعنى اللّغوي نفسه وقفنا عنده في تعريف التّضام، فتضامُّ الشيء مع الشّيء يعني نظمهما واقتران بعضهما ببعض، ممّا يؤكّد مدى الصّلة الوثيقة بينهما على الأقلّ في الجانب اللّغوي ريثما يمضي البحث في رسم حدود التّضام بلاغيا في ضوء نظرية أقلّ ما يقال عنها إنّها أهمّ نظرية في الدّرس البلاغي قديمه وحديثه على مرّ العصور وكثرة الدّراسات.

لقد بحث العلماء عن المعجز في القرآن فتوسّعت الدّراسات وكثرت، واستحال أن يحيط بها كتاب لتعدّد المذاهب والآراء من جهة وتعدّد المصطلح والمفهوم من جهة أخرى، إلى أن استقرّ وجه الإعجاز في نظمه وتأليفه، وهنا صاحبت قضيّة الإعجاز ظهور مصطلح النّظم في الدّرس البلاغي، فكُتب له الذّيوع والاستعمال، وكثرت البحوث حتّى قيّد الله لها عبد القاهر الجرجاني فنهض بالنّظم إلى نظرية كاملة لها دعائم وأركان اصطُلح عليها نظرية النّظم، والتي تعدّ أهمّ نظرية في التراث العربي بصفة عامّة والبلاغي على وجه الخصوص.

لم يعدم الدّرس البلاغي قبل عبد القاهر الإشارة إلى قضية النّظم واستعمالاته في كتب السّابقين، فقد ارتبطت تسمية النّظم بابن المقفّع أوّل مرة ثمّ تناولتها الكتب، منسوبة هذه الكلمة إلى القرآن ومضافةً إليه على نحو ما نجده عند النّظّام(ت231هـ) في هذا النّص:«فأمّا نظم القرآن وحسن تأليفه فإنّ العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النّظم والتأليف»[2] وفي نصّ آخر:«الآية والأعجوبة في القرآن، ما فيه من الإخبار عن الغيب، أمّا النّظم والتأليف فقد كان

1 ابن منظور: لسان العرب –ج12 – ص 686.

2 عمر ملاحويش: تطوّر دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية – ص 328.أخذا عن: محمّد عبّاس: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني– مخطوط رسالة دكتوراه دولة – الجزائر– جامعة وهران– 1991م/1992م– ص 149.

يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أنَ الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم»[1]، وقــد أرجــع وجــه إعجازه إلى الصَّرفة فابتعد عن جادّة الصّواب كل البعد، وقد ردّ أقواله غير واحد من العلماء[2]، ثم ظهرت التّسمية في كتاب مفقود للجاحظ(ت255هــ) سمّاه"نظم القرآن"[3]، ليشــيع بعــد ذلــك الاستعمال على نحو ما نراه عند أبي هلال العسكري(ت395هــــ) إذ جعل بابا خاصاً بحسن النّظم وجودة الرّصف والسبك[4]، والرّمّاني(ت386هــ) حيث يقول:« حسن البيان على مراتب فأعلاهــا مرتبة ما جمع من أسباب الحسن في العبارة من تعديل النّظم حتّى يحسن في السمع ويسهل علــى اللّسان»[5]، و الخطّابي(ت388هــ) أيضا في كلامه عن النّظم والتأليف[6]، والباقلاّني(ت403هــ) الذي ينصّ على أنّ القرآن:«حدّ واحد في حسن النّظم وبديع التأليف والرّصف»[7]، والقاضــي عبــد الجبّار(ت416هــ) عند بيانه مزيّة الفصاحة والنّظم إذ يقول:« ولذلك لا يصحّ عنــدنا أن يكــون

---

1 فخر الدّين الرّازي(ت606هــ): نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – دراسة وتحقيق: سعد سليمان حمودة- الإســكندرية- دار المعرفة الجامعية- د ط – 2003م – 23، 24.

2 ينظر رأي النّظّام والرّدّ عليه في : ينظر:إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني (ت403هــ)- تحقيق: أحمــد صــقر- ط03- مصر- دار المعارف- ص 36. 188. 190. وكتابه: الإنصاف فيما يجب الاعتقاد ولا يجوز الجهل به- تحقيق:محمد زاهــد الكوثري- القاهرة- المكتبة الأزهرية- ط02- 2000م- ص 59، 60.وينظر: بيان إعجاز القرآن: الخطّــابي – ص 40. وينظر: النكت في إعجاز القرآن: أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني(ت386هــ) – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القــرآن- ص101. ينظر: الرّسالة الشافية: عبد القاهر الجرجاني –ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – ص 133. وينظر: كتــاب الانتصار والرّد على ابن الرّوندي الملحد:أبو الحسن الخياط- نقله إلى الفرنسية:ألــبير نصــري نــادر- بــيروت – د ط – 1957م- ص 28.وينظر: البرهان في علوم القرآن: بدر الدّين الزركشي(ت794هــ)- ج03 – ص 93.وينظــر:أثــر القرآن في تطوّر النّقد العربي، إلى آخر القرن الرابع الهجري: محمد زغول سلام- قدّم له: محمد خلف الله أحمــد- - مكتبــة الشباب- ط01- 1982م – ص 67 وما بعدها.

3 أشار الجاحظ إلى كتابه المفقود هذا في بداية كتابه"الحيوان". ينظر: كتاب الحيوان- بتحقيق وشرح:عبد الســلام محمّــد هارون- مصر- شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه- ط02- 1385هــ/1965م- ج 01- ص09. وينظــر: محمّد زغلول سلام: أثر القرآن في تطوّر النّقد الأدبي – ص 75.

4 كتاب الصّناعتين، الكتابة والشعر – حققه وضبط نصّــه: مفيــد قميحــة- بــيروت- دار الكتــب العميــة- ط02- 1409هــ/1989م- ص 177.

5 النكت في إعجاز القرآن – ص 98.

6 بيان إعجاز القرآن – ص 24، 25.

7 إعجاز القرآن – ص 37.

اختصاص القرآن بطريقة في النّظم دون الفصاحة التي هـــي جزالـــة اللّفـــظ وحســـن المعـــنى»[1] والمرزوقي(ت421هـ) الذي جعل التحام أجزاء النّظم أحد معايير عمود الشعر إذ يقول:« إنّهـــم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحّته، وجزالة اللّفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأبواب الثلاثة كثُرت سوائر الأمثال وتواردت الأبيات، والمقاربة في التّشبيه والتحام أجـــزاء النّظم والتئامها مع تخيّرٍ من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدّة اقتضائهما للقافية حتّى لا منافرة بينهما، فهي سبعة أبواب هي عمود الشّعر ولكلّ باب منها معيار»[2]، وابن سنان الخفاجي(ت466هـ) الذي يجعل نظم الألفاظ بعضها إلى بعض شـــرطا مـــن شرطيّ الفصاحة عنده[3]، إلى جانب أنّه يجعل النّظم مرادفا للنّسق[4] في بيان صحّة التخلّص من معنى معنى إلى معنى.

ومهما يكن من اجتهادات فإنّ فكرة النّظم لن:« تجد لنفسها القدرة الكاملة على الإحاطة والتّنظير الذي يخضع إلى مقياس الشّمولية كما هو الحال عند عبد القاهر في نظريته الشّبيهة بمبـــدأ التّخصّص في هذا المجال»[5]، وليس من مهمّة هذا البحث أن يعالج النّشأة والتّطوّر، بقدر ما يبحث قضيّة التّضام في مقابل نظريّة النّظم التي تعدّ عمدة الدّراسات البلاغية قديما وحديثا.

لقد جدّد عبد القاهر النّظم بثلاث كيفيات متكاملة؛ بما ليس هو، وبالتّعبير عن معناه عبارة مجملة وبتفصيل القول في شأنه، والبحث له عن أساس ملموس يتبيّن به فضل الكلام على اللّغـــة[6] والمتصفّح لـــ"دلائل الإعجاز"و"أسرار البلاغة" و"الرّسالة الشّافية"يلحظ أنّـــه لا يـــبرح يســـتدلّ بالقرآن ويتفاعل معه، ففكرة النّظم عنده هي«حصيلة اجتهاد أوصله إلى رؤية نقديّة اهتدى إليهـــا

---

1 المغني في أبواب التوحيد والعدل – ج16– ص 197.

2 أبو علي المرزوقي(ت421هـ): شرح ديوان الحماسة– نشر وتحقيق:أحمد أمين، عبد الســـلام هـــارون– بـــيروت– دار الجيل– ط01– 1411هـ/1991م– مج01– ص 09.

3 ينظر:سرّ الفصاحة – بيروت– دار الكتب العلمية– ط01– 1402هـ/1982م– ص 63.

4 المصدر نفســه – ص 268.

5 محمّد عباس: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني – ص 162.

6 ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس(مشروع قراءة): حمّادي صمّود – تونس– منشورات الجامعة التونسية– د ط – 1981م – ص 505.

في عمليّة تفاعله مع النّص القرآني وفي إدراكه لمنهجية التّفهّم لدلالة الإعجاز»[1]، ودليل هذا المفهوم للنّظم وهذا التّفاعل مع النّص القرآني هو تلك المواضع المتعدّدة التي يبرهن فيها على نظريته مــن خلال إقامة علاقات تربط بين مفردات اللّغة تتوخّى فيها معاني النّحو وأحكامه وذلك ضمن إطار ما يسمّيه التّعليق حيث يقول:« واعلم أنّك إذا راجعت نفسك علمتَ علما لا يعترضه الشّكّ أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتّى يُعلّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتُجعــل هــذه بسبب من تلك»[2]، أو حين يبيّن أنّ النّظم لن يوصف أو يستقيم إلاّ إذا قام على تــوخّي معــاني النّحو في ما نصّه:« اعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علــم النّحــو وتعمل على قوانينه وأصوله»[3]، فالنّظم على هذا الأساس لا يخرج عن العلاقات النّحويــة الــتي يتوخّاها المتكلّم، فلو أنّك:« عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جــاء واتّفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أُفرغ المعنى وأُجري وغيّــرت ترتيبــه الــذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في(قفا نبــك مــن ذكــرى حبيب ومنزل) :منزل، قفا، ذكرى، من، نبك، حبيب. أخرجته من كمــال البيــان إلى محــال الهذيان»[4]، فإذا راعى المتكلّم نظم الكلم بعضا مع بعض وتوخّى معاني النّحو بين هذه الكلــم لم يكن ليريد أكثر من مفهوم التّضام بين الكلم والعلاقات التّركيبيــة بينــها، فكلاهمــا- الــنّظم والتّضام- يبحث في الجمع والتّأليف بين الكلم وترابط أجزائه واستدعاء بعضه لــبعض بطــرق معلومة مخصوصة وليس كيف جاء اتّفق، وقد جعل عبد القاهر للضّمّ حتمية لازمــة في الإفــادة ومرادفا للبناء فينبغي:« أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التّأليف،وقبل أن تصير إلى الصّورة التي يكون بها الكلم إخبارا ونهيا وأمرا ونهيا وإخبارا وتعجّبا، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلاّ بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة»[5]، هذا من جهة؛ ومــن جهــة أخرى يجعل مفهوم الضّمّ بمعنى التّعليق، ذلك لأنّه :« ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلاّ وهو يعلــم

1 محمّد عباس: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني – ص148.

2 عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز – ص 58.

3 المصدر نفسه – ص 76.

4 عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة – ص 01، 02.

5 دلائل الإعجاز – ص 50.

ضرورة أنّ المعنى في ضمّ بعضها إلى بعض تعليق بعضها ببعض، وجعلُ بعضها بسبب من بعض، لا أن يُنطق بعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلّق»[1]، وهذا المفهوم للضّم واستعماله له يرجع بنا إلى استعمالات القاضي عبد الجبّار في بيانه مفهوم الفصاحة ومزيّتها حيث يُوصـــي الأديبَ الذي يروم سبقَ غيره أن:« يعلم أفراد الكلمات وكيفية ضـــمّها وتركيبـــها ومواقعهـــا فبحسب هذه العلوم والتفاضل فيها يتفاضل ما يصحّ منهم من رتب الكلام الفصيح»[2]، ومفهـــوم القاضي عبد الجبار للفصاحة كان مدعاة لعبد القاهر أن يقدح في آرائه ويطعن فيها، ويستبدل هذا المفهوم بالنّظم والتّعليق، و لم يقصره على مقولات الفصاحة التي تظهر في أفراد الكلمات عنـــده، ومن معرض حديثه عن القاضي عبد الجبّار والرّد عليه ما نصّه:«وذلك أنّهم قالوا إنّ الفصـــاحة لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنّما تظهر بالضّم على طريقة مخصوصة، فقولهم بالضّم لا يصحّ أن يُراد به النّطق باللّفظة بعد اللّفظة من غير اتّصال يكون بين معنييهما، لأنّه لو جاز أن يكون لمجرّد ضـــم اللّفظ إلى اللّفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل:"ضحك، خرج" أن يحدث في ضمّ "خرج" إلى "ضحك" فصاحة، وإذا بطل ذلك لم يبق إلاّ أن يكون المعنى في ضمّ الكلمة إلى الكلمة توخّي معنىً من معاني النّحو»[3]، وعلى الرّغم من اختلاف الاستعمالين[4] عندهما إلاّ أنّهما يتحدّثان عـــن المفهوم نفسه في كثير من الأحيان، إلى درجة تدفع بعضهم إلى إرجاع فضل نظريـــة الـــنّظم إلى القاضي عبد الجبار وليس عبد القاهر[5]. ولكن كفى بالجرجاني إلماما وإحاطة بهذا المشروع الوصفي الوصفي في النّظم المتوخّى في حكم النّحو[6]، ولعلّ استعمالات عبد القاهر لمادّتي الضّم والنّظم التي

---

1 المصدر السّابق – ص 336.

2 المغني في أبواب التوحيد والعدل – ج16– ص 208..

3 دلائل الإعجاز – ص 286.

4 من الواضح أن مصطلح الفصاحة عند يطابق ما عناه الأشاعرة بمصطلح"النّظم"، والمعتزلة استبدلوه بالفصاحة وتمسّكوا بـــه وظل الأشاعرة متمسّكين بالنّظم. ينظر: في البلاغة العربية، علم المعاني – محمود أحمد نحلة – بيروت– دار العلـــوم العربيـــة– ط01– 1410هـ/1990م – ص 15.

5 عبد العزيز حمودة: المرايا المقعّرة،نحو نظرية نقدية عربية – ص 234. و لا شكّ في أن القاضي عبد الجبار أراد بـــذلك أنّ الفصاحة راجعة إلى النّظام النّحوي ..والحقّ أنّ للقاضي عبد الجبار فضل السبق إلى وضع أسس نظرية النّظم، ولعبـــد القـــاهر فضل تفسيرها وإيضاح معالمها. ينظر: محمود أحمد نحلة: الســابق – ص 15.

6 بلملياني بن عمر: المنهج النّقدي في النّظم والتـــأليف لـــدى ابـــن ســـنان الخفـــاجي(ت466هـــ) وعبـــد القـــاهر الجرجاني(ت471هـ) – مخطوط أطروحة دكتورا دولة– جامعة تلمسان– 1424هـ/2003م–

فاق فيها استعمالات سابقيه[1] مع كثرة الشّواهد القرآنية والشّعرية كفيل بأن يجعل منه صــاحب نظرية متكاملة لها أركانها[2] وقواعدها، تلخّص في كونها:«تهتمّ بالنّص الأدبي ككيان له بنيانه داخل النّظام اللّغوي المؤلّف من وحدات متضامّة بعضها إلى بعض في المواقع اللاّئق بها في التّركيب لمــا يقتضيه السّياق بأبعاده النّحوية واللّغوية»[3]، وإذا أردنا استدلالا على أمر التّضام بمفهومــه الــذي يدعو إلى استلزام عنصر نحوي عنصرا نحويا آخر، واستلزام كلمة كلمةً أخرى فحريّ بنا أن نمعن النّظر في هذا النّص لعبد القاهر:« وإذا قد عرفت أنّ مدار النّظم على معاني النّحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجدها ازديادا بعدها، ثمّ اعلم أن ليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يُوضع لها الكلام، ثمّ بحسَب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض»[4]، فقوله:« ثم بحسب موقع بعضها من بعض» دليل على قرينة الرّتبة اللّفظية، وقوله :« واستعمال بعضها مع بعض » هو المعنى نفسه لقرينة التّضام، وإشارة إليه من حيث هو تطلّب إحدى الكلمتين الأخرى، واستدعاؤها إيّاها.، وبذلك حُقّ لهذه النّظريــة أن تكون:« أذكى محاولة لتفسير العلاقات السّياقية في تاريخ التّراث العربي إلى الآن»، فنظرية الــنّظم إذًا تقدّم حقيقة غاية في الأهمّيّة مفادها: « أن الكلام المفيد ما هو إلاّ حصيلة لتضامّ اللّفظ مع غيره من الألفاظ المناسبة له دلاليا، وذلك في إطار العلاقات النّحوية الجامعة بينها »[5]، ممّــا يــدعو إلى ملاحظة أن النّظم الذي هو نتاج عملية التّعليق[6] ما هو إلاّ الوجه الآخر الموازي لمفهوم التّضام مــا دام قوام كلّ منهما البحث في العلاقات النحوية الجامعة بين مفردات الكلام، لأنّ التعليق هو الذي

---

1 ينظر الملحق المتعلّق باستعمالات لفظة "الضّمّ" ومشتقاتها لدى القاضي عبد الجبار وعبد القاهر في آخر البحث.

2 يمكن حصر أركان نظرية النّظم في أربعة أركان هي: ترتيب الألفاظ حسب المعاني– التعليق النّحوي– تخيّر الموقع – معاني النّحو– ينظر تفصيلها في: البلاغة العربية، علم المعاني: محمود أحمد نحلة – ص 26 إلى ص 36.

3 محمّد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني – بيروت– دار الفكر المعاصــر – دمشــق– دار الفكــر– ط01- 1420هـ/ 1999م- ص 126.

4 دلائل الإعجاز – ص 81.

5 اسماعيل غازي اسماعيل دويدار: قرينة التّضام في القرآن الكلايم – ص 23.

6 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والرّبط في الجملة العربية – ص 11.

يُكسب الجملة معناها، أمّا الكلمات الحرّة فلن تكون كذلك[1]، فللتّعليق فاعليته وأثره في عمليـــة تركيب وتضام الكلمات سواء من النّاحية الدّلالية أو النّحوية وهو ما أجهد عبد القاهر نفسه لبيانه وعبّر عنه في نحو قوله:« ومعلوم أن ليس النّظم سوى تعليق بعض الكلم بعضها بـــبعض وجعـــل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث؛ اسم وفعل وحرف، وللتّعليق فيما بينها طرق معلومة ولا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما »[2]، وقد وصل الحال به أن يُشبّه من ادّعى أن انتظام الألفاظ واتّصال بعضها ببعض من غير معاني النّحو بالعنقاء التي تربّى والخصيّ الذي يلد، دعا من قال بذلك أن يريَه تلك المعاني وأماكنها فقال:« فإن كان ههنا مـــن يشك في ذلك، ويزعم انه قد علم لاتصال الكلم بعضها ببعض، وانتظام بعضها مع بعض معـــاني غير معاني النّحو، فإنّا نقول له:هات فبيّن لنا، وأرنا مكانها، و اهدنا لها »[3]، ومن يطلـــب نظـــم الكلم المفردة والجمع بينها من غير أن يتوخّى معاني النّحو فقد طلب ما كلّ المحال دونه، فكـــان مدار النّظم والتّعليق في كتاباته يعتمد النّحو ويوازيه، ولئن عُدَّ عند بعض الباحثين نحويا خالصا[4]؛ خالصا[4]؛ فإنّه جاوز قواعد النّحويين ومعاييرهم التّجريدية إلى نظرية النّظم بكلّ أساليبها الوصفية التّركيبية[5] فأصبح من :« صفوة العلماء الباحثين والدّارسين المحقّقين، ومن سدنة اللّغـــة العربيـــة وحماتها منهجا وتطبيقا، يحرص على إثبات عبقريتها بتعزيز من النّظم والإعجاز»[6]، ومعـــنى هـــذا الذي سبق عن النّظم والتّعليق أن توخّي معاني النّحو عند عبد القاهر في أواخر الكلمات ومعرفـــة الصّواب والخطأ بقدر المزية التي تعرض للمعاني النّحوية بحسب المقام ومعاني الأغراض التي يوضع لها الكلام وموقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض.

1 محمّد عبد اللّطيف حماسة: النّحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدّلالي– القاهرة– دار الشروق– ط02– د ت – ص 12.

2 دلائل الإعجاز – ص 13.

3 المصدر نفسه – ص 305.

4 محمّد عبد اللّطيف حماسة: النحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي – ص 27.

5 بلملياني بن عمر: المنهج النّقدي في النّظم والتـــأليف لـــدى ابـــن ســـنان الخفـــاجي(ت466هــــ) وعبـــد القـــاهر الجرجاني(ت471هـــ) – ص 250.

6 محمّد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني – ص 123.

بناء على ما تقدّم فإن نظرية النّظم كفيلة بأن تفسّر مفهوم التّضام الذي يكشــف عــن العلاقات الدلالية بين المفردات والجمل انطلاقا من توخّي معاني النّحو بينها وفاعليته في بناء الكلام العربي إنْ في مجال الوظيفة والتّركيب الممثّل في علاقات الاستلزام، وإنْ في مجال المعجم والدّلالــة الممثّل في علاقات التّوارد بحكم أنّ التّضام استلزام بين العناصر النّحوية من جهــة وتــوارد بــين العناصر المعجمية من جهة أخرى.

- **أثر السّياق في التضـــام:**

حسْبُنا في هذا المبحث أن نقف عند الوعي البلاغي بقيمة السّياق وأثره في عمليّة التّضــام كون السّياق أيضا من القرائن النّحوية الكبرى الدّالة على المعنى النّحوي إلى جانب الإعراب والبنية والرّبط والرّتبة والتّضام[1] الواجب مراعاتها في التّركيب القرآني.

والمقصود بقرينة السياق ما يكتنفه- السياق- من قيود تركيبية أو أشراط إفادة،أو همــا معاً[2]، وصلة كلّ هذا بالتّضام الذي يبحث استلزام العناصر النّحوية والكلمات وتوارد بعضها مع بعض، فما علاقة هذا الاستلزام والتّوارد ما داما يحدثان داخل سياق معيّن وهل للسّــياق أثــره فيهما؟

السّياق لغة من مادة(س وق)، والسوق معروف، يقال:ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقاً، وهو سائق[3]، وله معنى بعيد عن هذه الدّلالة بمعنى الموت، وجاء بمعنى نزع الــرّوح، أمّــا اصطلاحاً فهو استعمال الكلمة في اللّغة أو طريقة استعمالها أو الدّور الذي تُؤدّيه الكلمة[4]، أو هو مجموع ما يصاحب اللّفظ ممّا يساعد على توضيح المعنى[5]، والسّياق جسم حي، أو مجموعة مــن

---

1 تمام حسان: البيان في روائع القرآن – ص 12، 212.

2 المرجع نفسه – ص 08.

3 ابن منظور: لسان العرب – مج10- ص 199.

4 أحمد مختار عمر: علم الدّلالة- الكويت- مكتبة العروبة- ط01- 1402هـ/1982م- ص86.

5 حسين رفعت حسين: الموقعية في النّحو العربي- ص 21. المعاجم العربي في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث: محمد أحمد أبو الفرج- ص116. أخذا عن: جاسم محمّد عبد العبّود: مصطلحات الدّلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحــديث - بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1428هـ/2007م – ص 133.

المواقف والإمكانيات، وفيه تقاطعات مستمرّة[1] ويلاحظ أنّ هذه التّعريفات جاءت علـــى لســـان بعض العرب المحدثين[2]، لأنّ معاجم البلاغة النّقد لم تحفظ لنا مفهوم السّياق على الرّغم من معرفة العرب له وسبقهم في هذا المجال بقرون في دراساتهم وبحوثهم بتسميات ومصطلحات خاصّة بهم[3] كتسميتهم المقام والمقال والحال والمقتضى[4].

---

1 تامر سلّوم: نظرية اللّغة وجمال في النقد العربي – ص 318.

2 عرفت نظرية السّياق طريقها إلى الدّراسات اللّغوية في هذا العصر على يد ثلاثة من الرّوّاد اللّغويين العرب، أُرسِلوا في بعثات علمية إلى الغرب للحصول على درجة الدّكتوراه هؤلاء الرّوّاد هم: تمّام حسّان، كمال محمّد بشر، من جامعة القاهرة، ومحمود السّعران من جامعة الإسكندرية، وتتلمذ ثلاثتهم على يد "فيرث" أستاذ علم اللّغة بجامعة لندن ومؤصّل هذه النّظريـــة، فهـــم ينتمون إلى مدرسة لندن على اختلاف اتّجاهاتهم. فكان أن عرض تمام حسان لهذه النّظرية في عملين علميين لـــه: "منـــاهج البحث في اللّغة"، و"اللّغة العربية معناها ومبناها" ينظر: نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية: عبـــد المنعم عبد الجليل- الإسكندرية- دار الوفاء- ط01- 2007م- ص 311.

3 جاسم محمّد عبد العبّود : مصطلحات الدّلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحديث – ص 134.

4 على سبيل المثال ينظر:كتاب الحيوان: الجاحظ – ج03 –ص 43. حيث يقول:"وقد أصاب كلّ الصّواب الذي قال لكلّ مقام مقال". وقال في موضع آخر:"ولولا التحصيل والموازنة والإبقاء على الأدب والديباجة بشدّة والمحاسبة لما قالوا لكلّ مقام مقال". ج01- ص 201. وقوله أيضا:" ولكلّ مقام مقال ولكلّ صناعة شكل". ج03- ص 369. وينظر كتابه: البيـــان والتبيين:– تقديم وتبويب وشرح: علي أبو ملحم – ط01 –1408هـ/1988م – حيث روى فقال:" قال إسحاق بـــن حسّان بن قوهي: لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحد قط. فقيل له: فإن ملّ السّامع الإطالة التي ذكرت أنّها حـــقّ ذلـــك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كلّ مقام حقّه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام" – ج01 – ص 114. وقد روى أبـــو العبّاس المبرّد(ت286هـ) بيتا للحطيئة يقول فيه لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه:

تحنّن عليّ هداك المليك   فإنّ لكلّ مقام مقالا.

ينظر: الكامل- حقّقه وعلّق عليه ووضـــع فهارســـه: محمّـــد أحمـــد الـــدّالي- بـــيروت- مؤسّســـة الرّســـالة- ط02- 1418هـ/1997م- مج02- ص 732.

وروى أبو هلال العسكري ما نصّه:"..وقد بلغك ما أصاب عثمان بن عفّان رضي الله عنه أوّل ما صعد المنبر فـــارتجّ عليـــه فقال: إنّ اللّذين كانا قبلي كانا يعدّان لهذا المقام مقالا". ينظر: كتاب الصّناعتين- ص 31. وقد جـــاء في العقـــد الفريـــد:" البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللّفظ والخطّ والإشارة والدلالة، وكل منها له حظّ البلاغة والبيان وموضع لا يجوز فيه غيره، ومنه قولهم: لكلّ مقام مقال، ولكلّ كلام جواب". أحمد بن محمّد بن عبد ربّه(ت368هـ)- بيروت- مكتبة تحقيـــق التّراث- ج02- ص 115.ويقول الخطيب القزويني(ت739هـ):" وأمّا بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحـــال مـــع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف، فإنّ مقامات الكلام متفاوتة...وكذا لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام". ينظر الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع- بيروت- دار الكتب العلمية- د ط – د ت – ص 12.

إنّ السّياق يمثّل دلالة الكلمة مع كلمات أخرى وهو جزء من المدلول، ومن هنا يتكـــوّن لدينا نوعان منه:« مدلول الكلمة المفردة ومدلول السّياق وما يضمّه السّياق مثل الجملة والتّركيب والخطاب والنّص والقصيدة...إلى غير ذلك من الأشياء التي هي من تحدّد بالقرينة والنّظم »[1]، ولقد تعدّدت تقسيمات المحدثين للسياق وتنوّعت تحديداتهم له؛ ومن هذه التّقسيمات تكوّنـــت أربعـــة أنواع للسّياق مجملة في السياق اللّغوي، والعاطفي، وسياق الموقف، والسياق الثّقافي[2]، على أنّ أهمّ أنواعه قسمان: لغوي وغير لغوي[3]، حيث يشمل الأوّل السياق الصّـــوتي والصّـــرفي والنّحـــويّ والمعجمي والتّعبيري الذي يشمل بدوره السّياق المبتكر والسّياق الأسلوبي، أمّا غير اللّغوي فيشمل السّياق الثقافي والعاطفي[4]، على أنّ السياق اللّغوي هـــو الـــذي يـــرتبط بموضـــوع دراســـتنا باعتباره:«حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاورة وكلمات أخرى »[5]، وهذا النّظام وهذه المجاورة بين الكلمات التي يفرضها السياق اللّغوي هي ما تسنّى تسميته بالتّضام أو تـــوارد العناصر المعجمية أو استلزام الكلمات بعضها لبعض، لأنّ اللّغة ليس لهـــا أهمّيـــة إلاّ في ســـياقها الموقفي[6]، ولأنّ معنى الكلمة في حدّ ذاته هو مجمل السّياقات التي يمكن أن تنتمي إليها، وهو مـــا اصطلح عليه تمّام حسان "الماجريات" حيث قال:« بعد هذا الكلام عن وجهة النّظر الدّياكرونيـــة التّاريخية في تغيّر المعنى سنحاول في الصّفحات الآتية تلخيص نظرية أستاذنا فيرث في منهج الدّلالة وان نشرح الظّروف التي مرّ بها أهمّ اصطلاح من اصطلاحات هذه النّظرية وهـــو الماجريـــات أو context of situation »[7]، والسّياق اللّغوي هو المسؤول عن توضيح العلاقات الدّلالية التي تحدث من تضام المفردات والعناصر المعجمية، ويكفي إشارة إلى وعي القدماء بأثر السّياق في البنية والدّلالة إلى الفصل الذي عقده الزّركشي(ت794هـ) في ذكر الأمور التي تعين على المعـــنى عنـــد

---

1 جاسم محمّد عبد العبّود: مصطلحات الدّلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحديث – ص 137.

2 أحمد محمّد قدّور: مبادئ اللّسانيات – ص 295.

3 جاسم محمّد عبد العبّود: السابق – ص 140

4 ينظر هذه التقسيمات وتحديداتها: المرجع نفسه – ص 141 إلى ص 150.

5 أحمد محمّد قدّور: السابق – ص 295.

6 محمّد العبد: المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدّلالة– القاهرة– مكتبة الآداب– ط02- 1426هـ/2006م – ص 31.

7 مناهج البحث في اللّغة – الدار البيضاء– دار الثقافة – د ط –- 1407هـ/1986م – ص 285.

الإشكال، فجعل من هذه الأمور دلالة السّياق، فدلالة السّياق:«ترشد إلى تبيين الجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدّلالة وهو من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلطَ في نظيره، وغالط في مناظراته »[1]، فمعنى الكلمة لا يمكـن أن يتحدّد إلاّ إذا ورد مع مجموعة من الكلمات، وهذا التّوارد بين الكلمات لا يمكن أن نتوصّـل إلى معنى دقيق لأيّ كلمة منه إلاّ إذا تمعنّا في العناصر التي تقع معها في سياق لغوي يقبله أبناء اللّغـة[2] بخاصّة إذا كان تضام الكلمات ونظمها في كلامه سبحانه تعالى؛ من الواجب بمكان أن :« تربط الآية بالسّياق الذي وردت فيه ولا تقطع عمّا قبلها وما بعدها ثمّ تجرّ جرّا لتفيد معـنى أو تؤكّـد حكما يقصده قاصد »[3] لأنّ القرآن وحدة لا تتجزّأ « و تعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة بـين بعضها وبعض، ما يشبه الوحدة العضوية في أعضاء الجسد الواحد، فبعضها يؤثّر في بعض ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء »[4]، وستكون لنا وقفات في الفصلين الثّاني والثّالث والثّالث الخاصّين بالتّطبيق لنرى مدى أهمّيّة السّياق في تحديد البنية والتّضام والدّلالـة معتمـدين كغيرنا[5] سياقا خارجيا يُعنى بأسباب الترول ومعرفة النّسخ وقصّةٍ توضّح بعض مـا في القـرآن، وسياقا داخليا يُعنى بعلم المناسبة ودور العطف والإحالة في اتّساق النّص وتضامّه مـع التّكريـر والتّعليق والرّبط.

إذا رجعنا بالسّياق إلى دراسة البلاغيين فإنّنا نلمح وعيا بلاغيا بقيمته، وقد رأينا في المبحث الخاصّ بنظرية النّظم كيف أنّ هذه النّظرية استطاعت أن تكون أهمّ نظرية في الـتّراث النّحـوي والبلاغي، و لم يقتصر الأمر عند هذا، بل استطاعت أن تعلن عن ميلاد فكرتين تعتبران :« من أنبل ما وصل إليه علم اللّغة الحديث... هي فكرة المقال وفكرة المقام، وأنبل من ذلك أن علماء البلاغة ربطوا بين هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين أصبحتا شعارا يهتف به كلّ ناظر في المعنى، العبـارة

---

1 البرهان في علوم القرآن - ج02- ص200.

2 ينظر: علم الدلالة : أحمد مختار عمر – ص 74.

3 يوسف القرضاوي: كيف نتعامل مع القرآن الكـريم- القـاهرة- دار الشـروق – ط05- 1427هـــ/2006م – ص 238.

4 المرجع نفسه – ص 446.

5 ينظر: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية: هدى عطية عبد الغفّار – ص 203.

الأولى: لكلّ مقام مقال، والعبارة الثانية:لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام »[1]، فإذا أكّـدت العبـارة الأولى خطر العنصر الاجتماعي وهو عنصر المقام عند دراسة المعنى الدّلالي، فلعمرك إنّ العبـارة الأخيرة لتلخّص الصّلة بين ظاهرة التّضام في اللّغة العربية وبين المعنى اللّغوي الدّلالي الاجتمـاعي، وسيتّضح أنّ أقسام المقامات الاجتماعية ترتبط بتعبيرات يتمّ فيها التّضام بين الكلمـات مختلفـا باختلاف المقام[2]، ومن هذا قول عبد القاهر: «.. ولكن تعرض بسبب المعاني والأغـراض الـتي يُوضع لها الكلام، ثمّ بحسَب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض»[3] لبيان وجوب مراعاة الكلام وفائدته في نظم الكلام وتضامّ وحداته واستلزام بعضها بعضا وتوارد بعضـها مـع بعض.

إنّ التّركيب والسّياق هما اللّذان يمنحان الكلمات جمالا، ولو كانت الكلمـة بمفردهـا موضع التّمايز لما حسنت كلمة(الأخدع) في بيت الحماسة والبحتري وثقلت في بيت أبي تمام، بل كان يجب إمّا أن تحسن دوما وإمّا أن تثقل دوما، فلولا :« هذه العلائق التّركيبية لفقدت الكلمات نظام الارتباط فيما بينها، فهي أساس التّرتيب بين ما قدّم منها وما أخّر»[4]، فكلمة: الأخدع هذه في بيت الحماسة:

تلفّتُ نحو الحيِّ حتّى وجدتُني وجِعتُ من الإصغاء ليتا وأخدعا[5]

1 تمام حسان: اللّغة العربية معناها ومبناها – ص 18. حيث يقول الخطيب القزويني:"..وكذا لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام". ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع– ص 12.

2 تمام حسان: السّابق – ص 20. 21.

3 دلائل الإعجاز – ص 81.

4 عبد الله بن عبد الرّحمان أحمد بانقيب: مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرّماني(ت386هـ) إلى عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) – مخطوط رسالة دكتوراه– المملكة العربية السعودية– جامعة أمّ القرى– 1429هـ/2208م– ص 421.

5 اللّيت:جانب العنق. الأخدع:عرق في العنق. وهما اثنان نحو يمين وشمال. والبيت للصّمّة بن عبد الله القشيري من قصـيدته الشّهيرة:

حننتَ إلى ريّا ونفسـك باعدت مزارك من ريّا وشعباكما معا

ينظر: شرح ديوان الحماسة: أحمد بن محمّد المرزوقي– تحقيق: أحمد أمين، عبد السـلام هـارون – دار الجيـل– بـيروت– 1411هـ/1991م – ج02– ص 1218.

وفي بيت آخر للبحتري:

وإنّي وإنِ بَلّغتَني شرفَ الغِنى وأَعتَقْتَ من رقّ المطامع أخدعي[1]

قلنا – فكلمة الأخدع– لها من الحسن في هذين البيتين ما لا يخفى، بخلاف ما إذا قرأتها في هذا البيت لأبي تمام[2]:

يا دهرُ قوِّم من أخدعيك فقد أضججتَ هذا الأنام من خُرُقِك[3]

ممّا يبيّن أنّ للسّياق الذي ترد فيه المفردات متضاما بعضها إلى بعض دورا أساسا وفاعلا في دلالتها وجمالها بخلاف ما تراه إذا كانت كلماتٍ مفردةً وألفاظا مجرّدة؛ فالسّياق هو الذي يسمح بهذا التضّام الذي يضفي على الكلام روعة وجمالا، والتّضام بدوره يسمح بالكلام في سياق مستمرّ وفقا لمقتضى الحال دون إهمال لجانب الدّلالة أو الوضوح.

والكلمة على الرّغم من اختيار موقعٍ حسن لها داخل السّياق فإنّها لا تؤدّي وظيفتها ولا تكتسب خصوصيتها إلاّ إذا ضامّت أخواتها وتعلّق بعضها ببعض، ليكون لكلّ مقام هي فيه مقال ولكلّ منها مع صاحبتها مقام.

- **التّضام والمصطلح البلاغي:**

يعالج هذا المبحث قضيّة التّضام في ضوء مقولات بلاغية من الموروث العربي بغرض معرفة مدى التّداخل في المصطلح والاستعمال كما هو الحال بين التّضام ومقولات التّركيب والتّأليف والتّضام والسّبك، والتّضام ومباحث التماسك والبناء، والرّصف والتعليق والارتباط والمجاورة بدعوى أنّ: « المصطلح لا يعني تسمية جامعة مانعة للمسمّى كما يظن بعض النّاس، بل يُرمز إليه

1 أبو عبادة الوليد البحتري: الدّيوان –تحقيق: حسن كامل الصّيرفي – مصر – دار المعارف– ط03 – د ت – ص 1241.

2 ينظر :دلائل الإعجاز – ص 52 لمعرفة هذا الحكم.

3 الخُرْق والخُرُق: عكس الرّفق. وعدم إحسان التّصرف والحمق. ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التّبريزي– تحقيق: محمّد عبده عزام– القاهرة– د ط – د ت – ج02 – ص 402.

لصلة بين الرّمز والمرموز إليه، وهذه الصّلة تختلف قوّة وضعفا دائما على إحاطة بمعنى الشيء المسمّى اصطلاحا، ومن أجل ذلك كثيرا ما نقول: هذه الكلمة لغة معناها كذا، واصطلاحا كذا»[1]، لذلك سيكون هذا المبحث محاولة للرّجوع بالتّضام إلى مظانّه البلاغية واستعمالات البلاغيين وتعرّضهم له سواء بالمصطلح نفسه أو ما يجاوره من مصطلحات واستعمالات تربطه بها وشائج وعلاقات.

❖ التّضام ومقولات التّأليف والتّركيب:

جاء في لسان العرب في مادّة(ألف): قولك ألّفت بينهم إذا جمعتُ بينهم بعد تفرّق، وألّفت الشيء تأليفا إذا وصلت بعضه ببعض، ومنه تأليف الكتب، وتألّف تنظّم[2].

أمّا ركب فقولك:ركّب الشيء بمعنى:وضع بعضه على بعض، وقد اركّب وتراكب وركب الدّابّة علا عليها، وتراكب السّحاب صار بعضه فوق بعض، ومنه شيء حسن التّركيب[3].أمّا اصطلاحا فيحتمل معاني الائتلاف والتّلفيق والتّناسب والتّوفيق ومراعاة النّظير والتأليف المبيّن عن المعنى هو « ما يحدثه المولف للكلام من ضروب النّظم في الأسماء المفردة التي يستعملها من مضاف وغير مضاف، وفي الأبنية التي يستعملها من مبتدأ يسند إليه خبر أو فعل يسند إليه اسم أو شرط يعلّق به جواب»[4]. والتأليف هو جمع الأشياء المتناسبة من الإلفة وهو:«حقيقة في الأجسام ومجاز في الحروف، والتأليف بالنّسبة للحروف لتصير كلما والتنظيم بالنّسبة للكلمات لتصير جملا»[5]، وهذا المعنى غير بعيد عن معنى التّركيب الذي يجمع الحروف البسيطة وينظمها لتكون كلمة[6]، والتّركيب عملية فنّية ذات أبعاد صوتيّة ونفسية تتجاذب فيها

---

1 عبد الكريم خليفة: وسائل تطوير اللّغة العربية العلمية- مجلّة اللّسان العربي- المملكة المغربية- مكتب تنسيق التعريب بالرّباط- 1395هـ/1975م- مج12- ج01- ص 54.

2 ابن منظور – مج09 – ص 90، 10.

3 المصدر نفسه – مج01 - ص 428.

4 ينظر: شرح رسالة الرّماني: لعالم مجهول كأنه عبد القاهر الجرجاني- كشفه وعلّق عليه: زكريا سعيد علي- القاهرة- دار الفكر العربي- ط01- 1417هـ/1997م – ص 155.

5 محمّد عبد العزيز عبد الدّايم: النظرية اللغوية في التراث العربي- ص 253.

6الشريف الجرجاني: التعريفات – ص 60.

المعاني والألفاظ،وتجيء هذه على قدر تلك لا تزيد ولا تنقص[1]، وقد جاء التّركيب بمعـــنى ضـــمّ الأشياء مؤتلفة كانت أو لا، مرتّبة أو غير ذلك.

فإذا تمعنّا في هذه التعريفات وجدنا أنّها تدور كلّها على معاني الجمع والائتلاف، وأن معنى التّركيب الذي هو ما يحدثه المتكلّم من ضروب النّظم هو ضرب من ضمّ الكلـــم علـــى طـــرق مخصوصة وليس كيفما جاء واتّفق، يُستدلّ على ذلك بقوله: مبتدأ يسند إليه خبر، وفعل يُسند إليه اسم، وقد عرفنا أنّ الإسناد في عرف النّحويين هو ضمّ كلمة لأخرى، والتّأليف الذي يحـــدث في الحروف لتصير كلمات هو نفسه كذلك استلزام العناصر النّحوية والكلمات بعضه بعضا ســـواء على مستوى الكلمة الواحدة المتكوّنة من أصوات وحروف أو على مستوى أكبر مـــن ذلـــك، والتّأليف الذي يعني جمع الأشياء المتناسبة والمأخوذ من الإلفة غير بعيد عن معنى المناسبة المعجمية، فالأشياء المتناسبة هي التي يتوارد بعضها مع بعض، وهو نوع من طرق التّضام الذي عرفناه سابقا باسم التّوارد حيث تكون الكلمة صالحة لأن تليها كلمة معيّنة تتضامّ معها من حيـــث المعجـــم والدّلالة لا كيف جاء واتّفق. فكلّ استعمالات القدامى للتـــأليف والتّركيـــب بـــين الحـــروف والكلمات يصلح أن تكون مباحثها في التّضام، أضف إلى ذلك أنّ من القدامى من كـــان يـــربط أحوال التّأليف بالمعاني المركّبة فيكون بعضها آخذا بأعناق بعض، على نحو مـــا نجـــده في هـــذا النّص:« يجب مراعاة أحوال التّأليف بين الألفاظ المفردة والجمل المركّبة، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذا بعضها بأعناق بعض، وعندئذ يقوى الارتباط ويصفو جوهر نظام التّأليف ويصـــير حاله بمترلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء كالعقد من الدّرّ فُصلت أسماطه بالجواهر واللآلئ فخلُص على أتمّ تأليف وأرشق نظام »[2]. فهل هذا الأخذ والارتباط والتّأليف والبنـــاء والتّـــراصّ والتّلاؤم والعقد والنّظام يعني غير ما يعنيه التّضام بين الألفاظ المفردة أو الحروف المجرّدة؟.

لقد كان القدامى على وعي تام بضرورة مراعاة هذه الشّروط وغيرها،ونلتمس هذا الوعي من هذه النّصوص وتلك المباحث المبثوثة في كتبهم وأعمالهم، مثل ما تجده في منـــاهج دراســـاتهم العلمية في التراث، فقد صبّوا اهتمامهم بملاحظة العلاقات المؤلفة للكلام كالتّأليف الذي يقضـــي

1 فتحي أحمد عامر: بلاغة القرآن بين الفنّ والتاريخ –الإسكندرية- منشأة دار المعارف – د ط – د ت – ص 35.
2 يحيى بن حمزة العلوي: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – ج02- ص 120

تناسق النّص تجانسه وتلاحمه كما تتلاحم اللّحمة في النّسيج[1]، ولئن كان وعيهم على هذه الدّرجة من الدّقّة والفهم وهم يتعاملون مع نصوص شعرية أو نثرية فأجدر بالكلام أن يكون حقيقة وأوْلى مع القرآن الكريم الذي:« صيغ في أساسه على موادّ لغوية وعلاقات تركيبية وملابسات سياقية »[2] تشكّل المادّة الأساس لكلّ دراسة.

تستطيع أن تخلص من هذا المبحث بنتيجة مفادها أنّ القدامى حين عـــالجوا النّصـــوص وأمبرّوا على هذه العوامل كانوا ينطلقون من مفهوم عام وشامل، ولم يولوا اهتمامهم بالمصطلح في حدّ ذاته بقدر اشتغالهم بالموضوع والتّحليل، ولعلّ في هذه المترادفات واســتعمالاتهم للضّــم والتّأليف والتّركيب بالمعنى نفسه في كثير من الأحيان دليلا على ذلك.

❖ التّضام ومقولات السّبك والحبك:

ترد مادّة سبك دالّة على التّناهي في إمهاء الشيء، بمعنى الإسالة. من ذلك: سبكتُ الفضّة أسبكها سبكا، وهذا يستعار في غير الإذابة[3]، وسبّكه ذوّبه وأفرغه في قالب[4]، أمّا مـــادّة حبـــك فمعناها إحكام الشيء في امتداد واطّراد. يقال: بعير محبوك القَرى أي قويُّه، وحُبُك السّماء قـــال قوم: ذات الخَلق الحسن المحكم[5]. ومنه الشّدّ ، والاحتباك شدّ الإزار وإحكامه[6]. أمّا مـــن حيـــث الاصطلاح فإنّهما –السّبك والحبك- يتّســـمان بالإفصـــاح والإبانـــة والتّســـاوق، علـــى أنّ السّبك:«معيار يختصّ بالوسائل التي تتحقّق بها خاصّية الاستمرارية في ظـــاهر الـــنّص surface text ، ونعني بظاهر النّص الأحداث اللّغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الـــزّمني والـــتي

1سالم علوي: الدّرس النّحوي بين التنظير والتّطبيق- مجلة اللّغة والأدب- ص 169.

2 عبد الحليم بن عيسى: اللّســانيات والنّص القرآني- مجلّة الآداب والعلــوم الانســـانية- جامعـــة قســـنطينة- العـــدد03- 1424هـــ/2003م – ص 287.

3أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة – مج 03 – ص 129. وينظر: في البلاغة العربية والأســـلوبيات النّصّـــية: ســـعد مصلوح – ص 237.

4ابن منظور: لسان العرب – مج 10 –ص 438.

5 أحمد ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة- مج 02- ص 130.

6 ابن منظور: السّابق – مج 10 – ص 407.

نخطّها أو نراها »[1]، وأنّ معيار الحبك:« يختصّ بالاستمرارية المحقّقة في عـــالم الـــنّص textual world ، ونعني به الاستمرارية الدّلالية التي تتجلّى في منظومة المفاهيم concepts والعلاقات relations الرّابطة بين هذه المفاهيم، وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليـــات الإدراكيـــة المصاحبة للنّصّ إنتاجا وإبداعا وتلقّيا واستيعابا، وبها يتمّ احتباك المفاهيم من خلال قيام العلاقـــات أو إضفائها عليها إذا لم تكن واضحة مستعلنة على نحو يستدعي فيه بعضه بعضا، ويتعلّق بواسطته بعضه ببعض »[2].

إنّ ترجمة هذين المصطلحين من الدّراسات الغربية بُذلت فيها محاولات كثيرة في مقابل ما يُسمّى عندهم: coherence,cohesion فترجما إلى : التّماسك، والانسجام، والاتّســـاق، والالتحام، وعلى سبيل المثال قد ترجم تمّام حسّان coherence إلى الالتحام باعتبـــاره أحـــد المعايير النصّية السبعة[3] إلى جانب السّبك في مقابل cohesion ، والقصد والقبـــول والإعـــلام والتّناصّ والمقامية، في حين توصّل سعد مصلوح بعد إمعان نظر وطول تفكّر إلى السّبك مقـــابلا لمصطلح cohésion والحبك مقابلا لمصطلح coherence ولعلّها التّرجمة الأقرب إلى حقـــل الدّراسة في هذا المجال بخاصّة إذا تعلّق المصطلح بما يقابله في الموروث العربي، إذ السّـــبك مـــثلا: «أقرب شيء إلى المراد المفهوم، وأكثر شيوعا في أدبيات النّقد القديم »[4]. ولأنّ « البدء من الصّفر المنهجي يعني إهدار أربعة عشر قرنا من النّتاج اللّساني المتميّز، الذي هو إنجاز قوم هم مـــن أعلم الناس بفقه العربية وأسرار تراكيبها وذخائر تراثها، وما يكون لنا حقّـــا إذا كنّـــا مـــن أولي الألباب أن نلوي رؤوسنا إعراضا عن كنوز هي عمر هذه الأمّة ومركّب جوهري من مركّبـــات ثقافتنا »[5] وعلى هذا الأساس كان مرادنا أن نميط اللّثام قدر الإمكان عن قضيّة التّضام التي تجمـــع

---

1 سعد مصلوح : في البلاغة العربية والأسلوبيات النّصّية، آفاق جديدة– ص 237.

2 المرجع نفسه – ص 137، 138.

3 ترجمة كتاب: روبرت دي بوجراند: النّص والخطاب والإجراء – القاهرة– عالم الكتب- ط01- 1418هـ/1998م- ص 103.

4 جميل عبد المجيد: البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النّصّيّة– الإسكندرية– الهيئة المصـــرية العامّـــة للكتّـــاب- د ط – 1998م- ص 70، 71.

5 سعد مصلوح : في البلاغة العربية والأسلوبيات النّصّية، آفاق جديدة- ص 224، 225.

بين استلزام كلمة لأخرى وتواردها معها وربطها – القضيّة- بمعياري السّبك والحبــك اللّـذين يُعدّان من أهمّ معايير النّصية في الدّرس اللّساني قديمه وحديثه.

لقد قامت تنظيرات القدماء وتبصّراتهم في حبك الكلام وإيقاع المناسبة بين أجزائه علــى مادّة نصية تمثّلت أساسا في النّص الأدبي بصفة عامّة وفي النّص القرآني المعجز بصفة خاصّة عندما يتعلّق الأمر بأولئك الذين يشتغلون في حقل التّفسير وعلوم القرآن، فكان هــمُّ هــؤلاء العلمــاء البحث في الوسائل التي تجعل من النّص نصّا مترابطا وكلاّ لا يتجزّأ،والأسباب التي تمنحه التّجانس والاتّساق والتّضام بين حروفه وآياته وسوره، وفي ظلّ ذلك:« قدّم العلماء طائفة من التّصــوّرات والمبادئ التي ربطت حسن الكلام بحبكه وتناسب المعاني بين أجزائه ويمكــن أن نُحمــل هــذه التّصوّرات في مبدأ انتظام المعاني واتّصال الكلام ودلالته على الاستمرارية في النّص وأنّهم فهمــوا النّصّ وَحدة كلّيّة مترابطة الأجزاء متجانسة الدّلالات والمعاني والمضامين »[1]، ومن هذه النّصوص القديمة التي تستعمل السّبك استعمالا لا يدع مجالا للشّكّ في كونه معيارا أساســا في الإحكــام والتّراصّ قول الجاحظ:«وأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلمُ بذلك أنّــه قد أُفرغ إفراغا واحدا،و سُبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان»[2]، حيث يردف السّبك بالالتحام، وقد رأينا تمام حســان كيــف تــرجم coherence إلى الالتحــام و cohesion إلى السّبك، وإن كان الجاحظ في معرض حديثه عن الشّعر وليس القرآن، وله نصّ آخر يقول فيه:« ونحن – أبقاك الله – إذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجــاز ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أنّ ذلك لهم شاهد صادق مــن الدّيباجة الكريمة، والرّونق العجيب، والسّبك والنّحت، الذي لا يستطيع أشعرُ النــاس اليــوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلاّ في اليسير والنّبذ القليل »[3]،فقول الجّاحظ أفــرغ إفراغــاً واحداً،وسبك سبكا واحدا معيار رئيس في الحكم على جودة الشّعر أو البلاغة والكــلام المنثــور

---

1 محمّد العبد: النّص والخطاب والاتّصال – القاهرة- الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي- ط01-1426هـ/ 2005م- – ص 137.

2 البيان والتّبين – تحقيق وشرح: محمد عبد السلام هارون- القاهرة- مكتبة الخانجي- ط07- 1418هــ/1998م – ج01- ص 67.

3 المصدر نفسه – ج03 – ص 29.

كما بيّنه النّص الآخر ومنه حديث القاضي عبد العزيز الجرجاني(ت392هـ) عن الأسلوب والسّبك والحكم عن الشّعر بالسّبك[1] وحديث أبي هلال العسكري عن أبيات النّمر بن تولـــب[2]، وكـــلام أسامة بن منقذ في باب سمّاه:الفكّ والسّبك[3]، وقد جاء عن ابن قيمّ (ت751هـــ) كلام عن السّبك ومفهومه[4] ، ومنه تفضيل ابن الأثير(637هـ) لبعض الأبيات عن أخـــرى بالسّـــبك[5]، وابـــن أبي الأصبع (ت654هـــــ) في مبحث الانسجام[6]، وستكون لنا وقفات عند هؤلاء العلماء وغيرهـــم في المبحث الخاص بجهود العلماء في التّضام لذلك لم نلزم أنفسنا بتتبّع النّصـــوص خشـــية الإعـــادة والتّكرار مكتفيين بهذه الإشارات السريعة.

وقد يترابط السّبك بمعنى الرّبط عند بعض الباحثين[7] باعتباره ظاهرة في التّراكيب النّحويـــة وردت في اصطلاح النّقاد بهذا الاسم، فيكون السّبك بمفهوم البلاغيين ونُقّاد الأدب ظاهرة لا تقلّ شأناً في إحكام صياغة الجملة وتضامّ مكوّناها، ويكون بمفهوم النّحويين ذا وسائل ومظاهر ينتظم بعضها ببعض تبعا للمعاني النحوية، وتعتمد- هذه الوسائل- مبدأ الاعتماد النّحوي والذي يأتي«في مستويات صوتية وصرفية وتركيبة ومعجمية ودلالية. كما يتخذ أشكالا من التّكـــرار الخـــالص والتّكرار الجزئي وشبه التّكرار وتوازي المباني وتوازي التّعبير والإسقاط والاستدلال، وعلاقـــات الزّمن وأدوات الرّبط بأنواعها المختلفة، وكلّ أولئك إنّما يتحقّق في أنماط متداخلة متعانقة تتبـــاين من نصّ إلى نصّ،كما تتباين داخل النّص الواحد، وجدير بالذّكر أنّ هذه الظّواهر بعضها أو جلّها

1 الوساطة بين المتنبي وخصومه – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد بجاوي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي- د ط- د ت – ص 24. وص 100.

2 ينظر: كتاب الصّناعتين – ص 175.

3 ينظر: البديع في البديع في نقد الشّعر – ص 235.

4 ينظر: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان – دراسة وتحقيق:محمّد عثمان الخشن – القاهرة- مكتبة القرآن- د ط – د ت – ص 219.

5 المثل لسائر في أدب الكاتب والشّاعر- قدّمه وحقّقه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة- مصر- دار نهضة مصر- د ط – د ت – ج01 –ص 164.

6 ينظر: بديع القرآن- تقديم وتحقيق: حفني محمّد شرف – مصر –نهضة مصر للطّباعة و النّشر- د ط- د ت – ص 167. وكذلك دعوة الخطيب القزويني المتكلّم بأن يتأنّق في الكلام في ثلاثة مواضع من كلامه حتى تكون أعذب لفظا وأحسن سبكا وأصحّ معنى. ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة – ص 439.

7 تمّام حسّان: الخلاصة النّحوية – ص 90، 91.

في التّراث البلاغي والنّقدي عند العرب أشتاتا وفرادى »[1] ، وقد مرّت معنا مباحث التّضام المتعلقة بالتّركيب والمعجم والدّلالة، فلم يبتعد مفهوم السّبك في هذا الجانب عن مفهوم التّضــام حــول تلازم العناصر بعضها بعضاً على الأقل في البنية السّطحية للنّص فتكون جودة السّبك في مقابـل البنية السّطحية للنّص[2] أيّ قيود الجمل المتتابعة تتابعا مباشرا، وبالتّالي فالسّبك إذا كــان بمعنى التّرابط النّحوي سيعتمد لا محالة على وسائل لغوية هي ما يعتمده التّضام من عناصر نحويّة نفسها وستبقى مهمّة الحبك منوطة بالوحدة والاستمرار الدّلالي والتّشابك، ومهمّة الدّلالة والمعنى هـي الفرع الثّاني من أنواع التّضام الذي اصطُلح عليه التّوارد.

وليس الأمر حكرا على السّبك باعتباره مصطلحا له شواهده في تراثنا البلاغي؛ لأنّ الحبك أيضا قد نال عناية بالغة الأهمّيّة من قِبل النّقاد والبلاغيين.

وإذا كان الحبك لغويا يعني الشّد والإحكام فإنّه في معناه الاصــطلاحي:« خاصّــة مــن خصائص الارتباط بين الأشياء والأوضاع وبين مراجعها»[3] وهو:« أداة لغوية لفهم السّبك فهمـا أعمقَ نراه في روايات الجاحظ عن بعض منتجي النّصوص وفي إشارات ابن قتيبة وابــن طباطبـا والحسن ابن وهب وأبي هلال وابن رشيق عن الكلام المضموم إلى لفقه والكلام الآخــذ بعضـه برقاب بعض، وانتظام المعاني وتشاكل المصراعين وإبناء الموارد على المصادر»[4] وسنقف كــذلك عند هؤلاء الأعلام في المبحث الخاصّ بجهودهم ونحاول استعراض ما أمكن منها فيما يتعلّق بالحبك وغيره من القضايا ذات الصّلة بموضوع التّضام ومعرفة التّراث ما إذا كانت ما تزال به إمكانيــات مختلفة للتزوّد بأصول مرضية لتطوير علم لغوي نصّي عربي، وأنّه ليس دار خربة نسجت عليهـا العنكبوت في ضوء بعض المنظورات من هذا التّراث.

1 سعد مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات النّصّية، آفاق جديدة–ص 245. ينظر تفصيل هذه العناصر والمصــطلحات في مباحثها من ص245 إلى ص248.

2 سعيد حسن بحيري : علم لغة النّصّ، المفاهيم والاتّجاهات – مصر– جامعة عين شمس– الشّركة المصرية العالمية للنّشــر– لونجمان– ط01– 1997م– 226.

3 محمّد العبد: النّص والخطاب والاتّصال – ص 174.

4 المرجع نفسه – ص 174.

ما نودّ أن نستخلصه من هذا التّنظير حول السّبك والحبك وعلاقتهما بالتّضام أنّ التّضـــام كما عرفنا فرعيه الاستلزام والتّوارد اللذين يبحث أوّلهما في استدعاء العناصر النّحويـــة بعضـــها لبعض، ويعمل على ربطهما على الأقلّ من النّاحية النّحوية هو ما يُصطلح عليه في علـــم اللّغـــة النّصّي[1] السّبك المترجم عن cohésion أو بتعبير آخر الرّبط النّحوي[2]، أمّا الآخر وهو التّوارد فيبحث التّناسب المعجمي المقابل للحبك المترجم عن cohérence أو التّماســك الــدّلالي[3]؛ وبالتّالي فالرّبط إلى جانب التّماسك من هذه الزّاوية ما هو نظنّه يؤدّي إلى التّضام بشكل عامّ.

إنّ اصطلاح السّبك والحبك دعا بعض الباحثين إلى وصف القرآن الكريم بهما، فقد قيل في القرآن إنّه:« سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار على حين إنّها مؤلّفـــة مـــن حلقات...لكن على وجه من جودة السّبك وإحكام الرّصف، جعل من هذه الأجـــزاء المنتشـــرة المتفرّقة وحدة بديعة متآلفة تريك كمال الانسجام بين كلّ جزء وجزء، ثمّ بين كلّ حلقة وحلقة ثمّ بين أوائل السّبيكة وأواخرها وأواسطها »[4]، وهذه الوحدة والتآلف والتّماسك قد رأينا معانيهـــا مجموعة في احتمالات التّضام ومدلولاته، ولينظُرْ:« إلى الحرف ملاءمة واحتباكا وفي الكلمة بـــين الكلمتين تناسبا واطّرادا وفي الجملة إزاء الجملة وضعا وتعليقا »[5] مَن أراد مِنَ الشّعراء أو الكتّاب أن ينظم على مثل نظم القرآن، وأنّى يتأتّى ذلك، تعالى كلام الله عن ذلك علوّا كبيرا.

---

1 إبراهيم صبحي الفقّي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق- ج01- ص 36،وعلم اللّغة النّصي هو ذلك الفـــرع مـــن فروع علم اللّغة الذي يهتمّ بدراسة النّص باعتباره الوحدة اللّغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديـــدة أهمّهـــا: الـــرّبط والتّماسك.

2 إنّ الرّبط يمكن أن يتحقّق من خلال أدوات الرّبط النّحوي(الرّوابط) أما التّماسك فيتحقّق من خلال وسائل دلالية في المقام الأوّل.. فالأوّل ذو طبيعة خطّية والآخر ذو طبيعة دلالية. ينظر: علم لغة النّصّ، المفاهيم والاتّجاهات: سعيد حسن بحـــيرى- ص 122.

3 ينظر: العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتّصال: محمّد العبد – القاهرة- مكتبة الآداب- ط01- 1428هـ/2007م – من ص 42 إلى ص 46.

4 عبد العظيم الزّرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن – ج02- ص 212.

5 مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية – ص 155.

❖ التّضامّ ومقولات الرّصف والتّعليق:

الرّصف بمعنى ضمّ الشّيء إلى الشّيء ونظمه، تراصف القوم في الصّف قام بعضهم إلى لزق بعض، ورصف ما بين رجليه قرّبهما[1]، و الرّصف عند الجمهور هو مثال أوّل لقولهم:« رصف بين شيئين ضمّ بينهما.. والرّصف حجارة مضمومة في مسيل، وهو يرادف النّضد وذلك لملاحظة التّرتيب والنّظام فيه، ثمّ نُقل إلى علم البيان على سبيل نقل الأمامي الجمهورية إلى الصّنائع الحادثة والمعاني النّاشئة فيها من أجزائها لمناسبة موجودة بين المعاني الجمهورية والصّناعية»[2] .

أمّا التّعليق فإنّه من قولك: عَلِقَ بالشّيء عَلَقا وعلِقَه: نشب فيه. والتّعليق من علّق، فإذا قيل عُلّق بها تعليقا كان بمعنى ارتبط بها وأحبّها[3]، وهو في لسان علماء البيان مقول على حمل الشّيء لملازمة بينهما، ولا نريد بالتّعليق الذي يجيء في كتب النّقد والبلاغة بمعنى أن تعلّق مدحا بمدح وهجوا بهجو[4] أو ذلك التّعليق الذي يأتي المتكلّم فيه بمعنى في غرض من أغراض الشّعر ثمّ يعلّق به معنى آخر من ذلك الغرض يقتضي زيادة معنى من معاني ذلك الفنّ كمن يروم مدحا لإنسان بالكرم فيعلّق بالكرم شيئا يدلّ على الشّجاعة[5]، ولا التّعليق الذي بمعنى إبطال عمل أفعال القلوب لفظا ولا محلاّ وجوبا نحو:علمت أزيدٌ عندك أم عمرو، بخلاف الإلغاء فإنّ إبطاله لفظا ومحلاّ جوازا[6] كما هو عند النّحاة؛ وإنّما نقصد بالتّعليق ههنا تأليف الكلمات وارتباطها على وجه من المناسبة واللّزوم، فإذا تعمّقنا في هذه التّعاريف على قلّتها ألفيناها تُعرب عن معاني الضمّ والتّلفيق دليلنا في ذلك تلك النّصوص المبكّرة للرّصف والتّعليق، يقول الباقلاّني لبيان وجوه الإعجاز:«ليس الإعجاز في نفس الحروف وإنّما هو في نظمها وإحكام رصفها وكونها على ما أتى به النّبيّ-صلّى

1ابن منظور: لسان العرب – مج 09 – ص 144 .

2 أبو محمّد القاسم السّجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع-تقدم وتحقيق:علاء الغازي- القاهرة- دار المعارف- ط01-1401هـ/ 1980م- ص 337.

3 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها – ص 388.

4 أسامة ابن منقذ: البديع في البديع في نقد الشّعر: باب التّعليق والإدماج – ص 94.

5 ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان لإعجاز القرآن – تحقيق: حفني محمّد شرف- القاهرة- د ط – 1983هـ/1663م – ص 443. وكتابه: بديع القرآن – ص 171. وابن قيّم:الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ص 209.

6 محمّد علي التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون – ج01- ص 488.

اللّه عليه وسلّم»وليس نظمها أكثر من وجودها متقدّمة ومتأخّرة، ومترتّبة في الوجود وليس لهـــا نظم سواها»[1]، حيث يجعل من "عجيب النّظم وبديع الرّصف" الوجــه الــرّئيس مــن وجــوه الإعجاز[2]، فالرّصف يرادف النّظم في هذا النّص، وغيره من نصوص الباقلاني في كتبــه المتعلّقــة بإعجاز القرآن وبيانه.

ومن هذه النّصوص التي تجمع بين الرّصف والتّنضيد للاستدلال على بدائع الاستعارات في قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3] ما جاء به الشّريف الرّضي(ت406هـ) من أنّه سبحانه:« شبّه القرآن لذلك بالنّظائم المفصّلة التي يوافق فيها بين الأشكال تارة ويؤلّف بين الأضداد مرّة، ليكون ذلك أحسن في التّنضيد وأبلغ في التّرصيف، وهذه من بدائع الاستعارات»[4]، والقرآن على هذا المنوال من الرّصف والتّضام كلّه، والرّصف قد يكون في وصف الأشعار المحكمة معادلا للنّسج والصّياغة[5]، ولقد طالب حازم القرطاجني بـــ:« تحسين العبارات والتّأنّق في اختيار موادّها وإجادة وضعها ورصفها»[6].

إنّ ما جئنا به في هذا الصّدد لا يعدو أن يكون فيضا من غيض، ثمّ قمين بالذّكر أن يكون التّعليق الفكرة المركزية في النّحو العربي[7] وأنّ « أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن هي ما ذهب إليه عبد القاهر صاحب مصطلح التّعليق، وقد كتب دراسته الجادّة في دلائل الإعجاز تحت عنوان النّظم، وأورد في هذه الدّراسة أربعة مصطلحات هي: النّظم

---

1 التّمهيد- ص 151. أخذا عن: حمّادي صمّود : التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس(مشـــروع قراءة) – ص 493.

2 ينظر: نكت الانتصار لنقل القرآن- دراسة وتحقيق: محمد زغلول سلام – الإسكندرية- منشأة المعارف- د ط – د ت – ص 59.

3 سورة هود – الآية 01.

4 تلخيص البيان في مجازات القرآن – تحقيق وتقديم: علي محمّد مقدّم- بـــيروت- دار مكتبـــة الحيـــاة- د ط – 1984م- ص 101.

5 ابن طباطبا: عيار الشّعر – ص 32. وينظر موضوع الرّصف في ص 119.

6 منهاج البلغاء وسراج الأدباء –ص 222.

7 تمّام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها – ص 188

والبناء والتّرتيب والتّعليق»[1]، وصلة التّعليق بقرينة التّضام من هذه الجهة أنّ فهم التّعليق في نظر تمام حسان:«كاف وحده للقضاء على خرافة العامل النّحوي أو العوامل النّحوية لأنّ التعليق بواسطة القرائن يحدّد معاني الأبواب النّحوية في السياق»[2]، ولقد تصدّى للتعليق النّحوي بالتّفصيل تحت عناوين (العلاقات السّياقية) أو ما يسمّيه الغربيون syntagmatic relation ، والقرائن اللّفظية، وهذان البابان هما مناط التّعليق، وإنّ أهمّ ما وصل إليه الدّرس النّحوي نظريتان بارزتان هما نظرية التّعليق، ونظرية تظافر القرائن[3]، وهي ما عبّر عنه عبد القاهر بمصطلح الاتّصال ، أمّا نظرية التّعليق فهي نظرية تركيبية محكّمة توصّل إليها في دلائل الإعجاز، والمواضع التي تحدّث فيها عن التّعليق والنّظم كثيرة، منها قوله:« ..معلوم أن ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث؛ اسم وفعل وحرف، وللتّعلّق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام، تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق اسم بفعل وتعلّق حرف بهما»[4]، وقد مرّ معنا هذا النّص في أكثر من موضع، وها هو نصّ آخر يربط فيه بين ضمّ الكلم وتعليقها:« ذلك لأنّه ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلاّ وهو يعلم ضرورة أنّ المعنى في ضمّ بعضها إلى بعض تعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق بعضها في إثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلّق...وكان يكون المراد في إثر بضمّ بعضها إلى بعض تعليق معانيها بعضها ببعض، لا كون بعضها في النّطق في إثر بعض»[5]. فقد أعربَ النّص الأوّل عن ركن ركن أساس من أركان نظرية النّظم هو ركن التّعليق النّحوي وبيّن فيه طرائق هذا التّعليق فالألفاظ«لا توضع متجاورة دون تعلّق بعضها ببعض، وإنّما يرتبط بعضها ببعض بعلاقات نحوية»[6]، فاللّغة لا تتشكّل من مجموعة من الكلمات متجاورة من غير أساس، بل هي شبكة مترابطة من علاقات وكلّ علاقة منها لها دلالتها وخصوصيتها، ولهذا أولى عبد القاهر عناية كبيرة

---

1 المرجع السّابق – ص186.

2 المرجع نفسه –ص 186.

3 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والرّبط في الجملة العربية –ص 11.

4 دلائل الإعجاز – ص 14.

5 المصدر نفسه – ص 336.

6 محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني – ص 28، 29.

لما بين المفردات من علاقات، وأنّ هذه الأخيرة تحصل من ارتباط الكلم وتضامّ بعض أجزائها إلى بعض أو تراصّها بطرق معلومة ليتميّز نظم عن نظم.

وفيما يلي سنتعرّف على جهود ثلاثة من العلماء نحسبهم أثروا الدّرس البلاغي، بالخصوص إذا تعلّقت كتاباتهم بإعجاز القرآن من حيث النّظم والتّأليف، بعدما وقفنا عند نظرية النّظم وجهود بعض العلماء في النّظم والتّضام.

وهؤلاء الأعلام: أبو بكر الباقلاّني (ت403هـ)، و القاضي عبد الجبار (ت415هـ)، وعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) .

- **جهود أبي بكر الباقلاّني في التّضامّ:**

لقد تصدّى الباقلاّني(ت403هـ) لمسألة النّظم ضمن بحثه قضيّةَ الإعجاز، التي شغلت من مؤلّفاته ثلاثة كتب رئيسة هي:إعجاز القرآن، الانتصار، والتّمهيد، بيد أنّ كتابه "إعجاز القرآن" كان أقربَها إلى موضوع النّظم والتّأليف، وأوفرَها مادّة وتحليلا، لذا سنتّكئ في هذا المبحث على ما جاء في هذا الكتاب، في محاولة إبراز أهم المحطّات الكبرى التي أرجع فيها الإعجاز إلى النّظم العجيب والتّأليف البديع، وربط هذا بالتّضام، سواء بين الحروف أو الكلمات أو الجمل.

تناول الباقلاّني مادّة الضّم والتّضام في كتابه في أكثر من موضع، وجعلها مرادفة للجمع والاقتران، ومن هذه المواضع قوله:«...ومعنى رابع وهو أنّ كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بيّنا في الفصل والوصل، والعلوّ والنّزول، والتّقريب والتّبعيد، وغير ذلك ممّا ينقسم إليه الخطاب عند النّظم، ويتصرّف فيه القول عند الجمع والضّمّ »[1]، والمتتبّع لمفهوم الإعجاز عند الباقلاني يجده يرفض فكرة الإعجاز البلاغي الذي يتعرّض للتّحليل الجزئي للعبارة، فليس الإعجاز عنده في:«الحروف وإنّما هو في نظمها وإحكام رصفها، وليس رصفها أكثر من وجودها متقدّمة أومتأخّرة، ومترتّبة في الوجود وليس لها نظم سواها، وهو كتتابع الحركات، ووجود بعضها قبل

1 إعجاز القرآن – ص 38.

بعض، ووجود بعضها بعد بعض»[1]، فإذا ما حدث وأُفرِدت كلّ كلمة في القرآن بنفسها وجدتَها تصلح أن تكون عين رسالة، أمّا إذا أُلِّفَت ازدادت حسنا وإحسانا، وفي هذا الصّدد يقول:« ثمّ في آية آية، وكلمةٍ كلمةٍ، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النّظم وبديع الرّصف؟ فكلّ كلمة لو أُفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامّتها ذواتها، ممّا تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناه، ثمّ من قصّة إلى قصّة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل والوصل، وحتّى يصوِّر لك الفصل وصلا ببديع التّأليف وبليغ التّنزيل»[2]، فلعلّه اتّضح لك الآن ما يؤدّيه تضامّ الكلمات واقترانها بعدما تكون مفردة، بل إنّك ترى الكلمة:« تدلّ على نفسها وتعلو على ما قُرِن بها لعلوّ جنسها، فإذا ضُمَّت إلى أخواتها، وجاءت في ذواتها أرَتْك القلائد منظومة كما كانت تريك- عند تأمّل الإفراد منها- اليواقيت منشورة والجواهر مبثوثة »[3] فلم يدع مجالا للشّك في أنّ تضام الكلمات هو الذي ينهض بالتّركيب ويسمو به إلى حدّ الإعجاز، بل ويزيد مِن جمال المفردة ورونقها بعدما كانت مفتقرة إلى ذواتها، حتّى إذا ضامّت أخواتها خرج الكلام إلى منتهى النّظم وشريفه، وغاية التّأليف وبديعه، وأحسن الرّصف وعظيمه.

فهذه ثلاثة نصوص يستعمل فيها الباقلاّني مادّة الضّم للدّلالة على إعجاز القرآن من حيث نظمُ كلماته وتأليفها ورصفها، وأنّ المزيّة تحدث بتضامّها واقترانها بعضها ببعض، واستعمال بعضها في إثر بعض، إلى جانب الكثير من النّصوص التي يلح فيها على التّلاحم البياني بين الجمل وفصول الكلام.

- **جهود القاضي عبد الجبّار المعتزلي في التّضـامّ:**

لقد اتّخذ القاضي عبد الجبّار(ت415هـ) طريقة مخالفة لسابقيه في تناول إعجاز القرآن[4] فلم يركّز اهتمامه إلاّ على جهة الفصاحة، فكان الجزء الخاصّ بإعجاز القرآن من كتابه "المغني" موجّها

---

1 أبو بكر الباقلاني: التمهيد- ص 126. أخذا عن: أحمد جمال العمري: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، نشـأتها وتطوّرها حتى القرن الرابع الهجري- القاهرة- مكتبة الخانجي- د ط - 1410هـ/1990م. ص 210.

2 إعجاز القرآن — ص 190.

3 المصدر نفسه — ص 205.

4 ينظر: الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية وبيانية: عائشة عبد الرّحمان بنت الشّـاطئ — مصـر — دار المعارف- 1404هـ/1984م — ص 107.

إلى معرفة فصاحة القرآن، فكثرت نصوصه التي تقول بالفصاحة، وكونه معتزليا ظلّ متمسّكا بمصطلح الفصاحة يقابل به ما استعمله الأشاعرة كالنّظم الذي نادى به الباقلاّني مثلا، إلاّ أنّ عبد الجبار لم تخل دراسته من الإشارة إلى النّظم، بل إنّ الفصاحة تَرِدُ عنده بمعنى النّظم بحيث لا تُردُّ إلى لفظ أو معنى، بل إلى ضمّ الكلمات بعضها إلى بعض على نحو مخصوص، يقوم على تخيّر الألفاظ ومواقعها وإعرابها، فتجده يقول في هذا النّص:« إنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنّما تظهر في الكلام بالضّم، ولابدّ مع الضّم من طريقة مخصوصة، ولابدّ مع الضّم من أن يكون لكلّ كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصّفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضّم، وقد يكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثّلاثة رابع، لأنّه إمّا أن نعتبر فيه الكلمة أوحركاتها أو موقعها، ولابدّ من هذا الاعتبار في كلّ كلمة، ثمّ لابدّ من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضمّ بعضها إلى بعض، لأنّه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنّما تظهر مزيّة الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداه »[1] ليفصح عن مفهوم النّظم الذي هو مناط [illegible] لا تظهر قيمته إلاّ بضمّ الكلمات إلى أخواتها، وهذا هو مراد التّضام عينه، وواضح من هذا النّص أنّه:« ينظر إلى الكلمة نظرتين باعتبارين مختلفين؛ نظرة في حال إفرادها، ونظرة في نظمها مع غيرها من الكلام »[2] وفي كلا الحالين واقعة تحت تلك الأحوال الثّلاثة.

يُعدُّ النّظم عند القاضي عبد الجبار سببا لفصاحة الكلام من جهة، ووجها يقع به التّفاضل في الفصاحة من جهة أخرى، إذ لابدّ للأديب الذي يروم سبق غيره:« أن يعلم أفراد الكلمات وكيفية ضمّها وتركيبها ومواقعها، فبحسب هذه العلوم والتّفاضل فيها يتفاضل ما يصح منهم من رتب الكلام الفصيح»[3]، فانظر كيف يستعمل الضّمّ بمعنى التّركيب ويجعله وراء تفاضل رتب الكلام الفصيح. وفيما يلي استعمالاته لمادّة (ضمم) ومشتقاتها في الجزء السّادس عشر الخاص بإعجاز القرآن:

---

1 المغني في أبواب التّوحيد والعدل – ج16- ص 199.

2 عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السّابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها– بيروت– دار الفكر العربي– د ط – د ت – ص 226.

3 المغني في أبواب التّوحيد والعدل – ج16- ص 208.

مـــــــــــــــــــــادّة (ضمم) ومشتقّاتهـــــــــا	الصّفحـــــة
حتّى اجتهدوا في ضمّ ذلك	157
ضمّ إلى القرآن	162
تُضمّ إلى مواضع من السّور	165
إنّما تظهر في الكلام بالضّم	199
ولابدّ مع الضّمّ	199
بالمواضعة التي تتناول الضّمّ	199
إذا انضمّ بعضها إلى بعض	199
عند الانضمام	199
أن تعلم أفراد الكلمات وكيفية ضمّها وتركيبها	208
إذا انضمّ بعضها إلى بعض	210
إذا انضمّ بعضه إلى بعض	211
إذا انضمّ بعضه إلى بعض	212
وبين ما إذا انضمّ بعضه إلى بعض	212
كيفية ضمّه	213
إذا ضمّ على طريقة من الصّور المختلفة	223
أن يضمّوا	301
يضمّون إليه	351

لقد استطاع القاضي عبد الجبار أن يخلّص "المصطلح من الملابسات المعنوية التي حُفّت بـه في استعمالات الباقلاني وكرّسه للدّلالة على طرق التّركيب اللّغوي وكيفية ضمّ أفراد الكلمات"[1] وأن يحدّد مفهوما للفصاحة يبيّن به إعجاز القرآن الكريم بردّها إلى جزالة اللّفظ وحسن المعنى وربطها بالنّظم، وأنّها لا تظهر في أفراد الكلمات، وإنّما بتّضامها وتركيب بعضها إلى بعض وتعليق بعضها ببعض، وسنقف فيما يلي عند جهود عبد القاهر الجرجاني في تعرّضه لتأليف الكلمات وتضامّها، بعد أن تناولنا قضية التّضامّ في ضوء نظرية النّظم وجهود سابقيْه الباقلاني والقاضي عبد الجبار.

- **جهود عبد القاهر الجرجاني في التّضامّ:**

لقد بنى عبد القاهر تفكيره اللّغوي على أساس العلاقات التي تحدث بين الكلم، ولم يـول اهتماما بالألفاظ مفردة، بل ظلّ ينادي بما تُحدِثه هذه الألفاظ من تراكيب وعلاقات، وراح يبسط القول في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" من أنّ اللّغة ليست مجموعة من الألفاظ، وإنّما مجموعة من العلاقات تحدث بتضام هذه الألفاظ وتعلّقها ببعضها، وقد مرّ معنا أكثر من نصّ يشهد على صحّة هذا.

نفى عبد القاهر النّظر إلى المفردة قبل دخولها في التّأليف، ورأى أن لا سبيل إلى إفادتها إلاّ بضمّها إلى أخواتها، وبناء بعضها على بعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، وفي ذلك يقول:"ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التّأليف، وقبل أن تصير إلى الصّورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهيا، واستخبارا وتعجّبا، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلاّ بضمّ كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة"[2]، وها أنت تراه يبرهن على ما ذهب إليه بشواهد قرآنية وشعرية، فتجده يقف عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ

1 حمّادي صمّود: التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس الهجري- ص 494.
2 دلائل الإعجاز – ص 50.

أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]

فيقول: « ...فتجلّى لك الذي ترى وتسمع، وأنّك وجدتَ من المزيّة الظّاهرة والفضيلة القاهرة إلاّ لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشّرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثّانية، والثّالثة بالرّابعة وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها»[2]، وتجده يقف عند بيت لامرئ القيس يعيد ترتيبه ونظمه فيقول: «فقل في:(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل): من نبك قفا حبيب ذكرى منزلي، ثمّ انظر هل يتعلّق منك فكر بمعنى كلمة منها؟ واعلم أنّي لست أقول: إنّ الفكر لا يتعلّق بمعاني الكلم مفردة أصلا، ولكنّي أقول: إنّه لا يتعلّق بها مجرّدة من معاني النّحو»[3] فإذا كانت الألفاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، فمعنى ذلك أنّ:« الفكر لا يتعلّق بمعاني الألفاظ في أنفسها، وإنّما يتعلّق الفكر بما بين المعاني من علاقات، وهذه العلاقات ليس إلاّ معاني النّحو »[4] فأصبح الاهتمام بالرّوابط النّحوية وعلاقات الكلمات تجاورا وتباعدا من أساسيات نظرية النّظم عنده، لذلك قال في النّص الأوّل بارتباط الكلم و نادى في النّص الآخر بمعاني النّحو عند هذا الارتباط ووجوب مراعاة ترتيب الكلم ونظمها، وقد رأينا قبلا علاقة التضام بالتّعليق والتّرابط النّحوي، وأنّ كلاهما يهتمّ بتأليف الكلم وتضامّها وتعليق وبناء بعضها ببعض، وأنّ دخول النّحو يكفل بتحقيق الهدف النّظمي دون الإخلال بالجانب الدّلالي، وهو ما يقوله نصّ آخر يجمع فيه بين الأمرين:« وإذ قد عرفت أنّ مدار النّظم على معاني النّحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية تجد لها ازديادا بعدها، ثمّ اعلم أن ليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثمّ بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع

1 سورة هود – الآية 44.

2 دلائل الإعجاز – ص 51.

3 المصدر نفسه – ص 298.

4 محمّد عبد المطّلب: النّحو بين عبد القاهر وتشومسكي- مجلّة فصول- مج 05- ع 01- 1984م – ص 28.

بعض»"[1]، ففي قوله "موقع بعضها من بعض" إشارة إلى ما سمّاه النّحاة الرّتبة، أمّا قوله"استعمال بعضها مع بعض" فإشارة إلى أمر التّضام وهو موضوع بحثنا.

إنّ مفهوم الجرجاني للضّمّ والتّضام يدفعنا إلى قراءة بعض نصوص "دلائل الإعجاز" ومقارنتها بما جاء به القاضي عبد الجبار عن مفهوم الفصاحة، ولئن كان هذا الأخير ردّ إعجاز القرآن إلى فصاحته بجزالة اللّفظ وحسن المعنى وبالضّمّ على طريقة مخصوصة؛ فإنّ عبد القاهر يعرض به دون أن يسمّيه، ويعرض بمن ينادي باللّفظ وبالضّم على طريقة مخصوصة في أكثر من موضع في كتابه، مُرجِعا مفهوم الضّم إلى توخّي معاني النّحو ليس إلاّ، حيث يقول:« وذلك أنّهم قالوا: "إنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنّما بالضّم على طريقة مخصوصة" فقولهم"بالضّمّ" لا يصلح أن يراد به النّطق باللّفظة بعد اللّفظة من غير اتّصال يكون بين معنييهما، لأنّه لو جاز أن يكون لمجرّد ضمّ اللّفظ إلى اللّفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل:"ضحك خرج" أن يحدث في ضمّ"خرج" إلى "ضحك" فصاحة، وإذا بطل ذلك لم يبق إلاّ أن يكون المعنى في ضمّ الكلمة إلى الكلمة توخّي معنى من معاني النّحو، وقولهم"بالضّمّ على طريقة مخصوصة" يوجب ذلك أيضا»[2] بله تجده يتصدّى لمن شبّه ضمّ الكلم وتأليفها بضمّ غزل الإبريسم بالقدح والتّفنيد إذ يقول:« وإنّا لنرى أن في النّاس من إذا رأى أنّه يجري في القياس وضرب المثل أن تُشبَّهَ الكلمُ في ضمّ بعضها إلى بعض، بضمّ غزل الإبريسم بعضه إلى بعض، ورأى أنّ الذي ينسج الديباج ويعمل النّقش والوشي لا يصنع بالإبريسم منه شيئا غير أن يضمّ بعضه إلى بعض، ويتخيّر الأصباغ المختلفة المواقع التي يعلم أنّها إذا أوقعها فيها حدث له في نسجه ما يريد من النّقش والصّورة، جرى في ظنّه أنّ حال الكلم في ضمّ بعضها إلى بعض وفي تخيّر المواقع لها حال خيوط الإبريسم سواء، ورأيت كلامه كلام من لا يعلم أنّه لا يكون الضّم فيه ضمّا ولا الموقع موقعا، حتّى يكون قد تُوُخّي فيها معاني النّحو، وأنّك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخّى فيها معاني النّحو لم تكن صنعت شيئا تدعى به مؤلّفا، وتُشبَّه معه بمن عمل نسجا أو صنع على الجملة صنيعا، ولم

1 دلائل الإعجاز– ص 81.

2 المصدر نفسه – ص 286.

يتصوّر أن تكون قد تُخُيِّرت لها المواقع»[1]، ونصوصه عن الضّمّ كثيرة نكتفـــي منـــها بإحصـــاء استعمالاته لمادّة(ضمم) ومشتقاتها في كتابه"دلائل الإعجاز":

مـــــــــــــــــــــــادّة (ضمم) ومشتقّاتهـــــــا	الصّفحة
قد ضُمَّ	13
وضَمٍّ	46
وضَمٌّ	46
بضَمٍّ	50
ضَمُّ	54
يضمّمونه	66
وينضمُّ	81
في ضمٍّ	87
فضممتَ	88
مضمومة	130
وينضمُّ	154
فضممتَه	165
أن تضمَّها	165

1 المصدر السّابق – ص 271.

لضمّ	166	
ويضامّه	166	
وتضمّه	167	
ومَضامًّا له	173	
مضمومةً	173	
إلى ضامٍّ	174	
يضمُّه	174	
مضموما إليه	187	
مضموما	188	
في انضمام	261	
في ضمٍّ	271	
بضمٍّ	271	
أن يُضمّ	271	
في ضمّ	271	
يكون الضّمّ	271	
فيها ضمًّا	271	
في ضمّ	272	
عن ضمّ	272	

بالضّمِّ	286	
بالضّمِّ	286	
ضمّ	286	
في ضمّ	286	
في ضمّ	286	
إذا ضُمَّ	336	
في ضمّ	336	
إذا ضُمَّ	336	
بضمّ	336	
مضموما	340	
أنّك تضمُّ	389	
قد ضممتَ	389	
كمن يضمُّ	389	
بانضمام	390	
بانضمام	390	
لأن يُضَمَّ	393	
إذا ضممتَه	395	

يظهر للعيان أنّ معاني الضّم لم تبق متداوَلة عند القاضي عبد الجبار لتظهـــر بهـــا مزيّـــة الفصاحة فقط، بل استُعملت بمعنى التّأليف والتّركيب والبناء والتّعليق، وكانت جنبا إلى جنب مع النّظم كون أحدهما ممّا يجب توخّي معاني النّحو فيه، فتوخّي معاني النّحو شرط أساس في تضـــامّ الكلمات بعضها إلى بعض، ثمّ إنّ استعمالات عبد القاهر لمادّة الضمّ والتّضام تفوق اســـتعمالات القاضي عبد الجبار لها على الرّغم من اهتمام عبد القاهر بالنّظم ومعاني النّحو والتّعليـــق في بيـــان إعجاز القرآن، إلاّ أنّ هذا لم يمنعه من أن يجاري سابقيه وحُقّ له أن يحوز قصب السّبق في مســـألة التّضام وغيرها من مسائل النّظم والإعجاز.

رابعا:التّضامّ في الدّرس اللّسانيّ الحديث:

01. التّضام والمنهج الوصـفي.

لقد أطلّت إلى سماء الدّراسات اللّغوية الحديثة مناهج جديدة ترفض القـــديم، وتقـــدح في الدّراسة التّاريخية للّغة، والمعايير المجرّدة، وأصبحت تعتمد الدّراسة الوصفية الآنية للّغـــة، وتوجّـــه الاهتمام إلى العلاقات المؤلّفة للكلام، والتّعمّق إلى مداخل النّص، ورفض كلّ ما تعلّق بالتّصوّرات السّابقة لهذا النّص، وهكذا اللّغة فإنّ:« صاحبها لا يحتاج أن يعرف شيئا عـــن اشـــتقاق كلمـــة أوتاريخها كي يستعملها، ومن ثمّ فإنّ تناول اللّغة ينبغي أن يكون أفقيا أو على القطع الأفقي، ومنذ ذلك الحين وجد مصطلحا diachrony و synchrony طريقهما إلى البحث اللّغوي ليشـــير الثّاني منهما إلى المنهج الوصفي »[1]، وفي إثر ذلك قامت أصول ونظريات في أوربا على أنّ اللّغـــة مجموعة من العلاقات، بدء من المقال الذي نشره"موكارفسكي" عـــن«اللّغـــة المعياريـــة واللّغـــة الشّعرية» منذ 1932م حيث أكّد «أنّ الفنّي يتحقّق بتتابع العلامات حيث ترتبط كـــلّ علامـــة جزئية أو كلّ علامة جديدة بما سبقها من علامات لتؤثّر فيما بعدها»[2]، أي إنّ مهمّـــة اللّغـــوي البحث في العلاقات التي تنتجها اللّغة بين الأشياء، وهذا هو مذهب العالم السويسري "فردناند دي

[1] عبده الرّاجحي : النّحو العربي والدّرس الحديث – ص 29، 30.

2 عبد الجليل مرتاض: في عالم النّص والقراءة – ص 215. وص 220.

سوسير(Ferdinand de Saussure)"[1] . وقد دأب معظم اللّغويين« بشكل شائع أن يعدُّوا كتابه"محاضرات في علم اللّغة العام"coures de linguistique général" الحدّ الفاصل الــذي بدأت معه النّزعة الوصفية في الدّراسات اللّغوية »[2] حيث ينادي بوصف المدوّنة دون اللّجــوء إلى أحكام المنع والزّجر والتّغليط، ويرفض المعيارية التي تخضع لاقتضاءات الفكر المنطقــي والتّقليــد التّاريخي[3]، ومن هنا كانت « الرّغبة ملحّة في أيّامنا هذه إلى بناء الدّراسات اللّغوية على منهج لــه فلسفته وتجاربه إرضاءً للرّوح العلمية الخالصة من جهة؛ وتوفيرا لجهود عشّاق اللّغة مــن جهــة أخرى»[4]، وبالفعل ظهرت في الدّراسات العربية بحوث تفصِلُ بين المعيارية والوصفية كمــا هــو الحال عند تمّام حسّان في كتابه"اللّغة بين المعيارية والوصفية"، على الرّغم من إفراطه في مقارنة اللّغة بلعبة الشّطرنج[5] وانسياقه إلى تخريجات فارق بها دقائق التّشخيص؛ لأنّ « متكلّم اللّغة بعيد كــلّ البعد عن مماثلة لاعب الشّطرنج، فمستعمل اللّغة بالسّليقة غير واعٍ بقواعدها مطلقــا لاســيما في مستوى الاكتساب بالأمومة والاستخدام بالملكة، أمّا لاعب الشّطرنج فمقطوع به بأنّه لا يمــارس اللّعبة إلاّ بعد أن يمسك عن وعي بقواعدها »[6]، ومبتغانا من هذا التّقديم إنّما هو الإشارة إلى المنهج الوصفي دون النّظر في بداياته و تاريخه وتطوّره أو أثره في الدّراسات؛ ليتسنّى لنا الكلام عن التّضام في ضوء هذه المناهج والتّطرّق إلى أهمّ مقولات هذا الدّرس اللّساني الحديث.

- التّضام والعلاقات الأفقية والاستبدالية :

لقد ارتبط اسم الدّراسة الوصفيّة بمحورين بارزين هما المحور الرّأسي أو محــور التّقليــب diachronic والمحور الأفقي أو محور التّركيـب syncronic بحيث يرسما متقاطعين هكذا[7]:

---

1 محمّد مندور: النّقد المنهجي عند العرب – مصر– مطبعة دار نهضة مصر– د ط – 1969م – ينظر الصّــفحات: 333. 335. 338.

2 محمّد عبد العزيز عبد الدّايم: النّظرية اللّغوية في التّراث – ص 63.

3 ينظر: العلاقات التّركيـبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية: سعدي الزّبير– ص 13. 16.

4 محمّد عبّاس: المصطلح اللّغوي عند تمّام حسّان– ص 209، 210.

5 ينظر : مقدّمة كتابه. ص 03.

6 عبد السّلام المسدّي: اللّسانيات وأسسها المعرفية – ص 70.

7 تمّام حسّان : البيان في روائع القرآن – ص 148.

والمقصود بهذين المحورين أنّ:« العلاقات في داخل نظام اللّغة لها أهمّيتـــها الخاصّـــة ..وإنّ العلاقة التّركيبية مثلا تحكِم التّرابط بين مفردات الجملة وعناصر النّص، وأنّ العلاقة التّقليبية مـــثلا أيضا تكشف عن النّوع في داخل المصفوفة أو الجدول »[1]، وما يتّصل بموضـــوعنا هـــو تلـــك العلاقات الأفقية أو العلاقات السانتاجمتية syntagmatic relation وهـــي علاقـــات مرادفـــة للعلاقات التّضامّية والعلاقات التّرتيبية، وإذا كانت العلاقات التّرتيبية واضـــحة باســـتطاعتنا أن نلاحظها من نظام ترتيب الكلمات في الجمل، فإنّ العلاقات التّضامية ليس على القدر نفسه مـــن الوضوح، بل لابدّ من مقارنة مجموعة مرتّبة من الجمل بعضها مع بعض، ومثلما وقفنا سابقا عنـــد نصّ للجرجاني يتبع كلامه عن موقع بعض الكلم من بعض باستعمال بعضه مع بعض؛ فإنّ هذين النّوعين من العلاقات في نظر الغربيين « ممّا لا يصعب فصلهما عن بعضهما بعضا، لأنّ كلاًّ منهما يلازم الآخر ملازمة الظّل لصاحبه»[2] بيد أنّنا عند التّضام ندرس حالة واحدة فقط، هي إمكانية أن تتضام الكلمة(س) مع الكلمة (ص) في حين إنّنا عند التّرتيب ندرس أحوالا أخرى هي ما مـــدى إمكانية أن تأتي (ص) قبل (س) وهل هذه الإمكانية جائزة أم واجبة[3]، إذ التضام بحث في كلمتين متتابعتين، والتّرتيب بحث في متتابعتين أو متباعدتين.

إنّ هذه العلاقات التّضامية هي التي تسمح بالكلام أن يطول ويمتدّ، وإنّ الذي يصـــغي إلى هذا الكلام ليعجب من رؤيته ممتدّا إلى غير حدود، وعلى الرّغم من أنّك لو حاولت تحليل هـــذا الكلام عندما ينقطع المتكلّم عنه وجدتَه يتكوّن من أبنية صغيرة الحجم قد تكون جملا أو أصـــغر

1 المرجع السّابق – ص 150
2 حلال شمس الدّين: الأنماط الشّكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيوية – ص 150.
3 المرجع نفسه – ص 117.

من ذلك أو أكبر، إلاّ أنّ هذا البناء لا يأخذ من الوقت عند النّطق به سوى الشّيء القليــل، فمــا الذي يجعل الكلام يطول هكذا؟ إنّ الذي يَسّرَ طول الكلام وامتداده هو "التّضـــام"[1]، وهـــو أنّ كلمة من قسم ما تقبل أن تُسبق أو تتلى من قسم آخر، ولا تقبل أن تُسبق أو تتلى من قسم آخر بحيث يمكن أن تصبح هذه الخاصّية علاقة شكلية لتمييز أقسام الكلام، الأمر لاحظناه في استعمال هذا المعيار عند ابن مالك وابن هشام النّحويّيْن في تقسيمهما للكلم وتعريفهما للاسم والحرف في المبحث الأوّل والثّاني من هذا البحث، ولقد ذهب المحدثون في هذه القضية مذهب ابن مالك مثلا فعلى حين إنّ العلوم الطّبيعية– فيما يقول دي سوسير– تبدأ تصنيفها بوصف كلّ وحـــدة مـــن الوحدات، نجد أنّ وصف عناصر اللّغة لا يمكن أن يتمّ إلاّ بالنّظر إلى علاقة كلّ عنصر بما عداه من العناصر الأخرى، نظرا لأنّ أحدا من هذه العناصر لا يملك أيّة قيمة ذاتية اللّهم بتقابله مـــع بـــاقي العناصر الأخرى[2]. فعلاقة التّضام مسؤولة عن تسلسل الكلام وترابط أجزائه واستمراره، وهـــي التي تكشف عن خصائص النّسيج اللّغوي التي تتميّز به لغة ما في تجاور كلماتها وتآلفها عن لغـــة أخرى.

إنّ استعمال علم اللّغة للمحور الأفقي قد ارتبط بعلاقات أجزاء التّركيب بعضها بـــبعض وهو ما يعدّ من قبيل القرائن النّحوية، كالموقع الإعرابي، وعود الضّمير، ورتبة الكلمة، وافتقارهـــا إلى مدخولها واختصاصها به، وكتحديد ما إذا كانت العلاقة بين اللّفظين علاقة إسناد أو تعديـــة أوإضافة[3]، والعلاقة التّركيبية في أبسط تعريفها «هي علاقة أفقية بين مفردات الجملة »[4]، ولقـــد وجد تمّام حسّان أنّ نظام النّحو ينمّي في داخله التّقليبية ويثريها فعدّل الشّكل الســـابق إلى هـــذا الشّكل[5]:

1 ينظر: المرجع السّابق – ص 113.

2 ينظر: مشكلة البنية: ميشال زكريا–ص 52. أخذا عن المرجع نفســـه– ص 116.

3 ينظر مقال: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة: تمّام حسّان– مجلّة فصول– مج07– العـــددان 03،04 – 1987م– ص 23.

4 تمّام حسان: البيان في روائع القرآن –ص 151.

5 المرجع نفســه – ص 151.

وكلّ واحدة من هذه الاستعمالات(المعاقبة والتّضاد والتّكامل) فــروع علــى العلاقــة التّقليبية، وجميع ذلك يقف بإزاء التّتابع الذي هو مظهر العلاقة التّركيبية، و التّابع إنّما:«يُفهَم في العلاقات التي تقوم على السّطر بين عناصر أنماط الجمل والمركّبات وبين التّابع والمتبوع ...والفصل والوصل، كل موقع من هذه المواقع إنّما يقوم بين عنصرين من عناصر النّص أفقيا على السّــطر لا رأسيا في الجدول »[1]، فعلاقتا التّقليب والتّركيب ذواتا صلة وثيقة بقرينة التّضام التي من خلالهـا نعرف إمكان التّوارد والمعاقبة والتّنافي أو التّضاد والتّكامل، على أنّ التّتابع هو المســرح الأصــيل لقرينة التّضام في السياق[2]، ولئن كان الغربيون اعتمدوا هذه المناهج في دراسة اللّغة وبنوا دراساتهم على أساس هذين المحورين فإنّ الدّرس اللّغوي في موروثنا العربي كان على قدر كبير من الاهتمام في المجال، ولا بأس أن نورد هنا نصّا لأحد الدّارسين الغربيين يقول فيه:« إنّ الاختيــار الكلمــات يحدث بناء على أسس من التّوازن والتّماثل والاختلاف، وأسس من التّرادف والتّضــاد، بينمــا التّأليف وهو بناء للتّعاقب فهو يقوم على التّجاور بين الكلمــات »[3]، فهــذا الــنّص يســتعمل مصطلحات التّعاقب والاستبدال، وقد تبعه في ذلك الدّارسون العرب[4]، في حين يكفينا الرّجــوع إلى هذه المصطلحات إلى مضانّها في كتب اللّغويين القدامى، وكان يمكن تتبّع مصطلحي" الجــوار والاختيار" في التراث العربي عند أمثال الخطّابي وقدامة بن جعفر وعبد القاهر والسّكاكي وحــازم القرطاجنّي لنرى مدى التّداخل بينهما وبين ما مرّ معنا من مصطلحات التّعاقب والاستبدال.

لم يكن عبد القاهر الجرجاني – مثلا– في دراسته للنّظم والتّعليق بعيدا عن ذينك المحورين، وإنّ ما شاع في الدراسات الغربية باسم المحور الأفقي لهو محور النّظم نفسه، الــذي يعبّــر عنــه بالمجاورة أو الضّم والتّأليف. وإنّ ما يقابل محور الاستبدال عند عبد القاهر على الأقل هو ما جــاء تحت عنوان الاختيار، وقد عقد زكي العشماوي مقارنة فريدة بين عبد القاهر الجرجاني وبعض ما

1 المرجع السّابق – ص 153.

2 المرجع نفســه – ص 154.

3 هذا النّص لرومان ياكبسون، ورد عند: عبد اللّه الغذامي: الخطيئة والتّكفير– ص25. أخذا عن: عبد العزيز حمّودة: المرايــا المقعّرة، نحو نظرية نقدية عربية –ص 248.

4 يعرض عبد العزيز حمّودة بعبد الله الغذامي وكمال أبي ديب لانسياقهما وراء المصطلح الغربي الحداثي، وتجاهــل المصــطلح العربي. ينظر: المرجع نفســه – ص 249.

انتهى إليه كثير من النّقاد الغربيين في دلالة الألفاظ وارتباط بعضها ببعض حيث يقول:« فلو أنّنا قرأنا الفصلين الأوّلين من كتاب"فلسفة اللّغة" للنّاقد الإنجليزي المعاصر أ.أ. ريتشاردز لوجـــدنا أنّ كلّ ما يحاوله في هذين الفصلين لا يخرج عمّا قاله عبد القاهر فيما يتعلّق بقضية الـــنّظم وعلاقـــة الكلمات ببعضها. يقول ريتشاردز:" إنّ النّغمة الواحدة في أي قطعة موسيقية لا تستمدّ شخصيتها ولا خاصّيّتها المميّزة لها إلاّ من النّغمات المجاورة لها، وإنّ اللّون الذي نراه أمامنا في أي لوحة فنّيـــة لا يكتسب صفته إلاّ من الأوان الأخرى التي صاحبته وظهرت معه، وحجم أيّ شيء وطولـــه لا يمكن أن يقدّرا إلاّ بمقارنتهما بحجوم وأطوال الأشياء الأخرى التي تُرى معها وكـــذلك الحـــال في الألفاظ، فإنّ معنى أيّة لفظة لا يمكن أن يحدّد إلاّ من علاقة هذه اللّفظة بما يجاورها من الفـــاظ »[1] ويقول ريتشاردز في نصّ آخر:« إنّ معظم الصّفات الغامضة التي يصف بها النّقاد أساليب الكتابة النّثرية المختلفة إنّما ترتدّ أوّلا وأخيرا إلى ما يحقّقه الارتباط والتّواؤم بين الكلمات بعضها ببعض »[2] وهاهو عبد القاهر يبدئ ويعيد القول بالتّضام والمجاورة والتّأليف:« فلو كانت الكلمة إذا حسُنت حسُنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقّت المزيّة والشّرف استحقّت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السّبب في ذلك حال مع أخواتها المجاورة لها في النّظم، لما اختلف النّظم »[3]، ففهـــم المجاورة والتّضام فهما صحيحا قد يغنينا عن المحور الأفقي الذي تعتمده الدّراسات الغربية والعربية الحديثة في دراسة اللّغة و بناء تراكيبها، أو على الأقلّ يكفينا شرّ ذلـــك الانســـياق وراء بريـــق المصطلح، وما يعتوره من غموض، فإذا كانت اللّغة عند دي سوسير مجموعة من العلاقات القائمة بين أجزاء الكلام فإنّ الطّرح هو الذي بحثه عبد القاهر ضمن نظرية الـــنّظم ومفهومـــه للتّعليـــق وارتباط أجزاء الكلام وتضامّ بعضها ببعض، يقول دي سوسير:« إنّ مفهوم التّركيب لا ينطبـــق على الكلمات وحسب، بل على مجموع الكلمات والوحدات المعقّدة والمقـــاييس والأصـــناف

1 The philosophy of rhetoric. P .96-70. أخذا عن: قضايا النّقد الأدبي بين القـــديم والحـــديث – ص 293.

2 The philosophy of rhetoric. P55 أخذا عن : المرجع نفسه – ص 293.

3 دلائل الإعجاز – ص 53.

كافّة(الكلمات المركّبة والمشتقة وأقسام الجملة والجملة الكاملة »[1]، وبمقابلة هذا النّص بما جاء به عبد القاهر في هذا على سبيل المثال حين يقول:« ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبـــل دخولهـــا في التّأليف، وقبل أن تصير إلى الصّورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهيا، واستخبارا وتعجّبـــا، وتؤدّي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلاّ بضمّ كلمة إلى كلمة، وبنـــاء لفظـــة على لفظة »[2] يتّضح لنا أنّ الكلمة بمفردها عند عبد القاهر لا فائدة لها إلاّ بتضامّها مـــع أخواتهـــا وجعل بعضها بسبب من بعض وبناء بعضها على بعض، وما جاء به لعمرك هو مـــا جـــاء بـــه دي سوسير عينه من أنّ الكلمات المفردة لا معنى لها حتّى ينظر إليها داخل التّركيب وفي ضـــرب من التّأليف، فليس« من باب الصّدفة أن تتوافق هذه الآراء بهذا الشّكل الموضـــوعي ...دون أن تكون هناك علل عملية تتعلّق بتقنيات الدّرس اللّغوي المحكم بين هذين العالمين مع التّباين في الفارق الزّمني البعيد بينهما »[3]، إلى غير ذلك من النّصوص التي يلتقي فيها هؤلاء المحدثون مع هذا العـــالم الفذّ، ممّا يرجّح الحكم أن عبقرية عبد القاهر قد فاقت جهود دي سوسير وغيره بعامـــل السّـــبق والابتكار.

- التّضام والدّراسة الشّكلية[4]:

لقد تزامن مع دراسة اللّغة وفق المنهج الوصفي الذي يعتمد القراءة الآنية أو المحور الأفقـــي اهتمام كبير بالشّكل دون المعنى، ورأى الدّارسون أن الشّكل هو المعوّل عليه عند اللّغوي، وينبغي عليه أن يدرس الأشكال اللّغوية في ذاتها أي باعتبارها أشكالا، وليس على أساس من المعاني الـــتي نتصوّرها ابتداء، فمعيار الشّكل عند هؤلاء معيار رئيس لضمان صحّة المنهج والدّراسة والنّتائج.

وقد ردّ غير واحد منهم بأنّ التّركيبات الشّكلية هي همّ اللّغوي الأوّل، وهـــي تقتضـــي دراسة الأنماط في الصّوت والكلمة والجملة، ثمّ إنّ خصائص اللّغة حتى البدائية منها هو اكتمالهـــا

---

1 محاضرات في الألسنية العامّة – ص 150. أخذا عن: محمّد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجـــاني– ص26. وينظر هذا النّص: Ferdinand de Saussure – cours de linguistique générale – Editions Talantikit-Béjaia- 2002- P 148.

2 دلائل الإعجاز – ص 50

3 محمّد عبّاس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني – ص 27..

4 ينظر: ص 73 من هذا البحث.

الشّكلي، وهذه الطّرق قد سمّاها إدوارد سابير(Edward Sapir) مثلا الشّـكلية العمليـات النّحوية (grammatical processes)[1]. لذا نجد كثيرا من الدّارسين الغـربيين يرفضـون التّقسيم التقليدي للكلم لأنّه يحمل تصوّرات سابقة، وهو ما لاحظناه في تقسيم العرب المحـدثين للكلم ورفضهم ذلك التقسيم الثلاثي للكلم، وكيف أنّهم اعتمدوا معيار الشّكل بالدّرجة الأولى.

أغلب اللّغويين المعاصرين يرون أنّ النّحـو أو التّحليـل النّحـوي(grammatical analysis)ينبغي أن يكون شكليا (formal) إذا أُريد أن يكون جزء صالحا مـن الدّراسـة اللّغوية الوصفية (descriptive linguistics). يقول روبـيتر (Robins) : « إنّ النّحـو مـسألة خاصّة بالشّكل، وإنّ التّحليل النّحوي جزء من تحليل الشّكل النّحوي، ولذلك فإنّ إقامـة فصائل نحوية وإنّ الوصف النّحوي على أساس المعنى، كما يُفهم بوجه عام أو على أسـاس مـن المعنى على مستويات غير المستوى النّحوي هما نتيجة لهذا ، غير ذوي شأن بـالنّحو »[2]، وهـذا الاهتمام بالشّكل كان قوام القرائن النّحوية التي اعتمدها تمّام حسّان في الدّرس النّحوي، بخاصّة ما يتعلّق بقرينة التّضام التي راعى فيها الجانب الشّكلي بدقّة متناهية، ولقد كان تراثنا النّحوي علـى قدر كبير من العناية بالشّكل والمعنى معا، ولعلّ تلك الأمثلة التي جاء بها ابن مالك النّحوي في بيان أقسام الكلم مثلا دليل قاطع على ذلك، يقول:

بالجرّ والتّنوين والنّدا وأل ومسندٍ للاسم تمييزٌ حصل[3]

فتجده بعيدا عن فكرتي الحدث والذّات المعتمدتين على المعنى، وقوله بما يضام الاسم من حروف الجرّ وبما يدخل عليه من التّنوين وتعريفه بـ"أل" و بالإسناد إليه كلّها معايير شكلية. ونحو قوله في تحديد الفعل:

1 عبده الراجحي: النّحو العربي والدّرس الحديث، بحث في المنهج – ص 34.

2 محمود السّعران: علم اللّغة، مقدّمة للقارئ العربي – القـاهرة– دار الفكـر العـربي– د ط – 1420هـ/1999م- ص 188.

3 شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك– بتحقيق: إميل بديع يعقوب– ص 21.

بتا فعلت وأتت يا افعلي ونون أقبلنَّ فعل ينجلـــي[1]

وكذلك هنا ذكر أنّ الفعل يمتاز عن الاسم والحرف بتاء فعلت، والمراد بها تــاء الفاعــل وهي المضمومة للمتكلّم، والمفتوحة للمخاطب، والمكسورة للمخاطبة.

أو تمييزه الحرف بقوله:

سواهما الحرف كهل وفي ولم فعل مضارع يلي لم كـ : يشم

وماضي الأفعال بالتّا مِزْ وسِمْ بالنّون فعل الأمر إن أمرٌ فُهِم[2]

مشيرا إلى أنّ الحرف يمتاز عن الاسم والفعل بخلوّه من علامات الأسماء وعلامات الأفعال ثمّ مثّل له بــ: هل، وفي، ولم، فابن مالك « يتّخذ التّضام وسيلة من وسائل الكشف عن أقســام الكلام »[3]، ولا نعدم أن نجد ابن هشام الأنصاري النّحوي أيضا ممّن يعتمد معيار التّضام في تعيين بعض أقسام الكلم وبعض الأبواب النّحوية، ومثال ذلك ما في قوله:« الاسم مـــا يقبــل "أل" أو النّداء أو الإسناد إليه »[4]، عند تحديده الاسم بهذه العلامات، ونحو تعريفه الفعل المضارع:«علامات الفعل المضارع ان يقبل دخول "لم" كقولك: لم يقم، لم يقعد، ولابدّ من كونه مفتتحا بحرف من أحرف"نأيت" نحو: نقوم، تقوم، أقوم، يقوم »[5]، فابن هشام أيضا يعتمد معيار التّضام وهو معيار شكلي، إلى غير ذلك من القواعد التي تعتمد معيار الشّكل نحو قولنا: المبتدأ اسم مرفوع يقـــع في أوّل الجملة غالبا، وخبره إذا كان مفردا يأتي بعده مرفوعا عادة. والفاعل مرفوع ورتبته بعد الفعل ولا يتقدّم إلاّ بشروط. وأنّ الابتداء أن يقع الاسم في أوّل الكلام وكلّها معايير شكلية. فإلى جانب اعتماد النّحو العربي على المعنى كثيرا فإنّه لم يخل يوما من الاعتماد على معيار التّضـــام أومعيـــار الشّكل ليكون بذلك نحوا متكاملا يجمع الشّكل والمعنى معا لا تعتريه منقصة.

1 المصدر السّابق – ص 25.

2 المصدر نفســه – ص 26.

3 جلال شمس الدّين: الأنماط الشّكلية لكلام العرب – ص 113.

4 شرح شذور الذّهب: مراجعة وتحقيق: يوسف الشّيخ محمّد البقاعي – ص 29.

5 المصدر نفســه – ص 29.

02. التّضام ولسانيات النّص:

تجاوز الدّارسون منذ خمسينيات هذا القرن حدود الجملة إلى مستوى أكبر من الجملة هــو النّص، ليصبح النّص في إطار ما يعرف بعلم اللّغة النّصي أو لسانيات النّص، هذا العلم الذي يبحث في تماسك النص من الحرف إلى عمل ذي متواليات متتابعة من الجمل، فكان همّ لسانيات الـنّص البحث في الانسجام النّصي والارتباط الذي يحدث بين النّصوص، وقد عرّف هذا العلم جملة مـن العلماء في أكثر من مناسبة، وسنسوق بعضا من هذه التعّريفات على سـبيل تقريـب المفهـوم وتوضيحه.

إنّ اللّسانيات النّصية حسب تعريف "روك" هي :« ذلك العلم الذي يهتمّ ببنية النّصوص وكيفية جريانها في الاستعمال، وتحاول تأسيس الدراسة اللّسانية على قاعدة أخرى غير الجملة، هي النّص»[1]، والنّص بهذا المفهوم يشمل كلّ أنواع النّصوص المتداولة في المجتمع المكتوبة وغير المكتوبة الإبداعية وغير الإبداعية، فهي علم يولي اهتمامه بدراسة النّص باعتباره الوحدة اللّغوية الكـبرى انطلاقا من أسس ومعايير.

ووظيفة هذا العلم أن يكون قادرا على وصف وتفسير الملامح المشتركة والمتباينـة بـين مجموعة من النّصوص وأنماط مختلفة منها[2]، وهو:« العلم الذي اقتُرح من خلال مقترباته النّظريـة والإجرائية الاهتمام بالظّواهر المرتبطة بالانسجام النّصي »[3]، و قد يصطلح على هذا العلم النّصـيّة أو نحو النّص، لأنّها تعنى أوّلا وأخيرا بدراسة مميّزات النّص من حيث حدُّه وتماسـكه، ومحتـواه الإبلاغي أوالتّواصلي[4] مادامت قائمة على عنصـري التّواصـل والتّماسـك النّصـي ويقصـد بها:«التّخصّص الذي موضوعه النّصّية (textualité) أي خصائص الاتّساق والانسـجام الـتي

1 خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ اللّسانيات- الجزائر- دار القصبة للنشر- د ط- 2000م – ص 167.

2 ينظر: نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين: عبد المنعم عبد الجليل – ص 337.

3 رياض مـيس: لسانيات النّص، حول بعض المفاهيم، المرجعيات، والأبعاد –مجلّة المبرّز – عدد خـاص بـالملتقى الـوطني حول"دور اللّسـانيات في العلوم الانسـانية"- الجزائر- بوزريعة – 2002م- ص 161.

4 أحمد مدّاس: لسانيات النّص، نحو منهج تحليل الخطاب الشّعري- الأردن- عالم الكتـب الحـديث- ط01- 2007م- ص 247.

تجعل النّص عبارة عن تسلسل الجمل، وإنّ تحديد حقل اللّسانيات النّصية مثال جدال وسجال »[1] ولعلّ اختلاف مفهومه عند الباحثين وصعوبة تحديده راجع إلى تنوّع مفهومهم للنّص وتعيين معايير النّصية ووفرة المصطلح وتنوّع التّرجمة، وسنورد بعض التّعريفات للنّص وتلك المعـــايير مكتفـــين بمعيار أو معيارين لهما صلة وثيقة بموضوع البحث.

شغل النّص اهتمام الكثير من النّقاد والباحثين، وأخذ تعريفات متعدّدة في حقل اللّسانيات ولعـــلّ أهمّهـــا تعريـــف روبـــرت ألان دي بوجرانـــد(Robert Alain DE BEAUGRAND) و وولفجانج أولرخ دريسلار(Wolfrang Ulirch DRESLER) مـــن حيـــث إنّـــه:« حـــدث تواصلي(communicative occurrence) يلزم لكونه نصّا أن تتوفّر له سبعة معـــايير للنّصـــية (textuality) مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلّف واحد من هذه المعايير، وهي السّـــبك (cohésion) والحبك(cohérence) والقصد(intentionality) والقبول(acceptability) والإعلام(informativity) ، والمقامية(situationality) ، والتّنـــاص(intertextuality) »[2] والنّص من حيث هو ملفوظ:« يشبه جبل الجليد العائم يبرز للعيان جزء يسير منه هـــو شـــكله الصّوتي، وهو ما يمثّل الجانب الفيزيائي فيه الذي ينتسب به إلى صاحبه ويستقل بـــه عـــن ســـائر النّصوص»[3]، ويذكر هاليدي(HALLIDAY) ورقيّة حســـن(RUQAIYA HASSAN) أنّ كلمـــة "نص" تستعمل في اللّسانيات لتشير إلى مقطع منطوق أو مكتوب، يشكّل كـــلاّ متّحـــدا[4]، وأنّ التّضام عندهما مصطلح تغطية للاتّساق الذي ينتج عن توارد العناصر المعجمية التي يرتبط أحـــدها بالآخر، نحو ما تقدّمه هذه الأزواج[5]: الولد/البنت– الطّبيب/سيارة الإسعاف– الطّائرة/المطـــار–

---

1 دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب– ترجمة: محمّد يحياتن– الجزائر– منشورات الاختلاف– بـــيروت– الدار العربية للعلوم– ط01– 1428هـــ/2008م– ص 129

2 سعد عبد العزيز مصلوح: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية، آفاق جديدة– ص 225.

3 الأزهر الزّناد: نسيج النّص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصّا– بيروت– المركـــز الثقـــافي العـــربي– ط01– 1993م– ص 169.

4 ينظـــر: – M.A.K.HALLIDAY, RUQAIYA HASSAN: Cohesion in English – Longman Group Limited – 1976 – p D1 وينظر: حديثهما عن التّضام" collocation ".. p :2D. 91.284.318 .

5 محمّد خطّابي: لسانيات النّص، مدخل لانســـجام الخطـــاب– ص 237. وينظـــر. M.A.K.HALLIDAY, RUQAIYA HASSAN: Cohesion in English – p283. 284.

الرّجل/الشّارب- القوس/الرّمح، وقد مرّ معنا كذلك مفهوم التّوارد المعجمي في الدّرس النّحـــوي سابقا، وهو المفهوم نفسه الذي يعتمده الكاتبان. وعلى كلٍّ فإنّ كلمة "النّص" في اللّغات الأوربية تعني« نسيجا من العلاقات اللّغوية المركّبة التي تتجاوز الجملة بالمعنى النّحوي للإفـــادة...وهـــو سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلامات تنتج معنى كلّيا يحمل رسالة»[1]، فالنّص بنـــاء على هذه التعريفات منتوج مترابط متماسك تحكمه علاقات نحوية وتراكيب دلاليـــة، ووســـائل لغوية، متعمد على معيارين رئيسين هما السّبك والحبك[2]، بغضّ النّظر عن بقية المعايير، لأنّ هذين المعيارين هم المختصّان بصلب النّص، وقلنا سابقا إنّه بُذلت محاولات كثيرة بغية ترجمة المصطلحين من أصلهما اللّغوي. فمنهم من قال بالاتّساق والانسجام[3]، أو الاتّصال والارتباط[4]، ومنهم مـــن قال بالسّبك والحبك[5] أو التّماسك الدّلالي بدل الحبك[6]، ومنهم من قال بالتّماسك والانســـجام[7]، والانسجام[7]، ومنهم من قال بالسّبك والالتحام [8]، ومنهم من قال بالرّبط النّحـــوي والتّماســـك الدّلالي[9] متّفقين بأنّهما يشكّلان موضوع اللّسانيات النّصية ومادّتها، وأشـــرنا ســـابقا إلى تلـــك النّصوص اللّغوية من التّراث العربي في جانبيه البلاغي والنّقدي للاستدلال علـــى تلاقـــي هـــذين المصطلحين مع هذا التراث مفهوما واستعمالا حين ربطنا قضية التّضام بالسّبك أو الرّبط النّحوي والتّوارد بالتّماسك الدلالي.

---

1 نصر حامد أبو زيد: النّص والسّلطة والحقيقة- المغرب- لبنان- المركز الثقـــافي العـــربي- ط05- 2006م- ص 150. وص 160.

2 ينظر: Shirley Carter Thomas : La cohesion textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit- L'Harmattan- Paris FRANCE- Montréal-CANADA- 2000- P 07.37.42.43.

3 ينظر: لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب: محمّد خطابي- ص05. وص 96. حيث ترجم عنوان كتاب هاليدي ورقية حسن السّابق" Cohesion " إلى"الاتّساق". وترجم" collocation" إلى التّضام.

4 ينظر: دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب- ترجمة : محمّد يحياتن – ص 18. إلى جانب أنّه قد تُرجم كتاب هاليدي ورقية السابق ذكره إلى "الاتّساق في الإنجليزية".

5 ينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية: سعد مصلوح – ص 25.

6 ينظر: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق – ص 36.

7 ينظر: نسيج النّص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصّا: الأزهر الزناد – ص 15.

8 ينظر: النّص والخطاب والإجراء: ألان دي بوجراند- ترجمة: تمّام حسان- ص 08. وص 103.

9 ينظر: التحليل اللّغوي للنّصوص، مدخل إلى مفاهيم الأساسية: كلاوس برينكر- ترجمه وعلّق عليه ومهّد له: سعيد حسن بحيرى- مؤسّسة المختار- القاهرة- ط01- 1425هـ/2005م- ص 28. وص 189.

يقول عبد القاهر الجرجاني:« اعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامــك الوضــع الــذي يقتضيه علم النّحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فــلا تزيــغ عنــها وتحفظ الرّسوم التي رُسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها »[1]، ويقول في موضع آخر:« اعلم أنّ هاهنــا أصلا أنت ترى النّاس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخرَ، وهــو أنّ الألفــاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضمّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهو علم شريف وأصل عظيم »[2]، ليقرّر في هذين النّصين الثمينين أمورا بالغة الأهمّية هــو أنّ معــاني النّحو لا تقف في حدود الألفاظ المفردة أو الجملة، وإنّما تتجاوزها إلى النص أو مجموعــة مــن الجمل، وهو ما تشعر به في الباب الذي خصّصه للفصل والوصل من "دلائل الإعجاز"، فيكــون بذلك قد سبق علماء اللّغة المحدثين الذين تجاوزوا بالتّحليل حدود الجملة ونادوا بتحليل الجمل التي ترد متعاقبة كما مرّ معنا في نصّ "موكارفسكي " و"دي سوســير" وكمــا فعــل "هــاريس" (Z.S.Harris)[3] عندما أدرك أنّ وحدة الكلام لا يمكن أن تكون الجملــة المفــردة، وأنّ الجمــل المتابعة أرضية خصبة لمناهج علم اللّغة الوصفي، وأنّ الكلام لا يقع في صورة كلمات غير محدودة أو جمل، بل بوصفه نصّا متتابعا بدء من الجملة المكوّنة من كلمة واحدة حتّى العمل المؤلّف مــن عشرة مجلّدات، وقد اتّخذ خطوته من الجملة إلى النّص في مقاله" تحليل الخطــاب"ســنة 1953م المترجم إلى الألمانية بـــ"تحليل النّص" سنة1976م. و«حين فعل ذلك وصل في القرن العشرين إلى ما وصل إليه عبد القاهر قبله بسبعة قرون»[4] ، وزاد أن أدرك المعاني الإضافية النّاتجة عن الصّــياغة النّحوية، وما تؤدّي إليه من فروق.

1 دلائل الإعجاز – ص 76.

2 المصدر نفسه – ص 393.

3 بريجيته بار تشت: مناهج علم اللّغة، من هرمان باول حتّى نعوم تشو مسكي- ترجمة: سعيد حسن بحيرى- مؤسّسة المختار للنشر – ط01- 1425هـ/2004م- ص 234.

4 محمود أحمد نحلة: في البلاغة العربية، علم المعاني – ص 34.

وبهذا القدر نكون قد تتبّعنا قضيّة التّضام في أصولها النّظرية المتعلّقة بــالموروث العــربي ثمّ الوصول بها إلى الدّرس اللّساني الحديث، وحسبُنا أنّنا ندبنا أنفسنا له ولم ندّخر فيه جهدا، آملين أن تكون الدّراسة في الفصلين المتبقّيين دراسة تطبيقية في سورتي"هود" و"طه" تؤكّد أهميّة ما ذهبنا إليه في هذا الفصل.

الفصل الثّاني

التّضامّ في سورة هود

- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني
- التّقديم والتّأخير
- المناسبــــــة
- الفصل والوصل
- الرّبط والارتباط
- التّكرار والإعادة
- التّضمين والتّعدية
- التّعريف والتّنكير
- الفاصلة القرآنية
- الإطناب والإيجاز
- الحـــــــذف
- الذّكر والزّيادة
- مسائل متفرّقات

يمكن فهم التّضام من وجهين نلخّصهما فيما يأتي: الوجه الأوّل إنّ التّضام هو الطّرق الممكنة في رصف جملة ما تختلف طريقة منها عن الأخرى تقديما وتأخيرا وفصلا ووصلا وهلمّ جرا ويمكن أن نطلق على هذا الفرع من التّضام اصطلاح"التوارد" وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التّركيبية البلاغية الجمالية منه إلى دراسة العلاقات النّحوية والقرائن اللّفظية، ومن ثمّ نتخطّاه ونتركه لمن شاء أن يوغل فيه...

[تمّام حسّان: اللّغة العربية معناها ومبناها- ص 217].

التّضام في سورة هود:

أشرنا في مقدّمة البحث أنّ لأستاذنا المشرف يدا بيضاء وراء اختيار هذا الموضوع، فجاء هذا الاختيار موطّنا لأمل واكبنا منذ مدّة، يرجع إلى أحاديث نبوية وقصص إسلام بعض الصّحابة الكرام، تلقّيناها في مراحل دراسية سابقة، فاختمرنا في نفوسنا أن ننهض بهذا الأمل في سورتين من القرآن الكريم؛ سورة هود وسورة طه، حيث يرجع وقوفنا على سورة هود إلى ما رواه بعض الصّحابة رضوان الله عليهم من أحاديث نبوية تخصّ هذه السّورة، ومن هذه الأحاديث ما جاء في مسند أبي يعلى(ت307هـ). قال:«حدّثنا محمّد بن عبد الله بن نمير. حدّثنا محمّد بشر. حدّثنا علي بن صالح بن أبي إسحاق عن أبي جحيفة قال: قالوا: يا رسول الله قد شبت.قال: شيّبتني هود وأخواها»[1] ومنها ما جاء عن ابن مردويه عن أبي بكر قال صلّى الله عليه وسلّم:« شيّبتني هود وأخواها قبل المشيب»[2]، ومنها ما جاء في جمع الجوامع. عن سهل بن سعد رضي الله عنه. قال النّبي صلّى الله عليه وسلم قال:« شيّبتني هود وأخواها. الواقعة والحاقّة وإذا الشّمس كوّرت »[3].

[1] مسند أبي يعلى، أحمد بن علي(ت307هـ)- تحقيق: حسين سالم أسد- دمشق- دار المأمون- ط01- 1404هـ/1984م- ج02- ص184- رقم الحديث 880. أخذا عن: ماجد بن محمّد المجد: الفنون البلاغية في سورة هود- المجلّة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الانسانية والاجتماعية- مج 05- ع 02- 1425هـ/2004م- ص 42.

2 محمّد ناصر الدّين الألباني: صحيح الجامع الصّغير وزيادته- أشرف على طبعه:زهير الشاوش-المكتب الإسلامي- ط03- 1408هـ/1988م- مج 01- ص 692. رقم الحديث 3720. وعن عقبة بن عامر وعن أبي جحيفة. قال صلّى الله عليه وسلّم:«شيّبتني هود وأخواها».رقم الحديث3720. وعن أنس (ابن مردويه) عن عمران. قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم:« شيّبتني هود وأخواها من المفصّل».رقم الحديث3722.

3 جلال الدّين السّيوطي: جمع الجوامع، الجامع الكبير في الحديث والجامع الصّغير في الحديث وزوائده- تخريج وتعليق وضبط: خالد عبد الفتّاح شبل- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1421هـ/2000م- مج05-ص 50. رقم الحديث13359. وقال صلّى الله عليه وسلّم:« شيّبتني هود وأخواها، الواقعة والقارعة والحاقّة وإذا الشّمس كُوِّرت وسأل سائل». مج05-ص 50.رقم الحديث13357. وعن ابن عساكر عن محمّد بن علي مرسلا .قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم « شيّبتني هود وأخواها، وما فُعل بالأمم قبلي »- مج05- ص50.رقم الحديث 13363.

أمّا وقوفنا على سورة طه فيعود إلى بعض الأخبار التي حكت قصّة إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[1]، فكان حديث شيبه صلّى الله عليه وسلّم سببا رئيسا لمعرفة بعض دقائق سورة هود وأسرارها، كما كانت هذه القصّة أيضا سببا رئيسا لمعرفة خصائص سورة طه وبعض مميّزاتها. في ضوء هذا الموضوع؛ موضوع التّضام في القرآن الكريم.

1 رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قال: « خرج عمر متقلّد السّيف، فلقيه رجل من بني زهرة، فقال له:أين تعمد يا عمر؟ فقال:أريد أن أقتل محمّدا. قال وكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمّدا؟ قال:فقال له عمر: ما أراك إلاّ قد صبوت وتركت دينك الذي أنت عليه، قال:أفلا أدلّك على العجب؟ إنّ ختنك وأختك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه، قال: فمشى عمر ذامرا حتّى أتاهما، وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب، قال: فلمّا سمع خباب بحسّ عمر توارى في البيت فدخل عليهما، فقال: ما هذه الهيمة التي سمعتها عندكم؟ قال: وكانوا يقرأون :(طه) فقالا: ماعدا حديثا تحدّثناه بيننا.قال:فوثب عمر على ختنه، فوطئه وطأ شديدا.قال:فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها، فنفحها نفحة بيده فدمّى وجهها فقالت وهي غضبى: وإن كان الحقّ في غير دينك إنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّدا رسول الله.فقال عمر:أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه.قال:وكان عمر يقرأ الكتب.فقالت أخته:إنّك رجس، وإنّه لا يمسّه إلاّ المطهرون، فقم فاغتسل أو توضّأ. قال: فقام عمر فتوضّأ، ثمّ أخذ الكتاب فقرأ:"طه". حتّى انتهى إلى: «إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي »[سورة طه- الآية 14].قال عمر:دلّوني على محمّد، فلمّا سمع خباب قول عمر، خرج من البيت فقال:أبشر يا عمر، فإنّي أرجو أن تكون دعوة رسول صلّى الله عليه وسلّم ليلة الخميس:"اللّهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطّاب أو بعمرو بن هشام. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الدّار التي في أصل الصّفا.قال:فانطلق عمر حتّى أتى الدّار وعلى باب الدّار:حمزة وطلحة وناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا رأى حمزة وَجلَ القوم من عمر فقال حمزة:هذا عمر إن يرد الله بعمر خيرا يسلم فيتبع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيّنا.قال: والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم داخل يوحى إليه، قال:فخرج رسول الله صلّى عليه وسلّم، حتّى أتى عمر، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السّيف، فقال ما أنت بمنته يا عمر حتّى ينزل الله عزّ وجلّ بك الخزى والنّكال ما أنزل على بالوليد بن المغيرة، فهذا عمر بن الخطّاب: اللّهمّ أعز الإسلام أو الدّين بعمر بن الخطّاب.فقال عمر:أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّك عبده ورسوله. وأسلم وقال: أخرج يا رسول الله».رواه البيهقي في دلائل النبوّة(219/2). وابن سعد في الطّبقات(202/3). وغيرهما. وانظر أسد الغابة. وصفة الصّفوة. وفتح الباري(59/7) أخذا:سيرة شهداء الصّحابة: فؤاد بن سراج عبد الغفّار-القاهرة – المكتبة التّوفيقية- د ط- د ت- ص 15. وينظر قصّة إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في:سيرة ابن إسحاق: محمّد بن إسحاق بن يسار(ت151هـ) – محمّد حميد الله – معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريف – د ط- د ت – ج02 – ص 161 وما بعدها. وينظر:صحيح البخاري: محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري- تحقيق: مصطفى ديب البغا –بيروت – دار ابن كثير باليمامة – 1407هـ/1987م – ج 03 – ص 1403. وينظر: السّيرة النّبويّة: أبو الفداء اسماعيل بن كثير(ت747هـ) – تحقيق: مصطفى عبد الواحد – بيروت – دار المعرفة – 1336هـ/ 1971م – ج02 – ص 32 وما بعدها.

لقد تناولنا في الفصل الأوّل موضوع التّضام من وجهة التّراث النّحوي، وتطرّقنا إلى بعض المسائل النّحوية، و لم نكد نتجاوز الطّرح الذي تقدّم به تمّام حسّان أثناء عرضه القرائن النّحوية وإلى جانب هذا تناولنا موضوع التّضام في الموروث البلاغي، وتطرّقنا فيه إلى مسألة علم المعاني والنّظم والإعجاز بشكل عامّ تمهيدا للفصلين الثّاني والثّالث.

إنّ أوّل ما يطالعنا به تمّام حسّان عند تعريف التّضام قوله:« يمكن فهم التّضام من وجهين نلخّصهما فيما يأتي: الوجه الأوّل أنّ التّضام هو الطّرق الممكنة في رصف جملة ما تختلف طريقة منها عن الأخرى تقديما وتأخيرا وفصلا ووصلا وهلمّ جرا، ويمكن أن نطلق على هذا الفرع من التّضام اصطلاح"التّوارد" وهو بهذا المعنى أقرب إلى اهتمام دراسة الأساليب التّركيبية البلاغية الجمالية منه إلى دراسة العلاقات النّحوية والقرائن اللّفظية، ومن ثمّ نتخطّاه ونتركه لمن شاء أن يوغل فيه »[1]، أردنا من موضوع البحث أن يتّصل اتّصالا مباشرا بهذا الفرع من التّضام، ومعرفة إمكانية رصف الجمل وطرق تركيبها ودقائق أسرار تضامّها، بمعنى صلاحية توارد الكلمة مع الكلمة تقديما وتأخيرا، وفصلا ووصلا، أو مغايرة باستعمالها في موضع دون موضع وبصيغة دون أخرى، أو ذكرا وحذفا، أو تعريفا وتنكيرا، أو إفرادا وجمعا إلى غير ذلك من مظاهر تضامّ الكلمة مع أختها الذي لا تحصره أشكال محدّدة ولا أنماط معيّنة، ومادام هذا التّوارد أقرب إلى اهتمام الدّراسات البلاغية الجمالية فإنّنا لم نر أصحّ مدوّنة نتّكئ عليها في موضوعنا غير القرآن الكريم فلا غرو عندئذ أن تنحو الدّراسة منحى غير الذي سارت عليه في مباحثها الأولى.

سنعتمد في هذين الفصلين على مسائل؛ بعضها من علم المعاني كالفصل والوصل والإيجاز والإطناب وبعضها من علوم القرآن كالمناسبة والفاصلة، نمهّد لكلّ منها بتعريف موجز وعرض لأهمّ المضامين، و نجعل تحت كلّ مسألة عناصر تجمعها خصائص مشتركة ثمّ نشرع في التّمثيل لها بذكر الآية تلو الأخرى حسب ترتيب الآي في السورة.

---

1 اللّغة العربية معناها ومبناها- ص 216. 217. ولقد سبق ذكر هذه المباحث. ينظر: ص 15 من هذا البحث.

1. المغايرة في نسق الاستعمال القرآني:

نتعرّض في هذا المبحث إلى استعمال القرآن للكلمة، مركّزين على تلك المغايرة الدّقيقة التي تحدث في صيغة الكلمة وزمنها وإبدالها بأخرى وبعض الفروق في الخطاب.

يراعي القرآن الكريم استعمالات ذات صيغ معيّنة لبعض الكلمات ثمّ تراه يعدل عنها إلى أخرى من غير خلل أو ملل، يقول تعالى:﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ﴾[1]، لم تجئ الآية بصيغة"ضيّق" ليدلّ على أنّه ضيّق عارض غير ثابت، لأنّه عليه السلام كان أفسح النّاس صدرا[2]، فقال"ضائق" كما قال"تارك" لأنّه وصف عارض بخلاف"ضيّق" فإنّه يدلّ على الثّبوت، ومنه قوله تعالى:﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[3]، في حين إنّه تعالى قال في سورة النّحل:﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[4] ففي الأولى قال:"الأخسرون" وفي الأخرى:"الخاسرون"، لأنّ سورة "هود" تقدّم فيها ما يفهم للمفاضلة[5]، فناسب الأخسرين بصيغة المفاضلة، والآيات كلّها لم تخرج عن هذا المعنى، أمّا آية سورة"النّحل" فلم يجئ قبلها ما يدلّ على المفاضلة أو التّفاوت[6]، بل جُمع فيها اسم الفاعل جمعا سالما في قوم متّفقي الأحوال في كفرهم (الكاذبون، الكافرون، الغافلون)، ومن المغايرة في نسق الصّيغة أيضا قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[7].

---

1 سورة هود – الآية12.

2 أبو القاسم جار الله الزّمخشري(ت538هـ): الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- حقّقه وخرّج أحاديثه: عبد الرّزّاق المهدي- بيروت- ط02- 1421هـ/2001م –ج02- 362.

3 سورة هود – الآية22.

4 الآية 109.

5 ينظر الآيات: 17. 18. 19. من هذه السّورة.

6 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- تحقيق:سعيد الفلاح- لبنان- دار الغرب-ط02- 1403هـ/1983م- ج02- ص 650.

7 سورة هود – الآية 117.

على أنّه تعالى قال في "القَصَص":﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾[1]، لأنّه تعالى نفى الظّلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في النّفي، لأنّ هذه اللاّم لام الجحود، ولام الجحود ومعها المضارع يفيدان الاستمرار[2]، والظّلم صريح في سورة "هود" فإهلاك الصّالحين ظلم، أي: ما فعلت الظّلم فيما مضى ولا أفعله في الحال ولا في المستقبل، أمّا في "القصص" دون ذكر"بظلم" فاكتفى بذكر اسم الفاعل وهو زمان غير معيّن، يفيد الحال والماضي والمستقبل حقيقة ومجازا، وقد يعدل القرآن عن زمن إلى آخر وفق شروط تركيبية محكمة، كقوله تعالى:﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[3]، حيث عبّر بالمضارع فعل الحاضر ليعطي المشهد حيويته وجدّته[4]، فإيثار هذا الزّمن يوحي بأن نرى هذا المشهد شاخصا لأبصارنا ماثلا من وراء هذا التّعبير لخيالنا، ونرى الجماعات يمرّون به فيسخرون منه، ومن المغايرة التي ترتبط بالزّمن ما تجده في نحو الآية الكريمة:﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾[5]، فاختيار الماضي في هذه الآية أدلّ على الإنشاء، وهو إنشاء للتّوكّل لا ينقطع[6]، كأنّه قال: لا أبالي بكيدكم فمالكي ومالككم واحد توكّلت عليه، وهذا التّوكّل و التّوحيد يعزّزه تقدّم لفظ الجلالة:"ربِّي" على"ربِّكم" لأنّ المقام للمحافظة على نفسه وللنّعي عليهم بأنّ الرّبّ واحد وهو مقرّ به، وممّا جاء في هذه السّورة في باب توارد الكلمة مع طائفة من الكلمات دون طائفة أخرى قوله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ

1 الآية 59.
2 ينظر: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: أبو يحيى زكريا الأنصاري – حقّقه:محمّد علي الصّابوني- الجزائر-ط02-1988م- ص 272.
3 سورة هود – الآية 38.
4 سيّد قطب: في ظلال القرآن- القاهرة- دار الشّروق- ط 34- د ت – مج04- ج12- ص1877. وينظر: البيان في روائع القرآن: تمام حسان – ص 92.
5 سورة هود – الآية 56.
6 ينظر:تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش(ت1332هـ)- تحقيق:إبراهيم بن محمّد طلاي- غرداية- 1420هـ/1999م- ج06- ص 420.

فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[1]، فقال في هذه الآية:"احمل" بينما جاء في سورة "المؤمنون": ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[2] بلفظ"اسلك"، ووجه تواردها مع طائفة الكلمات في الأولى أنّ لفظ"احمل" أوسع مواقع في اللّغة وأكثر تصرّفا في الكلام، تقول:حملت الشّيء إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحُمِّل فلان الأمانة، أمّا "سلك" فإنّ العرب تقول:سلكتُ الشّيء في الشّيء أي أدخلته، فـ"حمل" فيها اتّساع لا يكون في "سلك" لذلك وردت في آية"هود" من حيث ما اقترن بها من لفظ"قلنا" فطال الكلام لفظا، أضف إلى ذلك ما ناسب هذه العبارة من استيفاء قصّة نوح عليه السلام وطول الكلام بذلك، ثمّ إنّ في آية سورة "المؤمنون" إيجازا وإجمالا على عكس الآية في سورة "هود"[3]، فآيات الأولى على ضعف أو أطول ممّا ورد في الأخرى، ولك أن تتأمّل وورود"حتّى" في قوله:"حتّى إذا جاء أمرنا" وهي مكوّنة من أربعة حروف في الأولى وقوله:"فإذا جاء أمرنا" بالفاء لترى مناسبة الفاء للإيجاز وبـ" حتّى" موضعها المبنيّ على الاستيفاء والطّول، ومن هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[4]، حيث توارد معنى كلمة "المسّ" مع الرّكون، لأنّه لمّـــا كان الرّكون إلى الظّالم دون الميل إليه والاعتماد عليه دون مشاركة في الظّلم، وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظّلم فأتى بلفظ المسّ الذي هو دون الإحراق والاصطلاء[5]، وهو ما عرف عند البلاغيين القدامى باسم الائتلاف والملاءمة والإدماج والتعليق والافتنان والمقارنة والبسط[6]، فليس هناك لفظة نافرة عن أخواتها نابية عنها، بل تضامّ بعضها مع بعض، فاحفظ ما انطوى عليه نظم هذه اللّفظات السّبع التي هي بعض آية من المعنى وأنواع البديع. ونظير المغايرة للكلمة المغايرة في حروفها أو أحد حروفها، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ

---

1 سورة هود – الآية 40.

2 الآية 27.

3 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- ج02- ص 654.

4 سورة هود – الآية 113.

5 كمال الدّين عبد الغنيّ مرسي: مراعاة النّظير في كلام الله العليّ القدير- الإســـكندرية- دار الوفـــاء- ط01- 2005م- ص 86.

6 ينظر: بديع القرآن: ابن أبي الإصبع – ص 162.

يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[1]، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾[2]، ولم يقل"لك" وقد قال في أوّل الكلام"قل" ولم يقل "قولوا" لأنّه إذا أُسند إلى الرّئيس فعل ذهب الوهم إلى من معه[3]، لأنّ الملك إذا ذُكر بخوف أو بسفرٍ أو قدومٍ من سفر ذهب الوهم إليه وإلى من معه وهذا كثير في القرآن الكريم[4]، وممّا تتوارد فيه الكلمات ويضمّ بعضها إلى بعض ما يكون في سياق طائفة دالّة على العموم والشّمول قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[5]، في الآية عموم عموم واتّساع دلّت عليه هذه الألفاظ بكلّ شمولية واستيعاب، فالقرآن إذا أراد الاتّساع المترامي أوجد ألفاظا تناسب المعنى[6]، وتتناسق معه، فالدّابة تحتمل ما تحتمل من العموم من حيث الإنس والجنّ ومخلوقات نعرفها و لا نعرفها والأرض بجبالها وأنهارها، ولفظ الجلالة المقدّس لا يسمو إليه فكر ولا يحيط به عقل، والرزق على اختلاف طرقه، وكذا المستقرّ والمستودع والكتاب الجامع المانع لكلّ صغيرة وكبيرة، وهكذا جميع هذه الألفاظ، ومن هذا التّوارد قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[7]، النّزع في الآية مراد به بعد تراخ طويل في التّلذّذ بها، فكيف لو نُزعت على عجل وعبّر بالذّوق وهو للطّعم، وبالمسّ الذي هو أوّل

1 سورة هود – الآية 13.

2 الآية 14.

3 أبو زكريّا الفرّاء: معاني القرآن– بيروت– عالم الكتب– ط03-1403هـ/1983م–ج02–ص 05.وينظر:ج01–ص 476.

4 من ذلك قوله تعالى ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ﴾[سورة يونس–الآية83] –

5 سورة هود– الآية 06.

6 محمّد حسين علي الصّغير:تطوّر البحث الدّلالي، دراسة تطبيقية في القرآن– بيروت–دار المؤرّخ– ط01–1420هـ/1999م–ص 53.

7 سورة هود– الآيتان 09. 10.

الاتّصال[1]، تنبيها على أنّ مافي الدّنيا تمثيلٌ بقليل الدّنيا على ما في الآخرة كالعنوان، وفي الآية الأخرى لم يقل:"أمسسناه" كما قال:"أذقناه" ليدلّ أنّ المقضيّ بالذّات الخير، أمّا الشّر فمقضيّ بالعرض. و"النّعماء" وردت مرّة واحدة في القرآن في سورة هود، في مقابل السّرّاء[2]، وجاءت بفتح النّون، لأنّه لا يراد ذكر النّعم الكثيرة، بل إشارة إلى جنس النّعم وصنفها، وقد زاد في آية "فصّلت" "منّا" و"من" في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾[3]. لأنّه بيّن جهة الرّحمة في "فصّلت" فناسب ذكر"منّا" وحذفه هنا اكتفاء[4]، حيث زاد"من" لأنّه لمّا حدّ الرّحمة وجهتَها حدّ الظّرف بعدها لتتشاكلا في التّحديد، وهنا في سورة هود لمّا أهمل الأوّل أهمل الثاني.

ويستعمل القرآن ألفاظا يراد بها التّرادف وليست منه، من ذلك استعماله الدّقيق للفعلين أتى" و"جاء" حيث يتوارد كلّ فعل مع ما يناسبه، وممّا ورد في هذه السورة قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾[5]، في حين قال في موضع آخر:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾[6]، فجعل الأمر آتيا وجائيا مراعيا في ذلك ضمّ كلّ كلّ لفظة إلى ما يناسبها، فجاء يقال في الجواهر والأعيان، أمّا "أتى" ففي المعاني والأزمان[7]، وفي آية هود كان القوم ممّن يرى الأشياء،أي جاء أمرنا عيانا، ولمّا كان الزّرع لا يُبصِر ولا يَرَى قال "أتاها"، ومن الخطاب ما يكون في غاية اللّطف والاستعطاف بضمّ الكلم بعضها إلى بعض وفقا لمقتضى الحال نحو قول الحقّ سبحانه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا

1 ينظر:تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش- ج06- ص 345.

2 صلاح عبد الفتّاح الخالدي:لطائف قرآنية- دمشق-دار القلم- ط03- 1425هـ/2004م- ص 180.

3 سورة فصّلت- الآية50.

4 أبو يحيى زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- ص 256.

5 سورة هود – الآية66.

6 سورة يونس – الآية24.

7 بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج04- ص 80.

تخزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾[1]، قول نبي الله "لوط" عليه السّلام يجمع أنواعا من الاستعطاف ضمّت كلمات الآية بعضها إلى بعض فشكّلت هذه الرّوعة والانسجام، ومن هذه الأنواع[2]:

- أحدها: خطابهم بخطاب النّاصح المشفق بقوله:"يا قوم"، و لم يقل: يا هؤلاء.
- الثّاني: عرضه بناته عليهم بقوله:"هؤلاء بناتي".
- الثّالث: تنجيز ذلك بالإشارة.
- الرّابع: ترغيبه فيهنّ لطهارتهنّ وطيبهنّ.
- تذكيرهم بالله بقوله:"فاتّقوا الله".
- السّادس: المطالبة بحفظ الذّمام، وترك الأذى بقوله:"ولا تخزون".
- السّابع: التّوبيخ الشّديد بقوله:"أليس منكم رجل رشيد".

فانظر هل تجد لفظة تنبو عن أختها؟ بل ما أروعه بيانا وأتمّه.

---

1 سورة هود – الآيتان 77. 787.

2 عبد الفتّاح لاشين: ابن قيّم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن الكريم- بيروت- دار الرّائد العربي- ط01- 1402هـ/1985م- ص 190.

2. التّقديم والتّأخير:

يحتلّ مبحث التّقديم والتّأخير مكانا مرموقا في الدّرس البلاغي، وهو قديم قدم البحث في اللّغة، يصفه عبد القاهر الجرجاني بأنّه:«باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التّصرّف، لا يزال يفترّ لك عن بديعة أسنانه، ويفضي بك إلى ليفه ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك أن قدّم فيه شيء، وحُوِّل لفظ عن مكان إلى مكان»[1]، فهو يقدّم وجبة الحوار في طبق رفيع إذ يرتدّ « في أصله إلى أهمّيّة ما يقوم في الكلام الأدبي من علاقات هي في الحقّ صلب ما في الأدب من أدبية»[2]، ولا يكاد يخلو باب في البلاغة أو النّحو من تقديم أو تأخير، وقد اهتمّ القدامى به في كتاباتهم، فهاهو ابن جنّي يجعله من شجاعة العربية، ويخصّص عديدا من الأمثلة له، نحو استشهاده بهذا البيت الشّعري:

فأصبَحَتْ بعد خطَّ بهجتها كأنّ قفرا رسومَها قلما

أراد:

فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأنّ قلما خطَّ رسومَها

ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالفعل، وفصل أيضا بـــ"خطّ" بين "أصبحت" وخبرها الذي هو"قفرا" والآخر "رسوما"؛ وأنت لا تجيز:كأنّ خبزا زيدا آكل. بل إذا لم تُجز الفصل بين الفعل والفاعل على قوّة الفعل في نحو: كانت زيدا الحمى تأخذ. كان ألاّ تُجيز الفصل بين"كأنّ" واسمها بمفعول فاعلها أجدر[3]، فتغيير موقع اللّفظ بالتّقديم والتّأخير يغيّر المعنى، ويتصرّف فيه، وهذا التّغيير يكون مقصودا ولا يكون جزافا وعبثا، و من الذين تناولوا هذا المبحث ابن الأثير حيث أشار إلى ضربين منه؛ ضرب يختصّ بدلالة الألفاظ على المعاني، أي بدلالة الجملة أو التّركيب على

---

1 دلائل الإعجاز – ص 94.

2 أحمد محمّد ويس: الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، دراسة- جامعة حلب- اتّحاد الكتّاب العرب- د ط- د ت – ص 163.وينظر: دلالات التّراكيب: محمّد محمّد أبو موسى- ص 170.

3 الخصائص- ص 565.

معناه، وضرب يختصّ بدرجة التّقدّم في الذّكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك[1]، وقد اهتمّ معظم البلاغيين بالضّرب الأوّل، إذ ينجرّ عن تغيير النّظم تغيير المعنى لحاجة يطلبها السّياق ويقتضيها المقام. ومن ثمّ بات واجبا علينا أن نعرض شواهد لهذا النّوع من التّوارد في سورة هود.

يقول الحقّ تعالى:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾[2]، قدّم في هذه الآية:"النّذارة" بينما في آيات أخرى يقدّم "البشارة" كما في سورة البقرة:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[3] وسورة الأحزاب:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[4]، وسورة فصّلت:﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾[5]، ووجه تقديمها هناك وتأخيرها هنا أنّه لمّا قال:"ألاّ تعبدوا إلاّ الله" ناسبه ورودُ النّذارة متقدّمةً على عبادة غير الله، ولمّا كان الخطاب موجّها إليه صلّى الله عليه وسلّم ناسبَ ورودَ البشارة متقدّمةً كرامةً له صلّى الله عليه وسلّم[6] والأمر نفسه في سورة السّجدة، ناسبَ ذكرُ الرّحمة ووصف الكتاب ورودَ البشارة متقدّمة، وتقديم النّذارة أوّلا قد يكون من باب التّحذير لأنّ التّحذير من النّار أولى وأهمّ[7]. ثمّ هناك ملحظ آخر في الضّمائر، وهو أنّه لمّا لمّا كان النّبي صلّى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين قدّم ضميرهم فقال:"لكم منه"، ولم يقل:"منه لكم" ومن التّقديم الذي يفيد القصر ما جاء في قوله تعالى:﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾[8]، فتقديم"على الله" أفاد القصر، أي على الله

---

1 ابن الأثير: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر– ج02 –ص 210.

2 سورة هود – الآيتان :01. 02.

3 الآية 213.

4 الآية 45.

5 الآية 04.

6 بدر الدّين بن جماعة(733هـ): كشف المعاني في المتشابه من المثاني– تحقيق وتعليق: عبد الجواد خلف– القاهرة– دار الوفاء– ط01–1410هـ/1990م – ص 208.

7 ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: عبد الرّحمن الثّعالبي– تحقيق: عمّار طالبي– الجزائر– المؤسّسة الوطنية للكتاب– د ط – د ت– ج02– ص 266.

8 سورة هود – الآية 06.

لا على غيره، فهو وحده المتكفّل برزقها و لم يهمله[1]، وممّا ورد مقدّما جملةُ "على كلّ شيء" في قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾[2]، لمّا كان السّياق لإحاطته سبحانه وتعالى قدّم"على كلّ شيء" منهم ومن غيرهم ومن قبولهم وردّهم ومن حفظك منهم ومن غيره[3]، ومنه أيضا تقديم"بالآخرة" في قوله تعالى:﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[4]، فقدّم الآخرة لمّا كان تكذيبهم لها شديدا، وأعاد الضّمير"هم" تأكيدا لتعيينهم وإثبات غاية الفساد[5]. وممّا وقع أيضا في حيّز توارد بعض الكلمات مع بعض تقديما وتأخيرا قوله تعالى:﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[6]، في قصّة نوح عليه السّلام، وقوله تعالى في قصّة صالح عليه السّلام:﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ ﴾[7] فقد تساوى اللّفظان إلاّ فيما اختلفا من تقديم المفعول الثّاني في الآية الأولى على الجار والمجرور، وتأخيره عنهما في الآية الأخرى، وفي ذلك إجراءٌ لهذا الفعل ومفعوليه على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو قوله تعالى:﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا ﴾[8] فــ"بشرا" المفعول الثّاني من"نراك" وقوله:"ما نراك اتّبع" في موضع المفعول الثّاني من"نراك"، ثمّ بعده"بل نظنّكم قوما كاذبين"، وقد شرح هذه المفارقة في التّقديم والتّأخير الخطيب الإسكافي (ت431هــ) باستيفاء فقال:"فلمّا تقدّمت أفعال ثلاثة، كلّ واحد منها

1 الطّاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير- تونس، الدّار التّونسيّة للنّشر- الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة- د ط- د ت- ج10- ص 05.

2 سورة هود – الآية 12.

3 برهان الدّين البقاعي(ت885هــ): نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- القاهرة- ط01- 1495هــ/1975م – ج 12- ص 246.

4 سورة هود – الآية 19.

5 برهان الدّين البقاعي: السّابق- ج12- ص 256.

6 سورة هود – الآية 28.

7 الآية 63.

8 الآية 27.

يتعدّى إلى مفعولين والمفعول الثّاني لا يحجزه عن الأوّل معموله فيه كان إجراء هذا الفعل الذي هو"آتاني رحمة من عنده" مجرى تلك الأفعال التي وقعت (آتاني) في جوابها، وجاءت من كلام نوح في مقابلتها أولى أمّا في قصّة "صالح" فإنّه بإزاء قول قومه له:﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾[1] فوقع خبر كان الذي هو كالمفعول لكان، وقد تقدّمه الجار والمجرور فجرى جواب"صالح" فيما صار عبارة عنه من العربية مجرى الابتداء في هذا المعنى، فترجّح في هذا المكان تقديم الجار والمجرور في قوله:"وآتاني منه رحمة" على المفعول الثّاني كما ترجّح هناك تقديم المفعول الثّاني على الجار والمجرور"[2]، وسيتّضح الأمر إذا تأمّلنا في قوله تعالى:﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾[3]، فالجار والمجرور تقدّم في الآية الأولى فقط، وفي الثّانية:"وآتاني منه رحمة" وفي هذه:"ورزقني منه رزقا" فجاء هذا التّركيب على هذا التّوارد من التّقديم والتّأخير ليوافق كلّ منها ما قبله، إذ الأفعال المتقدّمة هنا:[نرى، نرى، نظنّ] ولم يَفصِل بينها وبين مفاعيلها جارّ ومجرور والفعل بَعدُ وهو"كان"في الثّاني، و"نفعل" في الثالث فصل بينه وبين مفعوله جار ومجرور، إذ خبر كان كالمفعول. وإذا قيل:«لمَ جاء في الأوّلَين"وآتاني" وفي الثّالث"ورزقني"»؟ قيل:« لأنّ الثّالث تقدّمه ذكر الأموال وتأخّر عنه قوله:" رزقا حسنا" وهما خاصّان، فناسبهما قوله:"ورزقني" بخلاف الأوّلَين فإنّه تقدّمهما أمور عامّة، فناسبها قوله:"وآتاني"»[4]. وملحظ آخر لطيف في هذا التّقديم والتّأخير لأجله وقع هذا التّوارد هو أنّ قوم صالح عليه السّلام بالغوا في إساءة الجواب حين: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾[5] فرموا مقامه النّبوي بحطّ مرتبتهم عنهم، فلمّا بالغوا جاوبهم عليه السّلام ردّا لمقالهم الشّنيع:﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ

---

1 الآية 62.

2 درّة التّنزيل وغرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز- اعتنى به: الشّيخ خليل مأمون شيحا- بيروت- دار المعرفة- ط01- 1422هـ/2002م- ص 158.

3 الآية 88.

4 أبو يحيى زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- ص 262. 263.

5 الآية 62.

إنْ عَصَيْتُهُۥ﴾[1]، وأنّه على بصيرة من أمره، ولكنّه خاطبهم على ما يجري في المناظرة من فرض ما لا يعتقده المناظر على حسب نطقه، فقدّم الجار والمجرور لتأكيد أنّ الرّحمة من عنده تعالى، ولمّا لم يكن في مراجعة قوم نوح مثلُ هذا في شناعة الجواب جرى جوابه عليه السّلام وأتى بالمجرور مؤخّرا في محلّه على ما يجب[2]، وأمر آخر كذلك لتقدّم الرّحمة في الآية الأولى هو أنّ الآية تتكلّم عن الرّحمة(فعُمّيت..أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) فكلّها تعود على الرّحمة لذا اقتضى السّياق تقديم الرّحمة على الجار والمجرور، أمّا الآية الأخرى فتتكلّم عنه سبحانه وتعالى(ربّي، الله، الضّمير في "عصيته")، فكلّها تعود على الله تعالى، فاقتضى الأمر تقديم "منه" على الرّحمة. وفي تقديم الهمزة على الفعل المضارع احتمال إنكار الفعل، فليس المعنى:" أنّا لسنا بمثابة من يجيء منه هذا الإلزام، وأنّ غيرنا يفعل ذلك، جلّ الله، بل المعنى إنكار أصل الإلزام[3].

يقول الحقّ تعالى:﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[4]، من التّقديم والتّرتيب الّذي وقع في الآية تقديم النّداء على الأمر جريا على مقتضى الحال فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التّنبيه، ثمّ قدّم الأرض على السّماء وابتدأ به لابتداء الطّوفان منها، ثمّ أتبع:"وغيض الماء" لاتصاله بقصّة الماء، ثمّ ذكر المقصود:"وقُضي" أي: وأنجز الموعود[5]، وستكون لنا وقفة مع هذه الآية نستعرض أهمّ ما ضمّنته من فنون بلاغية تخصّ تضام كلماتها وتوارد بعضها مع بعض، وأهمّ ما ذكره العلماء في هذه الآية، ومن التّقديم الذي يُراعى فيه شرف المُقدّم وأهمّيته ما في قوله تعالى:﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ

---

1 الآية 63.
2 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- ج02- ص 652.
3 ينظر: دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني- ص 102. وينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: فخر الدّين الرّازي- ص 161.
4 سورة هود – الآية 44.
5 عبد الله بن أحمد النّسفي:مدار التّنزيل وحقائق التّأويل- قدّم له: قاسم الشّماعي الرّفاعي- راجعه وضبطه:إبراهيم محمّد رمضان- بيروت- دار القلم- ط012- 1408هـ/1089م- مج 02- ص 723.

أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾[1] حيث قدّم "رحمت" لأنّ السّلام شرع على الأحياء والأموات، بتقديم اسمه على المسلّم عليهم، لأنّه دعاء بخير، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدّم به على المدعوّ له كما في هذه الآية[2]، أمّا الدّعاء بالشّر فيُقدّم فيه المدعوّ عليه على المدعوّ به غالبا نحو قوله تعالى:﴿وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾[3]، ومنه أيضا﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴿٨٤﴾ ويقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾[4]، الآية فيها نهي يتضمّن الأمر بالإيفاء، وأمر يتضمّن النّهي عن النّقص في المكيال، وقدّم النّهي على الأمر لأنّ دفع المفاسد آكد من جلب المصالح، ومن التّقديم الذي يدلّ على الاختصاص قوله تعالى:﴿ ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾[5] فإنّ في هذا التقديم دلالة على الاختصاص، والمعنى : ما أنت بعزيز، بل رهطك هم الأعزّة، فالعزّة منفية عنه- عليه السّلام- مثبتة لرهطه[6]، لذلك أجابهم:"أرهطي أعزّ"، ولو كان قولهم بمعنى:"ما عززت علينا" لما كان الجواب مطابقا، ولذلك نُهوا أن يقال:"ما أنا سعيت في حاجتك ولا أحد سواي"، وهو من نوع أن يقع التّقديم والتّأخير بين الفعل وما هو فاعل معنى[7]. ومن هذا التّقديم والتّأخير الذي يراعى فيه جانب المعنى ومقتضى الحال قوله تعالى:﴿يوم يأت لا تكلّم نفس إلّا بإذنه فمنهم شقيّ وسعيد ﴾[8]، في الآية خلاف ما تُعورف عليه من تقديم الأشرف، لكونه أهمّ في السّياق، فقد جاءت الآية تذييلا لقصص أقوام كذّبوا بأنبيائهم، وفي هذا الجوّ الذي تحيط به نذر العذاب

---

1 سورة هود- الآية 73.

2 عبد الفتّاح لاشين: ابن قيّم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن الكريم- ص 121.

3 سورة ص – الآية 78.

4 سورة هود – الآيتان 84. 85. أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن – ص 269.

5 سورة هود –الآية 91.

6 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني: القاهرة- المطبعة الحسينية- ط01- 1413هـ/1992م- ص 93.

7 بدر الدّين ابن مالك(ت 686هـ) : المصباح في المعاني والبيان والبديع- حقّق الكتاب وقدّم له بدراسة: عبد الحميد هنداوي- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1422هـ/2001م- ص 127.

8 سورة هود- الآية 105 .

قُدّم الأشقياء وجزاؤهم على السّعداء وجزائهم، على غرار قوله تعالى:﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾[1]، لأنّ تقديم"شقيّ" هو من تقديم الأهمّ في سياقه، وعكس ذلك يذهب بجلال النّظم، ويحجب دخان الانتقام، وتخفت معه أجراس الأصوات المنذرة المتوعّدة، وليس من أجل الفاصلة[2]، لأنّ لو كان من أجلها لعاد النّظم الحكيم في غير الفاصلة إلى تقديم الأشرف، فبدأ بجزاء السّعداء، وقال:"فأمّا الذين سعدوا" لكنّ الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم السّابقة هو الذي استوجب تقديم ما تقدّم لأنّ الكلام في سياق التّحذير من الظّلم والتّخويف من عذاب الآخرة، وهذا يقتضي تقديم الشّقيّ[3] لأنّ تقديمه في هذا المقام أعون على الزّجر وأبلغ في التّحذير، وهو ما تسير عليه الآية بعد ذلك ففي قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾[4]، قدّم أهل النّار على أهل الجنّة لأنّ الكلام قبل هذا كان في سياق التّخويف والتّحذير[5]، فكان الأليق أن يوصل هذا بما يناسبه في المعنى، وهو ذكر أهل النّار، فقُدّموا في الذّكر على أهل الجنّة، ومن التّقديم الذي جاء في هذه السّورة قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[6]، حيث

قدّم الظّرف على الفاعل لأنّ المقصود بيان منافع السّورة أو الأنباء المقصوصة فيها، واشتماله على ما ذكر من المنافع المفصّلة، لا بيان كون فيها لا في غيرها، ولأنّ عند تأخير ما حقّه التّقديم

---

1 سورة اللّيل- الآيات 14. 17.

2 محمّد الأمين الخضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية- القاهرة- د ط - 1414هـ/1994م- ص 31.

3 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني- ص 84.

4 الآيات 106. 107. 108.

5 عبد المتعال الصّعيدي: البلاغة العالية، علم المعاني- قدّم له وراجعه وأعدّ فهارسه:عبد القادر حسين- المطبعة النّموذجية- مكتبة الآداب بالجماميز- ط02- 1411هـ/1991م- ص 82.

6 الآية 120.

تبقى النّفس مترقّبة إليه فيتمكّن فيها عند الورود فضل ما تمكّن[1]، ثمّ إنّ المعارف الإلهية لابدّ لها من قابل وفاعل، وقابلها هو القلب، وأنّه ما لم يكن مستعدّا لم يحصل له الانتفاع بسماع الدّلائل، ولهذا السّبب قدّم ذكر صلاح القلب وعلاجه وهو تثبيته، ثمّ عقبه بذكر المؤثّر الفاعل وهو مجيء هذه السّورة بل آية منها وهي قوله تعالى:﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[2] مشتملة على الحقّ والموعظة والذّكرى[3]، وهذا ترتيب في غاية الحسن. ولأنّ في المؤخّر هناك نوعَ طول يخلّ تقديمه بتجاوب أطراف النّظم الكريم، ومنه أيضا الآية:﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[4] فضامّت الفاء الأمر بالعبادة "اعبده" لترتيب الأمر بالعبادة، وفي تأخير الأمر بالتوكّل عن الأمر بالعبادة إشعار بأنّه لا ينفع دونها[5].

---

1 أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الحكيم(على هامش تفسير الرّازي)- بيروت- دار الفكر- د ط - 1978م- ج05- ص 90.

2 الآية 112.

3 نظام الدّين القمّي النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان(على هامش الطّبري)- مصر- المطبعة الميمنية- د ط - د ت- ج12- ص 88.

4 الآية 123.

5 أبو السّعود :السّابق- ج5- ص 91.

3. المناسبـــة:

نحاول في هذا المبحث ربط مباحث المناسبة بتوارد أجزاء الكلام بعضها مع بعض، سواء على مستوى الجمل، أو على مستوى أكبر قد يمتدّ إلى خارج السّورة، وأن نعرض العلاقة بين مناسبة الكلام وتضام أجزائه، فليس ضمّ أجزاء الكلم بعضها إلى بعض أو السّورة إلى السّورة كيف جاء واتّفق، وإنّما يعود لمقاصد تراعي هذا التّوالي والتّتابع، عُرفت في علوم القرآن بعلم المناسبة.

ليس مقصودنا البحث في مناسبات النّزول، أو تلك الأحداث التي لازمت نزول آي القرآن، وإنّما ترتيب الآي بهذه الكيفية، وترتيب السّور بهذه الصّورة وأهمّيتها في التّضام والتّماسك والارتباط، باعتبار المناسبة وجها من علوم القرآن تظهر:« أهميّته من علوم القرآن بإظهار وجه من أوجه الإعجاز القرآني في تآلف ألفاظه وترتيب نظمه، وإظهار التّرابط والتّناسق في آياته وسوره»[1]، وتلزم على الباحث في مواضيع قرآنية معرفة المناسبة والإحاطة بها لمعرفة وجوه الرّبط بين الآيات والمقاطع في السّورة، فـ«وجوه المناسبات هذه تلقي الضّوء كاشفة على محور السّورة وهدفها، وبالتّالي يحدد الزّاوية التي ينطلق منها في بيان معاني الآيات الكريمة»[2]، ولعلّ من أقدم التّأليف في المناسبة كتاب"البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" لأبي جعفر بن الزّبير[3]، ومن النّصوص المبكّرة التي تدعو إلى البحث في دقائق هذا العلم ما قاله الزّركشي:« واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول...وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التّأليف حاله حال البناء المتلائم الأجزاء، وقد قلّ اعتناء المفسّرين بهذا النّوع لدقّته، وقد أكثر منه الإمام فخر الدّين الرّازي، وقال في تفسيره:"أكثر لطائف القرآن مودعة في التّرتيبات والرّوابط. وقال بعض الأئمّة: من محاسن

1 محمّد يوسف الشّربجي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام جلال الدّين السّيوطي(ت911هـــ) – مجلّـــة: الأحمدية– جامعة أمّ القرى– ع04– جمادى الأولى– 1420هـــ – ص 77.

2 مصطفى مسلم: مباحث في التّفسير الموضوعي– دمشق– دار القلم– ط05– 1428هـــ/2007م– ص 90.

3بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن– ج01– ص 35. و جلال الدّين السّيوطي: الإتقـــان في علـــوم القـــرآن– ج02– ص 451.

الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلاّ يكون منقطعا »[1] ولعلّ أوّل من أظهره في بغداد هو الشّيخ أبو بكر النّيسابوري، وكان يقول إذا قُرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى هذه، وما الحكمة في جعل هذه السّورة إلى جنب هذه السّورة؟[2] ويستطرد الزّركشي في بيان بعض المناسبة بين السّور ثمّ يلتفت إلى المناسبة بين الآيات فيقول:« وإذا ثبت هذا بالنّسبة إلى السّور، فما ظنّك بالآيات وتعلّق بعضها ببعض، بل عند التّأمّل يظهر أنّ القرآن كلّه كالكلمة الواحدة »[3]، وقد أفرد لهذا العلم البقاعي كتابا خاصّا سمّاه" نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور" وهو كتب ضخم فريد في صنيعه، يقول فيه:«..وسمّيته"نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور" ويناسب أن يُسمّى"فتح الرّحمن في تناسب أجزاء القرآن" وأنسب الأسماء له"ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان". وعلم المناسبات الأهمّ من مناسبات القرآن وغيره، تعرف منه علل التّرتيب، وموضوعه أجزاء الشّيء المطلوب علمُ مناسبته من حيث التّرتيب، وثمرته الاطّلاع على الرّتبة التي يستحقّها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتّعلّق الذي هو كلحمة النّسب، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال»[4]، ومن الذين صنّفوا فيه أيضا السّيوطي، فقد جاء في الإتقان:« وكتابي الذي صنّفته في أسرار التّنزيل كامل بذلك جامع لمناسبات السّور والآيات مع ما تضمّنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخّصت منه منابة السّور والآيات في جزء لطيف سمّيته تناسق الدّرر في تناسب السّور»[5]، إلى جانب رسالته"مراصد المُطالع في تناسب المقاطع والمَطالع" وهي رسالة مختصرة في المناسبة، وقد جاء عنه أنّ الفخر الرّازي قال:« من تأمّل في لطائف نظم السّور وبديع ترتيبها علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا:"إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"، إلاّ أنّي رأيت جمهور

---

1 بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج01- ص 35.
2 المصدر نفسه: ج01- ص 36.
3 المصدر نفسه- ج01- ص 39.
4 نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور- ج01- ص 05. 06.
5 ينظر: ص 451.

المفسّرين معرضين عن هذه اللّطائف غير منتبهين لهذه الأسرار »[1]، فالمناسبة عامل رئيس من عوامل التّماسك وتحقيق تضامّ الكلمات والآيات والسّور. وأجزاء السّورة ومقاصدها من الأمور الواجب معرفتها، وإذا تعذّر على كثير من العلماء دراسة سورة من القرآن دراسة تفصيلية وكشف جملة الوشائج اللّفظية والمعنوية التي تربط أجزاء السّورة بعضها ببعض فمن باب أوْلى أن يتعذّر علينا، وذلك مطلب له محلّه من كتب التّفسير، وفي القطعة الواحدة منها أسباب ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمتُّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، في شبكة من العلائق يحار إلى خيوطها ولكن سبيلنا سبيل ما قاله العلماء: « إنّ السّورة مهما تعدّدت قضاياها فهي كلام واحد يتعلّق آخره بأوّله، وأوّله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلّق الجمل بعضها ببعض في القضيّة الواحدة، وإنّه لا غنى لمتفهّم نظم السّورة عن استيفاء النّظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضيّة»[2]، وسنسير في هذا المبحث وفق محاور تدور في فلك المناسبة ولا تكاد تخرج عنها، هي البحث في مناسبة فاتحة السّورة وبدايتها ومحاورها الكبرى، ومناسبة اسم السّورة والقصص التي جاءت فيها، ومناسبة اسم السّورة ومضمونها، ومناسبة خاتمة السّورة التي قبلها وفاتحتها هي، و فاتحة السّورة مع خاتمتها، ثمّ خاتمة السّورة وفاتحة السّورة التي تليها، ومناسبات تخصّ آيات من السّورة بعضها مع بعض.

إنّ القضايا الكبرى التي جاءت في تضاعيف هذه السّورة يمكن أن نوجزها فيما يلي:

– بدأت سورة هود كما تبدأ كثير من سور القرآن الكريم بالحديث عن القرآن الكريم وشأنها في تقرير أصول الدّين شأن القرآن المكّي، وقد نزلت بعد سورة "يونس"[3] في فترة عصيبة

---

1 تناسق الدّرر في تناسب الآيات والسّور- دراسة وتحقيق: عبد القادر عطا- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1406هـ/1986م- ص 21. 22.

2 محمّد عبد الله دراز: النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن- ص 159.

3 محمّد بن جرير الطّبري: جامع البيان في تفسير القرآن- مصر- المطبعة الميمنية- د ط - د ت - ج11- ص 115.
وينظر: غرائب القرآن في رغائب الفرقان: نظام الدّين القمّي النسابوري(على هامش تفسير الطّبري)- ج12- ص01. وتفسير النّسفي: ج02- ص 700. وتفسير الثّعالبي: ج02- ص 260.وينظر: أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: ناصر الدّين البيضاوي- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1424هـ/2003م- ج01- ص 445. وينظر:مختصر ابن كثير: محمّد على الصابوني- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1420هـ/2000م- مج02- ص165. و صفوة التّفاسير:

مرّ بها النبي صلى اله عليه وسلّم، بعد وفاة عمّه أبي طالب، وزوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

– عدم الفائدة في الاستخفاء عند الإعراض عن الحقّ.

– تكفّل الله بأرزاق المخلوقات وشمولية علمه سبحانه، وموازنة دقيقة بين الانسان المؤمن وأوصاف الانسان الكافر.

– تحريض النّبيّ صلى الله عليه وسلّم على تبليغ الرّسالة وتهديد المشكّكين بالقرآن.

– الإيمان والإذعان هو المنهج الحقّ.

– التّحدّث بإسهاب عن دعوة الرّسل الكرام، وكانت البداية مع قصّة نوح عليه السّلام لأنّه الأب الثّاني للبشر، وهو أطول الأنبياء عمرا، وأكثرهم بلاء وصبرا، ومع ذلك لم يؤمن معه إلاّ قليل.

– قصّة هود عليه السّلام مع قومه.

– قصّة صالح عليه السّلام مع قومه.

– إبراهيم عليه السّلام مع قومه.

– لوط عليه السّلام مع قومه.

– قصة شعيب عليه السلام مع قومه.

– إعراض قوم موسى عليه السّلام مع قومه.

– العظة والاعتبار بالأمم السّالفة.

– ختمت السّورة بتوجيه الخطاب للرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وأعقبها بيان الحكمة من ذكر أخبار الأنبياء، ألا وهي لتثبيت قلبه صلّى الله عليه وسلّم، وهكذا تختم السّورة مثلما بدأت به

محمّد على الصّابوني- بيروت- دار القرآن- ط01- 1401هـ/1981م- القسم الخامس- ص 86. وينظر: إيجاز البيان في سور القرآن: محمّد على الصّابوني- القاهرة- مكتبة الغزالي- ط02- 1399هـ/1979م- ص 83.

من التّوحيد والتّوبة والإنابة والرّجعة إلى الله في نهاية المطاف، لأنّنا إذا أنعمنا النّظر في بداية سورة هود وجدناها قد جمعت بين القصد في اللّفظ والوفاء بالمعنى بكلمتيّ "الإحكام والتّفصيل"، وأيّ إحكام وتفصيل؛ إحكام من حكيم متقن لا خلل في صناعته، وتفصيل من خبير عالم بدقائق الأمور وتفاصيلها وما هي عليه.

أوّل ما يجب علينا الوقوف عنده اسم السّورة ومناسبة ذلك، إذ نبّه علماؤنا القدامى إلى هذا المبحث الدّقيق، وحرصوا على معرفة ما اختصّت به كلّ سورة من اسم أو أكثر من اسم وقد جعلوا فصولا خاصّة بأسماء السّور القرآنية، من ذلك ما رواه السيوطي عن الزّركشي أنّه قال:«ينبغي البحث عن تعداد الأسامي هل هو توفيقي أو بما يظهر المناسبات؟ فإن كان الثّاني فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كلّ سورة معانيَ كثيرةً تقتضي اشتقاق أسماء لها وهو بعيد، قال: «وينبغي النّظر في اختصاص كلّ سورة بما سمّيت به»[1]، وهذا الأمر امتدّ إلى الدّرس الحديث حيث يركّز علماء النّص على أهمّيّة العنوان، أو ما يواجهه المتلقّي أو محلّل النّص فـــ:« للعنوان قيمةٌ إشارية تفيد في وصف النّص ذاته، غنيّ عن البيان أنّ طبيعة العلاقات بين النّص وعنوانه من المباحث الحيويّة الطّريفة التي ما زالت في حاجة إلى دراسات علميّة تحليليّة عميقة»[2]، وقد أدرك علماء البلاغة قديما هذا الملمح البيانيّ الهامّ أمثال الجاحظ وابن طباطبا والحاتميّ وحازم لضرورة التّماسك بين عبارات النّص وجمله وفصوله وتضامّ أجزائه[3]، وما يعنينا هو مناسبة سورة هود لمضمونها واسمها.

إنّ سورة هود لم تعرض قصّة هود عليه السلام وحده؛ وإنّما عرضت قصص مجموعة من الأنبياء عليهم السّلام، حيث بدأت بآيات تتحدّث إلى نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم وتبيّن له ما يفعله المشركون، ثمّ تعرج على قصص بعض الأنبياء ومواقف أقوامهم ضدّهم ليطمئن النبيّ ويثلج صدره ويعلم أنّ هذه سنّة من خلا من الأنبياء والمرسلين، وأن يصبر، فتأتي قصّة نوح عليه السلام في

1 الإتقان في علوم القرآن- ص 79.

2 محمّد العبد: اللّغة والإبداع الأدبي- ص 48. أخذا عن: صبحي إبراهيم الفقّي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق- ص 106.

3 محمّد الخطّابي: لسانيات النّص، مدخل لانسجام الخطاب- ص 141. وما بعدها.

مقدّمة القصص وبعدها قصّة هود عليه السّلام، وبعدها قصّة صالح عليه السّلام، وبعدها قصّة إبراهيم عليه السّلام، وبعدها قصّة لوط عليه السّلام، ثمّ قصّة شعيب عليه السّلام، فقصّة موسى عليه السّلام، لتعود إلى الحديث عن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم مرّة أخرى إلى آخر السّورة.

تدور هذه القصص على محور واحد ممثّل في التّوحيد وأنّ الدين السّماوي واحد وأنّ رسالات الأنبياء واحدة، وهذا الاتّفاق بين كونهم أنبياء وأنّهم يقومون بالدّعوة، وكلّهم يواجَه بالرّفض والكفر، يزيد من تماسك السّورة وتضام وحداتها ومضمونها، فما أُريدَ من هذه بعد عرض قصص هؤلاء الغابرين هو التّنبيه إلى ضرورة عدم الاعتزاز بشيء ممّا يتخيّله الانسان في نفسه قوّة أو علما أو سلطانا، وإلى أنّه سبحانه يمهل، فإذا شاء أخذ، فإذا أخذ لم يفلت[1]، فالقصص جميعها تلتقي مع مضمون السّورة، وتتكاثف لتخدم القضيّة نفسها.

وفيما يخصّ اسم السّورة ومضمونها فإنّ كلّ القصص التي احتوتها السّورة تتعلّق باسم السّورة، التي تحمل اسم"هود" عليه السّلام، وهذا التّعلّق ذو مرجعية ضمنية مع بقيّة القصص، وذو مرجعية مباشرة مع قصة هود عليه السّلام، لأنّ مراحل تبليغ هود رسالة ربّه وإعراض قومه هي المراحل نفسها التي تتكرّر في جميع القصص، وقد أُطلق الجزء، وهو هود عليه السّلام وأُريد به الكلّ، وهذه المرجعية المباشرة مع قصّة هود والمرجعية الضمنية مع بقية القصص يمكن أن نمثّل لها بالشّكل التّالي:

1 محمّد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأمّلات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ- دمشق- مكتبة الفارابي- ط- د ت -ص 193.

مقدّمة القصص وبعدها قصّة هود عليه السّلام، وبعدها قصّة صالح عليه السّلام، وبعدها قصّة إبراهيم عليه السّلام، وبعدها قصّة لوط عليه السّلام، ثمّ قصّة شعيب عليه السّلام، فقصّة موسى عليه السّلام، لتعود إلى الحديث عن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم مرّة أخرى إلى آخر السّورة.

تدور هذه القصص على محور واحد ممثّل في التّوحيد وأنّ الدين السّماوي واحد وأنّ رسالات الأنبياء واحدة، وهذا الاتّفاق بين كونهم أنبياء وأنّهم يقومون بالدّعوة، وكلّهم يواجه بالرّفض والكفر، يزيد من تماسك السّورة وتضام وحداتها ومضمونها، فما أُريدَ من هذه بعد عرض قصص هؤلاء الغابرين هو التّنبيه إلى ضرورة عدم الاعتزاز بشيء ممّا يتخيّله الانسان في نفسه قوّة أو علما أو سلطانا، وإلى أنّه سبحانه يمهل، فإذا شاء أخذ، فإذا أخذ لم يفلت[1]، فالقصص جميعها تلتقي مع مضمون السّورة، وتتكاثف لتخدم القضيّة نفسها.

وفيما يخصّ اسم السّورة ومضمونها فإنّ كلّ القصص التي احتوتها السّورة تتعلّق باسم السّورة، التي تحمل اسم"هود" عليه السّلام، وهذا التّعلّق ذو مرجعية ضمنية مع بقيّة القصص، وذو مرجعية مباشرة مع قصة هود عليه السّلام، لأنّ مراحل تبليغ هود رسالة ربّه وإعراض قومه هي المراحل نفسها التي تتكرّر في جميع القصص، وقد أُطلق الجزء، وهو هود عليه السّلام وأُريد به الكلّ، وهذه المرجعية المباشرة مع قصّة هود والمرجعية الضمنية مع بقية القصص يمكن أن نمثّل لها بالشّكل التّالي:

1 محمّد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، تأمّلات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ- دمشق- مكتبة الفارابي- د ط- د ت -ص 193.

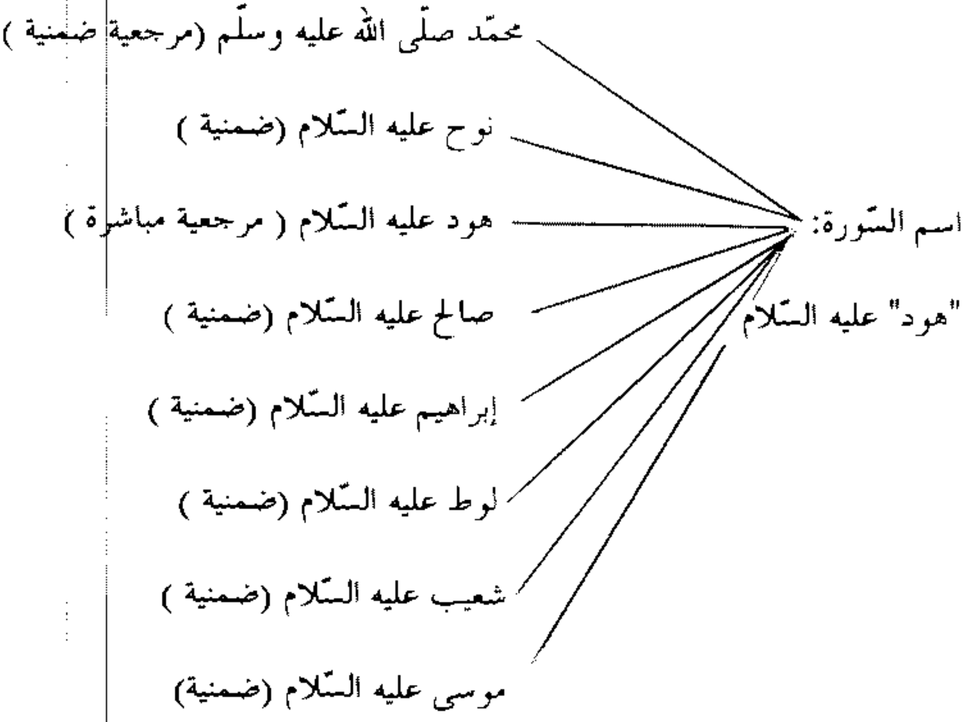

وعن هذه المرجعية التي تُشترط في مناسبة الكلام وارتباط أوّله بآخره يقول الزّركشي: « وقال الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السّلام:المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوّله بآخره»[1]، فالمرجعية ضرورية لتأكيد أمر تماسك السّورة واتّفاق عناصرها وتضامّ كلماتها وآياتها مع مضمونها العامّ، أمّا إطلاق الجزء وهو تسميتها باسم أحد الأنبياء المذكورين فيها، و المراد به الكلّ فإنّ ذلك يجيب عنه الزّركشي أيضا تحت عنوان"في اختصاص كلّ سورة بما سُمّيت" حيث يقول:« ينبغي النّظر في وجه اختصاص كلّ سورة بما سُمّيت به... فإن قيل: قد ورد في سورة "هود" ذكر "نوح" و"صالح" و"إبراهيم" و"لوط" و"شعيب" و"موسى"عليهم السّلام، فلمَ تختصّ باسم هود وحده؟ وما وجه تسميتها به؟ وقصّة نوح فيها أطول وأوعب. قيل: تكرّرت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشّعراء بأوعب ممّا وردت في غيرها، و لم يتكرّر في واحدة من هذه السّور الثّلاث اسم هود عليه السّلام كتكرّره في هذه السّورة، فإنّه تكرّر فيها عند ذكر قصّته في أربعة مواضع، والتّكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا. وإن قيل: فقد تكرّر اسم نوح في هذه السّورة في ستّة مواضع فيها، وذلك

1 البرهان في علوم القرآن — ج01- ص 37.

أكثر من تكرار اسم هود. قيل: لّما جرّدت لذكر نوح وقصّته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تُسمّى باسمه عليه السّلام من سورة تضمّنت قصّته وقصّة غيره، وإن تكرّر اسمه فيها، أمّا هود فكانت أوْلى بأن تُسمّى باسمه عليه السّلام»[1]، وهذا التّكرار الذي يذكره الزّركشي-اتّحاد أجزاء السّورة-قد اعتمده علماء النّص في الدّراسة المعاصرة بأنّه ظاهرة لغوية يتحقّق بها السّبك المعجمي، إلى جانب المصاحبة المعجمية[2]، وقد مرّ معنا علاقة السّبك بالتّضام ناهيك عن المصاحبة المعجمية التي هي مصطلح تغطية بالنّسبة إلى التّضام.

إنّ المناسبة على أنواع[3]، منها مناسبة الآيات مع بعضها، بحيث تتشكّل الوحدة الموضوعية للسّورة، ومنها مناسبة السّور مع بعضها، بحيث تجعل القرآن كالكلمة الواحدة، ومنها مناسبة فواتح السّور لخواتمها، أمّا مناسبة فاتحة سورة هود لخاتمتها فإنّها تتّضح في ذلك الدّوران حول المحور المشار إليه سابقا وهو عبادة الله، وأنّ الأمر كلّه مرجعه إلى الله. يقول تعالى:﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝ ﴾[4]، ويقول بعدها:﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ ﴾[5]، ويقول في خاتمة السّورة:﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[6]، وبهذا تتّضح هذه المناسبة بين ما جاء في بداية السّورة وآخرها.

ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه ← فاعبده

إلى الله مرجعكم ← وإليه يرجع الأمر كلّه

1 المصدر السّابق- ج01- ص 272، وينظر: الإتقان في علوم القرآن: السّيوطي - ص 79.

2 ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النّصية: جميل عبد المجيد- ص79.

3 محمّد يوسف الشّربجي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام السّيوطي- مجلّة الأحمدية- ص 79.

4 سورة هود – الآيتان01. 02.

5 الآية 04.

6 الآية 123.

والمرجعية في هذا داخلية سابقة، والمسند إليه في كلّ هذا واحد، هو الله سبحانه، وقد أشار السّيوطي إلى هذه المناسبة لكون فاتحة السورة كانت بذكر القرآن، وأنّ خاتمتها كذلك[1]، ولم يقف الأمر عند مفتتح السّورة والخاتمة، بل إنّ المتتبّع للسّورة يلحظ المناسبة في اتّفاق الآيات وما جاء على لسان الأنبياء، نحو قوله تعالى:﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[2] على لسان نوح عليه السّلام، وعلى لسان هود في قوله تعالى:﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾[3]، وما جاء على لسان صالح في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[5] ، كما أنّ ردود أقوامهم واحدة، وبهذا الاتّفاق في الدّعوة إلى الله تتماسك السّورة ويتّصل أوّلها بآخرها، وتتضام آياتها إلى بعضها بعضا، وهكذا:« تختتم السّورة التي بُدئت بالتّوحيد في العبادة،والتّوبة والإنابة والرّجعة إلى الله في النّهاية، بمثل ما بُدئت به من عبادة الله وحده والتّوبة إليه وحده، وذلك بعد طول التّطواف في آفاق الكون، وأغوار النّفس..وهكذا يلتقي جمال التّنسيق الفنّي في البدء والختام، والتّناسق بين القصص والسّياق بكمال النّظرة والفكرة،والاتّجاه في هذا القرآن»[6]، و المتتبّع للقرآن المكّي يجده يركّز على الاهتمام بالعقيدة والتّوحيد ويعوّل عليه، وهذا هو ديدن هذه السّورة. ومن العوامل التي تساعد على هذا التّماسك علاقة الإجمال والتّفصيل، حيث تجدها مرتبطة باسم السّورة وما حدث فيها، كأن تكون السّورة مفصّلة لاسمها،أو أن يكون بعضها مفسّرا لاسمها، والمرجعية «المحقّقة هنا كلّها مرجعية

1 محمّد يوسف الشّربجي: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمام السّيوطي- مجلّة الأحمدية- ص 93.
2 الآية 26.
3 الآية 50.
4 الآية 61.
5 الآية 84.
6 سيّد قطب: في ظلال القرآن- مج 04- ج 12- ص 1934.

خلفية لما سبق،وعليه يسهم هذا النّمط في تحقيق التّماسك»[1]، وهو ما نراه في الآيتين الثانية والثّالثة اللتين تفصّلان بعضا ممّا تعلّق بالآية الأولى التي تتحدّث عن الكتاب المبين.

وهناك عامل آخر من عوامل التّضام هو علاقة الكلمة بما يجاورها، لما بينهما من مناسبة. وتتّضح مجاورة الكلمة لأخواتها من خلال العلاقات النّحوية بينها كالنّعت والبدل والتّمييز وغيرها على نحو ما نجده بين قوله تعالى:﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2] وبين قوله تعالى من السّورة نفسها:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[3] فالعلاقة تمثّل المرجعية الخلفية السّابقة، وبها يتحقّق تضام الكلمات المتجاورة وتماسكها، ومن أنماط المناسبة التي تعمل على تماسك النّصوص وتضام أجزائها قضيّة التّضاد أو الضّدّية، وتتجسّد مثلا بين آيات تتحدّث عن النّعيم وأخرى تليها تتحدّث عن العذاب، أو البشير والنّذير، إمّا بين جملتين على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، وقوله تعالى بعدها:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5] ، أو بين كلمتين في آية واحدة نحو قوله تعالى:﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[6]، ومن القضايا التي تسهم في البناء الكلّيّ للسّورة وتجعله متناسبا وآخذا بعضه بأعناق بعض قضية المسبّب والمسبَّب عنه الدّلالية، مثل ما رأيناه في القصص التي حدثت بين أنبياء الله عليهم السّلام وأقوامهم ليكذّب من يكذّب ويصدّق من يُصدّق، ثمّ تأتي النّتيجة في الأخير فينجّي الله من اتّبع رضوان الله، ويهلك الكافرين، فهذه النّتيجة التي يكثر دورانها في القرآن كانت وراء ما سبق من تكذيب أو تصديق، ولم تكن عفوا دون سبب، والمرجعية في هذا أيضا خلفية معلوم بها.

1 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النظرية والتّطبيق- ص 142.
2 سورة هود- الآية 03.
3 الآية 11.
4 سورة هود — الآية 18.
5 الآية 23.
6 الآية 105.

ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾[1]، تفتتح هذه بذكره سبحانه وبصفتين من صفاته في قوله تعالى:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2]، وفي الأولى الخطاب موجّه إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، في قوله تعالى:﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾[3]، وتفتتح هذه بذكر وظيفته عليه السّلام في قوله تعالى:﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[4]، ينضاف إلى هذا بناء الأفعال للمفعول، فقد جاء الفعل (يُوحى) في خاتمة السّورة الأولى مبنيًا للمفعول في قوله تعالى:﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[5] وكذلك في السّورة الأخرى في قوله تعالى:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[6]، والفعلان هما (أُحكمت، فُصِّلت)، وبناء الأفعال للمفعول إشارة منه سبحانه إلى أنّ إحكامه أمر قد فُرغ منه على أيسر وجه منه سبحانه[7]، ويمكن أن نمثّل هذه المناسبة التي بين خاتمة سورة"يونس" وفاتحة سورة"هود" بالشّكل التّالي:

سورة يونس		سورة هود
الحديث عن الوحي	←	الحديث عن كتاب الله.
النّهي عن دعاء غير الله	←	النّهي عن عبادة غير الله.
ذكر الله وصفاته سبحانه	←	ذكر الله وصفاته سبحانه.
الخطاب إلى الرّسول المتحدّث	←	هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

---

1 الآية 109.
2 الآية 01.
3 الآية 109
4 الآية 02.
5 الآية 109.
6 الآية 01.
7 ينظر: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: برهان الدّين البقاعي – ج09- ص 225.

بناء الفعل للمفعول ← بناء الفعل للمفعول

وهنا تبرز أهمّيّة المناسبة في تماسك النّص[1] واتّحاد أجزائه بين أكثر من سورة، فالقرآن يتجاوز تضام الكلمة وذواتها إلى إطار أوسع وأكبر بخاصّة حينما تمعن في مثل هذا النّوع من المناسبات لتدرك أنّها فُصِّلت من لدن حكيم خبير.

بعد البحث في مناسبة خاتمة السّورة لفاتحة التي تليها لا بأس أن نقف عند مناسبة خاتمة السّورة وفاتحة التي تليها، أي خاتمة سورة"هود" وفاتحة سورة"يوسف". يقول البقاعي:« لمّا خلّل سبحانه تلك-سورة هود- بما خلّلها به من القصص والآيات القاطعة بأنّ القرآن من عنده وبإذنه نزل، وأنّه لا يؤمن إلاّ من شاء إيمانه، وأنّه مهما شاءه كان، وبيّن عظيم قدرته على مثل ما عذّب به الأمم، وعلى التّأليف بين الأمم وإيقاع الخلاف بين من شاء، وأشار إلى أنّه حكم بالنّصرة لعابديه فلابدّ أن يكون ما أراد لأنّه إليه يرجع الأمر كلّه، تلاها بهذه السّورة- سورة يوسف- لبيان هذه الأغراض لهذه القصّة العظيمة الطّويلة»[2]، أمّا مناسبة الأوّل للآخر فإنّه:« لمّا ابتُدئت السّورة الماضية بأنّ هذا الكتاب محكم، وخُتمت بالحكمة المقصودة من قصّ أنباء الرّسل، وكان السّياق للرّدّ عليهم في تكذيبهم في قوله:"أم يقولون افتراه" ودلّ على أنّه أُنزل بعلمه، ابتُدئت هذه لإتمام تلك الإشارة الدّالّة بالإشارة إلى ما له من علوّ المحلّ وبعد الرّتبة...ولمّا تقدّم أوّل سورتي"يونس" و"هود" وصفه بالحكمة والإحكام والتّفصيل، وُصف هنا بأخصّ من ذلك فقال تعالى:"المبين" أي: البيّن في نفسه أنّه جامع معجز لا يشتبه على العرب بوجه»[3] ، وقد زاد أن وضّح السّيوطي هذه المناسبة فقال:« وجه وضع سورة"يوسف" بعدها أنّ قوله في مطلعها:﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[4] مناسب لقوله في مختتم تلك:﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ

1 ينظر: علم اللّغة النّصي بين النّظرية التّطبيق: صبحي إبراهيم الفقي- ص 184.

2 نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ص ج 12- ص 01. 02.

3 ينظر: المصدر نفسه - ج12- ص 05.

4 سورة يوسف – الآية 03.

فُؤَادَكَ ﴾[1]، وأيضا لّما وقع في "هود":﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾[2]،وقوله:﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾[3] ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته فكان كالشّرح لإجمال ذلك، وكذلك قال هنا في سورة"يوسف":﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ ﴾[4] فكان ذلك كالمقترن بقوله في "هود":﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾[5] »[6]، فقد جاء في مختتم سورة"هود" بأنّ الله يقصّ القصص على نبيه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فكان مفتتح سورة"يوسف" كذلك. والسورة السّابقة تضمّنت علم الله للغيب واختصاصه به وحده، والأخرى قد كانت من الغيب لم يعلمها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمسند إليه في السّورة الأولى واحد هو"سبحانه" "نقصّ" و"الله" و"فاعبده" و"عليه"، وفي هذه أيضا:"إنّا أنزلناه" و"نحن" نقصّ عليك". وفي الأولى المخاطَب هو نبي الله صلّى الله عليه وسلّم في نحو:"عليك" و"فاعبده" و"توكّل"، وفي الثّانية نفسه: " عليك" و"إليك" و"كنت". وهذه المناسبات يمكن عرضها كسابقتها بهذا الشّكل:

سورة هود	←	سورة يوسف.
الحديث عن القصص	←	الحديث عن القصص أيضا.
الإشارة إلى امتلاك الغيب لله	←	السّورة كلّها من الغيب على رسول الله.
المسند إليه هو سبحانه	←	المسند إليه هو الواحد الأحد.

---

1 الآية 120.
2 الآية 71.
3 الآية 73.
4 الآية 06.
5 الآية 73.
6 نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ص 94، 95.

المخاطَب هو رسول الله ⟵ المخاطَب هو رسول الله.

وكلّ هذه المناسبات زادت النّصوص التحاما وتآلفا، والآيات إلى بعضها تماسكا وتضامّا واستطاعت أن تخرج بالتّحليل من إطاره المعهود المحصور في النّص إلى مجال أوسع رحبا وأطول امتدادا، من الكلمة إلى الآية إلى السّورة إلى السّور، وممّا يندرج أيضا تحت مظلّة المناسبة قضيّة فواتح السّور، لأنّ فاتحة السّورة «تمثّل أحيانا سمة من سماتها، وأحيانا مفتاحا لها، وأحيانا عنوانا لها وأحيانا تتشابه مع فواتح سور أخرى»[1]، وليس الأمر مقتصرا على السّورة نفسها بل قد يتعدّى ذلك إلى مناسبة فواتح أكثر من سورة، لكن الذي ينهض به بحثنا هو وجه افتتاح هذه السّورة بالحروف الهجائية المقطّعة[الر]، وليس من السّهل بمكان الاقتراب من موضوع فواتح السّور، فلقد كثرت الكتابات فيه منذ القديم، وكثرت تخريجات وتعليلات العلماء حوله[2]، وقد عدّ الزّركشي عشرين وجها ذكرها العلماء[3]، حصرها الزّملكاني في وجهين فقال:« إنّها – أي فواتح السّور بالحروف المقطّعة– كالمهيجة لمن سمعها من الفصحاء، والموقظة للهمم الرّاقدة من البلغاء لطلب السّاجل والأخذ في التّفاضل، وما هذا شأنه خليق بالنّظر فيه، والوقوف على معانيه بعد حفظ مغانيه. الثّاني: التّنبيه على أنّ تعداد هذه الحروف ممّن لم يمارس الخطّ و لم يعانِ النّظر فيه على ما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[4] متنزّل منزلة الأقاصيص عن الأمم السّالفة ممّن ليس له اطّلاع على ذلك»[5] إلاّ أنّنا نقتصر من تلك الوجوه على بعض ما اطمأنّ إليه بحثنا.

---

1 صبحي إبراهيم الفقّي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية و التّطبيق- ص 150.

2 ينظر ما كُتب حول الموضوع على سبيل المثال في كتاب: الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية و لغوية وبيانية:عائشة عبد الرّحمن- ص 155. إلى ص 180.

3 البرهان في علوم القرآن- ج03- ص 173. وما بعدها.

4 سورة العنكبوت – الآية 48.

5 كمال الدّين عبد الكريم: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن- ص 57.. أخذا عن: محمّد حرير: جمالية التّلقي في القرآن الكريم- مخطوط رسالة دكتوراه- الجزائر- جامعة سيدي بلعبّاس- قسم اللغة العربية وآدابها- 2006م- ص 170. 171. وهذان الوجهان وردا عند الزّركشي في الوجهين الحادي عشر والثاني عشر من عشرين وجها ذكرها للعلماء. ينظر: البرهان في علوم القرآن- ج01- ص 176.

إنّ المَواطن التي ورد فيها حرف"الرّاء" في فواتح السّور هي: سورة "يونس" وسورة"هود" وسورة"يوسف" وسورة"إبراهيم" وسورة"الحجر" وسورة"الرّعد"، أمّا سورة هود-وهي موضوع بحثنا-فإنّها تفتتح بذكر البشرى والنّذارة، والبشرى هي الشّيء الذي يروق النّفس، فإذا ما ألقيته السّامع هشّ وبشّ. وتأثّرت به بشرة وجهه فطرب له، ورأيته عليه. والتّبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة، وهي الجلدة الظّاهرة المرئية[1]. فالرّاء من الرّؤية والبيان والظّهور.

ومعاني هذه الرّؤية والظّهور تتكرّر في السّورة في مواطن عديدة بمعان كثيرة، منها النّجاة ومنها النّظر، ومنها البصر، ومنها الرّؤية نفسها، فالنّجاة تكرّرت أربع مرّات في السّورة، نحو قوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا ﴾[2] وقوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا ﴾[3] وقوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا ﴾[4] وقوله تعالى:﴿ مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ ﴾[5]، والنّجاة والتّنجية إظهار الحقّ، والتّنجية جعل الأمر على نجوة مرتفعة ليُرى. أمّا الانتظار فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[6]، والانتظار طلب ما يقدر النّظر عليه، ويكون في الخير والشّر، والنّظر طلب إدراك الشّيء من جهة البصر أو الفكر. أمّا البصر فتجده بصيغة"بصيرا"في ثلاثة مواطن، في قوله تعالى:﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾[7] وقوله تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ ﴾[8] وقوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[9] والبصر اسم الرّؤية، ولهذا يقال: إحدى عينيه عمياء، ولا يقال: أحد بصريه أعمى[10]. أمّا الرّؤية فقد

1 محمّد بدري عبد الجليل: براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسّور- الإسكندرية- مطبعة الجيزة- د ط- د ت – ص 154.
2 الآية 58.
3 الآية 66.
4 الآية 94.
5 الآية 116.
6 الآية 122.
7 الآية 20.
8 الآية 24.
9 الآية 112.
10 محمّد بدري عبد الجليل: السّابق- ص 155. 158.

وردت خمس مرّات ؛ منها قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾[1]، وقوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى:﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾[3]، وقوله تعالى:﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ ﴾[4] وقوله تعالى:﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾[5]، أمّا البشارة التي جاءت في مفتتح السّورة فقد وردت أربع مرّات؛ في قوله تعالى:﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾[6] وفي قوله تعالى:﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ ﴾[7]، وقوله تعالى:﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾[8]وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾[9]، وهكذا فكلّ الكلمات دارت حول المفهوم نفسه واتّحدت على معنى واحد تجمعه لفظة الرّؤية، التي اشتقّ منها مفتتح السّورة، ليبين تماسك فاتحة السّورة مع ما جاء فيها، ناهيك عن الكثير من الوجوه التي استدلّ بها العلماء لفواتح السّور وما تفرّع عنها من بحوث، تصلح أن تفرد بدراسات قائمة بذاتها، وبهذا تكون المناسبة عنصرا من عناصر السّياق الدّاخلي يبحث في التّضام والارتباط بين الآية والآية أو الآية والسّورة أو السّورة والسّورة، لا غنى للباحث عنه.

1 الآية 28.
2 الآية 29.
3 الآية 63.
4 الآية 70.
5 الآية 88.
6 الآية 01.
7 الآية 69.
8 الآية 71.
9 الآية 74.

هناك ملحظ آخر في سورة هود يرتبط بالقصص التي وردت فيها، حيث تجد القرآن يأتي بقصص أولئك الأنبياء إلاّ قصّة إبراهيم عليه السّلام فإنّه لا يذكرها في هذه السّورة ويذكرها في سور أخرى فما وجه المناسبة في ذلك؟

لقد حكى القرآن قصّة نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، في سورة الأعراف وهود والشّعراء، و لم يذكر معهم قصّة إبراهيم، وإنّما ذكرها في سورة الأنبياء، ومريم والعنكبوت، والصّافّات. والسّرّ في ذلك « أنّ تلك السّور ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم ونجاة الرّسل وأتباعهم»[1]، وأنّ ترتيب قصص هذه السّورة كترتيب قصص الأعراف، وإنّما أدرج شيئا من أخبار إبراهيم عليه السّلام بين قصّة "صالح" و"لوط" لأنّ له مدخلا في قصّة "لوط" وكان إبراهيم ابن خالة لوط[2]، فلا غرو أن لا نجد قصّة إبراهيم عليه السّلام مرويّة في سورة هود، ولكن ما وجه خصوصية إبراهيم بهذه الميزة بعدم إهلاك قومه؟ فالجواب أنّ الله سبحانه لم يذكر عن قوم إبراهيم أنّهم أُهلكوا، بل ذكر أنّهم ألقوه في النّار فجعلها الله بردا وسلاما، وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم، بل هاجر وتركهم. وهكذا حال محمّد صلّى الله عليه وسلّم، لم يقم فيهم بل خرج عنهم حتّى أظهره الله، ومحمّد وإبراهيم أفضل الرّسل . ثمّ كانت له العاقبة فهو أشبه بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم،[3] فإنّ محمّدا سيّد الجميع، وهو خليل الله، كما أنّ إبراهيم عليه السّلام خليله والخليلان هما أفضل الجميع، وفي طريقهما الرّحمة والرّأفة ما ليس في طريق غيرهما.

وما دام الحديث عن محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعن القصص القرآني فإنّنا نعود القهقرى إلى سبب شيبه عليه السّلام وتساؤل الصّحابة عليهم رضوان الله عن هذا الشّيب، فيا ترى ما الّذي في هذه السّورة ينبت الشّيب؟ لعلّه مصراع الأمم التي ظلّت فحاق ها الهلاك، إنّ هذا الهلاك قصّه الله في أكثر من موضع وسورة فلم تُحدث هذا الأمر، أم تنكُّر النّاس للرّسول وإعراضهم عنه هو

---

1 الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج03- ص 30.

2 أبو حيّان الأندلسي (ت754هـ): البحر المحيط في التّفسير- طبعة بعناية الشّيخ زهير جعيد- بيروت- دار الفكر- 1413هـ/1992م- ج01- ص 178.

3 المصدر نفسه- ج03- ص 32.

الذي سَبّه؟ فقد جاء في السّورة:﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[1]، ولكن الرّسول أكبر من أن يهتزّ لصدود الجهلة.

إنّ هناك شيئا لاحظه العلماء في هذه السّورة لم يلحظوه في غيرها، إنّه كثرة التّوجيهات التي تمسّ شخص النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتتناوله بضمير الخطاب بين الفينة والفينة، كأنّما تشعره بما هو مكلّف به من بلاغ، وذلك بدءا من قوله تعالى:﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ ﴾[2] فلاحظ كم مرّة ورد ضمير الخطاب في هذه الآية، لقد ورد أربع مرّات، ثلاث منها ورد متّصلا ومرّة منفصلا، وظلّ الأمر يتكرّر عشرات المرّات إلى آخر السّورة، وقد جاء قبل هذه الآية قوله تعالى:﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[3]، ليتوالى الخطاب بعد ذلك إلى الرّسول نحو قوله تعالى:﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[4]، وعقب قصّة نوح توجّه الخطاب إليه بقوله تعالى:﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[5] في ثلاثة ضمائر متّصلة غير الضّمير المنفصل والضّمير المستتر في الفعل:"اصبر"، وفي خلال هذه القصّة يتوقّف السّرد الدّافق لتجيء الآية:﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[6]، ثمّ تأتي قصّة عاد وإذاية هود عليه السّلام في قوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[7] ويتّجه الخطاب إلى النبي عليه

1 سورة هود– الآية 05.

2 الآية 12.

3 الآية 07.

4 الآية 17.

5 الآية 49.

6 الآية 35.

7 الآية 58.

الصلاة والسّلام بقوله تعالى:﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[1]، وما حدث لهؤلاء حدث لثمود، ويلفت سبحانه نبيّه إلى هذا المصير بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾[2]، وبعدهم قوم لوط ليخبر عزّ وجلّ نبيّه بدمارهم فيقول:﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۝ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[3] والجملة الأخيرة تهديد للعرب الذين يمضون في طريق الكفر دون متاب، ويقول تعالى لنبيّه بعد هلاك مدين والفراعنة:﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾[4]، وتتكاثر ضمائر الخطاب في أواخر السّورة «حتّى تبلغ ثمانية عشر ضميرا، عدا الأوامر المصاحبة الكثيرة فما تظنّ وقع ذلك على فؤاد صاحب الرّسالة صلّى الله عليه وسلّم »[5]، وتبدأ من قوله تعالى:﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[6]، ويكرّر اسم الجلالة"الرّب" مضافا إلى ضمير الخطاب مرّتين عند ذكر جزاء القيامة:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾[7]، ومرّة أخرى عند ذكر السّعداء:﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

---

1 الآية 59.

2 الآية 66.

3 الآيتان 82. 83.

4 الآية 100.

5 محمّد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم- الرّوية- منشورات بغدادي- د ط- د ت - ص 167. 168.

6 الآيتان 101، 102.

7 الآيتان 106. 107.

عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1]، وبعدها يقول له الحقّ تبارك وتعالى:﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[2] ويذكّره بقضائه السّابق أنّه يرجئ مجازاة النّاس كلّهم إلى يوم موعود:﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾[3] وإلى أن أن يقع ذلك اليوم فعلى نبيّنا الكريم أن يحتسب ويصبر على المحن والآلام وطول الانتظار هو ومن معه فيقول له تعالى:﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4] بَصِيرٌ﴾[4] ويقول له أيضا:﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[5]، ويعلم سبحانه أنّ ذلك لن يتأتى إلاّ بالصّبر فيقول له:﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[6] وتتكرّر ضمائر الخطاب كلّما قاربت السّورة الانتهاء، حين يقول له الحقّ تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[7]، فلاحظ هذه الضّمائر كم تكرّرت، والأمانة كم ثقلت، ألا يُعدّ سببا لأجله شاب

---

1 الآية 108.

2 الآية 109.

3 الآيتان 110، 111.

4 الآية 112.

5 الآية 114.

6 الآية 115.

7 الآيات من 117، إلى 123.

المصطفى صلّى الله عليه وسلم[1]، وبهذه الطّريقة من الخطاب للنّبيّ الكريم مضت السّورة في سرد أحوال الأمم السّابقة مع رسلهم.

ولا تقف حدود المناسبة عند هذا، بل تتجاوز ذلك إلى السّورة نفسها، وهو ما نلمحه من مغايرة في طريقة العرض والأداء، يقول سيّد قطب:« إنّه حيثما اختلفت طريقتان للتّعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النّفس والذّهن، وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ على انفراد»[2]، ومن ذلك ما نجد في التّعبير في قصّة إبراهيم والملائكة وتبشيره بكلمة "ضحكت" في قوله تعالى:﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾[3] مناسبة ذكر هذه اللّفظة دون أخرى؟ إنّ في الآية إجمالا من من حيث التّقديم والتّأخير، فهناك ما قدّم والنّيّة به التّأخير، قصّة إبراهيم والملائكة، وكان لهذا التّقديم وجهان؛ أحدهما: قيل أصله، فبشّرناها بإسحاق فضحكت. وقيل ضحكت حاضت بعد الكبر عند البشرى[4]، والآخر: يعتمد التّفسير النّفسي، حيث يقول العقّاد:« هنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار فتعجّب، لا تملك سارة أن تجهر به، فتقول: إنّ هذا شيء عجيب. إنّ كلّ عوامل الضّحك النّفسية التي ظهرت للباحثين النّفسانيين في تفسيراتهم تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضّحك حيث يأتي الضّحك مطّردا في مواضعه المختلفة من تحوّل الشّعور: طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة، وبعد سنّ اليأس وخيبة الأمل في الذّرّية زمنا طويلا تعالج فيه النّفس بأشتات من دواعي الحزن والعزاء والغيرة والتّسليم...ولا تُغني هنا كلمة"سرّت" أو كلمة"استبشرت" أو "فرحت" في كلمة "ضحكت"، فإنّ الضّحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النّفس حالات متناقضات»[5]، لتلاحظ أنّ القرآن لم يستعمل الكلمة إلاّ في مكانها الأنسب و الأليق بها

1 ينظر: نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم: محمّد الغزالي- ص 169.

2 التّصوير الفنّي في القرآن الكريم- القاهرة- دار الشّروق- ط07- 1402هـ/1982م- ص 240

3 الآية 71.

4 الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج03- ص 280.

5 جحا الضّاحك المضحك- ص 71. أخذا عن: سعيد عطيّة علي مطاوع: الإعجاز القصصي في القرآن الكريم- القاهرة- دار الآفاق- ط01- 2006م- ص 171. 172.

ومن هذه المناسبة في تنوّع الخطاب القرآني واستعمال بعض الألفاظ دون بعض، وفي أماكن دون أخرى استعمالُه أسماء الأنبياء عليهم السّلام استعمالا يناسب فيه المقام، نحو خطاب النّوع مع" بني إسرائيل" والمراد أبناء يعقوب -عليه السّلام- من الكتابين، ولم يذكروا في القرآن إلاّ بهذا، دون "يا بني يعقوب"، والسّرّ أنّهم لّما ذُكِّروا بعبادة الله وذُكِّروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيها لهم سُمُّوا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإنّ إسرائيل اسم مضاف إلى الله سبحانه في التّأويل[1]، ولّما ذكر موهبته وتبشيره به في قوله تعالى:﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾[2] قال:"يعقوب" وكان أولى من "إسرائيل" لأنّها موهبة تعقب أخرى، وبشرى عقب أخرى، وإن كان اسم يعقوب عبرانيا لكن لفظه موافق للعربي، من العقب، والتّعقيب والمعجزة هنا في مشاكلة الاسمين للمقامين، ومناسبة ورود كلّ منهما في مكانه. أضف إلى ذلك أنّه قد يكون للشّخص اسمان، فيقتصر على أحدهما دون الآخر، من ذلك استعمال"مدين" وهم أصحاب الأيكة، فحين أخبر عنهم قال سبحانه:﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾[3] قاله بـــ" أخيهم" بينما عند الحديث عن أصحاب الأيكة لم يقل "أخاهم" وإنّما قال تعالى:﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[4]، وقال تعالى في موضع آخر:﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾[5]، والحكمة في ذلك:« أنّه لّما عرّفهم بالنّسب وهو أخوهم في ذلك النّسب ذكره، ولّما عرّفهم بالأيكة التي أصابتهم فيها العذاب لم يقل "أخاهم" وأخرجه عنهم»[6]، وهكذا حال القرآن كلّه، «تسلم كلّ سورة منه القيادة لما بعدها في خطوات متعانقة ومتآلفة حتّى يـــأتي القـــرآن

1 الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج01- ص 161.

2 الآية 71.

3 سورة هود- الآية 84.

4 سورة الشّعراء- الآية 176.

5 سورة ص- الآية 13. وينظر: سورة الحجر- الآية 78. وسورة ق - الآية 14. فكلّها تستعمل "الأيكة". ولا تستعمل اسم"شعيب" عليه السّلام.

6 الزّركشي: السّابق- ج01- ص 162.

وكأنّه كلمة واحدة»[1]، فالقرآن على أعلى منزلة من البيان والإعجاز سواء بين حروفه وكلماته وآياته أو سوره، لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها.

1 السّيد أحمد عبد الغفّار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه- الإسكندرية- دار المعرفة الجامعية- 1995م- ص 331.

4. الفصل والوصل:

تتّحد الألفاظ بعضها مع بعض وتتضامّ لتشكّل جملا، ويتّصل بعض هذه الجمل مع بعض لتشكّل بناء كاملا يعتمد على قوانين وضوابط تحكمه وتجعله مترابط الأجزاء، وهذه العلاقات التي تنشأ بين الكلمات والجمل مردّها إلى عوامل تتّكئ عليها في بنائها، يلزم على المتكلّم مراعاتها ومعرفتها، وهذه العلاقات تتماسك بطرق عديدة ووسائل مختلفة، أجمع البلاغيون على دراستها تحت عنوان"الفصل والوصل"، وجعلوا هذا الأخير بابا رئيسا من أبواب البلاغة العربية، فلم يخل باب من أبوابها إلاّ وقد أقحموه في دراساتهم، لذلك ألزمنا أنفسنا أن نلج هذا الباب وأن نربطه بموضوع التّضام أو التّوارد منطلقين من بعض التّنظيرات له ثمّ ملاحظة ما يمكن ملاحظته من مجيئه في سورة هود.

حظي مبحث الفصل والوصل بمكانة سامقة في تاريخ البلاغة العربية، وارتبط بها منذ فجرها الأوّل، فعُرفت به وأصبح شرطا فيها حتّى قالوا: البلاغة معرفة الفصل من الوصل، فلقد أورد الجاحظ تعريفات عديدة للبلاغة ومن جملة ما أورده أنّ فارسيا سُئل عن البلاغة فأجاب ذلك الفارسي أنّها: معرفة الفصل من الوصل[1].

بيد أنّ مباحث الفصل والوصل لها امتدادات تعود إلى الدّرس النّحوي قليلا، ذلك ما نستشفّه عند الفرّاء حين تناول آية من القرآن الكريم وأخذ يشرحها فقال:« وقوله هاهنا:(ويُذبّحون)[2] وفي موضع آخر(يذبّحون[3]) بغير واو، وفي موضع آخر (يُقتّلون)[4] بغير واو فمعنى الواو أنّهم يمسّهم العذاب غير التّذبيح كأنّه قال: يعذّبونهم بغير الذّبح وبالذّبح، ومعنى طرح الواو كأنّه تفسير لصفات العذاب. وإذا كان الخبر من العذاب أو الثّواب مجملا في كلمة ثمّ فسّرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوّله غير آخره فبالواو، فمن المجمل قول الله عزّ وجلّ:﴿وَمَن يَفْعَلْ

---

1 ينظر: البيان والتّبيين: الجاحظ- مج 01- ص 91. وينظر: العقد الفريد :ابن عبد ربّه(368هـ) - ج02- ص 112. وينظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق(456هـ)- قدّم له: صلاح الدّين الهواري- دار ومكتبة الهلال- د ط - 2002م -ج01- ص 385.

2 ينظر: سورة الأنبياء - الآية 06.

3 ينظر سورة البقرة- الآية 49.

4 ينظر سورة الأعراف- الآية 141.

ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[1] فالأثام فيه نيّة العذاب قليله وكثيره، ثمّ فسّره بغير الواو فقال:﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾[2] ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيرا له. ألا ترى أنّك تقول عندي دابّتان وبِرْذَوْن ولا يجوز عندي دابّتان وبغل وبِرذَوْن وأنت تريد تفسير الدّابّتين بالبغل والبرذون، ففي هذا كفاية عمّا ترك من ذلك فقس عليه»[3] فلاحِظ ما ذهب إليه الفرّاء، من أنّ الجملة الثّانية إذا كانت بيانا للأولى فإنّ الواو تطرح، حتّى لا يقع حرف العطف بين التّفسير والمفسّر، بخلاف إذا كان الكلام ذا معنى آخر غير الأوّل فإنّه يلزم ذكرها، ويحدث الوصل الذي « يقتضي أن تكون الجملة الثّانية لها تعلّق وترابط بالجملة الأولى، فإنّ من شأن التّناسب أن يزيد الوصل حسنا ويضفي عليه جمالا وبهاء، ومن التّناسب أن تتّفق الجملتان في الاسمية أو الفعلية والاسميتان في نوع المسند إليه والمسند فيهما، والفعليتان في نوع الفعل فيهما»[4]، وزيادة على هذا فإنّ للفرّاء نصّا آخر أكثر اقترابا من الدّلالة البلاغية لهذا المصطلح اللّغوي حين تعرّض لآية من القرآن هي قوله تعالى:﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[5]، حيث راح يفسّر تجرّد قوله تعالى:"قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين"من الفاء فقال:« وهذا كثير في القرآن بغير الفاء، وذلك لأنّه جواب يُستغنى أوّله عن آخره بالوقفة عليه، فيقال: ماذا قال لك؟ فيقول القائل" كذا وكذا؛ فكأنّ حُسنَ السّكوت يجوز به طرح الفاء، وأنت تراه في رؤوس الآيات – لأنّها فصول– حَسَنا؛ من ذلك:﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾[6]...فاعرف بما جرى تفسير ما بقي، فإنّه لا يأتي إلاّ على الذي أنبأتك به من

1 سورة الفرقان – الآية 68.

2 سورة الفرقان – الآية 69.

3 معاني القرآن– – ج02– ص 68. 69.

4 عبد الفتّاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن– مصر– دار المعارف– ط 01– 1976م– ص 277.

5 سورة البقرة– الآية 67.

6 سورة الحجر– الآيتان 57. 58.

الفصول أو الكلام المكتفي يأتي له جواب»[1]. وهكذا يبدو أنّ الفرّاء من أوائل من عرّفوا بهذا الفنّ ونبّهوا إليه.

فكانت هذه النّصوص نبراسا لمن جاؤوا بعده يردّدونها في كتبهم، و لم يكن قد استقرّ معناه بعد، إلى أن كثرت الدّراسات في تلك الفترة فأصبح مصطلحا له أصوله وحدوده في الدّرس البلاغي، ومن أوائل الذين تعرّضوا لهذا المصطلح أبو هلال العسكري في الباب العاشر من أبواب كتابه سمّاه"في ذكر مبادي الكلام ومقاطعة القول في حسن الخروج والفصل والوصل" فقال:«..ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل...وإنّ البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام »[2] ووقف عنده بمزيد من الشّرح والتّحليل جاعلا نصب عينيه القصيدة يطبّق عليها هذا الأسلوب في فصولها ومقاطعها بعيدا عن مفهومه الذي استقرّ عند البلاغيين وعلماء المعاني، لأنّ تطبيقاته توحي بأنه يريد إشعار القارئ بانتهاء كلام أو فصل ودخول آخر، حتّى يتهيّأ له، وذلك في قوله على سبيل المثال:« وقال أبو العبّاس السفاح لكاتبه قف عند مقاطع الكلام وحدوده. وإيّاك أن تخلط المرعى بالهمل، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل من الوصل...وقال الأحنف بن قيس ما رأيت رجلا تكلّم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده وأعطى حقّ المقام، إلاّ عمرو بن العاص(رضي الله عنه) كان إذا تكلّم تفقّد مقاطع الكلام،حتّى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبيعته من الألفاظ »[3] فمراده بالوصل والفصل غير ما عناه به الفرّاء ومن قبله، إلى أن قيّض الله لهذا المبحث عبد القاهر الجرجاني فأعطاه دفعا جديدا[4] فاق به سابقيه مصطلحا ومفهوما، وخصّص له فصلا كاملا من فصول كتابه" دلائل الإعجاز" وبحثه بحثا منظّما يقوم على التّقسيم والتّحديد والتّعليل، وربطه بباب العطف بعد أن ربط البلاغة بمعاني النّحو، فقال:«اعلم أنّ العلم بما ينبغي أن يُصنع في الجمل

---

1 معاني القرآن- ج01- ص 43. 44.

2 كتاب الصّناعتين- ص 497.

3 المصدر نفسه- ص 497.

4 لقد وردت عبارة الفصل والوصل مثلا عند الباقلاّني عند كلامه عن الوجوه التي يرجع إليها إعجاز القرآن، فقال:" ومعنى رابع وهو أنّ كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بيّنا في الفصل والوصل، والعلوّ والنّزول والتّقريب والتّبعيد..."و لم يزد على هذا شرحا أو تعليلا. ينظر: إعجاز القرآن- ص 38.

من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة، وممّا لا يتأتّى لتمام الصّواب فيه إلاّ الأعرابُ الخلّص، وإلاّ قوم طُبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوّة الأمر في ذلك أنّهم جعلوه حدّا للبلاغة. ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلاّ كمل لسائر معاني البلاغة»[1]،فعبد القاهر يتّخذ مصطلح الوصل للدّلالة على عطف المفردات والجمل حال تغايرها واحتياجها إلى رابط بينها، ومصطلح الفصل علمًا على ترك العطف بين المفردات والجمل حال اتّصالها والتباس بعضها ببعض، وعدم احتياجها إلى رابط لفظي[2]، وليجمل الفصل والوصل في ثلاثة مواضع بقوله:«..إنّا حصلنا من ذلك على أنّ الجمل على ثلاثة أضرب:

- جملة حالها مع التي قبلها حال الصّفة مع الموصوف، والتّأكيد مع المؤكّد، فلا يكون فيها العطف البتّة- لو عُطفت- بعطف الشّيء على نفسه.

- وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلاّ أنّه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافا إليه، فيكون حقُّها العطف.

- وجملة ليس في شيء من الحالين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء، فلا يكون إيّاه، ولا مشاركا له في معنى، بل هو شيء إنْ ذُكر لن يُذكر إلاّ بأمر ينفرد به، ويكون ذكرُ الذي قبله وتركُ الذّكر سواءً في حاله، لعدم التّعلّق بينه وبينه رأسا وحقّ هذا ترك العطف البتّة»[3]، والمتتبّع لنصوصه يفهم أنّ هذا الباب يحتاج إلى تأمّل عميق أنضج ممّا رسخ في أذهاننا من معنى المشاركة. وأنّه ليس مقصورا على الجمل؛ بل يشمل المفردات أيضا وهو ما تجده يبدأ به قبل حديثه عن عطف الجمل. ولقد كان لتحليل عبد القاهر للفصل والوصل أثر بالغ الأهمّيّة فيمن جاء بعده، فهاهو السّكاكي أيضا يقرّر أنّ الفصل والوصل هو الأصل في هذا

1 دلائل الإعجاز- ص 171.

2 أحمد سعد محمّد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية- القاهرة- مكتبة الآداب- ط02- 1421هـ/2000م- ص 358.

3 دلائل الإعجاز- ص 185. وينظر: دلالات التّراكيب: محمّد محمّد أبو موسى- ص 278.

الفنّ، ولم يحصره بين الجمل، كما أنّه جعل الوصل بالعطف بالواو وبغيرها من حروف العطف حيث يقول:«مركوز في ذهنك لا تجد لردّه مقالا ولا لارتكاب جحده مجالا، أن ليس يمتنع بين مفهومي جملتين اتّحاد بحكم التّآخي، وارتباط لأحدهما بالآخر مستحكم الأواخي، ولا أن يباين أحدهما مباينة الأجانب لانقطاع الوشايج بينهما من كلّ جانب، ولا أن يكونا بين الآصرة رحم ما هنالك فيتوسّط حالهما بين الأولى والثّانية لذلك، ومدار الفصل والوصل وهو ترك العاطف وذكره على هذه الجهات وكذا طيّ الجمل عن البين ولا طيّها وأنّها لمحك البلاغة ومنتقد البصيرة ومضمار النّظار ومتفاضل الأنظار ومعيار قدر الفهم ومسبار غور الخاطر ومنجم صوابه وخطائه ومعجم جلائه وصدائه وهي التي إذا طبقت فيها المفصّل شهدوا لك من البلاغة بالقدح المعلّى»[1] ولقد ضيّق من هذا المفهوم من جاء بعده كابن النّاظم(ت686هـ) حين قال إنّ الفصل والوصل: « هو ترك العطف بين الجمل التي لا موضع لها من الإعراب وذكره»[2]، وإذا تابعنا ما ذهب إليه الخطيب القزويني من أنّ: «الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه، وتمييز موضع أحدهما من موضع الآخر على ما تقتضيه البلاغة فنّ مهم عظيم الخطر، صعب المسلك، دقيق المأخذ..»[3]، أدركنا أنّه أيضا:« ضيّق ما وسّعه عبد القاهر والسّكاكي، ممّا جعله هدفا لبعض علماء البلاغة، فقد ردّ الدّسوقي في "حاشيته" على الخطيب وجعل العطف بين الجملتين والمفردين بشرط الجامع، وذكر مثالين في عطف المفرد أحدهما بليغ والآخر فاسد، لأنّه خارج عن قوانين البلاغة »[4]، ثمّ توالت الدّراسات وأصبح الفصل والوصل هو «العلم بمواضع العطف والاستئناف والتّهدّي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، وأنّ فائدة العطف التّشريك بين المعطوف والمعطوف عليه»[5]، فقاعدته العظمى حروف العطف، وينعطف عليها حروف الجرّ، وهو على

---

1 مفتاح العلوم- ص 108.

2 المصباح في المعاني والبيان والبديع- حقّقه وقدّم له بدراسة: عبد الحميد هنداوي- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01-1422هـ/2001م – ص 133.

3 الإيضاح في علوم البلاغة – ص 151.

4عبد الفتّاح لاشين:المعاني في ضوء أساليب القرآن- ص 269.

5 ابن قيّم الجوزية: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ص 182.

نوعين؛ عطف مفرد على مفرد، وعطف جملة على جملة[1]، ويلخّص السّيوطي هذا الباب في هذه الأبيات:

تعاطف الجمل يدعى الوصلا وتركه الفصـــــل فأمّا الأولى

فإن يكن لها محلٌّ وقصــــدُ فشريكُ تاليها لها فيما وجد

فاعطف وشرط كونه مقبولا تناسب للفقد جيء مفصـــــولا

ثمّ قال:« هذا هو الباب السّابع وهو أعظم الأبواب خطرا وأصعبه مسلكا وأدقّه مأخذا حتى قصر أبو علي الفارسي البلاغة على معرفة الفصل من الوصل، والمراد بالوصل عطف الجمل بعضها على بعض، وبالفصل ترك التّعاطف»[2]. إذا؛ فالمقصود بالوصل عطف بعض الكلام على بعض، والفصل ترك هذا العطف، وهذا ما انتهى إليه هذا الفنّ البلاغي في صورته الأخيرة التي نجدها في كتب البلاغة في عصرنا، فقد عُني أغلب البلاغيين المتأخّرين[3] والمعاصرين بالحديث عن"الواو" التي تُذكر فتوصل الجملة بأختها، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين[4]، وقد خُصّت "الواو" لأنّ غيرها من أدوات العطف يفيد مع الإشراك معاني أخرى، فـ"الفاء" تفيد التّرتيب من غير تراخ، و"ثمّ" تفيد التّرتيب مع التّراخي أو للتّردّد بين شيئين.

أشرنا في الفصل الأوّل إلى أنّ تمّام حسّان عدّ الفصل والوصل ظاهرة من ظواهر التّضامّ وقسّمه إلى نوعين؛ فصل نحويّ وفصل بلاغيّ، وأنّ الفصل النّحوي قوامه الفصل بين المتلازمين بفاصل هو دون الجملة، إلاّ أن تكون الجملة ذات محلّ إعرابي، فإنّها تُعدّ كالمفرد لأنّها حلّت محلّه واتّخذت لنفسها إعرابه..وأنّ الفصل البلاغي وإنْ كان وسيلة نحويّة فإنّه يختلف عن الفصل النّحوي وموضعه الدّراسة الأسلوبية، وإنّما هو وسيلة نحوية كونه يعتمد على حذف حرف

---

1 ينظر: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحي بن حمزة العلوي- ج02- ص 20.

2 شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان- بيروت- دار الفكر- د ط – د ت – ص 58.

3 فخر الدّين الرّازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز- ص 172.

4 طالب محمّد اسماعيل الزّوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- بنغازي- جامعة قار يونس- ط01- 1997م –ص 302.

العطف، وأنّ له من خصوصية المقام ما يجعله شيئا آخر غير الحذف النّحوي[1]، وحتّى لا تخرج الدّراسة عن هدفها المنشود فإنّنا نسعى إلى بعض الأسرار البلاغية التي يزخر بها القرآن الكريم في هذا المجال.

قد يلجأ السّياق القرآني حين يختار الحوار إلى توخّي الفصل بين الجمل، ليتطابق مع المقام الذي يقتضيه الموقف، فيدفعنا لمعايشة المشهد واستحضاره ففي قوله تعالى:﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾[2] نجد أنّ السّياق الكريم قد أبعد العطف وتوخّى الفصل بين المتحاورين "نوح" عليه السّلام وابنه، ولمّا انتهى هذا الحوار، انتهى هذا المشهد الكريم بقوله تعالى:"وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ " لنفهم نهايته المقترنة بالواو، ثمّ قال: " فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ " لنفهم نهايته المقترنة بالفاء، ولا نريد:« أن نقصد استبعاد فكرة تقدير السّؤال استبعادا مطلقا، بل قد يكون هذا الأسلوب مناسبا لسياق خاص، وملائما لموقف آخر ممّا يحقّق تفنّناً في أساليب البحث البلاغي»[3]، ومن الفصل بين الجمل ما يُسمى بشبه كمال الاتّصال[4]وشاهده قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾[5]، فقد فُصلت الجملة الثّانية" إنّه عمل غير صالح" عن الأولى" إنّه ليس من أهلك"، لأنّ الثّانية وقعت جوابا لسؤال أثارته الجملة الأولى، وهو: كيف لا يكون من

1 ينظر: البيان في روائع القرآن: تمّام حسّان- ص 179.

2 سورة هود – الآية 42.

3 طالب محمّد إسماعيل الزّوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- ص 323.

4 وهو أن تكون الجملة الثّانية من الفصل بمنزلة المتّصلة بالأولى لكونها جوابا عن سؤال اقتضته الأولى فتُنزّل منزلته فتنفصل الثّانية عنها كما يفصل الجواب عن السّؤال.ينظر: مفتاح العلوم: السّكاكي- ص 109 110. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب- ص 514.

5 سورة هود – الآية 46.

أهلي وهو ابني؟ فكان الجواب عن ذلك: إنّه عمل غير صالح[1]، فالجملة الثّانية مرتبطة بالأولى ارتباطا وثيقا كم يربط الجواب بالسّؤال، ولهذا ترك العطف، لأنّ الجواب لا يعطف على السّؤال[2]، ومن الفصل بين المتعاطفين قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3] حيث فصل بين المتعاطفين بالمفعول الثّاني، ولا يقال فصل بين نائب الفاعل والمفعول الثّاني[4]، لأنّ الفعل هنا من أخوات "أعطى" ومفعولاها ليسا متلازمين، لأنّهما ليس بينهما علاقة إسناد ملحوظة كالتي بين مفعولي "ظنّ"، ومن اللّطائف العجيبة في الفصل والوصل قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[5]، والتناسب بين الجملتين واضح، بين الشّهادتين؛ شهادة الله تعالى، وشهادة القوم على براءته عليه السّلام ممّا يشركون من دون الله، وقد وُضع في الآية الإنشاء موضع الخبر، لأنّ جملة (اشهدوا) إنشائية لفظا، خبرية معنى، وهذا التّناسب بين الجمل "مطلوب سواء وصلت تلك الجمل أو فصلت، فلا يصحّ أن تتلاقى الجمل وتقرن موصولة أو مفصولة إلاّ عندما تتحقّق المناسبة بينها، وإلاّ كان الكلام معيبا . وقد صرّح البلاغيون بذلك حين نبّهوا عن مراعاة التّجانس، والتّآلف والتّآخي بين ألفاظ الكلام وجمله فمراد البلاغيين بوجود المناسبة المسوّغة للعطف بين الجمل الموصولة مناسبة خاصّة، وهي أن يكون بين طرفي الإسناد في كلّ جملة تناسبٌ وتلاقٌ"[6] وفي هذه الآية يقول الزّمخشري: «فإن قلت: هلاّ قيل: إنّي أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشّرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت الوحدة وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلاّ تهاون بدينهم، ودلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشّهادة، كما يقول الرّجل لمن يبس الثّرى بينه وبينه. أشهد على أنّي لا أحبّك؛ تهكّما به

1 ينظر: تفسير القرطبي – مج05- ج09- ص 30. وتفسير النّسفي- مج 02- ص 725. وتفسير البيضاوي- ج01- ص 458.
2 عبد الفتّاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن- ص 288.
3 سورة هود – الآية 60.
4 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 177.
5 سورة هود – الآية 54.
6 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني- ص 256.

واستهانة بحاله»[1]، أي: إنّي أشهد الله وأشهدكم، فتكون الجملة الأولى: "وأشهد الله" خبرية لفظا ومعنى، والجملة الأخرى: "واشهدوا" خبرية معنى، إنشائية لفظا، وبعبارة موجزة: « يجب الوصل بين جملتين اتّحدتا خبرا وإنشاء لأنّ الفصل يوهم المتلقّي خلاف المقصود»[2] فعدل عن مقتضى الظّاهر بأنّ يقال: "إنّي أشهد الله وأشهدكم" بسبب: أنّ في أمرهم بأن يشهدوا ببراءته من دينهم ضربا من التّحدّي الذي ينبئ بحقارة ما يعبدون من دون الله، والدّلالة على أنّ إشهاد الله تعالى على براءة هود عليه السّلام من شركهم إشهاد صحيح ثابت حيث جاء خبرا محقّقا، أمّا إشهادهم فليس إلاّ تهاونا منهم حيث جاء أمرا، والدّلالة على تعظيم شهادة الله، وتتريهه تعالى عن أن يقرن إشهاده عزّ وجلّ بإشهادهم فتأمّل الدور الذي أدّاه الفصل في تحاشي السّابق باللاّحق، وتحاشي مساواة الشّهادتين، شهادة الخلق بشهادة الخالق سبحانه، وممّا وقع في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[3]، في الآية تقدير؛ قالوا سلاما تقديره: سلّمنا عليك سلاما، قال سلام تقدير: أمري سلام، أي لست مريدا غير السّلامة والصّلح[4] فسلام خبر مبتدأ محذوف أي" أمري وأمركم سلام، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: أي: عليكم سلام والجملة محكية وإن كان حذف خبرها منها أحد جزءيها[5]، بمعنى: "سلام" مرفوع مرفوع على الحكاية ولم يعمل فيه النّصب. أمّا من حيث الفصل والوصل فإنّ من مقاماته أن تكون الجملة الثّانية جوابا اقتضته الجملة الأولى، فتفصل الثّانية عن الأولى كما يفصل الجواب عن

---

1 الكشّاف عن حقائق غوامض التّتريل وعيون الأقاويل في وجه التّأويل- تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود. وعلي محمّد معوّض- شارك في تحقيقه: فتحي عبد الرّحمن أحمد حجازي- مكتبة العبيكة- ط01- 1418هـ/1998م- ج 03- ص 209. وينظر: البحر المحيط في التّفسير: أبو حيّان الأندلسي محمّد بن يوسف(ت754هـ)- طبعة بعناية الشّيخ زهير حميد- بيروت- دار الفكر- 1413هـ/1992م- ج06- ص 168.

2 طالب محمّد إسماعيل الزّوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- ص 310.

3 سورة هود- الآية 69.

4 فخر الدّين الرّازي(ت604هـ): التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب- قدّم له: هاني الحاج- حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: عماد زكي البارودي- القاهرة- المكتبة التّوفيقية- د ط - د ت - ج18- ص 19.

5 أبو عبيدة(210هـ): مجاز القرآن- عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمّد فؤاد سزكين- بيروت- مؤسّسة الرّسالة- ط02- 1401هـ/1981م- ج01- ص 291. الزّمخشري: الكشّاف - ج03- ص 215. أبو حيّان التّوحيدي: البحر المحيط في التّفسير- ج06- ص 179.

السّؤال ولا يصار إلى تزيل السّؤال المفهوم من الكلام السّابق إلاّ لاعتبارات لطيفة منها[1] إغناء السّامع عن أن يسأل، ومنها القصد إلى الإيجاز كما هو في هذه الآية، كأنّه قيل: فماذا قال إبراهيم في ردّ سلامهم؟ فقال: سلام. ممّا يمكن أن يندرج في باب به كمال الاتّصال[2]، لترى أنّه لا سبب للفصل بين الجملتين إلاّ قوّة الرّابطة المعنوية بين الجملتين وذلك لأنّ الجواب شديد الارتباط بالسّؤال، وإذا كان عبد القاهر بيّن قضيّة الوصل والفصل بالعطف وتركه فإنّ الزّمخشري يلفت النّظر إلى أنّ الفصل وصل تقديري خفيّ، وهو أقوى من الوصل الظّاهر بأحرف العطف، ويستشهد بأمثلة عن ذلك، منها قوله تعالى:﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾[3] حيث يقول الزّمخشري: « فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في (سوف تعلمون)؟ قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفيّ تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر، كأنّهم قالوا: فماذا يكون لنا إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنتَ؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف للتّفنّن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب البيان، تتكاثر محاسنه»[4]، وترك العطف إنّما لقوّة الصّلة المعنوية المحقّقة للرّبط بين الجمل، غير أنّ الوصل ربط ظاهر، والفصل ربط معنوي[5]، وملحظ كهذا لم يكن ليغيب عن نظر العلماء في بحثهم التّطبيقي.

إنّنا حين نعم النّظر في مفردات الجملة في القرآن الكريم، وتتأمّل كيف يتمّ الرّبط بينها وننظر بوعي في العلاقات بين الجمل، وتتأمّل كيف تتلاقى، يتجلّى لنا العديد من الأسرار والمزايا واللّطائف التي تكمن وراء نظم المفردات والجمل في آيات الذّكر الحكيم، ولقد أحسّ البلاغيون

---

1 عبد المتعال الصّعيدي: البلاغة العالية– ص 112.

2 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها– ص 551. و: طالب الزّوبعي:البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين– ص 307.

3 سورة هود – الآية 93.

4 الكشّاف – ج03– ص 231.

5 أحمد سعد محمّد: التّوجيه البلاغي للقراءات القرآنية– ص 361. وطالب محمّد الزّوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين– ص 324.

قيمة هذا التّلاقي والتّضام، ورأوا أنّ الجمل كثيرا ما تتلاقى ويتوارد بعضها مع بعض بالعطف ويكون حرف الواو هو الرّكيزة الأولى، وإمّا ألاّ يستعمل أيُّ حرف، ويستغني التّركيب بنفسه لقوّة الرّابطة المعنوية بين عناصره ومركّباته، وهذا ما رأيناه في القرآن الكريم، من عطف أحيانا وترك أحيانا أخرى، والنّظم في جميع أحواله نظم غاية في الإعجاز، متماسك يدعو بعضه بعضا ومتضامّ بعضه مع بعض.

5. الرّبط والارتباط:

يُعدّ موضوع الرّبط واحدا من أهمّ المواضيع التي تعتمدها العربية في تراكيبها، لا يقــلّ شأنا عن التّضام الذي يبحث في تلازم العناصر النّحوية وتوارد بعضها مع بعض، وقد كان لزامــا علينا أن يكون محورا من محاور الدّراسة في هذا الفصل بعدما كنّا فيه من الزّاهــدين في الفصــل السّابق حين ذكرنا الرّبط النّحوي والتّماسك الدّلالي وعلاقتهما بالتّضام، لذلك سنشير إليه إشارة عامّة في مصادره الأولى ومنزلته في الدّرس البلاغي بغرض التّطبيق في ضوء سورة هود.

عادة ما يقصد بالرّبط عند النّحاة:« اصطناع علاقة نحوية سياقية بين معنيين باســتعمال وسائل تتمثّل في أداة رابطة، تدلّ على تلك العلاقة، أو ضمير بارز، وتلجأ العربية إلى الرّبط إمّــا لأمن اللّبس في فهم الانفصال بين المعنيين، وإمّا لأمن اللّبس في فهم الارتباط بين المعنيين، والرّبط هو الحلقة الوسطى بين الارتباط والانفصال»[1] ، باعتبار أنّ الارتباط نشوء علاقة نحويــة ســياقية وثيقة بين معنيين دون واسطة لفظية، أشبه ما تكون علاقة الشّيء بنفسه.

يؤثّر الرّبط في استقامة التّركيب ووضوح المعنى تأثيرا كبيرا قد تفقد الجملة من خلالــه مصداقيتها، وقد ضرب لنا تمّام حسان مثالا عن ذلك حين قال:« هب أنّك قــرأت:" فحمــدني النّاس خطيبا عليه وأثنى قال الله زيد ثمّ قام" وقولك: قام زيد في النّاس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال..»[2] فلا شكّ أنّ المثال الأخير يرتاح إليه القارئ والمستمع، فألفاظه مرتّبة وفــق أصــول العربية، مُراعًى فيها الشّروط التّركيبية، حيث تجد الفعل وفاعله، والجار والمجرور والمتعلّق، ومرجع الضّمير بارز، فإذا تساءلنا ما الذي سوّغ لنا الحكم على هذا المثال بصحّته، تسارع إلى أذهاننــا موضوع الرّبط الذي حصل بين مفرداته وجمله، الأمر الذي سمح لتمّام حسّان أن يجعلــه قرينــة لفظية[3] لا تقلّ خطرا عن قرينتي التّضام والرّتبة، تنعش الذّاكرة لاستعادة مذكور ســابق بواســطة إحدى الوسائل اللّفظية التي تعين على الوصول إلى هذه الغاية من جهة، وتعين على إحكام صياغة الجمل من جهة أخرى.

1 مصطفى حميدة: نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربية- ص 01 من المقدّمة.
2 البيان في روائع القرآن- ص 107.
3 المرجع نفســه- ص 107 وما بعدها.

يحتكم الرّبط في تحقّقه نحويا إلى طرق مختلفة أجملها تمّام حسّان في طريقتين:

- الإحالة: وهي التّذكير بعنصر آخر من عناصر الجملة، والأصل فيها أن يتكرّر اللّفظ ذاته، أو بإعادة المعنى، أو بإعادة المعنى الإفرادي غير الإسنادي، وهو أكثر خفاء من إعادة المعنى الإسنادي، وأكثر ما تكون هذه الطّريقة من طرق الرّبط أن يتقدّم الضّمير ثمّ يعاد إظهار مرجعه بقصد المدح أو الذّم نحو قوله تعالى:﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾[1]، فقد جاء ضمير المخاطبين أوّلا وجاء وصفهم بالإيمان أخيرا وكأنّه قال: "يشف صدوركم"، والعلاقة هنا بين الضّمير وتفسيره علاقة إفرادية غير إسنادية. والمقام مقام مدح، والوسيلة في هذه الحالة إعادة المعنى بذكر تفسير الضّمير بعد إيراده[2].

- المطابقة: ومثّلها في خمسة محاور: المطابقة في التّكلّم والخطاب والغيبة، والمطابقة في الإفراد والتّثنية والجمع، والمطابقة في التّذكير والتّأنيث، والمطابقة في التّعريف والتّنكير، والمطابقة في الإعراب.

وترد على الرّبط بالضّمائر من الظّواهر الأسلوبية ظاهرتا الالتفات والتّغليب[3]، أمّا الالتفات فنحو تغيير مجرى الإحالة من المطابقة إلى الاختلاف، وأمّا التّغليب فمجاله أوسع وأقرب إلى الضّبط، ويقع في الأسماء والأوصاف، تقول: الرّجل والمرأة مسؤولان عن تربية النّشء...وفي حقل المفردات نقول: الأبوان في الجانب المعجمي، ونقول:الوالدان من الجانب النّحوي. فلم تلحق تاء التّأنيث (الوالدان) وإلاّ قلنا: الوالدتان.

لم يكن الرّبط بِدعا في القضايا النّحوية أو اللّغوية، وإنّما بعد طول صياغة وتحبير لجهود من العلماء من الرّعيل الأوّل؛ فلقد لقي اهتماما لدى هؤلاء وتناولوه ضمن قضايا لغوية كثيرة

1 سورة التوبة – الآية 14.

2 الخلاصة النحوية- ص 90. و ينظر:نظرية التبعية في التحليل النحوي: سعيد بحيري- مكتبة الأنجلو المصرية- ط01- 1408هـ/1988م- ص 239. وص284 .وينظر: دراسات في اللّسانيات العربية؛ المشاكلة. التنغيم، رؤى تحليلية: عبد الحميد السّيد- عمان- دار الحامد- ط01- 1425هـ/2004م- ص 111.

3 المرجع نفسه- ص 95، 97.

فنحاة العربية يستعملون مصطلح الرّبط ويعدّون المفردات مترابطة إذا وجدت بينها عناصر لغوية تربط بعضها ببعض[1]، وما ينطبق على الكلمة ينطبق على التّركيب ونسبته إلى بقيّة التّراكيب الموجودة معه في الموضوع، وكذلك بالنّسبة للمعاني، فإنّ المعنى الواحد إنّما يكتسب حيويته بالتّضافر والتّرابط مع المعاني الأخرى المشتركة معه في جسم الموضوع[2]، ولقد اكتسب شرعيته لدى النّحاة والبلاغيين منذ القديم؛ يقول الرّضي:«..لا تخلو الجملة الواقعة خبرا من أن تكون هي المبتدأ معنى أوّلا، فإن كانت لم تحتج إلى الضّمير كما في ضمير الشّأن نحو"هو زيد قائم" لارتباطها به بلا ضمير لأنّها هو، وإن لم تكن إيّاه فلابدّ من ضمير ظاهر أو مقدّر، وقد يقام الظّاهر مقام الضّمير، وإنّما احتاجت إلى الضّمير لأنّ الجملة في الأصل كلام مستقلّ، فإذا قصدت جعلها جزء الكلام فلابدّ من رابطة تربطها بالجزء الآخر، وتلك الرّابطة هي الضّمير، إذ هو الموضوع لهذا الغرض»[3]، ولقد عُدّ ترابط الكلام أيضا ذا علاقة بالفصاحة، يقول الفخر الرّازي:«اعلم أنّ الجمل الكثيرة إذا نظمت نظما واحدا فلا تخلو إمّا أن تتعلّق البعض بالبعض أو لا يتعلّق، فإن لم يتعلّق البعض بالبعض لم يحتج واضع ذلك النظم إلى فكرة وروّية في استخراج ذلك النّظم..وهذا الضّرب من النّظم لا يستحق الفضيلة إلاّ بسلامة معناه وسلاسة ألفاظه؛ أمّا القسم الثّاني وهو الذي تكون فيه الجمل المذكورة متعلّقا بعضها بعض، وهناك تظهر قوّة الطّبع وجودة القريحة واستقامة الذّهن، وكلّما كان آخر الكلام أقوى ارتباطا وأشدّ التحاما كان أدخل في الفصاحة»[4]. وهذا الرّبط بالضّمائر والتّعلّق بالمعنى ظلّ علماء النّص المعاصرون عاكفين عليه[5]، ولئن نجح القدامى والمحدثون في تحقيقه في بحوثهم فإنّ هذا الأمر مطّرد ثابت وعامّ في القرآن الكريم، متحقّق من أوّل حرف منه، وإذا مثّلنا له بسورة من القرآن فإنّ ذلك محاولة على سبيل التّوضيح والتّقريب لا تعدو أن تكون قراءة ثانية في كتب اللّغة والتّفسير.

---

1 ينظر: دراسات في اللّسانيات العربية: عبد الحميد السّيد- ص 34.

2 ينظر: مراعاة النّظير في كلام الله العليّ القدير: كمال الدّين مرسي- ص 10.

3 شرح الكافية- ج01- ص 91. أخذا عن: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق- ص 86.

4 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز- ص 148.

5 ينظر:نظرية التّبعية في التّحليل النّحوي: سعيد بحيرى- ص242. وص249 . وينظر: علم لغة النّص، المفاهيم والاتّجاهات: سعيد بحيرى- ص 108.وينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية: سعد مصلوح- ص 237.

يقول الحقّ تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1]، فمن خصائص"إنّ" أنّها تربط بين الجمل بعضها ببعض، يقول عبد القاهر الجرجاني:« إذا جئت إلى "إنّ" فأسقطتها، رأيت الثّاني منهما قد نبا عن الأوّل، وتجافى معناه عن معناه، ورأيته لا يتّصل به، ولا يكون منه بسبيل، وهذا الضّرب كثير في التّنزيل جدًّا، منه الآية»[2]، وقد استدلّ الفخر الرّازي بـــ"إنّ" على أنّها للرّبط والتّأليف مستشهدا بقوله تعالى:﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[3] حيث قال:«من مواقعها وفوائدها أنّها تربط الجملة الثّانية بالأولى، وبسببها يحصل التّأليف بينها حتّى كأنّ الكلام أُفرغ إفراغا واحدا، ولو أسقطتها لكان الكلام الثّاني نابيا عن الأوّل »[4] وممّا جيء في هذا الباب إعادة بعض الحروف والكلمات ودخولها في نظم دون نظم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ ﴾[5]، ويقول تعالى في سورة فصّلت: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾[6]، لأنّ آية سورة هود تقدّمها قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾[7] وارتبط الكلام أوّله بالتّالي فاستُغني عن الإعادة[8]، ولم يكن ذلك في سورة فصّلت، ثم إنّه جاء في هذه الأخيرة:"منّا" ولم يقل ذلك في سورة هود، لأنّ سورة هود تقدّم فيها ذكر:"منّا" أمّا السّورة الأخرى فلم يتقدّمها ذلك. فكان أن

---

1 سورة هود – الآية 07.

2 دلائل الإعجاز– ص 236.

3 سورة هود– الآية 37.

4 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز– ص 190.

5 سورة هود – الآية 10.

6 الآية 50.

7 الآية 09.

8 ينظر: الموسوعة الذّهبية في إعجاز القرآن الكريم والسّنّة النّبوية: أحمد مصطفى متولّي– القاهرة– دار ابن الجوزي– ط01– 1426هـ/2005م– ص 590.

ارتبط الكلام بها، ومن الرّبط بإعادة الضّمير قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[1]، فقد أُعيد الضّمير"هم" في هذه السّورة، ولم يُعد في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾[2]، وذلك لأنّه في سورة الأعراف على أصله غير مزيد فيه ما يجري مجرى التّوكيد والرّبط بهذا الضّمير المنفصل، والذي في سورة هود جاء بعد قوله :﴿ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ ﴾[3] فأُشير إليهم ثمّ قال: ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فأظهر ذكر ذكر الظّالمين موضع الإضمار، ولو أجرى الحكم في إظهار الاسم عقيب الذّكر لكان:"ألا لعنة الله عليهم" لأنّهم هم المشار إليهم:"هؤلاء" فلمّا أظهر مكان الإضمار تضمّن معنى قوله:"وهم" أي الظّالمون (هم الكاذبون على ربّهم) وأُشير إليهم بالكلام المتقدّم، فلمّا استمرّ الكلام على الإضمار بعد ذكر الظّالمين صار الظّاهر كأنّهم غير المشار إليهم لتحقّق الكفر عليهم بنسبة الأوصاف المتقدّمة إليهم وأوّلها كذبهم على ربّهم، ثمّ ظلمهم لأنفسهم، وصدّهم عن سبيل الله ووصفهم لها بدل الاستقامة بالاعوجاج فلمّا لم يصرف الخبر الثّاني في سورة الأعراف مصرف ما ليس هو بالأوّل لم يحتج إلى توكيده، ولمّا عدل في سورة هود عن إعادة الضّمير إلى الأوّل ووضع مكانه ظاهر يحتمل أن يكون غير الأوّل وعنى به أنّهم:"هم" كان الموضع موضع توكيد لتحقيق الخبر عنهم بالكفر وتثبيته عليهم بأوكد لفظ، لأنّا لمّا قلنا:"هم" فهو المعاد في قوله:" وهم بالآخرة" هم "كافرون" إلاّ أنّه يتبيّن بذلك أنّ المكان مكان توكيد ليفرّق بينه وبين الأوّل[4]، وفيما يخصّ الرّبط الذي أجمله تمّام حسان في الرّبط بالإحالة والمطابقة فإنّ لهذا الرّبط ترخّصا[5]، أمّا التّرخّص في الإحالة فيكون مقصورا على الرّبط بالضّمير، نحو قوله تعالى:﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾[6]

1 سورة هود – الآية 19.

2 الآية 46.

3 الآية 18.

4 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل– ص 106.

5 البيان في روائع القرآن– ص 231 .

6 سورة هود– الآية 44.

فالضّمير في (استوت) يعود على الفلك الذي في قوله تعالى:﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1] وإن كان بين الآيتين كلام طويل ضعفت به الصّلة بين الضّمير ومرجعه، ولكنّ اللّبس هنا مأمون، ومنه ما تجده في قوله تعالى:﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾[2]، أي: إنّ عمله عمل غير صالح، ولكن لم يسبق ذكرٌ للمرجع، فحلّ الضّمير محلّه واللّبس مأمون، وهذه الحالات تدلّ على إمكانية أن يعود الضّمير على مرجع مذكور، أمّا التّرخّص في المطابقة فقد تكون في الشّخص(التّكلّم، والخطاب، والغيبة) وهو ما يعرف بالالتفات إلاّ أنّ الرّخصة لا يقاس عليها..ونشير إلى نوع من المطابقة في الشّخص إذا اختار للضّمير أحد مرجعين سابقين، وكلاهما يصحّ معه التّركيب، ففي قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾[3] جاءت المطابقة بين الفعل المضارع"تجهلون" وضمير المخاطبين"أراكم" وكان يصحّ نحويا أن يقال:"ولكنّي أراكم قوما يجهلون" بمطابقة الفعل للقوم، وكلّ ذلك يخضع للاختيار الأسلوبي، لأنّه أسلوب عدولي في أحد وجهيه، وأضاف تمّام حسان دورا آخر للتّرخّص هو دور التّرخّص في الرّبط بالأداة، والأداة تقع في أنواع[4]، منها الدّاخلة على ما يحلّ محلّ المفرد كالواو الدّاخلة على جملة الحال نحو قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[5]، أيّ وقد كان في معزل، إلى غير ذلك من العوامل التي تقصد إلى ترابط النّص وتلاحم أجزائه، وتضامّ ألفاظه وآياته، ممّا يؤكّد معجزته الخالدة.

---

1 الآية 37.

2 الآية 46.

3 سورة هود- الآية 29.

4 البيان في روائع القرآن- ص 238.

5 سورة هود- الآية 42.

6. التكرار:

لقد كانت للبلاغيين والنّقّاد العرب القدامى التفاتات إلى هذا الموضوع في دراساتهم بخاصّة إذا تعلّق البحث بالقرآن الكريم والشّعر العربي، بغرض تقرير المعنى في النّفس، لأنّ «الشّيء إذا تكرّر رسخ في الأذهان رسوخا تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة»[1]، والتّكرار الذي نقصده في هذا البحث هو إعادة ذكر كلمة أو جملة أو عدّة جمل بلفظها ومعناها في موضع آخر أو مواضع أخرى من جهة، وإعادة قصّة من قصص القرآن الكريم بطريقة عرض جديدة وبنمط جديد في أكثر من موضع.

لعلّ أقدم الإشارات إلى هذا الموضوع تعود إلى الفرّاء(ت207هـ)، فقد أشار إليه عدّة مرّات حين تعرّض إلى آيات من القرآن الكريم[2]، وتبعه أبو عبيدة(ت210هـ) فقال بالمجاز المكرّر[3] وتناوله الجاحظ(ت255هـ) عرضا ضمن مباحث التّرداد وكثرة الكلام[4].

ويُعدُّ كذلك ابن قتيبة(ت276هـ) من أوائل الذين تطلّعوا إلى هذا الأسلوب وتناولوه في سور من القرآن الكريم حيث وقف عند سورتي (الكافرون) و(الرّحمن) وراح يبيّن هذا الأسلوب ويشرحه، فتجده يقول:«وأمّا تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض كتكراره في: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[5]، وفي سورة الرّحمن بقوله:﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[6] فقد فقد أعلمتك أنّ القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم، وأن مذاهبهم التّكرار:إرادة التّوكيد والإفهام، كما أنّ من مذاهبهم الاختصار: إرادةَ التّخفيف والإيجاز؛ لأنّ افتنان المتكلّم والخطيب

1 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن- مصر- نهضة مصر- د ط- مارس 2004م – ص 112.
2 معاني القرآن- ج03- ص 287.
3 مجاز القرآن- عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمّد فؤاد زكين- بيروت- مؤسّسة الرّسالة- ط01- 1401هـ/1981م- ج1- ص 12.
4 البيان والتبيين- تحقيق: محمّد عبد السّلام هارون- القاهرة- مكتبة الخانجي- ط07- 1418هـ/ 1998م- ج01- ص 104. 105.
5 سورة الكافرون- الآية 01.
6 الآية 13.

في الفنون وخروجَه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد »[1] ويقول:«وأمّا تكرار المعنى بلفظين مختلفين فلإشباع المعنى والاتّساع في اللّفظ»[2]، وقد ردّ الخطابي(ت388هـ) على منكري هذا الأسلوب في القرآن بأن فيه نوعين؛ «مذموم وهو ما كان مُستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأوّل لأنّه حينئذ يكون فضلا من القول ولغوا. وليس في القرآن من هذا النّوع. والضّرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصّفة، فإن ترك التّكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلّف الزّيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنّما يحسن استعماله في الأمور المهمّة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنّسيان فيها والاستهانة بقدرها»[3]، وبهذا يكون التّكرار من المصطلحات الأولى في تاريخ البلاغة العربية والإعجاز.

هذا الأمر نلحظه أيضا عند أبي هلال العسكري(ت395هـ) إذ أشار إليه على أنّه صورة من صور الإطناب حيث يقول:« والإطناب إذا لم يكن منه بدّ إيجاز وهو في الموعظة خاصّة محمود، كما أنّ الإيجاز في الإفهام (محمود) ممدوح. والموعظة كقول الله تعالى:﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾[4]، فتكرير ما كرّر من الألفاظ هاهنا في غاية حسن الموقع.»[5]، ويقول بعدها مستدلا عليه في القرآن بين ما يخاطب الله العرب وبني إسرائيل:«وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا»[6] وزاد أن قال:«وقلّ ما تجد قصّة لبني إسرائيل في القرآن إلاّ مطوّلة مشروحة ومكرّرة في مواضع معادة لبعد فهمهم كان، وتأخُّر معرفتهم. وكلام الفصحاء إنّما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح

1 تأويل مشكل القرآن- ص 235.
2 المصدر نفسه- ص 240
3 بيان إعجاز القرآن- ص 47. 48.
4 سورة الأعراف- الآيات 97. 98 99.
5 كتاب الصّناعتين- ص 211.
6 المصدر نفسه – ص 212.

العالي بما دون ذلك من القصد المتوسّط ليستدلّ بالقصد على العالي وليخرج السّامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه وتتوفّر رغبته فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه حتّى استعملوا التّكرار ليتوكّد القول السامع.. »[1]، وضمّنه الباقلاّني(ت403هـ) في باب البديع مستدلاً ببعض الأبيات من الشّعر ونافيا عن أن يكون البديع وجها من وجوه الإعجاز[2]، مع أنّه في موضع آخر يتحدّث عنه وعن فوائده محتجّا بتكرار القصص على أنّه وجه من وجوه الإعجاز قائلا:« وعادة العرب أن تكرّر ليفهم عنها، ولتبلغ إلى مرادها..ووجه آخر وهو أنّه إنّما تكرّر في أوقات مختلفة ليكون سامعوه أشدّ انزجارا ..ووجه آخر وهو أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يحتاج إلى بعث الرّسل وإنفاذ الدّعاة إلى البلدان فأراد أن تُقرأ عليهم القصّة الواحدة بألفاظ مختلفة، فربّما كان ذلك أصلح لهم عند الله تعالى ...ووجه آخر وهو أنّه لو لم يكرّر لجاز أن يقول بعض قريش للنّبيّ عليه السّلام كيف تتحدّانا بهذه القصص وأنت البادئ بها فإن أتيتنا بها بمثل اللّفظ قلت هذا نفس ما جئت به وإن أتيت بغير اللّفظ كنت مطالبا لنا بالمحال، فكرّر الله القصص بوزن خارج عن أوزان كلام العرب المعهود عنهم ليريهم عجزهم ويقطع شُبههم»[3].

ويأتي دور ابن رشيق(ت456هـ) فكان أكثر النّقّاد والبلاغيين تعرّضا له في كتابه إذ خصّه بباب سمّاه"باب التّكرار"[4] سيد أنّه اقتصره على الشّعر فلم يخرج به عن غرض الكتاب، وقد مثّل له أسامة ابن منقذ(ت584هـ) بأبيات من الشّعر دون أن يعلّق أو يشرح واكتفى بأن أورد قولا لابن قتيبة:«كلّ هذه معان متقاربات في ألفاظ متناسبات»[5]، وتناوله بعد ذلك ابن الأثير(ت637هـ) ضمن مباحث الإيجاز والإطناب[6]، ثمّ استقرّت الدّراسة على حالها بعد ذلك باستثناء بعض التّوسّع في النّصوص والتّصرّف فيها على نحو ما فعله الخطيب القزويني(ت739هـ) مع بعض الآيات القرآنية من أنّ اللّفظ قد يكرّر لنكتة ما، أو لزيادة تنبيه، أو طول الكلام، أولتعدّد

---

1 المصدر السّابق – ص 212.

2 إعجاز القرآن– ص 157.

3 نكت الانتصار لنقل القرآن– ص 212. 214.

4 العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده– ج02– ص 126.

5 البديع في البديع في نقد الشّعر– ص 275.

6 المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر– ج01– ص 345.

المتعلّق[1]، إلى أن أصبحت حقيقة التّكرار أن يأتي المتكلّم بلفظ ثمّ يعيده بعينه، سواء كان اللّفظ متّفق المعنى أو مختلفا، أو يأتي بعينه ثمّ يعيده، وهذا من شرطه اتّفاق المعنى الأوّل والثّاني فإن كان متّحد الألفاظ والمعاني فالفائدة في إثباته تأكيد ذلك الأمر وتقريره في النّفس، وكذلك إذا كان المعنى متّحدا، وإن كان اللّفظان متّفقين والمعنى مختلف فالفائدة في الإتيان به للدّلالة على المعنيين المختلفين...أمّا أقسامه فثلاثة؛ ما يتكرّر لفظه ومعناه متّحد، وما يتكرّر لفظه ومعناه مختلف، وما يتكرّر معنى لا لفظا[2]، وإلى جانب هذه الجهود هناك جهود المفسّرين والمحدّثين التي يطول بنا المقام في ذكرها.

ترتبط قضيّة التّكرار المراد دراستها في ضوء موضوع التّضام بمحورين هامّين، أحدهما يمسّ جانب الألفاظ والأساليب، والآخر يمسّ جانب القَصص في القرآن الكريم، وسنحاول أن نجمع في دراستنا بين هذين المحورين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

يقول تعالى:﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3]، فقد تكرّر فيها ذكر"ألا" تنبيها على وقت استخفائهم، وهو حين يستغشون ثيابهم[4]، وممّا وقع في هذا الأسلوب في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[5]، وما يندرج في الآية يمتّ إلى التّوكيد بصلة أقرب منها إلى التّكرار بيد أنّنا لم نخصّص للتّوكيد مبحثا على حده، لذلك جاء ضمنه، والآية على أسلوب الشّرط، ووجه جعلها شرطية يفيد حدّة التّكذيب عند كلّ إخبار بالبعث، واللاّم موطّئة للقسم، وتأكيد الجملة باللاّم الموطّئة للقسم وما يتبعه من نون التّوكيد لتنزيل السّامع منزلة المتردّد في صدور هذا القول منهم لغرابة

1 الإيضاح في علوم البلاغة- ص 198.

2 ينظر: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيّم الجوزية- ص 119. وينظر: النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: شفيع السّيد- القاهرة- دار غريب- ط01- 2006م- ص 126.

3 سورة هود – الآية 05.

4 ينظر: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان:القمّي النيسابوري- ج12- ص 07..

5 الآية 07.

صدروه من العاقل[1]، فيكون التّأكيد القويّ والتّنزيل مستعملا في لازم معناه، وهو التّعجّب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق، وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع، ومنه أيضا قوله تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ۝﴾[2]، فهناك أربعة أفعال كونية في هذه الآية، والإتيان بأفعال الكون في الآية أربع مرّات لإفادة ما يدلّ عليه فعل الكون من تمكّن الحدث المخبر به، فقوله:" لم يكونوا" آكد من قولك مثلا:"لا يعجزون"[3]، ثمّ لاحظ التّفنّن في تنوّع واختلاف صيغ هذه الأفعال، إذ جاء أوّلها بصيغة المضارع، والثاني بصيغة الماضي بحكم أنّ المضارع المجزوم بـ"لم" له معنى الماضي، وقد يكتفي القرآن بألاّ يكرّر ما ذكره مرّة أو مرّتين[4] على نحو ما نجده في قوله تعالى:﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾[5]، فلم يكرّر"لكم"، في حين تكرّرت في سورة الأنعام في قوله تعالى:﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾[6]، لأنّها لم تذكر قبل هذه الآية أو بعدها لذلك كرّرها، بينما وردت في سورة هود قبلها مرّتين، في قوله تعالى:﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[7]، وقوله تعالى:﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾[8] وبعدها مرّة واحدة في قوله تعالى:﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾[9]، فاكتفى فلم يكرّرها، ومن اللّطائف العجيبة في معنى التّكرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ

1 الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير- ج11- ص 09.
2 سورة هود – الآية 20.
3 الطّاهر بن عاشور: السّابق- ج11- ص 37.
4 أبو زكريا أنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- ص 168.
5 سورة هود- الآية 31.
6 الآية 50.
7 الآية 25.
8 الآية 27.
9 الآية 34.

لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾[1]، وما قاله تعالى في سورة القصص:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[2]، ففي الأولى قال:"وما ربُّك" وفي الأخرى قال:"وما كنّا" وفي الأولى قال:"ليهلك" وفي الأخرى قال:"مهلك، ومهلكي" باسم الفاعل، وفي الأولى قال:"مصلحون" وفي الأخرى قال:" حتّى يبعث في أمّة رسولا" وقال:"ظالمون"؟ ومردّ ذلك أنّ آية سورة هود تقدّمها ذكر بقيّة ينهون عن الفساد، أي ما كان ليفعل هم ذلك، وإن وقع منهم ظلم إذا كان فيهم مغيّر للظّلم وناهٍ عن الفساد، وجيء بالفعل "يهلك" إشارة إلى التّكرّر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في أمّة وقرن بعد قرن من ينهى عن الفساد والظّلم لما أخذوا بذوي الظّلم منهم، فأشار بالفعل إلى التّكرّر ولم يكن الاسم ليعطي ذلك، وأنّه تعالى لمّا أعلم تتابع التّذكار وتعاقب الإنذار قال:" وما كان ربُّك مهلك...رسولا" وناسب هذا اسم الفاعل لأنّه قصد الاتّصاف بهذا، ولم يقصد التّكرّر ولم يكن حاصله، وأنّه قال :"وما ربُّك" بإضافة اسم الربّ سبحانه إلى ضمير نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم المخاطب بهذه ملاطفة له وتأنيسا له ولأمّته، وإشعارا بعظيم حظوته ومترلته لديه سبحانه. ثمّ قال:"وما كنّا مهلكي"فأخبر أنّه تعالى ما أهلكهم إلاّ بعد استحقاق العذاب جميعهم وتساويهم في الظّلم، وجيء باسم الفاعل:"مهلكي" في الأخير لئلاّ يتكرّر اللّفظ بعينه مع الاتّصال والقرب وليس من مواضعه[3]، ونجد القرآن يقرّر هلاك عاد بعدما كذّبوا نبيّ الله هود عليه السّلام في توكيد وتكرير لما حدث لهم في قوله تعالى:﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾[4]، فبعد أن هلكت عاد فإنّه يُشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجّل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللّعنة والطّرد في تقرير وتوكيد وتكرير، وقد كان ذكرهم منذ لحظة في السّياق، وكان مصرعهم معروفا على الأنظار ولكنّهم انتهوا عن الأنظار والأفكار، وهم عصوا

---

1 سورة هود – الآية 117.

2 الآية 59.

3 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل- ج02- ص 670.

4 سورة هود – الآيتان 59. 60.

رسولا واحدا كان فيهم؛ ولكن أليست هي رسالة واحدة جاء بها الرّسل جميعا، فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرّسل جميعا، وهذا الجمع مقصود من النّاحية الأسلوبية لتضخيم جريمتهم[1] فما أضخم الذّنب وما أشنع الجريمة، ومن الألفاظ التي كثر دورانها وتكرارها في سورة هود لفظ"العبادة" لما لها من علاقة بموضوع السّورة الرّئيس، فالعبادة هي قطب الرّحى التي عليه السّورة من بدايتها إلى خاتمتها، فقد وردت على لسان كلّ نبيّ دعا قومه، وأنّ الأمر بعبادة الله وحده والنّهي عن عبادة غير الله هو الحقيقة البارزة الأولى في سياق السّورة كلّها، تكرّرت في صيغتين: الحقيقة الأولى جاءت بصيغة:"يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" وجاءت الحقيقة الأخرى هكذا:"ألاّ تعبدوا إلاّ الله، إنّني لكم منه نذير وبشير" وعلى الرّغم من اختلاف الصّيغتين فإنّ مدلولهما واحد، وبمثل ما بدأت به السّورة بعبادة الله وتوحيده تختتم أيضا، وقد تكرّر التّعبير القرآني عن التّوحيد بالأمر والنّهي معا في السّورة في مواضع كثيرة[2]، وهو منهج مطّرد في التّعبير القرآني عن حقيقة التّوحيد، له دلالته من غير شكّ،ولعلّ السّرّ في تكرير هذا الأمر بالعبادة في سورة هود أنّ محورها هو الآية التي ما بعد مقدّمة سورة البقرة وهي قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[3]، فكما أنّ سورة يونس كانت تفصيلا لأوّل آية في سورة البقرة، فإنّ سورة هود تفصيل لأوّل آية بعد مقدّمتها، يقول سعيد حوّى:«إنّه لمن الواضح أن سورة هود تفصّل في قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4] ومن قبل فصّلت سورة النّساء في هذه الآية ولكنّ تفصيل سورة النّساء انصبّ على التّقوى، وهاهنا ينصبّ تفصيل سورة هود على الأمر: " ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُم " ومحلّه في دين الله وفي رسالات الرّسل»[5] ، فلاحظ أنّ سورة يونس فصّلت في

---

1 سيّد قطب: في ظلال القرآن- ج12- ص 1900.

2 ينظر الآيات:(01-02)، (25، 26) ، (50، 51)، 61، 67، 79، 84، 123.

3 الآية 21.

4 الآية 21.

5 الأساس في التفسير- القاهرة- دار السّلام- ط02- 1409هـ/1989م- مج05- ص 2525.

أوّل آية من سورة البقرة، وأنّ سورة هود فصّلت في الآية(21) منها، ولكنّك لو وضعت الآيتين بجانب بعضها فإنّك تجد الصّلة قائمة :

﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝﴾

إنّ الصّلة واضحة بين الآيتين، فبعد تقرير أنّ القرآن هدى للمتّقين، يأتي نداء للنّاس جميعا أن يعبدوا الله وحده ليكونوا من المتّقين، فإذا ما عرفنا أنّ سورة البقرة مدنية، وسورة هود – على الرّاجح– مكّية كلّها أدركنا كم هي الأدلّة كثيرة على أنّ هذا القرآن من عند الله، وأنّ الكلام فيه يعاد فلا ينفذ، ويتكرّر فلا يثقل، وأنّ تكراره وجه من وجوه الإعجاز احتواه بطرق كثيرة وألوان متنوّعة.

7. التضمين والتعدية:

يُعدّ التّضمين ظاهرة بارزة من ظواهر التّوارد والتّضام باعتبار كلاهما يبحث في الطّرق الممكنة في رصف جملة ما فتختلف طريقة منها عن الأخرى، وهذه الطّرق ليست محصورة في التّقديم والتّأخير أو الفصل والوصل وإنّما تتجاوز ذلك إلى إدخال اللّفظ على غير مدخوله، فما تجده يستعمل هنا باسم أو فعل أو حرف تجده في موضع آخر بخلاف ذلك.

عُرفت هذه الظّاهرة في النّحو العربي بأسماء متعدّدة منها حذف المدخول الأصلي، ومنها نيابة الحرف عن الحرف، ومنها التّضمين[1]، وأخذ هذا المصطلح في الموروث العربي تعريفات كثيرة في حقول معرفية متنوّعة، فقد يعني في العروض:«أن يكون الفصل الأوّل مفتقرا إلى الفصل الثّاني والبيت الأوّل محتاجا إلى الأخير»[2]، و تضمين الكلام قد يعني:«حصول معنى فيه من غير ذكر له باسمه أو صفة هي عبارة عنه »[3] وهو عند أهل البلاغة:« استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك وإدخالك إيّاه في أثناء أبيات قصيدتك»[4]، والتّضمين عند النّحويين إشراب كلمة معنى كلمة أخرى فتؤدّي وظيفتها في التّركيب، وهو مفهوم يمكن أن يكون ضربا من التّوسّع في اللّغة[5] وقد درسه ابن جنّي في باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض، حيث يقول:« هذا باب يتلقّاه النّاس مغسولا ساذجا من الصّنعة، وما أبعد الصّواب عنه، وأوقفه دونه... ووجدت في اللّغة من هذا شيئا كثيرا لا يكاد يحاط به، ولعلّه لو جُمع أكثره (لا جميعه) لجاء كتابا ضخما»[6]، وروى السّيوطي في باب التّضمين أنّ الدّارسين:« من شأنهم أنّهم يضمّنون الفعل معنى غير معنى فعل آخر فيجرّونه مجراه ويستعملونه استعماله مع إرادة المعنى المتضمّن»[7]، أمّا التّضمين اللّغوي الذي يستقرّ عليه موضوع البحث فهو:« إعطاء الشّيء معنى الشّيء وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي

---

1 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن– ص 188.

2 أبو هلال العسكري: كتاب الصّناعتين– ص 47.

3 الرّماني: النكت في إعجاز القرآن– ص 94.

4 أبو هلال العسكري:السّابق– ص 47.

5 أحمد حسن عامر: التّضمين في العربية، بحث في البلاغة والنّحو– بيروت– الدّار العربية للعلـوم– الأردن– دار الشّـروق– ط01– 1422هـ/2001م– ص 43.

6 الخصائص– ص 509. 511.

7 الأشباه والنّظائر– ج01– ص 116.

الحروف. فأمّا في الأسماء فهو أن تضمِّن اسما معنى اسم بإفادة معنى الاسمين جميعا كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[1]، ضمن"حقيق" معنى "حريص" ليفيد أنّه محقوق بقول الحقّ وحريص عليه. وأمّا الأفعال فأن تضمّن فعلا معنى فعل آخر، ويكون معنى الفعلين جميعا، وذلك بأن يكون الفعل يتعدّى بحرف، فيأتي متعدّيا بحرف آخر ليس من عادته التّعدّي إليه فيحتاج إمّا إلى تأويله أو تأويل الفعل، ليصحّ تعدّيه به»[2]، ولعلّ من أوائل الإشارات التي تكشف عن أسرار التّعدية والتّضمين ما فعله ابن قتيبة حين خصّص جزءا كبيرا من كتابه في باب دخول بعض حروف الصّفات مكان بعض[3]، أو ما ذكره الخطّابي معربا عن عمود البلاغة:«.. ذلك أنّ في البلاغة ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر النّاس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب؛ كالعلم والمعرفة، والحمد والشّكر، والبخل والشّحّ، وكالنّعت والصّفة، وكقولك:اقعد واجلس وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف والصّفات»[4] ليقول بعدها موضّحا الفرق في الخطاب بـــ"من" و"عن":« وأمّا "من" و"عن" فإنّهما يفترقان في مواضع كقولك: أخذت منه مالا، وأخذت عنه علما، فإذا قلت: سمعت منه كلاما أردت سماعه من فيه وإذا قلت: سمعت عنه حديثا كان ذلك عن بلاغ»[5] ثمّ استدلّ على هذا بآيات من الذّكر الحكيم وبهذه التّعريفات ندرك أن موضوع التّضمين تتجاذبه أطراف عديدة ينظر إليه كلّ طرف منها من الزّاوية التي تتّفق وتخصّصه العلمي، فإذا كان «عالم النّحو يسعى نحو عبارة سليمة التّركيب بحيث يحسن السّكوت عليها، ويتّجه نحو التّركيب الصّحيح الذي يتّفق وقواعد العربية بغضّ النّظر عن القيمة الجمالية فإنّ عالم البيان يُعنى بالإضافة إلى التّركيب الصّحيح للعبارة بالقيمة الفنّية لها »[6]؛ وهذا الأخير هو ما حذا بنا إلى اختيار هذا المبحث ضمن مباحث الدّراسة التّطبيقية للتّضام في القرآن الكريم.

1 سورة الأعراف- الآية 105.
2 الزّركشي: البرهان في علوم القرآن – ج03- ص338.
3 تأويل مشكل القرآن- ص 507.
4 بيان إعجاز القرآن- ص26.
5 المصدر نفسه- ص 29.
6 أحمد حسن حامد: التضمين في العربية- ص 41.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، والأصل في الكلام :"من الله رزقها"، فجاءت "على" بمعنى"من" أي: من الله رزقها، وقيل وعدا منه حقّا[2]، لأنّه سبحانه لا يجب منه شيء، و منه قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[3]، فالباء التي في الآية هي بمعنى "من" أي:"من علم الله"[4]، وحرف الاستفهام الذي في الآية "هل" يتجوّز به به عن الأمر والنّهي والتّقدير، أمّا هنا فهو للتّجوّز عن الأمر، بمعنى:"أسلموا"[5]، ومن لطائف تعدية الأفعال ببعض الحروف ما جاء في الآية الكريمة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾[6]، إذ العرض بالحرف"على" يؤذن بمعنى الإحضار بإرادة، ناهيك عن تصدير الجملة باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة، وما يفيده اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله وما بعده، وأنّ عرضهم على ربّهم عرض زجر وانتقام، والإتيان بالموصول في الخبر عنهم إيماء إلى سببية ذلك الوصف الذي في الصّلة فيما يرد عليهم من الحكم، على أنّ المقصود تشهيرهم دون الشّهادة، والمقصود من إعلان هذه الصّفة التّشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأنّ إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم، ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأُسند إلى ذواتهم[7]. ومن تضمين الحروف الحروف بعضها بعضا وورود"إلى" في موضع "اللاّم" نحو ما استُدِلّ به على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[8]، حيث يقول الفرّاء:« معناه:"يخشعوا لربّهم وإلى ربّهم"، وربّما جعلت العرب"إلى" في موضع اللاّم»[9]،

1 سورة هود – الآية 06.

2 ينظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي– مج05– ص 06.

3 سورة هود – الآية 14.

4 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن– ص 576.

5 ابن قيم: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان– ص 50.

6 سورة هود – الآية 18.

7 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير– ج11– ص32. 33.

8 سورة هود – الآية 23.

9 معاني القرآن –ج 02– ص 09.

ومن التضمين في الحروف أيضا الآية الكريمة: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1]، ومعلوم أنّ الرّكوب هو العلوّ على ظهر الشّيء، وجاء هنا بـ"في" للتأكيد وفائدة "في" أنّهم أُمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها[2]، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ ﴾[3] نلاحظ أنّ التضمين هنا أوسع مدى من إقليم الحروف، فالفعل"تصل" بمعنى "تمتدّ"[4]، لأنّ الأيدي لم تمتدّ حتّى تصل أو تقصر دون الوصول.

ومن تعدية الأفعال بحروف جرّ متعدّدة تعدية الفعل"ذهب" بـ:" الباء، وعن، وإلى" وفي كلّ مرّة يكتسب الفعل معنى جديدا ودلالة تتنوّع بتنوّع حرف الجرّ الداخل عليه، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾[5]، فتعدية الفعل هنا بحرف المجاوزة "عن" دالّ على انصراف السّيّئات وتجاوزها عنه[6] كما كما أنّه في الوقت ذاته يكشف عن غرور هذا الانسان وبطره حين يتيقّن تجاوز السّيّئات وانصرافها عنه عقب ما أفاضه الله عليه من نعمائه التي كانت تستلزم منه شكر من جاد بها عليه[7]، ومن تعدية هذا الفعل بـ"عن" كذلك قول الحقّ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾[8]، ليكتسب الفعل عند تعديته بهذا الحرف معنى انصراف الرّوع عن إبراهيم عليه السّلام، وتجاوزه وابتعاده عنه كلّية على نحو ما يومئ إليه التّعبير القرآني من خلال تصوير "الرّوع" بصورة انسان قد انصرف عن إبراهيم عليه السّلام وتجاوزه إلى غيره،

---

1 سورة هود- الآية 41.

2 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- مج05- ص 25.

3 سورة هود- الآية 70.

4 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 190.

5 سورة هود- الآية 10.

6 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- :مجلّة جامعة أمّ القرى لعلوم الشّريعة واللّغة العربية وآدابها - 15- ع27- 1424هـ - ص 758.

7 الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير- ج11- ص 14.

8 سورة هود -الآية 74.

وفي ذلك من تطمين إبراهيم وتسكينه فؤاده عليه السّلام بحيث لا يخفى[1]، كما أنّ في تقديم الجار والمجرور"عن إبراهيم" على الفاعل "الرّوع" دليلا على تعجيل المسرّة إلى نفس إبراهيم بانصراف الخوف وتجاوزه، مع ما في تأخيره ما حقّه التّقديم من ترقّب النّفس وتطلّعها إليه فحين يرد عليها يتمكّن منها فضل تمكّن، وممّا وقع في تضمين الحروف في هذه السّورة تضمين بين "لّما" مكان "حين" في قوله تعالى:﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾[2] لأنّك إذا رأيت "لّما" جوابا فهي لأمر يقع بوقوع غيره بمعنى:"حين"[3]، ومن ذلك ما تجده في "لولا"، حين تراها بغير جواب فإنّ معناها في كلّ الأحوال معنى"هلاّ"، آية هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾[4].

وفـي قوله تعالى:﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[5] مثالٌ على حذف المدخول الأصلي و إدخال اللّفظ على غير هذا المحذوف، لأنّ "لّما" حرف جزم تدخل على المضارع لكن"لّما" في هذه الآية بدلا أن تدخل على الفعل المضارع دخلت اللاّم الموطّئة للقسم، وقد أوّل النّحاة ذلك على حذف مضارع مجزوم بـ"لّما"، والتّقدير: وإنّ كلاّ لما يوفوا أعمالهم، ثمّ الاستئناف بجملة "ليوفينّهم"[6].

وقد يخرج النّمط التّركيبي في القرآن من معنى ما ليتضمّن معنى آخر نحو قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾[7]، فالتّحضيض الذي في الآية إنّما هو للإنكار[8]، فـإذا

---

1 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- ص 756..

2 الآية 101.

3 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن- ص 540.

4 سورة هود- الآية 116.

5 سورة هود –الآية 111.

6 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 188.

7 سورة هود- الآية 12.

8 تمّام حسان: السّابق- ص 83.

نظرت في الآية كاملة تبيّن العجب من أسرار التّعدية فيها والتّضمين، ففي قوله تعالى:﴿ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ﴾[1]، فلاحظ أنّ الفعل هنا تعدّى بـــ:"مع" أي بكلمة المعيّة، في حين في قوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾[2] قد عُدّي فعل المجيء بحرف الإلصاق الدّال على شدّة تعلّق عناية موسى عليه السّلام بهذا الكتاب وشدّة تلبّسه به أو تعديته بالحرف"من" في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[3] ليدلّ ابتداءً على أنّ الرّسول عليه السّلام من الله تعالى، أو تعديته باللاّم في قوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ لتدلّ اللاّم على اختصاص موسى عليه السّلام لتحقيق هذه الغاية، وفي ذلك من حرصه بهذا اللّقاء وتعلّق نفسه وقلبه به ما لا يخفى، فمجيئه كان لهذه الغاية[4]، ولكن حين عُدّي بحرف المعية في الآية السّابقة من سورة هود دلّ على أنّ مجيء الرّسول وبمعيّته ملك من الملائكة يكون شاهدا برسالته وهم قالوا هذا القول إلاّ بجهلهم بحقائق الأمور، وتوهّمهم أنّه تعالى يعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم، ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومدى التّأييد الرّبّاني[5].

---

1 الآية 12.

2 سورة الأنعام- الآية 91.

3 سورة البقرة – الآية 101.

4 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- ص 752. 753.

5 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير- ج11- ص 18.

8. التعريف والتنكير:

المقصود بالمعرفة والنكرة أنّ:« المعرفة ما دلّت على شيء بعينه، وبالنّكرة ما دلّت على شيء لا بعينه»[1]، وأقسام المعارف خمس؛ المضمرات، والأعلام، وأسماء الإشارة، ثمّ المعرّف باللاّم ثمّ المضاف إلى واحد من هذه إضافة معنوية، لا لفظية، وهي متفاوتة في التّعريف، فأعرفها المضمرات، ثمّ العلم..وكما كانت المعارف متفاوتة في مراتب التّعريف، فكذا حال النّكرات، فكلّ نكرة هي أعمّ من غيرها فهي أبهم.

إنّ للتّعريف وسائلَ متعدّدةً؛ منها الإضمار، وذلك إذا كان المقام مقام التّكلّم أو الخطاب أو الغيبة، ومنها العلمية وذلك لإحضاره بعينه في ذهن السّامع ابتداء باسم مختصّ، أو لتعظيمه أوإهانته، أو لكناية حيث الاسم صالح لها، أو لإيهام استلذاذه، أو التّبرّك به أو التّطيّر أو التّفاؤل ومنها الموصولية، وتكون أيضا لأسباب؛ إمّا لاستهجان التّصريح بالاسم أو الإيماء أو لشأن غير الخبر، ومنها الإشارة، ويؤتى بالمسند إليه اسم إشارة كأن يقصد تمييزه لإحضاره في ذهن السّامع أو للتّنبيه إذا ذكر قبل المسند إليه، ومنها التّعريف بالألف واللاّم وتكون لأحد لأمور: أن يشار به إلى معهود بينك وبين مخاطبك كما إذا قال لك قائل :"جاءني رجل من بلدة كذا، فتقول: ما فعل الرّجل؟"، أو يراد به نفس الحقيقة مثل: الماء مبدأ كلّ حيّ. ومنها التّعريف بالإضافة ويكون لأسباب منها: أن لا يكون لإحضار المسند إليه في الذّهن طريق أخصر من الإضافة، أو أن تُغني إضافته عن التّفصيل، أو لتضمّنها تحقير شيء، أو تعظيما لشأن المضاف إليه، أو للاستهزاء[2].

يبيّن ابن الزّملكاني دلالة التّنكير بقوله:« وقد يظنّ ظانّ أنّ المعرفة أجلى فهي من النّكرة أولى، ويخفى عليه أنّ الإبهام في مواطن خليق، وأنّ سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطّريق خصوصا في موارد الوعد والوعيد، والمدح والذّمّ اللذين من شأنهما التّشييد، وعلّة ذلك أنّ مطامح الفكر متعدّدة المصادر بتعدّد الموارد، والنّكرة متكثّرة الأشخاص يتقاذف الذّهن من مطالعها إلى مغاربها وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غاربها، فيحصل في النّفس لها فخامة وتكتسي منها وسامة وهذا

1 يحي بن حمزة العلوي: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- ج02- ص 08.

2 ينظر تفصيل هذه القضايا في: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب- ص 381.

فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فإنّه لواحد بعينه، يثبت الذّهن عنده ويسكن إليه»[1] فالتّنكير أيضا يأتي لفائدة ، ويُنكّر المسند إليه لأغراض منها:الإفراد، ومنها النّوعية، ومنها التّعظيم ومنها التّحقير، ومنها التّكثير، ومنها التّقليل. وينكّر المسند لأغراض كذلك منها إرادة إفادة عدم الحصر والعهد، وإرادة التّفخيم والتّعظيم، وإرادة التّحقير، والنّكرة في نظر بعضهم لا تفيد بمعان وإنّما هي التي تستفيد من المقام الذي ترد فيه، فكأنّما المقام هو الذي يعطي النّكرة ميزها، وأنّ النّكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس، ويؤتى بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد[2]. وبالتّالي فهي تفيد من كلّ قيد، والمقام هو الذي يضفي عليها مسحته الجمالية ويحدّد معناها، ولقد نال اهتمام البلاغيين وعنايتهم، على نحو ما يتكرّر عند عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز[3].

إنّ وراء التّعريف والتّنكير في القرآن الكريم أسرارا بلاغية، ومزايا جمّة، ولكلّ منه خصائص يتميّز بها عن غيره توجب على الدّارس إمعان النّظر والتّدبّر في كتاب الله العزيز، ونزولا عند ذلك سنتعرّف على هذا المبحث في آيات بيّنات من سورة هود.

يقول الحقّ سبحانه:﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[4]، إنّك لتجد في الآية اسم الموصول"ما" يعبّر عن تفخيم وتهويل هذا العذاب الذي استعجله هؤلاء استهزاءً، وإشعارا بعلّية ما ورد في حيّز الصّلة من استهزائهم به لنزوله وإحاطته، فضلا عن التّعبير بصيغة الماضي "كان" الوارد على عادة الأسلوب القرآني في إخباره، لأنّها في تحقيقها وتيقّنها بمنزلة الكائنة الموجودة[5]، وفي ذلك من الفخامة والدّلالة على علوّ شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى، ومن التّعبير بالاسم الموصول قوله تعالى:﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6]، وكذلك يؤدّي اسم الموصول في الآية ما يؤدّي من التّفخيم، ولقد جاءت جملة الصّلة

---

1 البرهان الكاشف– ص 136. أخذا عن:معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب – ص 384.
2 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن– ص 102. وينظر: مباحث في علوم القرآن: منّاع القطّان– ص 189.
3 ينظر الصّفحات:117. 118. 216. 217. 396.
4 سورة هود – الآية 08.
5 طالب محمّد الزّوبعي: البلاغة العربية العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين– ص199.
6 سورة هود- الآية 51.

مصدّرة بفعل الفطر، لكونه أقدم النّعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشّكر الّذي لا يتأتّى إلاّ بالجريان على موجب أمره الغالب عن المطالب الدّنيوية التي من جملتها الأجر، لندرك أسرار التّعبير القرآني بالتّعريف بالاسم الموصول وما يؤدّيه من تهويل الأمر وتهويله، وقد يقع الاسم الموصول مكرّرا ليؤدّي أغراضا بلاغية لا يؤدّيها اسم موصول واحد بتكرار العطف، نحو قوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[1]، ففي هذا التّكرار مبالغة في ردّ مقالة الملأ لإشباعهم وتسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم بما جرى عليهم[2]، وممّا جاء تعريفا بتركيب الإضافة في هذه السّورة قوله تعالى:﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾[3] ففي إضافة "النّاقة" إلى اسم "الله" تعظيم وتفخيم، وتعظيم المضاف هو إحدى الدّلالات البلاغية لتركيب الإضافة، وقد يأتي تركيب الإضافة للدّلالة على التّفخيم والتّهويل، نحو قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[4]، ففي إضافة ضميره جلّ جلاله واستعمال مفردة المجيء للدّلالة على نزول هذا الأمر ما لا يخفى من التّضخيم والتّهويل، ويخرج التّعريف إلى الدّلالة على الجنس أو العهد نحو قوله تعالى:﴿ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، أيّ في هذه الأنباء أو الآيات أو السّورة خصّها بالذّكر تشريفا لها، وإن كان جاء الحقّ في السّور جميعها، والتّعريف بـ :"في هذه الحقّ" إمّا للجنس أو للعهد[6]، والمراد به: به: البراهين الدّالّة على التّوحيد والعدل والنّبوّة، أمّا ما يخّص التّنكير فقد سبقت الإشارة إلى أنّ المعنى الأصلي لتنكير اسم ما إمّا بغرض الدّلالة على النّوع أو الجنس كلّ، وإمّا بغرض إرادة فرد واحد،بيد أنّه كثيرا ما يخرج تنكير الاسم عن هذا المعنى الأصلي إلى معان أخرى يتطلّبها السّياق فتؤدّي معه الغاية المنشودة والمعاني الثّانية المطلوبة، ومن ذلك استعمالات القرآن للفظ "السّلام" إذ

1 سورة هود – الآية 58.

2 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل – ج03– ص 210.

3 الآية 64.

4 سورة هود – الآية 66.

5 سورة هود – الآية 120.

6 أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن– ص 273.

لم يرد من جهته تعالى إلاّ كان نكرة، بخلاف ما إذا كان السّلام واردا من جهة البشر، وذلك في نحو قوله تعالى:﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾[1] لأنّ السّلام الملقى من قبله تعالى كثير ومغنٍ عن كلّ تحيّة وسلام، ولذا جاء نكرة[2]، وقد برّر بعضهم تنكير السّلام في الآية لاعتبارات المقام الذي وردت فيه، لأنّه يدلّ على تعظيم السّلام الصّادر منه تعالى[3] وينبئ بهذا التّعظيم ويشير إليه، وقد وقف جمع من العلماء عند هذا التّعريف والتّنكير في السّلام الصّادر منه سبحانه والصّادر من عباده، ولا تثريب إذا ذكرنا بعضا من هذه الوجوه.

إذا استُعمل التّنكير وأوثر على التّعريف فعادة ما يكون لغرض إخراجه مخرج الإطلاق عن كلّ قيد من القيود اللاّزمة لها، من تعريف أو تخصيص[4]، ولكن فيما يخصّ لفظ "السّلام" ما وجه تنكيره في قصّة "يحيى" عليه السّلام في قوله تعالى:﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾[5]، وتعريف السّلام السّلام في قصّة"عيسى" عليه السّلام في قوله تعالى:﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ﴾[6]، ثمّ إذا كان التّنكير في السّلام هو المطّرد كقوله تعالى:﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[7]، وقوله:﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾[8]، وغير ذلك، فما وجه نصبه في سلام الملائكة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾[9]، ورفعه في سلام إبراهيم في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾[10]، إذ يلزمنا التّفرقة بين هذه الاستعمالات ليكمل الغرض في تقرير قاعدة التّنكير؟. والجواب كما جاء

---

1 سورة هود – الآية 48.

2 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني –ص 13.

3 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن- ص 104.

4 مثال ذلك قوله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾. [سورة البقرة- الآية179]. ينظر: دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني- ص 118.

5 سورة مريم – الآية 15.

6 سورة مريم – الآية 33.

7 سورة الصّافات- الآية 79.

8 سورة الصّافّات – الآية 130.

9 سورة هود – الآية 69.

10 سورة هود – الآية 69.

في كتاب الطّراز أنّ:«ما ذكره من تنكير السّلام في قصّة "يحيى"، وتعريفه باللاّم في قصّة "عيسى" فإنّما كان ذلك التّنكير واردا في قصّة يحيى عليه السّلام، لأنّ التّحيّة من جهة الله تعالى في المواطن الثلاثة، وسلام ما كان من جهة الله مغن عن كلّ تحيّة، ومن ثمّ يرد السّلام من جهة الله إلاّ منكرا كقوله تعالى:﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾[2] وقوله تعالى:﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3]، ولو كانت معرفة لكان لا فائدة في تعريفها، وأمّا تعريف السّلام في حقّ عيسى عليه السّلام فإنّما كان ذلك من أجل أنّه ليس واردا على جهة التّحيّة من الله تعالى، وإنّما هو حاصل من جهة نفسه، فلا جرم جيء بلام التّعريف، إشعارا بذكر الله تعالى، لأنّ السّلام اسم من أسمائه، وفيه تعرض لطلب السّلامة، أمّا ما ذكره من نصب سلام الملائكة، ورفع سلام إبراهيم، فلأنّ سلام الملائكة إنّما ورد على جهة الإشعار بالفعل، وكونه مصدرا عنه تقريرا لخاطره، وإزالة الوحشة الحاصلة من جهته بامتناع الأكل، كما نبّه عليها بقوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾[4]، وهذا المعنى إنّما يظهر بالنّصب بخلاف السّلام من جهة إبراهيم، فإنّما هو وارد على جهة التّحيّة كأنّه قال: منّي سلام، أو عليكم سلام، غير متعرّض لتقييد الفعل، والانتصاب عنه، أو نقول: ليس واردا على جهة التّحيّة، وإنّما هو تعرّض للمصالحة والمسالمة، ومن ثمّ قال أهل التّحقيق من علماء البيان: إنّ سلام إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة، يشيرون به إلى ما ذكرناه »[5]، وبهذا تظهر دقّة القرآن في استعمالات الكلمة تعريفا وتنكيرا في مكانها اللاّئق بها، وممّا يدلّ عليه التّنكير التّحقير والتّقليل على نحو ما جاء في هذه السّورة في قوله تعالى:﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾[6]، ومنه قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ۝﴾[7] أيّ ظالما لها. حيث يدل تنكير

1 سورة يس – الآية 58.

2 سورة هود – الآية 48.

3 سورة الصّافّات – الآية 79.

4 سورة الذّاريات – الآية 28.

5 ينظر: ج02- ص 10.11.

6 الآية 54.

7 سورة هود– الآية 117.

كلمة:"ظلم" على التّفخيم، والإيذان بأنّ إهلاك المصلحين ظلم عظيم[1]، والمراد تتريهه تعالى عن ذلك بالكلّيّة.

1 أبو سعود العمادي: إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الحكيم- ج05- ص 88.

9. الفاصلة القرآنية:

لقد ذكر كثير من العلماء تعريفات عديدة للفاصلة، ومن جملة ما ذكروه أنّها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى، وأنّها بلاغة بخلاف الأسجاع فإنّها عيب، باعتبار أنّ الفواصل تابعة للمعاني، وأنّ الأسجاع تابعة لها، فتكون كلّها بلاغة وحكمة لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ بها عليها[1]، فلاحظ هذا التّعريف كيف يفرّق بين الفاصلة والسّجع، وأنّ الفاصلة هي المعوّل في أمر البلاغة وليس السّجع، وهناك من عرّفها أنّها حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني[2]، فإلى جانب ما تضفيه الفاصلة من جمال وروعة في التّعبير القرآني، فإنّها أيضا عامل من عوامل إظهار المعنى وبروزه، وقد حدّها الزّركشي بأنّها:« كلمة آخر الآية، كقافية الشّعر وقرينة السّجع. وقال الدّاني: "كلمة آخر الجملة". وفرّق الإمام أبو عمرو الدّاني بين الفواصل ورؤوس الآي، قال: أمّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل ممّا بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آي وغيرها. وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كلّ فاصلة رأس آية؛ فالفاصلة تعمّ النّوعين، وتجمع الضّربين... وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطّريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام. وتُسمّى فواصل، لأنّه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أنّ آخر الآية فَصَل بينها وبين ما بعدها، و لم يسمّوها أسجاعا... فلأنّ أصله من سَجَعَ الطّير فشرُّف القرآن أن يُستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطّائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السّجع الواقع في كلام آحاد النّاس، ولأنّ القرآن من صفات الله عزّ وجلّ فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها وإن صحّ المعنى»[3]، فالفاصلة تابعة للمعاني التي وردت في الآية، فتعمل على إيضاحها وبيانها، وتساهم في فهم المقصد، وهنا نلاحظ أيضا تداخلا في المصطلح، فهناك الفاصلة وهناك السّجع وهناك رؤوس الآي، ولعلّ أوّل من أطلق رؤوس الآي على الكلمة التي تنتهي بها

1 أبو الحسن الرّمّاني: النكت في إعجاز القرآن– ص 89. وينظر: شرح رسالة الرّمّاني: عالم مجهول كأنّه عبد القاهر الجرجاني– ص 100.

2 أبو بكر الباقلاّني: إعجاز القرآن– ص 270.

3 البرهان في علوم القرآن– ج01– ص 53. 54.

الآية هو الفرّاء، حيث تجد في كتابه هذه التعبيرات:«...وليس الذي قبله بآخر آية»[1] أو قوله: « وذلك أنّهنّ رؤوس الآيات»[2] ونحو:«..وإن شئتَ جعلتَها ياء إضافة حُوِّلت ألفا لرؤوس الآيات»[3] ونحو هذا كثير. وتعريف الزّركشي نفسه نجده عند السّيوطي من:« أنّ الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشّعر وقرينة السّجع »[4]، ومردّ اطمئنان الزّركشي ومن تبعه إلى مصطلح الفاصلة بدل السّجع يرجع إلى كونهم لم يعدموا في القرآن الكريم مستندا للمصطلح، تبرّكا واحتجاجا به حين الاختلاف على تميز مصطلحات القرآن[5]. والفاصلة هي:« تلك الكلمة التي تختتم بها الآية من القرآن، ولعلّها مأخوذة من قوله سبحانه:﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[6]، وربّما سُمِّيت بذلك لأنّ بها يتمّ بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوّة، وهذا لأنّ التّفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، قال تعالى:﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾[7]، فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميّزة في بناء هيكل السّورة، وتنزل الفاصلة من آيتها، تكمّل من معناها، ويتمّ بها النّغم الموسيقي للآية»[8].

ولسنا بصدد البحث في المصطلح، فذاك رجع بعيد، وإنّما وجه جعلنا إيّاها مبحثا من مباحث هذا الفصل هو عناية القرآن بانسجام الفواصل بعضها مع بعض عناية واضحة، وتأثيرها الكبير على السّمع ووقعها في النّفس، إذ ترى القرآن تارة يقدّم وتارة يؤخّر، تارة يحذف شيئا من الكلم لينسجم مع فواصل الآي،وتارة يبدل كلمة بأخرى، وتارة تراه يزيد للغرض نفسه[9]؛ هذا من جهة، ولأنّ الفواصل لم تكن من قبيل المنمّقات اللّفظية والتّرصيعات البديعية التي تعنى بالشّكل

---

1 معاني القرآن- ج01- ص 16.

2 المصدر نفســـه- ج01- ص 200.

3 نفســـه - ج02- ص 176.

4 الإتقان في علوم القرآن- ج02- ص 435.

5 ينظر: الفاصلة في القرآن: محمّد الحسناوي- الأردن- دار عمار- ط02- 1421ها/2000م- ص 25..

6 سورة فُصّلت – الآية 03.

7 سورة فُصّلت – الآية 44.

8 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن – ص 64. 65.

9 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- الأردن- دار عمار- ط05 – 1428هـ/2007م – ص 217.

دون المضمون، ولكن من قبيل امتزاج بين اللّفظ والمعنى، وتآلف لا يعصى فيه أحدهما على الآخر ولا يتمرّد فيه اللّفظ على المعنى أو العكس من جهة أخرى، والفاصلة تختلف عن السّجع؛ إذ السجع يظهر فيه التّكلّف دائما وينصاع فيه المعنى لمتطلّبات الأشكال اللّفظية، وإذا كان:«الكهّان عند العرب قد استعملوا السّجع وهو لون من ألوان الإيقاع اللّفظي، في لغة وثنية يؤثرون بها على النّاس ويحاولون تضليلهم، فإنّ إيقاع الفواصل القرآنية يثير الهمم، ويحفّز إلى تلقّي دعوة الحقّ لا الضّلال»[1]، وكما أنّ الفاصلة تثير الانتباه داخل الأسلوب القرآني فإنّ لها أيضا دورا في تفهيم النّص القرآني وزيادة التّوضيح والتّأكيد لما جاء من مفاهيم في تلك الآيات القرآنية، يقول عبد الفتّاح لاشين إنّ الفاصلة:« لها قيمتها في إتمام المعنى وتوضيح الصّورة، وهي مرتبطة تماما بآياتها ولها أثرها البالغ قدره في نظام الكلام، وأهمّيّتها العظمى في نفسية السّامع»[2]، ثمّ إنّها توفّر للقرآن على مدى إفضائه الفكري وعبر أجزائه القرآنية المتعدّدة حدّا من التّماسك الدّاخلي الذي نزع النّص إليه[3]، ما سمح لنا بالبحث في أهمّيّتها وعلاقتها بتضامّ الكلمات وتوارد بعضها مع بعض لفظا ومعنى.

إنّ الباحث في فواصل القرآن الكريم يجد أنّها تكون في مقامات مختلفة، فمنها ما يساق لإقناع المشركين بحقيقة البعث، ومنها ما يكون تذكيرا بنعم الله، ومنها ما يكون في مخاطبة المنافقين من المشركين واليهود، ومنها ما يؤكّد عقاب المشركين، ومن هذه الأخيرة قول تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾[4] حيث يخبر سبحانه عن عقاب المشركين، وما يترل بهم من السّوء يوم الآخرة، ويقول في موضع آخر:﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[5].

---

1 أحمد عبد الغفّار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه- الإسكندرية- دار المعرفة الجامعية- د ط- 1995م - ص 318.

2 من أسرار التّعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية- الرّياض- دار المرّيخ- طبعة 1402هـ/1982م - ص 163.

3 هدى عطيّة عبد الغفّار: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية- ص 206.

4 سورة هود - الآية 22.

5 سورة النّحل - الآية 109.

والسّبب أنّ سورة"هود" قد تقدّم فيها ذكر:" الذين يصدُّون، يفترون"[1] وعلى هذا «فكلّ فاصلة من الآيتين وقعت موقعها، وحلّت محلّها، وكانت كلّ منهما في مكانها المناسب الذي لو تبدّل أو تغيّر لاختلّ المعنى، وظهر ما يخالف الانسجام والالتئام»[2]، ومن التّناسب بين الفواصل ومقاصد النّظم الذي جاء في السّورة قوله تعالى:﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[3]، وقوله تعالى في سورة الأعراف:﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4]، وقوله تعالى في سورة الشّعراء:﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[5]، فالفاصلة في الأولى"قريب" وفي الثّانية "أليم" وفي الثّالثة"عظيم"، ومرجع هذا التنوّع في فواصل الآيات أنّ آية الأعراف عامّة في جمل ما كان من وعظه لهم لأنّه قال:"قد جاءتكم بينة من ربّكم" ثمّ قال:"هذه ناقة"، وإلاّ يأخذكم عذاب ينال منكم ويؤلمكم، وهذه المعاني المجملة في الأولى زيدت بيانا في الآيتين الأخريين، أمّا آية سورة هود :"قريب" لما بعده من قوله:﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[6]، فذكر المدّة التي بينهم وبين هلاكهم وقرب ما ما توعّدهم به، والقريب لا ينافي الأليم، بل هو أشدّ ألما إذ لم يكن بعد مهل، وأمّا الآية الأخرى

---

1 في قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾. [سورة هود/19-21].

2 عبد الفتّاح لاشين: من أسرار التعبير القرآني، الفاصلة القرآنية- ص 119.

3 الآية 64.

4 الآية 73.

5 الآيتان 155. 156.

6 الآية 65.

في سورة الشّعراء فلأنّ قبلها ذكر اليومين المقسومين بين النّاقة وبينهم، بمعنى: فيوم تؤلمونها فيه، فيكون به يوم يؤلمكم الله فيه بعذاب الاستئصال[1]، وكلّ ذلك بمعنى واحد، فالألفاظ المختلفة دائرة على هذا المعنى واختلافها لاختلاف مواضعها المقتضية تغيير الألفاظ فيها، وهكذا نجد القرآن يتنزّه عن أن يقهر المعاني في سبيل تحقيق هذه الغاية على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدق في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفا لترتيبها في الجنان.

لقد بحث العلماء علاقة الفاصلة بما قبلها فحصروها في أربعة أشياء، وهي ما أسماه البلاغيون: التّمكين، والتّوشيح، والتّصدير، والإيغال[2]، وقد ورد في سورة هود ما يتعلّق بالقضيّة الأولى، وهي التّمكين الذي يمهّد للفاصلة قبلها تمكينا تأتي به ممكنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في مواضعها، في قوله تعالى:﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[3]، لأنّه لمّا تقدّم ذكر العبادة والتّصرّف في الأموال كان ذلك تمهيدا تامّا لذكر الحلم والرّشد، لأنّ الحلم هو العقل الذي يصحّ به التّكليف في العبادات، والرّشد حسن التّصرّف في الأموال[4]، فكان آخر الآية مناسبا لأوّلها مناسبة معنوية[5]، فقد وصفوه بالحلم أي العقل الذي لا يتناسب في زعمهم مع دعوته إيّاهم إلى ترك عبادة ما كان يعبد آباؤهم، ووصفوه بالرّشد الذي يتنافى في زعمهم كذلك مع دعوته إيّاهم إلى ترك تصرّفهم في أموالهم كما كانوا يتصرّفون[6]، ومن خفيّ ضروب التّقديم في الفواصل تقديم

1 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل- ص 113. 114.

2ابن أبي الإصبع(ت654هـ): تحرير التّحبير- في باب" ائتلاف القافية مع ما يدلّ عليه سائر البيت"- ص 224، وبديع القرآن في باب"الفاصلة مع ما يدلّ عليه سائر الكلام".ابن مالك الدّمشقي(686هـ):المصباح في المعاني والبيان والبديع- في الصّنف السّادس من الائتلاف؛ ويسمّى التّمكين وهو ائتلاف القافية مع ما يدلّ عليه سائر البيت- ص 250. الزّركشي(794هـ): البرهان في علوم القرآن- ج01- ص 95. السّيوطي(ت911هـ):شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان- حيث يسمّي التّمكين أو ائتلاف القافية. ص 155.

3 الآية 87.

4 بديع القرآن: ص 224.

5 ينظر: الفواصل القرآنية: كمال الدّين مرسي- الإسكندرية- دار الوفاء- د ط- د ت- ص 101. وينظر: من أسرار التّعبير القرآني: عبد الفتّاح لاشين- ص 39.

6 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن – ص 68.

غير الأشرف لكونه أهمّ في سياقه نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾[1] لأنّ المقام مقام التّحذير والإنذار، إذ الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم السّابقة، هو الذي استوجب تقديم ما قُدّم، وهو شائع في غير الفواصل[2]، وممّا وقع أيضا في حيّز تمكّن الفاصلة وإتمامها المعنى وتوضيحها الصّورة قوله تعالى في هذه السّورة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3]، وقوله تعالى في سورة الأنعام:﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[4]، ففي الأولى "مصلحون" وفي الأخرى"غافلون"، وسبب هذه المخالفة أنّ في ذلك إشارة إلى ما تقدّم من العذاب في سورة الأنعام:﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[5]، وبعده: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾[6]، يعني العقاب في يوم القيامة، لأنّه لم يكن ربّك ليفعله من قبل أن يحتجّ عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من محذورهم..فاقتضى هذا المكان أن يقال: لم يؤخذوا وهم غافلون، بل كانوا منبّهين بالأعذار والإنذار[7]، أمّا الموضع الآخر فللبناء على ما تقدّم وهو قوله تعالى:﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ﴾[8] وكان نقيض الفساد في الأرض الصّلاح فقال:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[9]، وبهذه النّظرة ترى أنّ تناسب

1 سورة هود – الآيتان 105. 106.

2 محمّد الأمين الخضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية– ص 31.

3 الآية 117.

4 الآية 131.

5 الآية 128.

6 الآية 130.

7 الخطيب الإسكافي: درّة التنزيل وغرّة التأويل– ص 96.

8 الآية 116.

9 الآية 117.

الفواصل مقصد من مقاصد النّظم، وأنّ البحث عن أغراض النّظم وراء هذه المخالفة يهدف دون شطط أو تكلّف إلى الكشف عمّا صاحَب موسيقى الفواصل من أسرار البيان، بيقين منّا أنّ كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للنّظم الذي يتعانق فيه حسن اللّفظ وسموّ المعنى.

10. الإطناب والإيجاز:

غنيٌّ عن البيان أنّ هذا المبحث لم تخل منه دراسة من الدّراسات في البلاغة والإعجاز ولقد عُرف في فترة مبكّرة، وتناقلته الأجيال حتّى استحال الاستغناء عنه.

روى الخليل الفراهيدي أنّ الإطناب: البلاغة في المنطق في مدح أو ذمّ[1]، والإطناب لغة: من قولك:طنّب بالمكان، أي أقام به. وطنَبَ الفرسُ أي طال متنه. وأطنب في الكلام: بالغ فيه. وأطنبت الإبل إذا اتّبع بعضها بعضا في السّير. وأطنبت الرّيح إذا اشتدّت في غبار[2]، أمّا اصطلاحا فلقد عرف طريقه إليه منذ إشارات الجاحظ العابرة في كتبه، وما رواه عن أهل اللّغة والبيان، وعلى سبيل ما نقله لنا أنّ سهل بن هارون كان شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللّهجة والطّلاوة[3]، وجعله في موضع آخر مرادفا للإسهاب[4]، وجاء في كتاب الكامل:«قال أبو العبّاس: من كلام العرب: الاختصار المفهِم والإطناب المُفخّم»[5]، وتحدّث عنه الرّماني وعدّه وجها من وجوه البلاغة إلى جانب الإيجاز وفرّق بينه وبين التّطويل، فقال:« الإيجاز بلاغة، والتّقصير عيّ، كما أنّ الإطناب بلاغة، والتّطويل عيّ ..فأمّا الإطناب فإنّما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلّق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التّفصيل، فإنّ لكلّ واحد من الإيجاز والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر، لأنّ الحاجة إليه أشدّ والاهتمام به أعظم...والإطناب كمن سلك طريقا بعيدا لما فيه من النّزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحصل في الطّريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب»[6] ليستفاد من هذا الكلام أنّ الإطناب هو في زيادة المعاني، لا في زيادة الألفاظ، فإنّ اللّفظ إذا زاد لا يكون الكلام من الإطناب البليغ المستحسن إلاّ إذا زادت معه المعاني وذلك يكون بتفصيل القول

1 كتاب العين – ج7.ص 438.

2 الجوهري: تاج اللّغة – مج01– ص 173. وهو في لسان العرب:البلاغة في المنطق والوصف مدحا كان أو ذمّا، وأطنب في الكلام بالغ فيه، وأطنب في الوصف إذا بالغ واجتهد، وإذا أبعد أيضا– مج01– ص 654.

3 البيان والتّبيين– ج01– ص 91.

4 الحيوان– ج01 – ص 196.

5 أبو العبّاس المبرّد: ج01– ص 40.

6 النكت في إعجاز القرآن– ص 72. 73.

لا بإجماله[1]، وعلى هذا الأساس بحثه العسكري ممهّدا له بقوله:«قال أصحاب الإطناب: المنطق هو بيان، والبيان لا يكون إلاّ بالإشباع، والشّفا لا يقع إلاّ بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامّة إلاّ بالاستقصاء: والإيجاز للخواصّ، الإطناب مشترك فيه الخاصّة والعامّي، والغبيّ والفطن»[2] وجاعلا معيار البلاغة أنّها الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل، ومفرّقا بعد ذلك بينه وبين التّطويل والتّطفيل قائلا:« والإطناب بلاغة، والتّطفيل والتّطويل عيّ، لأنّ التّطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلا بما يقرب..والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة »[3]، ثمّ يُكتب له الذّيوع – مع مبحث الإيجاز– منذ أن تناوله السّكاكي مبحثا من مباحث علم المعاني حيث يقول:« والإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلّة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل»[4]، وقد أنعم ابن الأثير النّظر في هذا المبحث فوجده ضربا من ضروب التّأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصد المبالغة، وأنّه إذا أُرجِع إلى الأسماء واشتقاقها وُجد مناسبا لمسمّاه، إذ إنّه في أصل اللّغة مأخوذ في الشّيء، إذا بالغ فيه. وأنّ قولك: أطنبت الرّيح، إذا اشتدّت في هبوبها، وأطنب في السّير إذا اشتدّ فيه، وعلى هذا فإن حُمل على مقتضى مسمّاه كان معناه المبالغة في إيراد المعاني، وحدّه بقوله:« هو زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة، فهذا حدُّه الذي يميّزه عن(التّطويل) إذ التّطويل هو زيادة اللّفظ عن المعنى لغير فائدة»[5] ثمّ توالت التّآليف بعد السّكاكي واستقرّ مفهوم الإطناب في أوساط الدّارسين[6]، إلاّ ما كان زيادة تقريب وتمثيل نحو ما

1 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى (نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به)– القاهرة– دار الفكر العربي– د ط– د ت– ص 306.

2 كتاب الصّناعتين– ص 209.

3 المصدر نفسه– ص 211.

4 كتاب مفتاح العلوم– ص 120.

5 المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر– ج2– ص: 342. 343.344.

6 على سبيل المثال يقول ابن النّاظم:« والإطناب هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف الأوساط، وسواء كانت القلّة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غيرها، ولكلّ منهما مراتب، فما صادف منها الموقع حمد وإلاّ ذمّ، وسمّي الإيجاز إذ ذاك عيّا وتقصيرا، والإطناب إكثارا وتطويلا»– المصباح في المعاني والبيان والبديع– ص 142. وينظر كتاب الإيضاح: الخطيب القزويني– ص 196.

جاء في كتاب الطّراز أنّه:«واد من أودية البلاغة، ولا يرد إلاّ في الكلام المؤتلف، ولا يختصّ بالمفردات، لأنّ معناه لا يحصُل إلاّ في الأمور المركّبة.. وهو مصدر أطنب في كلامه إطنابا، إذا بالغ فيه وطوّل ذيوله لإفادة المعاني... ومعناه في لسان علماء البيان هو زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير ترديد، فقولنا: هو زيادة اللّفظ على المعنى عامّ في الإطناب، وفي الألفاظ المترادفة كقولنا: ليث وأسد، لأنّه كلّه من باب زيادة اللّفظ على معناه، وقولنا: لفائدة، يخرج عنه التّطويل»[1] وهكذا فحقيقة الإطناب أنّ المعاني تكون والألفاظ على قدر واحد من الكثرة والألفاظ بناء متكامل لا ينقص منه لبنة، ولكنّ الإطناب يكون متّجها إلى تفصيل الألفاظ في الدّلالة، فلا يستغنى بلازم عن ملزوم، ولا بملزوم عن لازم، ولا بعامّ عن خاصّ، ولا بخاصّ عن عام، ولا بدلالة الأولى عن نصّ اللّفظ، ولا بالإشارة عن العبارة[2]، بل كلّ ما يقتضيه المقام يجيء في وضوح كامل، لا يكتفي فيه بالتّضمّن، ولا بالإشارة ولا بالالتزام.

لعلّ من أوائل ما يلاحظ من مظاهر الإطناب في سورة "هود" هو طريقة السّرد والتّفصيل فيها لقصة "نوح" عليه السّلام مع قومه في نحو أربع وعشرين آية مناسبةً لمقام تثبيت فؤاد النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وتسليته وتأييده وتعزيته لئلاّ يضيق صدره بشيء ممّا أُمر بإبلاغه حرصا على إيمان أحد، وإن كان أقرب الخلائق إليه وأعزّهم عليه، كما تقدّمت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾[3]، ويأتي في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[4]، فواضح أنّ هذه القصص لهذا المعنى سيقت[5]، وأنّ سياقها في سورة الأعراف وغيرها كان لغير ذلك..وأن تضمن هذا الغرض بيان إهلاك مَن كانوا أشدّ من العرب قوّة وأكثر جمعا وأمكن أمرا وأقوى عنادا وأعظم فسادا وأحدّ شوكة، وما اتّفق في ديارهم من الطّامّات

1 يحي ابن حمزة العلوي: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- ج02- ص 123.
2 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى- ص 310.
3 سورة هود – الآية 12.
4 الآية 120.
5 البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج09- ص 265.

والأهوال المفظعات تحذيرا من مثل حالهم بارتكاب أفعالهم، ففرق بين ما يساق للشّيء وما يلزم منه الشّيء، ولهذا الغرض المقصود هنا طولت قصّة نوح في هذه السّورة ما لم يطوّله في غيرها وصدّرت بقوله:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1] أي مخوف بليغ التّحذير، أبين ما أرسلت به غاية البيان، وذكر فيها أنّه طالت مجادلته لهم وأنّه لما وضح له أمر الله تعوّذ من السّؤال فيه وفي كلّ ما يشبهه، وخلّلت قصّته بقوله:﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[2] خطابا لهذا النّبيّ الكريم، وخُتمت بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وذكرت قصّة إبراهيم عليه السّلام لما ضمنته من أنه بشّر الولد بما لم يجر بمثله عادة فلم يتردّد فيه، وأنّه جادل الرّسل في قوم ابن أخيه، وأنّه لّما تحقّق حتم الأمر وبث الحكم سلّم لربّه مع كونه حليما أوّاها منيبا)إلى غير ذلك مّما يومئ إليه سياق القصص، فكأنّه قيل: إنّما أنت أرسلناك لتبلّغ ما أرسلت به من الإنذار وإن شقّ عليهم، وعزّتنا قد أرسلنا من قبلك رسلا منذرين فدعوا إلى ما أُمرت بالدّعوة إليه، وأنذروهم ما يشقّ عليهم من بأمنا امتثالا لأمرنا وما تركوا شيئا منه خوفا من إعراض ولا رجاء في إقبال على أنّ أممهم قالوا لهم ما قالت لك أمّتك كما يشير إليه قوله تعالى عن نوح:﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾[4] وقد كان في المخالفين من أممهم القريب منهم نسبه والعزيز عليهم أمره من ابن وصاحبة وغيرها هذا مع أنّ قصصهم دليل على قوله تعالى:﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾[5]، وزجر لهم عن مثل قولهم:﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾[6]، وتأييد لقوله تعالى:﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[7]، وغير ذلك مّا تقدّم، فقد عُلم من هذا الوجهُ في تكرير هذه القصص، وأنّه في كلّ

1 الآية 25.

2 الآية 35.

3 الآية 49.

4 الآية 31.

5 سورة هود- الآية 08.

6 الآية 08.

7 الآية 17.

سورة لمقصد يخالف المقصد في غيرها، وإن كان يستفاد من ذلك فوائد أُخر: منها إظهار القدرة في بيان الإعجاز بتصريف المعنى في الوجوه المختلفة لما في ذلك من علوّ الطّبقة في البلاغة لأنّه ربّما قال متعنّت عند التّحدّي: قد استوفى اللّفظ البليغ على الأسلوب الأكمل البديع فيه هذه القصص فلم يبق لنا ألفاظ نعبّر بها عن هذه المعاني حتّى نأتي بمثل هذه القصّة، فأتى بها ثانيا إظهارا لعجزه وقطعا لحجّته، وربّما كُرِّرت ثالثا ورابعا توكيدا لذلك وتمكينا للاعتبار بضروب البيان وتصبيرا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أذى قومه حالا فحالا، فإن قيل: فما بالها تأتي تارة في غاية البسط وتارة في غاية الإيجاز، وتارة على الوسط؟ قيل: هذا من أعلى درجات البلاغة، وأجلّ مراتب الفصاحة والبراعة.

لقد تقدّم أنّ من البلاغة أن يناسب أسلوب الإيجاز ما كان للإيجاز، وأن يناسب طول الكلام والإطناب الإطناب أو الطّول أيضا، وعلى هذا النّحو نجد قوله تعالى في هذه السّورة: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، وفي آخرها: ﴿فلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة السّجدة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾[3]، حيث ترد هذه الآية الأخيرة بثبوت النّون، بينما لا لا ترد الآيتان من سورة هود بالنّون، وجواب ذلك أنّه ورد في سورة هود على ما اعتمدوه من تخفيف هذا اللّفظ ليناسب بذلك إيجاز الكلام المتعلّق بقوله:" فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ "، والمتّصل به تمامه تمام معنى المقصود وذلك قوله:﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[4] وكذلك قوله إلى آخر السّورة:" فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ " إلى قوله تعالى:﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾[5]، وورد في "السّجدة" من طول الكلام المتعلّق بقوله:"فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ

1 الآية 17.
2 الآية 109.
3 سورة السّجدة– الآية 23.
4 الآية 17.
5 الآية 109.

مِنۡهُ"، ألا ترى أنّ الكلام واحد إلى قوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾[1]، فنوسب الإيجاز بالإيجاز، والطّول والإطناب بالطّول والإطناب[2] وممّا وقع إطنابا في هذه السّورة بغرض الاستيفاء في القصص قوله تعالى:﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةً وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[3] في سياق قصّة هود عليه السّلام، وقوله تعالى:﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةً وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ﴾[4] في سياق قصّة موسى عليه السّلام، لترى أنّه في الأولى جمع بين اسم الإشارة واسم الدّنيا الجاري عليه وصفا، وأنّه اكتفى في قصّة موسى باسم الإشارة دون التّابع، وذلك لوجهين[5]؛ أمّا الأوّل فإنّ قصّة هود في هذه السّورة أكثر استيفاء من قصّة موسى بكثير، فناسب الطّولُ الطّولَ، والإيجازُ الإيجاز، وأمّا الثّاني فإنّه في الحالة الأولى وارد على الأصل من الجمع بين التّابع نعتا أو عطف بيان وبين متبوعه، وجاء في الأخرى على حذف الوصف اكتفاء باسم الإشارة، وكلٌّ صحيح، فجيء بما هو في الأصل أوّلا ثمّ جيء ثانيا بما هو ثان عليه على ما ينبغي.

1 سورة السّجدة- الآية 25.

2 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل – ج02- ص 649.

3 الآية 60.

4 الآية 99.

5 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- ج02- ص 649.

11. الحــذف:

الحذف في اللّغة القطع والإسقاط، فحذفَ الشيء يحذفه حذفا: قطعه من طرفه، وحذفُ الشّيء: إسقاطه[1].

إنّ الوحدة البنائية الأولى في اللّغة هي الجملة، وإنّ الجملة في العربية تشمل ركنين أساسين هما المسند إليه والمسند، و أنّ ما عداهما يُسمّى متعلّقات الفعل أو مكمّلات الجملة، والأصل أن يستكمل التعبير اللّغوي بناءه الأساس، لكي تتمّ دلالته على المعنى، ولا يأتي ذلك إلاّ بذكر ركني الجملة السّابقين، ومتعلّقاتها إن كانت لها متعلّقات، إلاّ أنّه يحدث في الكثير ألاّ تجد في الكلام أحدَ الرّكنين أو ما يتطلّبه الفعل من متعلّقات، ولا يكون هذا الاستغناء اعتباطا وإنّما عدولا من المتكلّم عن الذّكر إلى الحذف لأداء دلالة معيّنة أو لسرّ بلاغي[2]، فإذا ما اقتضى المقام وطبيعة الكلام الاستغناء عن شيء منهما ساعدهم اعتبار ذلك الأصل على معرفة المستغنى عنه، وتقديره وبيان مواضعه[3]، وما خوّل لنا البحث في موضوع الحذف في ضوء التوارد والتضام هو كون الحذف عدولا في الأسلوب، لأنّ:«من أصول النّحاة أنّ كلّ مبنى له معنى يؤدّيه بحسب الأصل ويسمّى(ذلك معناه الأصلي)..فإذا التزم الاستعمالُ بهذه الأصول كان استعمالا أصوليا؛ ولكنّ القرائن النّحوية وهي(التي تدور حول هذه الأصول) ربّما شهدت ترخّصا فيها..لخلق آثار ذوقية ونفسية معيّنة يصير بها الأسلوب الأدبي ذا تأثير معيّن. فالذّكر مثلا يعدل عنه بالحذف»[4]، ومادام الموضوع في الحذف في سورة من السّور القرآنية فإنّ هذا لا يعني أنّنا ننسب الحذف إلى مضمون القرآن، وإنّما « ننسبه إلى تركيب اللّغة، ذلك بأنّ اللّغة تجعل للجملة العربية أنماطا تركيبية معيّنة ففي الجملة أركانها ومكمّلاتها، وفي عناصرها ما يفتقر إلى غيره، وما لا يستغني المعنى عن تقديره فإذا لم تشمل الجملة على أحد أركانها أو ما يقتضيه المعنى أو ما يقتضيه التّركيب من مكمّلاتها وعناصرها الأخرى، ثمّ اتّضح المعنى بدون ذكر هذه العناصر لوجود الدّليل على المحذوف عددنا ذلك حذفا جيء به لطلب الخفّة اختصارا أو اقتصارا أو تجنّبا للحشو، أو لسبب آخر غير ذلك

---

1 ابن منظور: لسان العرب- مج09- ص 48.
2 شفيع السّيد: النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية- ص 61.
3 أحمد سعد محمّد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية- ص 255.
4 تمّام حسّان: اللّغة العربية والحداثة- مجلّة فصول- ص 140.

وكلّ عنصر من عناصر الجملة صالح لأن يحذف إذا قام الدّليل عليه، فأمكن تقديره في الكلام ولقد يحسُن أحيانا حذف الحرف أو الضّمير أو الكلمة المفردة أو أحد أركان الجملة أو مكملاتها، كما يحذف من الكلام ما يقتضيه المعنى، وإن طال كلام المحذوف»[1]، وبعد هذا التّقديم الموجز يحسن بنا أن نسوق بعض التّعريفات للحذف من الموروث البلاغي ليتسنّى بعده التّمثيل له في سورة من سور القرآن الكريم.

إنّنا إذا تأمّلنا التّراث البلاغي القديم وجدنا مؤلّفات أهل اللّغة تعرض ملاحظات قيّمة في هذه الظّاهرة البلاغية، فقد تحدّث الفرّاء في أكثر من موضع في معاني القرآن عن هذه الظّاهرة بتسميات مختلفة كالإضمار والإبطال[2]، وأسمى أبو عبيدة هذا النّوع :"مجاز المختصر"[3]، وأسمّاه الجاحظ:"الإيجاز المحذوف"[4] وخصّص له في موضع آخر بابا سمّاه " من الكلام المحذوف"[5]، ولقد ذكر ابن قتيبة للحذف صورا عديدة، ودرسه ضمن باب"الحذف والاختصار" بشواهد قرآنية وشعرية ونثرية[6]، وكان له أن ذاع في دراسات إعجاز القرآن فتناوله الرّمّاني في تلك الأقسام العشرة الّتي جعلها للبلاغة، وكان الإيجاز أوّل هذه الأقسام وهو عنده: « على وجهين؛ حذف وقصر، فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام...وإنّما صار الحذف..لأنّ النّفس تذهب فيه كلّ مذهب »[7]، وتعرّض له أبو هلال العسكري في باب الإيجاز بشواهد من القرآن الكريم أيضا[8]، وحُقّ أن يكون الحذف من شجاعة العربية كما وصفه ابن جنّي: «قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة وليس شيء من ذلك إلاّ عن دليل عليه، وإلاّ كان في ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته»[9]، و مثلما جاء عند الرّمّاني

---

1 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن – ص 381.
2 معاني القرآن- ج01- ص141. وج02- ص 338.
3 مجاز القرآن – ج02- ص02. ص98.
4 الحيوان – ج03- ص 75.
5 البيان والتّبيين- ج02- ص 278.
6 تأويل مشكل القرآن- ص 210. وينظر: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- ص 218.
7 النّكت في إعجاز القرآن- ص 70. 71.
8 كتاب الصّناعتين- ص 200.
9 الخصائص- ص 545.

فقد ورد عند ابن سنان الخفاجي[1]، ممّا دعا عبد القاهر الجرجاني بعد هؤلاء أن يقف عليـــــه بالشّرح والتّحليل، واصفا إيّاه أنّه:« باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبن »[2]، وقد نقل عنه ابن الأثير هذه الرّؤية في تعريفه الإيجـــــــــاز بالحذف فقال: « أمّا الإيجاز بالحذف فإنّه عجيب الأمر أشبه بالسّحر، وذاك أنّك ترى فيه ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مُبينا إذا لم تبيّن. وهذه جملة تنكرها حتّى تخبر وتدفعها حتّى تنظر. والأصل في المحذوفات جميعا على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدلّ على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنّه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنّه متى أُظهر صار الكلام إلى شيء غثّ، لا يناسب ما كان عليه أوّلا من الطّلاوة والحسن »[3] وتوسّع فيه العلوي وأكثر من أمثلته وقسّمه إلى حذف الجمل وحذف المفردات:«اعلم أنّ حذف الجمل له في البلاغة مدخل عظيم، وأكثر ما يرد في كتاب الله تعالى، وما ذاك إلاّ من أجل رسوخ قدمه، وظهور أثره، واشتهار علمه، ويرد على ضروب أربعة»[4] أمّا حذف المفردات قـــ: «اعلم أنّ الإيجاز بحذف المفردات أوسع مجالا من حذف الجمل، لأنّ المفردات أخفّ في الاستعمال، فلهذا كثر فيها، ويضبطه في غرضنا أنواع سبعة»[5]،وخصّه الزّركشي بدراسة تفصيلية وعدّه أسلوبا من أساليب القرآن وفنونه البلاغية[6]، ولم يزد الخطيب القزويني أن جعله ضمن مباحث الإيجاز كسابقيه من البلاغيين[7]، ولقد أدرك السّيوطي أنّ الحذف يحقّق التّماسك بين عناصر الحذف، وأطلق عليه مصطلح الاحتباك حيث يقول:« الاحتباك أن تُذكر جملتان في كلّ متقابلتان ويحذف من كلّ ضدّ ما ذُكر في الأخرى...أن يحذف من الأوّل ما

1 سرّ الفصاحة – ص 210.
2 دلائل الإعجاز– ص 120.
3 المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر– ج02– ص 268.
4 الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز– ج02– ص51.
5 المصدر نفسه– ج02– ص 55.
6 البرهان في علوم القرآن– ج03– ص 103.
7 الإيضاح– ص 184. 187.

ثبت نظيره في الثّاني ومن الثّاني ما ثبت نظيره في الأوّل»[1]، وهذا التّماسك الذي يحدث بالحذف كان المدعاة الأولى لجعله أحد العناصر البارزة في قضيّة التّضام التي تظهر بقوّة في حذف الحروف والكلمات والجمل من جهة، وفي القصص القرآني من جهة أخرى، إذ ما تراه مذكورا بحرف أو كلمة في موضع تجده محذوفا في موضع آخر، وما يكون في قصّة من قصص القرآن لا يكون في أخرى، والمحذوف في كلّ هذا:« يفهم غالبا من خلال السّياق أو وجود قرينة تدلّ عليه، وفي الحذف فوائد جليلة من الاختصار مع عدم الإخلال بالمعنى، وهذا من خصائص النّظم القرآني»[2]

وفي الحذف علّة ترتبط بأنّ الزّمان قد يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وهذا يعني ضرورته في بعض المواضع، وأنّ الاشتغال بذكره يؤدّي إلى تفويت المهمّ ويحدث معه الخلل، أو يقصد به تعديد أشياء فيكون في تعدادها طول وسآمة فيحذف ويكتفي بدلالة الحال عليه، ويترك النّفس تجول في الأشياء المكتفي بالحال عن ذكرها، وقد يخرج الحذف إلى أغراض أخرى[3]، يمكن أن تتخلّل بعضا منها هذه الدّراسة التّطبيقية في هذا الفصل في سورة هود.

يقول تعالى:﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[4]، لتجد أن المبتدأ محذوف[5]، وهذا الحذف يحدث ليكون ذكر الخبر المتّصف بصفة كأنّه يشير إلى هذا المبتدأ، وكأنّما بلغ من الشّهرة بهذا الوصف مبلغا يغنى عن ذكره، ومن أغراض الحذف في التّعبير القرآني أنّه يحذف من الفعل للدّلالة على أنّ الحدث أقلّ ممّا لم يحذف منه، وأنّ زمنه أقصر، فهو يقتطع من الفعل للدّلالة على الاقتطاع من الحدث، أو يحذف منه في مقام الإيجاز والاختصار، بخلاف مقام

---

1 شرح عقود الجمان- ص 133. وينظر: علم اللّغة النّصي: صبحي إبراهيم الفقّي - ص222.

2 محمود السّيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز- الإسكندرية- ط02- 2003م- ص 318.

3 من هذه الأغراض البلاغية: البلاغة والتّفخيم والتّعظيم، التّخفيف، زيادة اللّذة بسبب استنباط المحذوف، قصد العموم، رعاية رعاية الفاصلة، صيانة المحذوف، صيانة اللّسان عن المحذوف، كون الخبر لا يصلح إلاّ له حقيقة، قصد البيان بعد الإبهام، قصر الزّمن عن الإتيان بالمحذوف، مع أنّ لكلّ منها شروطا وأدلّة . ينظر: ظاهرة الاقتصاد اللّغوي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية:عوني أحمد محمّد-(مخطوط رسالة دكتوراه)- جامعة سيدي بلعبّاس- قسم اللّغة العربية وآدابها- 2005م- ص 72.

4 سورة هود – الآية 01.

5 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن- ص 96.

الإطالة والتّفصيل، من ذلك قوله تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، فقد جاء الفعل"تذكّرون" بحذف التّاء، لأنّه ممّا لا يحتاج إلى طول تأمّل أو تذكّر أو تفكير[2]، فإنّك إذا سألتَ أيّ فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوي رجل أعمى وأصمّ ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوي الأعمى والبصير والأصمّ والسّميع؟ كان جوابه: كلاّ لا يستويان، ومنه أيضا قوله تعالى في هذه السّورة:﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ ﴾[3]، وقوله تعالى في سورة الكهف:﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[4]. بحذف الياء من"تسألن" في الأولى وإثباتها في الآية الأخرى؛ والآية الأولى هي في بمناسبة غرق ابن نوح وسؤال نوح عليه السّلام ربَّه، أمّا الأخرى فهي في اشتراط الخَضِر على موسى عليه السّلام، إذا صحبه أن لا يسأله عن شيء حتّى يخبره به، وبالنّظر إلى السياقين فإنّ في قصّة موسى والخَضِر كان يتوقّع أن يسأل موسى الخضرَ عن كلّ عمل يقوم به ممّا لا يدرك حكمته، وأحداث المصاحبة بينهما قائمة على أنّ الرّجل الصّالح يعمل أعمالا مستنكرة حسب ما يرى موسى، فيعترض ويبادر بالسّؤال، في حين لم يكن في قصّة نوح عليه السّلام إلاّ سؤال واحد، وهو عن شأن ابنه، فاقتضى مقام الإطالة والتّفصيل في سورة الكهف ذكرَ الياء دون سورة هود، ثمّ إنّ موسى عليه السّلام سأل عن ثلاثة أمور مشاهدة، في حين سأل نوح عليه السّلام أمرا واحدا، فناسب الإطالة بذكر السّؤالات وتعدُّدِها أن يذكر الياء في سورة الكهف، وأمر آخر هو أنّ التّحذير من السّؤال في سورة هود أشدّ ممّا في سورة الكهف، وقد عقّب على سؤال نوح بقوله تعالى:﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[5]، وليس الأمر كذلك في سورة الكهف، بل سيعلّمه حكمة ما سيقوم به فيما بعدُ فناسب حذف الياء في سورة هود إشارة إلى النّهي عن أصل الحَدَث بخلاف ما في سورة

---

1 سورة هود – الآية 24.

2 فاضل صالح السّامرّائي: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني- الأردن- دار عمار- ط05- 1429هـ/2008م- ص 19.

3 الآية 46.

4 الآية 70

5 الآية 46.

الكهف[1]، ولاختلاف السّؤالين دور في إيراد الذّكر والحذف، فالسّؤال في سورة الكهف هو سؤال الاستفهام والاستفسار، ولذا عدّاه بـ"عن" فقال:"فلا تسألني عن شيء"، أمّا سؤال نوح عليه السّلام فإنّه سؤال طلب كما تقول: سألته حاجةً، ولذلك عدّاه بنفسه، ومن لطائف حذف بعض الحروف وذكرها في التّعبير القرآني قوله تعالى في هذه السّورة:﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾[2] وقوله تعالى في سورة السّجدة:﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾[3] الأولى تثبيت للرّسول صلّى الله عليه وسلّم ونهي له عن الرّيب والمرية، والكلام على القرآن الكريم وعلى قوم الرّسول، وتهديد من يكفر به، والآخر على التّوراة وبني إسرائيل، فناسب الحذف في الأولى دون الآية الأخرى، ذلك أنّه طلب منه ألاّ يكون في شيء من المرية أصلا، فلمّا كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف[4]، ومنه أيضا قوله تعالى في هذه السّورة:﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[5]، وقوله تعالى في سورة الأنفال:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[6]، قال في سورة هود:" وَلَا تَتَوَلَّوْاْ " بتاءين، وقال في الأخرى"وَلَا تَوَلَّوْاْ " بحذف إحدى التّاءين، ذلك أنّ الخطاب في سورة هود للكافرين وهم قوم "هود" عليه السّلام، أمّا الخطاب في الآية الأخرى فللمؤمنين" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ "، ومن« المعلوم أن تولّي المؤمنين أقلّ من تولّي الكافرين، لأنّ المؤمنين مطيعون لله بخلاف الكفرة، ولمّا كان تولّي المؤمنين أقلّ حذفَ من الحدث للدّلالة على قلّة تولّيهم»[7]، وعلى العكس)تولّي الكافرين فإنّه عامّ، فهو يشمل تولّي المؤمنين وزيادة، فزاد في الفعل للدّلالة على زيادة تولّيهم، ثمّ إنّه بهذا التّعبير نهى

---

1 فاضل صالح السّامرّائي: بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني- ص 29- 31.

2 الآية 17.

3 الآية 23.

4 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- الأردن - دار عمار- ط05- 1428هـ/2007م- ص 77.

5الآية 52.

6 الآية 20.

7 فاضل صالح السّامرّائي- التّعبير القرآني - ص 17.

المؤمنين عن التولّي مهما كان قليلا، فقال: "وَلَا تَوَلَّوْاْ "، فاقتطع من الفعل للدّلالة على النّهي عن أيّ شيء من التولّي مهما قلّ أو ضؤُل، وممّا وقع في حذف الحروف في بعض القصص القرآني دون بعض ما جاء في هذه السّورة:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾[1]، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة المؤمنون:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[3]، حيث حذف الواو في سورة الأعراف، وأتى بها في الأخريين، وذلك أنّ الآيات التي سبقت آية الأعراف كانت في وصف ما اختصّ الله به إحداث خلقه والبدائع من فعله، إلى أن ذكر الشّمس والقمر والرّياح..ولم يكن فيها ذكر بعثة نبيّ ومخالفة من كان له من عدوّ، فصار كالأجنبيّ من الأوّل فلم يعطف واستُؤنف ابتداء كلام..في حكم المنقطع، وليس كذلك في سورة هود؛ لأنّه في أوّلها افتتح قصّة نوح بما هو احتجاج على الكفّار بآيات الله، وذكر قصّة مِن قصص مَن تقدّمهم من الأنبياء، فعطف هذه الآية على ما قبلها إذ كانت مثلها، وأمّا في سورة "المؤمنون" فإنّ قبلها:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[4]، ثم قوله:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾[5]، ثمّ انقطعت الآي إلى قوله:﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾[6]، فكان ما تقدّم في هذا المكان مثل ما تقدّم في سورة الأعراف إلاّ أنّه باينه بأن كان فيه:" ولقد خلقنا" وقوله:"ولقد خلقنا فوقكم"، ثمّ انقطعت إلى قوله:"وعليها"[7]،فدخل واو العطف في قصّة نوح عليه السّلام للفظتين المتقدّمتين وهما: "ولقد خلقنا الانسان" برؤوس الآيتين وللمعنى المقتضي من ذكر الفلك الذي نجّى الله عليه من جَعَلَه أصل الخلق، وبذر هذا النّسل، فحذف بعض الحروف في القصص القرآني ليس جزافا وإنّما لحكمة بالغة تؤدّي الغرض المنشود وتكشف عن علوّ طبقة القرآن في البلاغة، وقد

---

1 الآية 25.

2 الآية 59.

3 الآية 23.

4 الآية12

5 الآية 17.

6 الآية 22.

7 ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل: الخطيب الإسكافي– ص 108.

جاء منه الشّيء الكثير في السّورة منه قوله تعالى:﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[1]، و عادة ما يقال:"كفروا بربّهم"؟ ولكنّ الحقّ تبارك وتعالى قال:" كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ " أي: إنّ هناك فرقا بين المعنيين؛ كفروا بربّهم، وكفروا ربّهم فـ «كفروا ربّهم بمعنى ستروا وجوده وأنكروه، أمّا كفروا بربّهم فبمعنى: لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنّه موجود»[2]، هذا هو الفرق، وعندما نرى الذّنب الكبير الذي ارتكبوه نعرف أنّ إهلاكهم كان عدلا، ونقول كما قال الله سبحانه:" أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ "، ومنه قوله تعالى:﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ﴾[3] وقوله تعالى في سورة الأنعام:﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ ﴾[4]، وقوله تعالى في سورة الزّمر:﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[5]، بحذف الفاء في سورة هود، ولإثباتها في السّورتين الأخريين، وتعليل هذا أن يقال أمر سبحانه نبيّه عليه السّلام في سورة الأنعام بأن يخاطب الكفّار على سبيل الوعيد، فالفاء متعلّقة بقوله:"اعملوا"، وكذلك ما في سورة الزّمر، من خطاب منه سبحانه لنبيّه عليه السّلام على هذا الوجه[6]، أمّا في سورة هود فإنّه حكاية عن شعيب عليه السّلام لمّا تجاهل قومه عليه فقالوا له:﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[7] فقال لهم:" ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ " فجعل: " سَوْفَ تَعْلَمُونَ " مكان الوصف لقوله: " إِنِّى عَـٰمِلٌ " فلم يصحّ على هذا المعنى دخول الفاء

---

1 الآية 60.

2 محمّد متولّي الشّعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين- بيروت- مكتبة صيدا- د ط- 1425هـ/2004م- ص 77.

3 الآية 93.

4 الآية 135.

5 الآية 39.

6 الخطيب القزويني: درّة التنزيل وغرّة التأويل- ص 97.

7 الآية 91.

وقصد المعنى لما أظهروا من جهلهم به، وأنّهم لا يعرفون ما يقول لهم، ومن أنواع الحذف حذف المسند إليه، والغرض منه عادة ما يكون للإيماء بالسّرعة الفائقة للحدث لصدوره عن صاحب القدرة المطلقة في هذا الوجود كما في قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] فحذف المسند إليه، للإشارة إلى قوّة ظهوره وأنّ ذلك الفعل الهائل في مخاطبة الأرض وتوجيه الأمر المستعلى إليها لا يكون إلاّ من الذي خلقها فسوّاها، وكذلك السّماء وحذف الفاعل في :"غيض الماء" للإشارة إلى الإجابة السّريعة، فما إن أُمرت أن تبلع والسّماء بأن تقلع، إلاّ وقد غيض الماء[2]، ويتردّد هذا الأمر غالبا في حديث إنزال القرآن وقضاء الأمر وأحداث البعث والقيامة، وهي أحداث لا شكّ أنّ لها فاعلا واحدا يتفرّد بإحداثها، ولا ينازعه فيها غيره[3]، أمّا ما يحذف في القرآن لدلالة الكلام عليه فمنه قوله تعالى:﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾[4] حذف جواب "إنْ" الشّرطية من الآية[5]، لدلالة الكلام عليه وهو من باب حذف الاختصار.

1 سورة هود –الآية 44.

2 الزّمخشري: الكشّاف– ج03– ص 203. وشفيع السّيد: النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية– ص 68.

3 أحمد سعد محمّد: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية– ص 262

4 سورة هود– الآية 88.

5 محمود حسن السّيد: روائع الإعجاز في القصص القرآني– ص 328.

12. الذّكر والزّيادة:

الذّكر في اللّغة بمعنى الحفظ للشّيء، تذكره، ومنه الشّيء الذي يجري على اللّسان، تقول: ذَكَره يذكُرُه ذِكرا وذُكرا[1]، أمّا في اصطلاح البلاغيين فإنّه نقيض الحذف[2]، أو الحالة المقابلة للحذف والاستغناء، وهو ذكر المسند إليه والمسند وذكر مكمّلات الجملة أو متعلّقات الفعل، وقد قال البلاغيون عند الحديث عن حذف المسند إليه إنّ ذكره هو الأصل، ولا يعدل عنه بالحذف إلاّ لغرض بلاغي، يرجّحه على الذّكر[3]، فالتّعبير القرآني قد يحذف فيه اللفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السّياق، أو قد يحذف حرفا أو يذكره ويجتزئ بالحركة للدّلالة على المحذوف وكلّ ذلك لغرض بلاغي تلاحظ فيه غاية الفنّ والجمال أمّا القسم الآخر من الحذف فأن يذكر في موطن ما لا يذكره في آخر يبدو شبيها به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنّما قد يزيد لفظا أو أكثر مراعاة لهذا السّياق أو ما يستدعيه ذلك المقام[4]، وهذا هو غرضنا من هذه الدّراسة،هذا من جهة الذّكر،أمّا من جهة الزّيادة، فإنّها في اللّغة تعني النّموّ، بخلاف النّقصان، فزاد في الشّيء يزيد زَيدا وزِيدا ومزيدا ومزادا[5]، أمّا ما يخصّ معناها الاصطلاحي فقد أشار إليها اللّغويون القدامى من باب زيادة التّأكيد في الكلام، على نحو ما هو عند أبي عبيدة في حديثه عن بعض الحروف كالحرف "ألا": « وتُزاد "ألا" للتّنبيه والتّأكيد»[6]، وروى ابن جنّي في باب"في قوّة اللّفظ لقوّة المعنى" ما نصّه:«ونحو من تكثير اللّفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله وذلك "فعال" في معنى " فعيل" نحو طُوال، فهو أبلغ معنى من طويل وعُراض فإنّه أبلغ معنى من عريض، وكذلك خُفاف من خفيف، وقُلال من قليل، وسُراع من سريع..وبعدُ، فإذا كانت الألفاظ أدلّة المعاني ثمّ زيد فيها شيء أوجبت القيمة له زيادة المعنى به »[7] فكان بذلك من أوائل من تحدّثوا عن الزّيادة في المباني

1 ابن منظور: لسان العرب- مج 04 – ص356.

2 أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها- ص 492.

3 شفيع السّيّد: النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية- ص 116.

4 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- ص 104.

5 ابن منظور: السّابق- مج 03 – ص 244.

6 مجاز القرآن- ج01- ص226.

7 الخصائص- ص 812، 813.

للدّلالة على الزّيادة في المعاني، وأصبحت هذه القاعدة مطّردة عند اللّغويين والبلاغيين فقد جاء في تفسير الزّمخشري حين وقف عند قوله تعالى:﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[1] أنّه قال:« وفي الرّحمن من المبالغة ما ليس في الرّحيم،..ويقولون: إنّ الزّيادة في البناء لزيادة المعنى، وقال الزّجّاج في "الغضبان" هو الممتلئ غضبا، وممّا طنّ على أذني من مُلح العرب أنّهم يسمّون مركبا من مراكبهم بالشّقدف؟ وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق، فقلت في طريق الطّائف لرجل منهم: ما اسم هذا المحمل؟ أردتُ المحمل العراقي، فقال: أليس ذاك اسمه الشّقدف؟ قلت: بلى، فقال: هذا اسمه الشّقنداف، فزاد في بناء الاسم لزيادة المسمّى»[2]، ولذلك يقول أهل اللّغة: إنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني[3]، ومن اللّغويين الذين تناولوا مبحث الزّيادة ابن الأثير، حيث تحدّث عنها في نوع أسماه:"قوّة اللّفظ لقوّة المعنى" فقال:« اعلم أنّ اللّفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثمّ نُقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلابدّ من أن يتضمّن من المعنى أكثر ممّا تضمّنه أوّلا؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه»[4]، وذكر ابن أبي الإصبع أنّه من مستخرجاته، إلاّ أنّ فضله ليس في هذا بقدر تفصيل القول فيه[5]، وممّن ذكره أيضا الزّركشي : «اعلم أنّ اللّفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثمّ نُقل إلى وزن آخر أعلى منه، فلابدّ أن يتضمّن من المعنى أكثر ممّا تضمّنه أوّلا، لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة»[6]، وعقد قسما خاصّا لها وقال:«والأكثرون ينكرون إطلاق هذه العبارة في كتاب الله، ويسمّونه التّأكيد، ومنهم من يسمّيه بالصّلة، ومنهم من يسمّيه المقحم»[7]، ثمّ قد تحدّث بعدها عن الزّيادة في الأفعال والحروف[8]، وتكلّم ابن القيّم عن الزّيادة في البناء وردّها كونها أن :« يقصِد المتكلّم معنى تعبّر عنه لفظتان، إحداهما أزيد

1 سورة الفاتحة- الآية 03.

2 الكشّاف – ج01- ص 108. 109.

3 فاضل صالح السّامرّائي: الجملة العربية والمعنى- ص 203.

4 المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر- ج02- ص 241.

5 بديع القرآن – ص 305. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب- ص 500.

6 البرهان في علوم القرآن- ج3- ص 34.

7 المصدر نفسه – ج03- ص 70.

8 المصدر نفسه- ج03 – ص 74.

بناء من الأخرى فيذكر الكلمة التي تزيد حروفها عن الأخرى قصدا منه إلى الزّيادة في ذلك المعنى الذي عبّر عنه»[1] وبحثنا في الذّكر والزّيادة في القرآن الكريم هو جزء من البحث في ظاهرة التّضام وشواهدها، والقول بالزّيادة ينسب إلى النّحو ولا ينسب إلى القرآن، ذلك« بأنّ الزّائد إنّما هو زائد على أصل النّمط، أي على أصل وضع الجملة، فللجملة أركانها وفضلاتها من المنصوبات والمجرورات، فإذا ورد فيها غير ذلك فهو زائد على مطالب الصّحة والإفادة، ومادامت زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، فإنّ في زيادة المبنى تأكيدا للمعنى..ومادمنا نعترف بأنّ النّصّ القرآني يشمل على تأكيد للمعنى فإنّ الزّيادة إحدى وسائل التّوكيد لا مشاحة في ذلك.. فإذا علمنا أنّ كلّ زيادة إنّما جيء بها لتأكيد المعنى أصبح من المستحسن أن نشير أنّ إلى الزّيادة إنّما تكون عادة في الحروف وبعض الضّمائر في القرآن»[2]، وقولنا بالزّيادة في القرآن لا يعني ذلك الحشو- معاذ الله- وإنّما: «يعني أنّ النّحاة حدّدوا لكلّ جملة أركانها ومكمّلاتها القياسية بحيث يتمّ المعنى الوظيفي بوجود هذه العناصر، ولكن المعنى المطلوب ليس وظيفيا فقط، وإنّما يتخطّى مجرّد الوظائف من فاعلية ومفعولية، فيسلك مسالك أسلوبية أخرى لا تحقّقها إلاّ العناصر الزّائدة على مجرّد النّمط التّركيبي ذي المعنى الوظيفي»[3]، وإذا كان النّحاة مسؤولين عن وصف هذه العناصر بالزّيادة فإنّ البلاغيين يعترفون بما تضيفه هذه العناصر إلى المعنى، لذلك قالوا: زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، ويقصدون زيادة المعنى ما يلحقه من التّوكيد من جرّاء الزّيادة في المبنى وذكره.

يقول تعالى في هذه السّورة:﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾[4]، ويقول تعالى في حم السّجدة:﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾[5]، بزيادة"منّا" و"من" في سورة فُصّلت، وسقوطهما معا في سورة هود، لأنّه في سورة هود لم يرد ما يستدعي تلك الزّيادة، أمّا في سورة فصّلت فتقدّم فيها:﴿۞ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ

1 كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان- ص 114.
2 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 172.
3 المرجع نفسه – ص 386.
4 الآية 10.
5 الآية 50.

شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾[1]، قطعا لهم، وتنبيها على سوء مرتكبهم، فلمّا تقدّم ذكر الشّركاء، قال:"لئن أذقناه منّا" فنبّه سبحانه بقوله:"منّا" على أنّه لا شريك له، ولا معطي غيره، ولمّا لم يتقدّم في سورة هود ذكر لذلك لم يرد التّنبيه[2]. أمّا زيادة"من" فمناسبة لإطناب هذا الغرض في هذه السّورة، فناسب ذلك الزّيادة، حيث بيّن جهة الرّحمة في سورة فصّلت، ولإيجاز هذا القصد في سورة هود ناسب سقوط "من"، فجاء كلّ على ما يناسب ويجب، وممّا وقع فيه المخالفة من زيادة في تركيب وحذف في آخر قوله تعالى في سورة هود:﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾[3]، وقوله تعالى في سورة الأنعام:﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾[4]، وذلك لأنّ آية سورة هود تقدّمها (لكم) مرّات عديدة، فاكتفى بها تخفيفا، و لم يتقدّم في سورة الأنعام سوى مرّة واحدة[5] لذا أتت لفظة(لكم) في الآية الأولى دون الأخرى، وزيادة على هذا لاحظ الكلام في سورة الأنعام تجده أشدّ، وفيه تحذير في نحو سبع آيات كاملة[6]، بينما في سورة هود فإنّ سياق الآيات فيه تلطّف، وفي التّلطّف عادة لا نواجه الشّخص، فنقول: قلنا لك، وممّا جاء بذكر حرف وزيادته في هذه السّورة دون أخرى ما في قوله تعالى:﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾[7] وقوله تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[8]، فقرن في سورة هود القول بالفاء، ولم يكن ذلك في سورة مريم، لأنّه أُريد بالنّداء في سورة هود إرادتُه فهي سبب له، فناسبت الفاء الدّالّة على السّببية[9]، وفي السّورة الأخرى لم يُرد ذلك فناسبه ترك

1 الآية 47.
2 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- ج02- ص 647.
3 الآية 31.
4 الآية 50.
5 أحمد مصطفى متولّي: الموسوعة الذّهبية في إعجاز القرآن والسّنّة النّبويّة- ص 590.
6 من الآية من 40 إلى الآية 47.
7 الآية 45.
8 الآية 04.
9 أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- ص 265.

الفاء، ومن ألطف ما جاء في باب الذّكر والزّيادة ما تجده في قوله تعالى في سورة هود:﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[1]، وقوله تعالى في الأعراف:﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[2] حذف الياء واجتزأ بالكسرة في سورة الأعراف، وذكرها في سورة هود، وكلّ موطن تُذكر فيه الياء يكون المقام مقام إطالة وتفصيل في الكلام، وأنّ الياء تذكر وتظهر متردّدة في المواطن التي تُذكر فيها الياء أكثر من المواطن التي يُجتزأ بالكسرة عنها، وإذا راعينا المقام فإنّه في سورة هود مقام مواجهة وتحدٍّ كبيرين، ولابدّ للمتحدّي أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف، والسّياق هو المبيّن[3]؛ فقد دعاهم هود عليه السّلام إلى عبادة الله وحده ونصح لهم بالتّوبة والاستغفار، فأشهدَ اللهّ وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، فزاد كلمة (جميعا) زيادة في التّحدّي،ومن جهة ثانية إنّ التّحدّي في سورة هود أطول وأكثر ممّا في سورة الأعراف، فذكر الياء في سورة "هود" لأنّ الياء أطول من الكسرة، وحذف الضّميرَ واجتزأ بالكسرة في سورة الأعراف فناسب بين طول الكلمة والسّياق، ومن جهة ثالثة نرى أنّه قد تردّد ذكر ياء الضّمير في سورة هود في هذا الموطن مرّات عديدة، وليس الأمر كذلك في سورة الأعراف،﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[4]، وقوله:﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾[5]، وقوله:﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾[6]، وقوله تعالى:﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[7]،﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾[8]، وليس كذلك في سورة الأعراف فلم تظهر فيه الياء إلاّ مرّة واحدة، هي في قوله تعالى:﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ

1 الآية 55.
2 الآية 195.
3 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني– ص 79.
4 سورة هود – الآية 54.
5 الآية 55.
6 الآية 56.
7 الآية 56.
8 الآية 57.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1]، ثمّ انظر من ناحية أخرى كيف قال في سورة الأعراف حيث أدخل (ثمّ) على الكيد والفاء على الإنظار، وفي سورة هود بالعكس، أدخل الفاء على الكيد ثمّ على الإنظار، و(الفاء) تفيد التّعقيب و(ثمّ) تفيد التّراخي، فطلب منهم في سورة الأعراف عدم المهلة في الإنظار، وعدم الإنظار هو المناسب لسياق سورة الأعراف، فقد ذكر فيها تعجيل العقوبات لمستحقّيها في الدّنيا بخلاف سورة هود، فإنّ سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات، فقد بدأت سورة الأعراف:﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾[2] ، فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم، في حين قال في سورة هود:﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[3] ، فذكر التّمتّع والإمهال، وقال فيها أيضا:﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[4]، تأخير العذاب لأجل وهم الإمهال، وقال في سورة الأعراف:﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[5]، فقال(أخذناهم بغتة) بعد (ثمّ بدّلنا مكان السّيّئة الحسنة)، وهو نظير قوله (ثمّ كيدون، ثمّ لا تنظرون)، فكلاهما بــ"ثمّ" وكلاهما إمهال،وقوله:(فأخذناهم بغتة) نظير(فلا تنظرون) فكلاهما بالفاء، وكلامهما عدم إنظار[6]، وإلى جانب هذا، فإنّ النّظر إلى القصص في السّورتين يجعل الفرق واضحا بين السّياقين، فقصّة نوح عليه السّلام في سورة الأعراف موجزة وظاهر فيها عدم الإمهال، فقد قال لهم نبيّهم:﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

1 الآية 196.
2 الآية 04.
3 الآية 03.
4 الآية 08.
5 الآية 95.
6 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني– ص 80.

مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]، وبعدها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴾[2]، فجاء بالفاء دالاّ على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار(فَكَذَّبُوه فَأَنجَيْنَـٰه)، أمّا في سورة هود فالكلام طويل، وهناك مهلة حتّى استبطئوا ما وعدهم به، يقول تعالى:﴿قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[3] وكذلك قصّة عاد في خاتمتها في سورة الأعراف:﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾[4]، وفي سورة هود:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[5]، فانظر كيف عجّل العقوبة لهم في سورة الأعراف فجاء بالفاء الدّالّة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود، وكذلك قصّة صالح عليه السّلام، فقد قال في نهايتها في سورة الأعراف:﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾[6]، وقال في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾[7]، فذكر إنزال العقوبة بالفاء في سورة الأعراف(فأخذهم الرّجفة)، وقال في سورة (وأخذ الذين ظلموا الصّيحة) وهكذا، ترى أن سياق سورة الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار بخلاف السّياق في سورة هود[8] ، وهناك أمر فنّي آخر

---

1 الآية 63.

2 الآية 64.

3 الآيتان 32. 33.

4 الآية 72.

5 الآيات 58. 59. 60.

6 الآية 78.

7 الآيتان 66. 67.

8 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- ص 82- 84.

وهو أنّه حيث اجتمعت (ثمّ) و(الفاء) في سورة الأعراف قدّم (ثمّ) على (الفاء)[1]، وفي سورة هود بالعكس؛ يقدّم (الفاء) على (ثمّ)، ومن هذه النّماذج اللّطيفة حول تغاير الاستعمال القرآني بالزّيادة في التّركيب قوله تعالى في سورة هود:﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة العنكبوت:﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[3]، زاد في الآية الأخيرة (أن) بعد (لمّا) بخلاف الأولى والقصّة واحدة، وهذه الزّيادة والذّكر في موضع دون موضع من عدّة وجوه يقتضيها سياق سورة العنكبوت؛ منها أنّه أفاض في ذكر القصّة في سورة العنكبوت أكثر ممّا في سورة هود، فذكر من الصّفات ما لم يذكره في سورة هود، فلم يزد في سورة هود أن قال:﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[4]، وأنّ برم لوط عليه السّلام وضيقه بهم في سورة العنكبوت كان أشدّ ممّا هو في سورة هود، وترقّبه للخلاص بهم في سورة العنكبوت كان أظهر نحو قوله تعالى:﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[5]، بينما قال في سورة هود:﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[6]، فزاد في سورة العنكبوت(وقالوا لا تخف ولا تحزن إنّا مُنجُّوك)، ومنها دعاؤه ربّه أن ينصره في سورة العنكبوت: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[7]، وليس الأمر كذلك في سورة هود، فإنّهم لم يصرّحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنّصر، ومنها التّصريح بلفظ التّنجية

1 ينظر: الآيات: 11. 95. 103. 195. في سورة الأعراف، وينظر الآيات : 55. 61. في سورة هود.
2 الآية 77.
3 الآية 33.
4 الآية 78.
5 الآية 33.
6 الآية 77.
7 الآيتان 29. 30.

ومجيء الفرج في سورة العنكبوت مرّتين، مرّة مع إبراهيم عليه السّلام[1]، ومرّة مع لوط نفسه عليه السّلام[2]، ولم يرد ذلك في سورة هود، ولذا حسُن ذكر (أن) في سورة العنكبوت دون سورة هود مراعاة للبسط في ذكر القصّة والإفاضة فيها[3]، والدّلالة على استطالة الوقت وطول التّرقّب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال)ومن المواطن التي جاء فيها الذّكر تارة والحذف تارة أخرى قوله تعالى:﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[4]، وقوله تعالى في سورة الأعراف:﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾[5] ولهذا الحذف سببُه، فقد ذكر سبحانه في عدّة مواطن من سورة هود تَعجُّل الذين كفروا بالعذاب كما تردّد الوعد بقرب نزوله نحو قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[6]، قال قوم نوح:﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[7]، وقال صالح لقومه:﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[8] وقال في قوم لوط عليه السّلام:﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[9]، وقال في آية أخرى بعدها:﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[10]، فترى أنّه تردّد ذكر استعجال العذاب من ناحية الوعد بقرب حلوله فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعارا بقرب حلوله، ومن ناحية

1 ينظر الآية 32 من سورة العنكبوت.
2 ينظر الآية 33 من السّورة نفسها.
3 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- ص 104- 106.
4 سورة هود- الآية 105.
5 الآية 53.
6 الآية 08.
7 الآية 32.
8 الآيتان 64. 65.
9 الآية 81.
10 الآية 83.

أخرى أنّه ذكر في سورة هود عقاب الأمم السّابقة وهلاكهم، ثمّ ذكر أنّ يوم القيامة آت، وأنّه سيحلّ فيه عقاب الكافرين كما حلّ عقاب الأمم السّابقة، وإن هو إلاّ أجل معدود، فحذف الياء من فعل الإتيان للدّلالة على سرعة الإتيان، وليس الأمر كذلك في الآيات السّابقة، ومن ناحية ثالثة تردّد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كلّ من سورة الأنعام وسورة الأعراف أربعا وعشرين مرّة، وفي سورة هود ثلاث عشرة مرّة، فلمّا كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثر البناء، ولّما قلّ تردّده في سورة هود قلّل من البناء[1]، ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنّه لّما منع الكلام في آية سورة هود إلاّ بإذنه حذف الكلام فحذف الياء من "يأتي"، وحذف التّاء من فعل التّكلّم، ولم يقل"تتكلّم" إشعارا بقلّة الكلام في ذلك الوقت، وهذا ممّا يدعو إلى العجب.

ومن الألفاظ التي ذُكرت في موضع دون آخر لفظة "أخاهم" في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[2]، فوردت تلك اللّفظة في هذه السّورة، بينما في سورة الشّعراء في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3]، لم ترد فيها؟ وذلك لأنّ شعيبا عليه السّلام أُرسل إلى قومين؛ هما قوم مدين، وهو منهم، وقوم الأيكة وهو ليس منهم، ونحو هذا في خطاب عيسى عليه السّلام لبني إسرائيل، فلا تجد (يا قوم) بخلاف خطاب موسى عليه السّلام لقومه، ومنه قوله تعالى في هذه السّورة:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[4]، بزيادة (سلطان مبين)، وقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[5]، وقوله تعالى في موضع ثالث:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾[6]، لنرى أنّه في الآيتين الأولى والثّانية زيدت (سلطان مبين)، وأنّها في الأخيرة لم تُزد، وهذا راجع لأسباب ؛ فالأمارات التي يكتفي بها في صدق الرّسول الكريم والسّلطان المبين هي الحجج القاهرة التي تقهر القوم كأنواع العذاب، فلمّا

1 فاضل صالح السّامرّائي: التعبير القرآني– ص 88.
2 سورة هود – الآية 84.
3 الآية 176.
4 الآية 96.
5 سورة غافر– الآيتان 23. 24.
6 سورة الزّخرف– الآية 46.

كان القصد في الآيتين المتقدّمتين ذكر جملة أمرهم إلى منتهى حالهم من هلاك الأبد، انطوت تلك الجملة على جميع ما احتجّ به عليها إلى أن زال التّكليف عنهم، وأُخبر عن مستقرّهم من العقاب الدّائم عليهم. والكلام في الآية الأولى ينساق إلى قوله تعالى:﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾[1]، والكلام في الآية الثّانية ينساق إلى قوله تعالى:﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾[2]، فذكر في الآيتين جميع ما احتجّ به عليهم من الآيات التي سخروا بها عند رؤيتها[3]، أمّا الآية الثّالثة التي في سورة الزّخرف فكان الكلام بعدُ قوله تعالى:﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[4]، فاقتصّ ما عوملوا به حالا بعد حال إلى أن هلكوا في الدّنيا حيث قال تعالى:﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[5]، وممّا وقع في حيّز الزيادة في المعنى تبعا في ذلك للصّيغة، قوله تعالى:﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[6]، فجاءت الصّيغة(عجاب) بدل (عجيب) للدّلالة على المبالغة[7]، فالعدول من صيغة فعيل إلى فُعال لزيادة المبالغة، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم يستعمل كذلك صيغة (عُجاب) نحو قوله تعالى في سورة [ص]:﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾[8]، وصيغة (عجيب) نحو قوله تعالى في سورة[ق]:﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[9]، وذلك أنّه في سورة [ق] عجبوا أن يجيء منهم

1 الآية 97.
2 الآية 45.
3 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل- ص 166.
4 الآية 48.
5 الآيتان 55. 56.
6 سورة هود – الآية 72.
7 فاضل صالح السّامرّائي: الجملة العربية والمعنى- ص 239.
8 الآية 05.
9 الآية 02.

نذير، أمّا في سورة هود فقد كان العجب أكبر لأنّه خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم، فإذا اجتمع إلى كلّ هذا أنّ بعلها شيخ كبير كان أغرق في البعد، فأكّد بزيادة إنّ واللاّم، أمّا في سورة [ص] فالعجب أكبر وأكبر، إذ كيف يؤمنوا بوحدانية الله ونفي الشّرك، وقد استسهلوا أن يحملوا السّيف على النّطق بهذه الكلمة، فأكّد بزيادة إنّ واللاّم[1]، وعدل من صيغة (عجيب) إلى (عجاب) لأنّ (فُعالا) أبلغ من (فعيل). ومنه أيضا قوله تعالى:﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إذ استعمل الحرف (ثمّ) الذي يفيد التراخي وهذه الزّيادة في التّعبير فيها دلالة على بعد النّصرة[2]، وكلّ هذه الأمثلة عن الذّكر والزّيادة في البناء اللّغوي أو التّركيب كانت ذات وظيفة أسلوبية بلاغية،وإذا كان الحذف في سياقه المطلوب بليغا فإنّ الذّكر كذلك في سياقه المطلوب بليغ.

1 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- ص 38.

2 ابن جزي، أبو القاسم(741هـ): التّسهيل لعلوم التّنزيل- طبعه وصحّحه وخرّج آياته: محمّد سالم هاشم- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1415هـ/1995م- ج01- ص 405.

13- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار:

حين نمعن النّظر في بعض الأساليب القرآنية نلاحظ بعض المغايرة في نسق الجواب والإخبار في التّعبير القرآني على غير المعهود من كلام العرب، ولهذا الأمر أسبابه وعلله، تقتضيها المقامات التي ترد فيها هذه المغايرة في طريقة الإخبار، ومن هذه النّماذج ما جاء في هذه السّورة في قوله تعالى:﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]، وواضح للعيان أنّ نوحا عليه السّلام لم يصرّح بالسّؤال، وإنّما جاءت الآية بلفظ النّداء، إلاّ أن عدولا حدث في طريقة الإخبار عمّا كان وجاءت الآية بــ" فلا تسألن"، فإن قيل لِمَ أُسمّي نداءه سؤالا، ولا سؤال فيه؟ قيل: إنّه تضمّن السّؤال[2] وإن لم يصرّح به، وهذا من خصائص تعبير القرآن الكريم، ومن عجيب المغايرة في نسق طريقة الجواب والإخبار عن قصص الأقوام الغابرة في القرآن الكريم، ومراعاة المقتضى والمقام ما جاء في قوله تعالى عن قصّة هود عليه السّلام من سورة "هود":﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾[3]، وقوله تعالى عن قصّة شعيب عليه السّلام:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾[4]، وقوله تعالى عن قصّة صالح عليه السّلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[5]، وقوله تعالى عن قصّة لوط عليه السّلام:﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾[6]، فعُطفت (لمّا) على ما قبلها بواو النّسق، في قصّتي هود وشعيب عليهما السّلام، وخالفت قصّة صالح عليه السّلام وقصّة لوط عليه السّلام، في الحرف المعطوف به في

---

1 الآية 46.

2 ابن جزي: التسهيل لعلوم التنزيل- ج01- ص 398.

3 الآية 58.

4الآية 94.

5 الآية 66.

6 الآية 82.

الجملة المصدّرة بحرف الوجوب: "لمّا" وفاء التّعقيب، وذلك أنّ الآيتين في قصّتي (صالح ولوط) عليهما السّلام ورد فيهما ما يقتضي معناه أن يربط بالفاء المقتضية التّعقيب فقصّة صالح عليه السّلام تقدّمها قوله تعالى:﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1]، فكأن قد قيل: فلمّا انقضت. فالموضع للفاء لمقصود التّعقيب، ومثله في قصّة لوط عليه السّلام:﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[2]، والمعنى لاشكّ يستدعي تقدير: فلمّا أصبح، تحقيقا لصدق الوعيد وإعقابا لا يتحصّل بغير الفاء[3]، أمّا قصّة هود وقصّة شعيب فلم يرد ما يقتضي تعقيبا، بل ما قبلها يقتضي أن ينسّق ما بعده بواو العطف، وهذا وجه من وجوه المعجزة القرآنية في استعمال بعض الحروف والكلمات ، وتضامها مع بعض، في مواطن دون مواطن، لحاجة يقتضيها السّياق، ويستدعيها المقام، كما مرّ معنا من تضامّ حرف الفاء لـــ(لمّا) في سرد قصص تلك الأقوام بغرض التّعقيب وحصول الأمر بسرعة، بخلاف إذا كانت القصّة لا تستدعي السّرعة والتّعجيل، فتبدأ الجملة دون مضامّة أي حرف من الحروف.

1 الآية 65.

2 الآية 81.

3 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- ج02- ص 656، 658.

14- التّأنيث والتّذكيـــر:

لعلّ الشّاهد لهذا المبحث من سورة هود هو قوله تعالى:﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[1] عن قصّة صالح عليه السّلام، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[2]، فوردت كلمة(أخذ) بصيغة التّذكير في الآية الأولى، ووردت بصيغة التّأنيث في الآية الأخرى، و لم يكن الأمر هكذا إلاّ ووراءه سرّ عجيب، فمن ناحية العربية يجوز أن تتّصل بالفعل تاء التّأنيث نحو"أخذت"، وهو الأصل، أو بدونها نحو"أخذ"إذا فُصل بين الفعل والفاعل من باب(المؤنّث المجازي) بفاصل، وهو :"الذين ظلموا" في الآيتين، إلاّ أنّ السّبب في تعرية الفعل من تاء التّأنيث في الآية الأولى هو أنّ الألفاظ التي سبقت الفعل كانت أسماء مذكّرة[إنّ ربّك، هو، القويّ، العزيز] والجوار والنّسق يقتضيان ذلك[3]، أمّا في الآية الأخرى فإنّ الاسم الظّاهر الذي سبق الفعل كان مؤنّثا (رحمة)، فكان الجوار والنّسق يقتضيان هذا أيضا، وملحظ آخر هو أنّه سبحانه أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب بثلاثة ألفاظ منها الرّجفة في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[4]، ومـــنها الصّيحة كما هي في هذه الآية من سورة هود، ومـــنها يـــوم الظّـــلّة في سورة الشّـــعراء:﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ

---

1 الآية 67.

2 الآية 94.

3 أحمد مصطفى متولّي: الموسوعة الذّهبية في إعجاز القرآن والسّنّة النّبوية– ص 699.

4 الآيات 90– 92

إنّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾[1]، فهذه الثّلاثة جُمعت لإهلاكهم واحدة بعد أخرى، لأنّ الرّجفة بدأت بهم فانزعجوا لها عن الكنّ عن البراح، فلمّا أصحروا نال منهم حرّ الشّمس، وظهرت لهم ظلّة تبادروا إليها، وهي سحابة سكنوا إلى رَوح تحت ظلّها فجاءتهم الصّيحة فمهّدوا لها[2]، فلمّا اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنّثة الألفاظ في العبارة عن العذاب غلب التّأنيث في هذا المكان على المكان الذي لم تتوال فيه هذه المؤنّثات.

15- الخطاب بالاسم والفعل:

لقد تحدّث عبد القاهر الجرجاني عن الخبر وأضربه وأنواعه، ووقف عند مطوّلا، وأضاف نوعا آخر من الخبر هو ما يُعرف عند النّحويين "الحال"، ويقصد به أنّه خبر من حيث المعنى، وبعد أن أتى على جملة من الفروق في الخبر أردف كلامه على الفرق بين كون الإثبات إذا كان بالاسم أو بالفعل، إذ هو فرق لطيف تمسّ الحاجة إليه في علم البلاغة، وبيانه أنّ«موضوع الاسم على أن يُثبت به المعنى للشّيء من غير أن يقتضي تجدُّده شيئا بعد شيء، وأمّا الفعل فموضوعه على أنّه يقتضي تجدُّد المعنى المثبَت به شيئا بعد شيء»[3]، مستشهدا بعدّة آيات من الذّكر الحكيم، وبعض الأبيات من الشّعر،وما يقال عن الإخبار بالاسم والفعل، يقال أيضا عن الإخبار بالجملة الاسمية والجملة الفعلية، وقد نبّه الفخر الرّازي إلى الفرق بين الجملة الاسمية والفعلية في المعنى فقال: « الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها... وأمّا الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها، وكلّ ما كان زمانيا فهو متغيّر، والتّغيّر يشعر بالتّجدّد، فإذاً الإخبار بالفعل يفيد وراء أصل الثّبوت كون الثّابت في التّجدّد، والاسم لا يقتضي ذلك، وسبب ذلك أنّ الاسم يكون في صحّة الإخبار أعمّ»[4]، ومن الذين تحدّثوا عنه أيضا ابن الأثير:« وإنّما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من التّأكيد والمبالغة»[5] ، ومنهم العلوي حين ذكر معنيين ينقدحان في توجيه الخطاب بالجملة الاسمية والفعلية؛ «الأوّل من حيث الاختصاص، لأنّ الفاعل قد فعل ذلك دون غيره نحو: أنتَ

---

1 الآية 189.

2 الخطيب الإسكافي: درّة التنزيل وغرّة التأويل- ص 161.

3 دلائل الإعجاز- ص 138.

4 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز- ص 73.

5 المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر- ج02- ص 234.

فعلت، أنا فعلت، والآخر أن لا يكون المقصود الاختصاص، وإنّما المقصود التّحقّق، وتمكين ذلك في نفس السّامع بحيث لا يخالجه في ذلك ريب، ولا يعتريه شكّ..فتصدير الجملة الاسمية بدل الفعلية فيه إرادة للتّأكيد والإثبات»[1]، ففي هذا المبحث نكت تخفى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة، ألزمتنا أن نتطاول إلى معرفة القليل منها في ضوء سورة هود.

يقول تعالى:﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]، والمعنى: هل تسلمون بعد تحقّقكم أنّ هذا القرآن من عند الله، ولم يقل: "فهل تسلمون"، وإنّما قال:" فهل أنتم مسلمون" وجيء بالجملة الاسمية الدّالة على دوام الفعل وثباته[3]، لأنّ حالة عدم الاستجابة تكسب اليقين بصحّة الإسلام، فتقتضي تمكّنه من النّفوس وذلك التّمكّن تدلّ عليه الجملة الاسمية، ومنه قوله تعالى:﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾[4]، إنّه لمّا كانت البيّنة من الرّحمة وحّد الضّمير فقال:"فعُمّيت" أي: فتسبّب عن تخصيص ها أن أُظلمت ووقع ظلامها وتسميته لها "بيّنة" إشارة إلى أنّها لم تُعمَ ولا خفِيَت عليهم لشدّة نورها، وإنّما هم معاندون، أمّا التّعبير عن ذلك بالجملة الاسمية واسم الفاعل «فإشارة إلى أنّ أفعالهم أفعالَ من كراهته لها ثابتة مستحكمة»[5]، ومن عجائب هذا الموضوع قوله تعالى:﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾، فلم يقل سبحانه:" سأغرقهم" أو :" إنّهم يُغرقون" ولكنّه أخرجه مخرج الأمر الثّابت[6]، أي كأنّ الأمر استقرّ وانتهى، وممّا جاء في هذا الباب أيضا قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ

1 الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- ج02- ص17. وينظر: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان- ص 202. وينظر:البرهان في علوم القرآن: بدر الدّين الزّركشي- ج04- ص 66.

2 سورة هود – الآية 14.

3 الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير- ج11- ص 22.

4 سورة هود- الآية 28.

5 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 272.

6 فاضل صالح السّامرّائي: التعبير القرآني- ص 22.

بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾[1]، وقد مرّت معنا هذه الآية الكريمة في أكثر من موضع، وفي كلّ مرّة تعرب عن أسرار ترغّبُ المتلقّي في هذا الكتاب العزيز، فسلام إبراهيم عليه السّلام أبلغ من سلام الملائكة في الآية،فإنه عليه السّلام مستغن عن تقدير الفعل المشعِر بحدوثه بعد فاعله على ارتفاعه بالابتداء وما هو ثابت مطلقا أبلغ ممّا عرض له الثّبوت[2]، وهذا أحد مقامات الاستمرار المتّصل بالاسم[3] ومنه التّعبير باسم الفاعل بدل الفعل[4]، نحو قوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[5]، ليدلّ على ثبوت الجمع لذلك اليوم لأنّ لفظ مجموع أبلغ من لفظ (يجمع)، ومنه قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[6]، لقد جيء بالفعل (ليهلك) إشارة إلى التّكرّر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في كلّ أمّة وقرن بعد قرن مَن ينهى عن الفساد والظّلم لما أخذوا بذوي الظّلم منهم، فأشار بالفعل إلى التّكرّر و لم يكن الاسم ليعطي ذلك[7]، في حين في آية أخرى من سورة القصص:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[8] لّما أعلم سبحانه تتابع التّذكار وتعاقب الإنذار قال(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ) وناسب هذا ذكر اسم الفاعل لأنّه قصد ذكر الاتّصاف بهذا و لم يقصد التّكرّر و لم يكن حاصله والآية في سورة القصص في سياق مشهد من مشاهد القيامة عمّا كان في الدّنيا، فذكر صفة الله وهو أنّه لم يهلك قوما بظلم وهم غافلون لم يُكلّفوا، فالذين لم ينذروا غافلون- فهو في سياق أمر

---

1 سورة هود – الآية 69.

2 جمال الدّين ابن الزّملكاني: المجيد في إعجاز القرآن المجيد- دراسة وتحقيق: شعبان صلاح- القاهرة- دار غريب- ط02- 2006م- ص 80.

3 فخر الدّين الرّازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – ص 138. وعبد المتعال الصّعيدي: البلاغة العالية، علم المعاني- ص 58.

4 ابن جزي: التّسهيل لعلوم التّنزيل- ج01- ص 405.

5 سورة هود –الآية 103.

6 سورة هود – الآية 117.

7 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج02- ص 672.

8 الآية 59.

ثبت واستقرّ وانتهى فجاء بالصّيغة الاسمية، في حين إنّ الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها، وذكر سنّة الله في الأمم، فهو في سياق الدّنيا، وسنن البقاء، فجاء بالفعلية لأنّ الأمم تتجدّد ويأتي غيرها، ثمّ فلننظر كيف أنّه جاء في الأولى بـــ (لم) الدّالة على المعنى لأنّ الأمر حصل وتمّ[1]، وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على المضارع للدّلالة على الاستمرار.

16- الإفراد والجمع:

إنّ استعمال القرآن الكريم للمفرد والجمع يستدعي كثيرا من التّأمّل وإمعان النّظر، فقد تراه يستعمل المفرد في موطن ما،ثمّ تجده في موطن آخر يشبهه يستعمل الجمع أو التّثنية من غير أن تجد فيه أمتا أو عوجا، بل إنّه في ذلك كلّه يراعي الدّقة المتناهية في استعمال الصّيغ والتّراكيب جمعا وإفرادا حسب ما يتطلّبه المقام ويقتضيه الحال، وبودّنا في هذا المبحث أيضا الاستشهاد بآية أوآيتين من سورة هود علّها تكشف عن سرّ من أسرار القرآن الكريم في إفراد الكلمات والجمل عند تضامّها تارة، وفي الجمع تارة أخرى، ومن هذه الاستعمالات ما يكون عند الجمع للتّعظيم نحو قول الحقّ تعالى﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2]، بمعنى: في مثله في الفصاحة والبلاغة، وإلاّ فما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى، أو بمعنى: مفتريات كما أنّ القرآن في زعمكم مفترى، والملاحظ في الآية هنا أنّه في الأولى أفرد في قوله:"قل" ثمّ جمع في قوله:"فإن لم يستجيبوا لكم" ومردّ هذا أنّ الخطاب للنّبيّ عليه الصلاة والسّلام إلاّ أنّه جمع في:"لكم" تعظيما وتفخيما له[3]، ومن الجمع الذي ورد في السّورة السّورة قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[4] حيث نجد إيثار صيغة الجمع في خطابه تعالى لنوح عليه السّلام في مثل هذا المقام؛ مقام

1 فاضل صالح السّامرّائي: التعبير القرآني- ص 24.

2 سورة هود – الآيتان 13، 14.

3 ينظر: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: أبو زكريا الأنصاري- ص 261.

4 سورة هود – الآية 37.

التّثبيت[1]، ومنه ما ورد أيضا للتّعظيم في نحو قوله تعالى:﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2] قوله:"وعصوا رسله" أيّ: هودا وحده، وإنّما أتى بلفظ الجمع إمّا للتّعظيم، أو لأنّ من كذّب برسول فقد كذّب كلّ الرّسل[3]، ومن لطيف ما ورد في هذا الشّأن جمعا كذلك قوله تعالى:﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[4]، لأنّه لمّا كان الذي على بيّنة عظيما، و لم يكن يراد به واحدا بعينه؛ استأنف البيان لعلوّ مقامه بأداة الجمع بشارة لهذا النّبيّ الكريم عليه السّلام بكثرة أمّته، فقال:"أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ[5]"، ومن الإفراد في السّورة قول الحقّ سبحانه:﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[6]، فلمّا كانت البيّنة من الرّحمة، وحّد الضّمير فقال:"فعمّيت" أيّ: فتسبّب عن تخصيصي بها أن أظلمت ووقع ظلامها وتسميته لها "بيّنة" إشارة إلى أنّها لم تُعْمَ ولا خفيت عليهم لشدّة نورها، وإنّما هم معاندون[7] ومن المغايرة بالإفراد والجمع للقصص القرآني قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[8]، وفي سورة الأعراف:﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[9] وهما آيتان في قصّة صالح عليه السّلام، وفي قصّة شعيب عليه السّلام يقول تعالى في سورة هود:﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا

1 عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم- ص 114.

2 سورة هود – الآية 59.

3 ينظر : لباب التّأويل في معاني التّنزيل علاء الدّين البغدادي الخازن – مصر- مطبعة التّقدّم العلميّة- دط – دت- ج 03- ص 195.

4 سورة هود – الآية 17.

5 شهاب الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج 12- ص 253.

6 سورة هود – الآية 28.

7 شهاب الدّين البقاعي: السّابق- ج 12- ص 272.

8 الآية 67.

9 الآية 78.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[1]، ويقول تعالى في سورة الأعراف:﴿وَقَالَ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[2] حيث نرى توحيد الدار في موضع وجمعها في موضع؛ والجواب كما تفضّل به الخطيب الإسكافي أنّ:« الله تعالى وحّد في كلّ مكان ذُكر في ابتدائه:"وإلى"، "وإلى ثمود، وإلى مدين" ولم يذكر إخراج النّبيّ ومن آمن معه من بينهم، فجعلهم بني أب واحد، وجعلهم كذلك دار أهل واحدة ورجا أيضا أن يصيروا بالإيمان فرقة واحدة، وكلّ موضع أخبر عن تفريقه بينهم وإخراج النّبيّ ومن آمن منهم أخبر عنهم الإخبار الدّال على تفرّق شملهم وتشتّت أمرهم، وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة، فقال في سورة هود:﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا﴾[3]، وقال فيها أيضا:﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾[4] »[5]، فإن قال قائل: فقد فقد جاء في قصّة شعيب عليه السّلام بتوحيد الدّار، وقد خرج شعيب من بين أظهرهم ووقع الحكم بتفرّق شملهم، فكان ما ذهب إليه يقتضي جمع الدّار فيقال:"ديارهم"، بيد أنّ الإسكافي لم يدع الأمر محلّ إشكال؛ بل سارع في الإجابة قائلا:« إنّه لم يتقدّم في هذا الموضع ذكر إخراجه من بينهم مع الذين آمنوا معه كما ذُكر في الموضعين في قصّته في سورة هود وفي قصّة شعيب فيها، ألا ترى أنّه قال في قصّته في سورة الأعراف وسورة هود قبل أن أخبرهأنّه نجّاه ومن آمن معه منهم: " وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا " مرّتين فوحّد الدّار فيهما، وفي الموضع الذي ذكره بقصّته مع المؤمنين منهم جمع الدّار فيهما، وكذلك جاء في قصّة شعيب في موضعين، أحدهما جمع فيه، والآخر وحّد، والجمع حيث ذكر إخراجه منهم مع المؤمنين معه »[6]، وإنّ من ألطف ما ذكره العلماء ، في هذا المجال عند

1 الآيتان 94، 95.
2 الآيتان 90، 91.
3 الآية 66.
4 الآية 94.
5 درّة التنزيل وغرّة التأويل — ص 115.
6 المصدر نفسه .

عند تفسيرهم سورة طه[1] هو أنّ الأوامر بأفعال الخير أُفردت للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وإن كانت عامّة في المعنى، منها قوله تعالى:﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[2]، وقوله تعالى:﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4]

وفي المنهيات جمعت للأمّة منها قوله تعالى:﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، وقوله تعالى:﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[6].

ولعل في هذا القدر من الآيات إشارة إلى الدّور الذي يؤدّيه هذا الملحظ البياني من تضام الكلم وائتلافها بالجمع والإفراد، حتّى يخرج كلّ حر ف قارّا في مكانه، مطمئنا في موضعه إلى ما يضامّه من حروف وكلمات.

17- التضام الصّوتي:

لا تثريب علينا في هذا الاصطلاح، لأنّ ما نقصده لا يعدو أن يتجاوز حدود الاستعمال القرآني للأصوات مجتمعة، ورؤية ما يمكن أن يؤدّيه تضامّها على مستوى المفردات أو الجمل، لأنّ الجملة تجدها دائما في القرآن الكريم:« مؤلّفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتآلفها السّمع والصّوت والنّطق، ويكون من تضامّها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ما كان ليتمّ لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلف ترتيب»[7]، فمن المعلوم أنّ للصّوت حضورا عجيبا في القرآن الكريم، كما أنّ له دلالات وخصوصيات تؤدّي بلاغة عالية، كثيرا ما أشار إليها علماء

1 ينظر: صفوة التفاسير: محمّد عليّ الصّابوني- ج12- ص 119.

2 الآية 112.

3 الآية 114.

4 الآية 115.

5 الآية 112.

6 الآية 113.

7 محمّد السّيّد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن- القاهرة- مكتبة الكلّيات الأزهرية- ط01- 1398هـ/1978م- ص 86. وينظر: من روائع القرآن: محمّد سعيد رمضان البوطي- ص 144.

اللّغة في موروثنا العربيّ، وليس بوسع البحث أن يؤرّخ لهذه القضيّة بقدر ما يمهّد لها ثمّ ينتقل إلى استقراء بعض الآيات القرآنية من سورة هود محاولا أن يعرضها في ضوء هذا المبحث الذي يتناول الدّلالة الصّوتية للكلمات والجمل داخل سياقها الخاصّ.

يقول تعالى:﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴾[1]، والأمر الملاحظ هو ذلك المدّ الذي في هذه الآية الكريمة، وإذا كان المدّ في اللّغة يحمل معنى الزّيادة، وأنّ كلّ زيادة في المبنى هي زيادة في المعنى؛فإنّ المدّ الزّائد عند التّلاوة أيضا له دلالته حيث يفخّم هذه الكلمة ويزيد من معناها، مثلما يستدعي أخذ اعتبار جلالة ما يقع عليه المدّ، وهذا ما نجده محقّقا في الآية؛ إذ المدّ هنا يلقي بظلاله على مدى البعد المكاني، وعلوّ الجبل الذي ينشده المتكلّم ليفرّ وينجو به من الطّوفان فتأمّل كيف شارك المدّ في التّعبير عمّا في نفس ابن نوح[2]، ولئن كان هذا المثال عن المدّ المنفصل فإنّ مثال المدّ اللاّزم الكلّي المثقّل في هذه السّورة فنحو قوله تعالى:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[3]، فالمدّ هنا يدلّ على الشّمولية والكلّية المطلقة، حيث يشمل الخلائق جميعها، كما يضمّ أصناف الأجناس ممّا يدبّ كلّها سواء أدركناه أو لم ندركه، أو علمنا بطبيعة رزقه أو لم نعلم[4]، ومن الظّواهر الصّوتية التي تعزّز من قيمة هذا الموضوع قضيّة الإمالة، إذ تعكس تناسقا دلاليا بين البنية والدّلالة، وهو ما تعرب عنه الآية في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] فالإمالة في "مجريها" ترسم الصّورة المتأرجحة للسّفينة وهي تمخر عباب البحر، والإمالة خاصّية صوتية تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء، فتغدو الفتحة في وضع نطقيّ بين الفتحة

---

1 سورة هود – الآية 43.

2 عبد الله الجيومي: التّعبير القرآني والدّلالة النّفسية- ص 122. أخذا عن:خالد قاسم بني دومي: دلالات الظّاهرة الصّوتيّة في القرآن الكريم– ص 116.

3 الآية 06.

4 محمّد عليّ الصّغير: الصّوت اللّغويّ في القرآن- ص 171. أخذا عن: خالد قاسم بني دومي: السّابق - ص120.

5 الآية 41.

والكسرة والألف في وضع نطقيّ بين الألف والياء، فهي ليست ألفا خالصة ولا ياء محضة، بل هي بين بين و"مجريها" كذلك ليست بالألف فتعتدل السّفينة، وليست بالياء فتميل السّفينة ميلا شديدا أمّا قوله:"مرساها" فالبنية الصّوتيّة لهذه اللّفظة ترسم صورة السّفينة حال استقرارها على سطح مستو[1]، ومن هذه الظّواهر الصّوتيّة أيضا الإدغام الذي يعني الإدخال في معناه اللّغويّ، والذي يعني إدخال حرف ساكن في حرف متحرّك في معناه الاصطلاحي، ومن أمثلته في سورة هود قوله تعالى:﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] والإدغام في هذه الآية يشعر بالتّمازج الدّلاليّ بين السّلام وكونه من الله عزّ وجلّ، لأنّ السّلام من أسمائه الحسنى، ولأنّه تعالى هو الذي يهبه[3]، بيد أنّ أمرا آخر ورد في الآية يُعدّ من ألطف ما استدلّ به القدامى في هذا الشّأن[4]؛ إنّه يخصّ تتابع الميمات، حيث تدرك عند إمعان النّظر« اجتماع سبع ميمات في أربع كلمات :"أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ" وتزيد هذه الميمات فتصل تسعا مع النّطق والقراءة التّجويدية، حيث تضعّف الميم الثّانية في"ممّن" وتقلب النّون ميما، وتدغم في الميم بعدها، حتّى ينشأ من هذا أنّ الكلمات الأربع تكاد تكون كلّها ميمات، والعبرة في كيفية النّطق بهذه الميمات، وما يحدثه من ضمّ شديد في الصّوت يصحبه ضمّ شديد متوال للشّفتين عند أداء هذه الميمات الملتصقة، ومن البدهي أنّ الآية بأدائها الصّوتيّ تعكس ما كان عليه أصحاب نوح عليه السّلام، والذين معه من اجتماع وانضمام حول مبدأ واحد وعقيدة واحدة، والاجتماع حول مبدأ والالتفات من حوله يولّد في نفوس المجتمعين إحساس الانتماء الشّديد والضّمّ اللّصيق، وخصوصا في مثل تلك الظّروف التي كان عليها أصحاب نوح – عليه السّلام– في السّفينة ، وبهذه الأصوات والحروف نقل لنا القرآن هذا المعنى المقرون بتلك الأحاسيس، وكان يمكن أن يقال: اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى من اتّبعك، ويكون هذا مؤدّيا للمعنى الأوّل مباشرة، ولكن ليس هذا هو مجرّد ما يريده التّعبير القرآني؛ إنّه يريد خلق

1 خالد قاسم بني دومي: دلالات الظّاهرة الصّوتيّة في القرآن الكريم– ص 116.

2 سورة هود – الآية 48..

3 خالد قاسم بني دومي: السّابق– ص 133.

4 ينظر: المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر: ابن الأثير – ج07– ص 177.

التّجاوب النّفسيّ مع الصّحبة المباركة، وأن يخلق الإحساس برضا الله عنهم، وأن يولد في نفس كلّ مستمع الإحساس الشّديد بالضّمّ والالتصاق بمجرّد أن يلتقط سمعه هذه الميمات المتضامّة الملتصقة »[1]، هذا هو الأسلوب الإيقاعي الفريد الذي يختصّ به القرآن الكريم، والذي ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر العقول و يذهب بالأسماع، ولا يكون مغاليا مَن زعم أنّ أسباب انسجام التّأليف تكاد تنحصر في النّسيج الصّوتي للمفردات التي تتشكّل منها الجملة[2]، حيث تتكوّن الكلمة في التّشكيل المنسجم من حروف ذات صفات معيّنة تتناغم مع المعنى والجوّ الذي يدور في إطاره النّص، وهذه الميزة وإنْ تحقّقت في كلام الأدباء والشّعراء فإنّها عزيزة المنال قلّما نجدها عند شاعر أو كاتب؛ أمّا القرآن فتتحقّق فيه بشكل مطّرد، حيث يتّضح فيه تخيّر النّسيج الصّوتيّ للكلمات بما يقرّب الشّعور بالمعنى، ويعمّق الإحساس بالمضمون.

1 إبراهيم محمّد شادي: البلاغة الصّوتية في القرآن الكريم- مصر- شركة الرّسالة- ط01- 1409هـ/1982م- ص 52.

2 سعيد عطيّة علي مطاوع: الإعجاز القصصي في القرآن الكريم - ص 267.

18- الالتفـــات:

يتبوّأ هذا المبحث في البلاغة العربية مكانا مرموقا، أهّله أن يكون أحد المواضيع الرّئيسة التي تتعلّق بدرس البلاغة والإعجاز في القرآن الكريم، ولقد كانت للعلماء وقفات كثيرة في هذا الشّأن، وعلى الرّغم من أنّ الالتفات من أساليب العرب القديمة، التي جاءت على لسان العلماء في فترة مبكّرة فإنّ واحدا مثل الفرّاء لم يسمّه[1]، وإنّما اكتفى بالتّنويه إليه، وتمتدّ تلك الفترة ليدنو المصطلح من المفهوم والاستعمال على نحو ما نجده عند أبي عبيدة الذي ذكر لنا أنّ:« العرب قد تخاطب فتخبر عن الغائب والمعنى للشّاهد »[2].

ولعلّ من أوائل تلك الوقفات مع هذا المصطلح؛ مصطلح الالتفات، ما ورد على لسان الأصمعي حين سأل إسحاق بن إبراهيم الموصليّ: أتعرف التفات جرير؟ فيقول له: وما هو؟ فينشده:

أتنسَى إذ تودِّعنا سُليمَى بعود بشامة سُقي البَشامُ

ليقول الأصمعي إذ ذاك:« ألا تراه مقبلا على شعر، ثمّ التفت إلى البَشام فدعا له »[3]، وقد أنشد له عبد الله بن المعتزّ:

متى كان الخيام بذي طلوح سُقِيتِ الغيثَ أيّتها الخيامُ

وقد أدخله ابن قتيبة في باب "مخالفة ظاهر اللّفظ معناه"، متناولا إيّاه في آيات من القرآن الكريم[4]، وطرقه المبرّد من باب أنّ:« العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشّاهد، ومخاطبة الشّاهد إلى مخاطبة الغائب »[5] وذكر أنّ الالتفات أوّل محاسن الكلام التي ذكرها ابن المعتز بعد

---

1 ينظر: معاني القرآن- ج01- 60.

2 مجاز القرآن- ج02- ص 139. والبيت في ديوانه- بيروت- دار صادر- ط02- 2005م- ص 417.

3 ينظر: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده: ابن رشيق-حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه: محمّد محيي الدّين عبد الحميد- القاهرة- دار الطّلائع- ط01- 2006م- ج02- ص 40.

4 تأويل مشكل القرآن- 281.

5 الكامل في اللّغة والأدب – ج 02- 572.

فنون البديع[1]، وللالتفات تسميات كثيرة في موروثنا البلاغي والنّقدي، فقد سمّاه قوم الاعتراض وسمّاه قوم الانصراف[2]، وسمّاه آخرون الاستدراك، وهذا الأمر لا يقتصر على التّراث العربي، بل يتعدى إلى الدّراسات الحديثة، حيث يحظى هذا المبحث باهتمام كبير، أين يصطلح عليه بمصطلحات عديدة منها: العدول، والانحراف[3]، والانزياح[4]، والاختلال، والانتهاك، والتّجاوز والمخالفة، واللّحن، خرق السّنن، والشّناعة، والإطاحة، والتّحريف، والذي استقر عليه بحثنا هو مصطلح الالتفات باعتباره نابعا من التّراث العربي، ولأنّه أقرب تلك المصطلحات إلى الدّراسات القرآنية على خلاف مصطلح الانحراف أو الانتهاك مثلا، والالتفات في أبسط صور تعريفاته هو:«نقل الكلام من حالة إلى أخرى»[5]، ومن المشهور عن العرب أنّ نقل الكلام هذا يكون في إحدى الصّور السّت التّالية:من التكلّم إلى الخطاب، ومن التّكلّم إلى الغيبة، ومن الخطاب إلى التّكلّم، ومن الغيبة إلى التّكلّم، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب، وحتّى لا ينسحب بساط الموضوع في قضيّة النّشأة أو التّطوّر والتّعريف، نشرع بحول الله بالوقوف عند آية أو آيتين من سورة هود ونحاول أن نتعرّف على جزء يسير من موضوع الالتفات في علاقته بموضوع بحثنا.

يقول تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[6]، فالبلاغيون قد التفتوا إلى العدول في الصّيغ، واعتبروه أساسا من أسس التّوظيف البلاغي، فيما أسمّوه مخالفة مقتضى الظّاهر[7]، ومنه هذه الآية، إذ أوثر اسم المفعول على

---

1 المصدر السّابق – ج02- ص 910.

2 ينظر: معجم المصطلحات النّقدية: أحمد مطلوب – ص 102. ومعجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها- ص 173.

3 لقد عقد عبد الحكيم راضي فصلا كاملا تحدّث فيه عن:"المثالي والمنحرف"، وأورد فيه كثيرا من التّعريفات والمصطلحات في كتابه: نظريّة اللّغة في النّقد الأدبي- مصر- مكتبة الخانجي- د ط- 1980م – ص 191.

4 ينظر: الأسلوبية والسلوب: عبد السّلام المسدّي- طبعة منقّحة مشفوعة ببيليوغرافيا الدّراسات الأسلوبية والبنيوية- الدار العربية للكتاب- ط03- 1962م- ص 162، 163. وينظر:مقال: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة: تمام حسان- ص 28. وينظر: الإنزياح في التّراث النّقدي والبلاغي: أحمد محمّد ويس – ص- 75.

5 ينظر: كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيّم الجوزية- ص 111. وينظر هذه المفاهيم في: كتاب مفتاح العلوم: السّكاكي- ص 96. و المثل السّائر: ابن الأثير- ج02- ص 183.

6 سورة هود – الآية 103.

7 ينظر: الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم: عبد الحميد هنداوي- ص 159.

فعله لما من اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنّه لابدّ من أن يكون ميعادا مضروبا لجميع النّاس له، وأنّه الموصوف بذلك صفة لازمة... والغرض كما يقول الزّمخشري من من جعل اليوم مشهودا في نفسه دون أن يكون مشهودا فيه هو وصف ذلك اليوم بالهول والعظم لتميّزه من بين الأيّام[1]، وعليه فإنّ في ورود هذا التّعبير عن المستقبل بلفظ المضيّ تنبيها على تحقّق وقوعه، وأنّ ما للوقوع كالواقع ، ومن الالتفات الذي وقع في خصوص صيغ التّعبير بين الماضي والمضارع قوله تعالى:﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2]، وهو عدول أو التفات عن الأصل السّياقي، لأنّ السّياق يقتضي:"وأشهدكم" بصيغة المضارع، وقد مرّت معنا هذه الآية الكريمة في أكثر من موضع، وإنّما لم يقل:"وأشهدكم" ليكون موازيا له وبمعناه؛ لأنّ إشهاد الله سبحانه على البراءة من الشّرك صحيح في تثبيت معنى التّوحيد وشدّ معاقده، على عكس إشهادهم فإنّه لا يعدوا تهاونا بدينهم ودلالة على قلّة المبالاة بهم، ولذلك عدل عن اللّفظ الأوّل لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر كما تقول للرّجل تهكّما به واستهانة:"اشهد عليّ أنّي أحبّك "[3]، ومن الالتفات من الخطاب الخطاب إلى التّكلّم قوله تعالى:﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[4] حيث عبّر عن المعنى أوّلا [5] بطريق الخطاب:"واستغفروا ربّكم" ثمّ التفت فعبّر عنه بطريق التّكلّم فقال:"إنّ ربّي رحيم ودود".

---

1 الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – ج03- ص 234.

2 سورة هود – الآية 54.

3 ينظر: الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان: ابن قيّم - ص 111.

4 سورة هود – الآية 90.

5 عبد الفتّاح لاشين: المعاني في أساليب القرآن- ص218.

الآية 44 من سورة هود:

إنّنا الآن بصدد الحديث عن آية من آيات سورة هود؛ تُعدّ من أعظم شواهد البيان القرآني، حيث تضمّنت هذه الآية -كغيرها من آي الذّكر الحكيم- فنونا بلاغية كثيرة وفوائد جليلة تناولتها الأقلام منذ القديم بالدّرس والتّحليل، فنالت حظّا كريما وقسطا وفيرا من البحوث وقد رأينا أن تكون في خاتمة هذا الفصل لما لمباحثها من علاقة بموضوع التّضام، إذ تتربّع على جملة من القضايا والمسائل التي تناولها هذا الفصل، هذه الآية الكريمة هي قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] وما دام موضوع التّضام يتوزّع على تلك المباحث والعلوم فإنّ لعلمائنا فضلا كبيرا في استنطاق هذه الآية وإبراز أهمّ ما اشتملت عليه واحتوته.

لقد ذكر لنا العلماء أنّ بعض المشايخ ألّف رسالة في هذه الآية وجمع فيها ما ظهر له ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مئة وخمسين مزيّة[2]، وإنّ فيها لمزيدا، ونصّ الألوسي في تفسيره أنّ هذه الآية الكريمة:« قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، واستذلّت مصاقع العرب، فسفعت بنواصيها، وجمعت من محاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، وكان من سمهريّ البلاغة مكان السّنان .. وقد فصل بعض مزايا هذه الآية المهرة المتقنون وتركوا من ذلك ما لا يكاد يصفه الواصفون »[3] ولعلّ من أوائل النّصوص التي تطالعنا في شأن هذه الآية وما يتعلّق بها من قضايا التّضام قول عبد القاهر الجرجاني:« وهل تشكّ إذا فكّرت في قوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]، فتجلّى لك الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع؛ أنّك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظّاهرة والفضيلة القاهرة إلاّ لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشّرف إلاّ من حيث

1 سورة هود – الآية 44.

2 ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: شهاب الدّين الألوسي– – ص61. وينظر: الأساس في التّفسير: سعيد حوّى– – ص 2560.

3 ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني– ص 61.

4 سورة هود – الآية 44.

لاقت الأولى بالثّانية والثّالثة بالرّابعة، وهكذا، إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأنّ الفضل تناتجَ ما بينها وحصل من مجموعها»[1]، وغنيّ عن البيان أنّ ما عناه بالارتباط بين الكلم، وحسن ملاقاتها ليس إلاّ تضامّ هذه الكلم واجتماعها، وليس من مهمّة البحث أن يستقري كلّ النّصوص التي كُتبت حول هذه الآية أو أن يحصيها بقدر ما هو عرض مجمل لبعضها انطلاقا من كتب المفسّرين واللّغويين.

لقد روت لنا بعض التّفاسير أنّ « أعرابيا سمع هذه الآية فقال: هذا كلام القادرين، وأنّ ابن المقفّع عارض القرآن فلمّا وصل إلى هذه الآية أمسك عن المعارضة، وقال: هذا كلام لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله»[2]، وممّن تحدّث عن هذه الآية وأبهره بيانها "الزّمخشري"، فقد جاء في تفسيره ما نصّه:« ولما ذكرنا من المعاني والنّكت واستفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم »[3]، وقد تصدّى السّكاكيّ في بحث البلاغة والفصاحة لبيان هذه الخصائص في هذه الآية متقفّيا كلام الزّمخشري، فذكر أنّ النّظر فيها من أربع جهات؛ من علم البيان، ومن جهة علم المعاني، وهما مرجع البلاغة، ومن جهة الفصاحة المعنويّة، ومن جهة الفصاحة اللّفظيّة، وأقرب هذه الجهات إلى موضوع التضام ما تضمّنته جهتا البيان والمعاني على أنّنا نكتفي ببعض ما يتّصل اتّصالا مباشرا بموضوعنا، أمّا من جهة البيان الذي ينظر في المجاز والاستعارة والكناية والتّشبيه؛ فإنّه تعالى بنى الكلامَ على تشبيه المراد بالمأمور الذي لا يتأتّى منه لكمال هيبته العصيان، وتشبيهه تكوينَ المُراد بالأمر النّافذ في تكوين المقصود تصويرا لاقتداره العظيم[4]، أيّ إنّه تعالى أراد ردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فكان، وأراد انقطاع طوفان السّماء وغيض الماء النّازل فحصل، وشاء إنجاز ما وعد فتحقّق وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمّما لا تلقى إشارته بغير الإمضاء دون معاناة

1 دلائل الإعجاز – ص 51.
2 ينظر: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل: الزّمخشري –ج 03- ص203. وينظر: البحر المحيط في التّفسير: أبو حيّان الأندلسي – ج06 – ص 160. وينظر: الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون:أحمد بن يوسف السّمين الحلبي(ت756هـ)- تحقيق: أحمد محمّد الخرّاط- دمشق- دار القلم- دط – دت-ج06- ص 335.
3 ينظر: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل –ج 03- ص203.
4 كتاب مفتاح العلوم – ص 176.

أو لغوب، ثمّ بُني على تشبيهه هذا نظم الكلام فقال جلّ وعلا على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماد وهو:"يا أرض" و"يا سماء" مخاطبا لهما على سبيل الاستعارة للمذكور، ومن الاستعارة استعماله "البلع" لغور الماء، إذ البلع الذّهاب إلى مقرّ خفيّ، كما استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء، واختار لاحتباس الماء لفظ الإقلاع، ثمّ إنّه لم يصرّح بمن غاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوّى السّفينة وقال بعدا، كما لم يصرّح بقائل:يا أرض، ويا سماء؛ سلوكا في ذلك سبيل الكناية أنّ تلك الأمور لا تتأتّى إلاّ من ذي قدرة[1]، أمّا من جهة المعاني المنوطة بالنّظر إلى كلّ كلمة منها وجهة كلّ تقديم وتأخير فيما بين جملها والتي ينبني عليها موضوع التّضام كما مر في المباحث السّابقة؛ فذلك أنّه مثلا اختير"يا" دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال، وأنّها دالّة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتّهاون، و لم تجئ الآية بالكسر"يا أرضِ" لإمداد التّهاون، و لم يقل:"يا أيّتها الأرض" لقصد الاختصار مع الاحتراز في "أيّتها" من تكلّف التّنبيه غير المناسب للمقام، وأنّ لفظ"الأرض" اختير دون سائر أسمائها لكونه أخفّ، واختير لفظ"السّماء" لمثل ما تقدّم مع قصد المطابقة، ولفظ"ابلعي" دون"ابتلعي" مثلا لكونه أخصر، ولمجيء حظ التّجانس بينه وبين "اقلعي" أوفر، وقيل"ماءك"بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام لإظهار الكبرياء والجبروت، وإنّما لم يقل:"ابلعي" بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتّلال والبحار وساكنات الماء بأسرهنّ نظرا إلى مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء، ثمّ إذا بيّن المراد اختصر الكلام مع اقلعي احترازا عن الحشو المستغنى عنه، وهو الوجه في أن لم يقل:"يا أرض ابلعي ماءك فبلعت...فأقلعت" واختير لفظ"غيض" على"غيّض" المشدّد لكونه أخصر، وقيل الماء دون أن يقال"ماء طوفان السّماء" وكذا الأمر، دون أمر نوح عليه السّلام، وهو إنجاز ما كان وعده الله به من إهلاك قومه والاستغناء بحرف التّعريف عن ذلك، و لم يقل"سوِّيت على الجودي" على نحو:"قيل/غيض/قُضي" في البناء للمفعول اعتبار بناء الفعل للفاعل مع السّفينة في قوله:"وهي تجري بهم في موج" مع قصد الاختصار في اللّفظ، ثمّ قيل:"بُعدًا" دون "ليبعد القوم" طلبا للتّأكيد مع الاختصار، وهو نـــــزول

1 المصدر السّابق – ص 177.

"بعدا" مترلة "ليبعدوا بعدا" مع فائدة أخرى هي استعمال اللاّم مع "بعدا" الدّال على معنى أنّ البعد حقّ لهم، ثمّ أطلق الظّلم ليتناول كلّ نوع يدخل فيه ظلمهم أنفسَهم ليزيد فظاعة على سوء اختيارهم في تكذيب الرّسل، وكلّ هذه اللّطائف قد أوردها السّكاكي للاستدلال على النّظر إلى هذه الآية من حيث تركيب الكلم[1]، أمّا من حيث النّظر إلى ترتيب الجمل فقد أطنب فيه، ومن ذلك قوله مثلا:«إنّه قد قدّم النّداء على الأمر فقيل:"يا أرض" دون أن يقال:"ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء" جريا على مقتضى اللاّزم فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التّنبيه ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى قصدا بذلك لمعنى التّرشيح ثمّ قدّم أمر الأرض على السّماء، وابتُدئ به لابتداء الطّوفان منها ونزولها لذلك في القصّة مترلة الأصل، والأصل بالتّقديم أولى، ثمّ أتبعها قوله:"وغيض الماء لاتّصاله بقصّة الماء وأخذه بحجزها، ألا ترى أصل الكلام:"قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت، ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله وغيض الماء النّازل من السّماء فغاض" ثمّ اتبعه المقصود من القصّة وهو قوله:"وقُضي" أيّ: أُنجز الموعود»[2]، أيّ إنّه دلّ على ذلك بأداة البعد، بمعنى:"اجذبي من غير مضغ إلى مكان خفيّ بالتّدريج"[3]، ولأنّ في استعمال الياء دون الهمزة لما يدعو لاجتماعها مع همزة الأرض إلى ثقل على اللّسان في النّطق بهما، وأنّه أوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها، باعتبار المقام الذي يستدعي هنا هذا التّصغير ويستدعي الإسراع بتلبية الأمر دون التّعريف المقتضي لإطالة الكلام، وعُيّن المبلوع لئلاّ يعمّ، والابتلاع دون المصّ لأنّ لفظة "امتصّي" مثلا لا تدلّ على الإسراع في التّشرّب، وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنّها جديرة بامتصاص ماء هو ماؤها، فكأنّها لم تُكلّف شططا، وذلك البناء للمفعول يصوّر إحساس من شاهدوا هذا المنظر، فقد رأوا الماء يغيض والأمر يتمّ، حتّى يُخيّل إليهم أنّه حدث من تلقاء نفسه، وإيراد "بعدا" دون "هلاكا" مثلا إشارة إلى أنّ هلاك هؤلاء القوم الظّالمين إنّما قُصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض، ومجيء الموصوف هنا لا لإيراد الدّعاء على الظّالمين لاتّصافهم بالظّلم؛ وإنّما المراد منه الدّعاء على هؤلاء القوم بالبعد لاتّصافهم بالظّلم، ولعلّ في استعمال

1 المصدر السّابق – ص 177.

2 المصدر نفسه – ص 178. وينظر: تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش- ج06- ص 404. وينظر: تفسير التّحرير والتّنوير: الطّاهر بن عاشور- ج10- ص 80.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج09- ص 292.

المصدر الذي يؤكّد أنّ الفعل قد تمّ وحصل أثراً في ذلك[1]، هنا تهدأ العاصفة -كما يصفها سيّد قطب- ويُخيّم السّكون، ويُقضى الأمر، ويتمشّى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النّفس والأذن لتختتم القصّة بجملة مختصرة حاسمة تعبّر عن جوّها أعمق تعبير[2]، ولم نر بدّا في هذا المقام من أن نورد بعض ما أورده كثير من العلماء في شأن هذه الآية الكريمة، وأن نعيد ما ذكره ابن أبي الإصبع في كتابيه:"تحرير التّحبير، وبديع القرآن"، إذ استطاع أن يجمع من خصائص هذه الآية ما يربو عن العشرين ضربا من ضروب البلاغة، في باب هو "باب الإبداع"[3]، ولا بأس أن نرتّب هذه المباحث على هذه الشّاكلة:

- المناسبة التّامّة في "ابلعي وأقلعي".
- المطابقة اللّفظيّة في ذكر"الأرض والسّماء"[4].
- الاستعارة في "ابلعي وأقلعي" للأرض والسّماء[5].
- المجاز[6] في "يا سماء" فإنّ الحقيقة "يا مطر السّماء".

---

1 ينظر: من بلاغة القرآن الكريم: أحمد أحمد بدوي- ص 50.

2 في ظلال القرآن – ج04- ص 1879.

3 يعرّفه بأن:« تكون كلّ لفظة من لفظ الكلام على انفرادها متضمّنة بديعا أو بديعين بحسب قوّة الكلام، وما يعطيه معناه بحيث يأتي في البيت الواحد، والجملة الواحدة عدّة ضروب من البديع، ولا تخلو لفظة منه من بديع، فما زاد عليه، وما رأيت ولا رويت في الكلام المنثور، والشّعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحدا وعشرين ضربا من البديع وعددها سبع عشرة لفظة وهي قوله تعالى﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة هود- الآية 44]». ينظر: تحرير التحبير- ص 611. وينظر: بديع القرآن- ص 340.

4 ينظر: تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن: محمّد الأمين بن عبد الله الأرمي – إشراف ومراجعة: هاشم محمّد علي بن حسين مهدي- مكّة المكرّمة- دار طوق النّجاة- ط01 – 1421هـ/2001م- مج 13- ص 121.

5 ينظر: المصدر نفسه – مج 13- ص 121.

6 ينظر: تحرير التحبير: – ص 458. وبديع القرآن – ص 340.

- الإشارة[1] في "وغيض الماء" فإنّه سبحانه عبّر بهاتين اللّفظتين عن معان كثيرة. لأنّ الماء لا يغيض حتّى يقلع مطر السّماء وتبلع الأرض ماء يخرج من عيون الماء فينقص الحاصل على وجه الأرض من ماء.

- الإرداف[2] في "واستوت على الجوديّ" فإنّه عبّر عن استقرار السّفينة على هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكّنا لا زيغ فيه ولا ميل، لطمأنينة أهل السّفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة.

- التّمثيل في "وقُضي الأمر" فإنّه عبّر بذلك على هلاك الهالكين ونجاة النّاجين بلفظ فيه بعدٌ ما من لفظ الحقيقة بالنّسبة إلى لفظ الإرداف.

- التّعليل لأنّ غيض الماء علّة الاستواء.

- صحّة التّقسيم حين استوعب سبحانه أقسام الماء حالة نقصه، إذ ليس إلاّ احتباس ماء السّماء، واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض.

- الاحتراس في:"وقيل بعدا للقوم الظّالمين" محترسا من توهّم من يتوهّم أنّ الهلاك ربّما عمّ من لا يستحقّ الهلاك، فجاء سبحانه بالدّعاء على الهالكين ليُعلِم أنّهم مستحقّو العذاب، فإنّ عدله منع أن يدعو على غير مستحقّ للدّعاء عليه.

- الانفصال[3]، فإنّ لقائل أن يقول:"إنّ لفظة القوم مستغنى عنها، لأنّه لو قيل: وبعدا للظّالمين لتمّ الكلام، والانفصال عن ذلك أن يقال: لمّا سبق في صدر الكلام قبل الآية قوله تعالى:﴿ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾[4]، وقال سبحانه قبل ذلك مخاطبا لنوح عليه السّلام:﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾[5] فاقتضت البلاغة أن يُؤتى بلفظ القوم التي آلة التّعريف فيها للعهد، ليتبيّن

1 ينظر: تحرير التّحبير – ص 202.

2 ينظر: المصدر نفسه – ص 207.

3 ابن أبي الإصبع: بديع القرآن – ص 341. وقد سمّاه ابن أبي الإصبع الإيضاح في كتابه:تحرير التّحبير. ينظر: ص 612.

4 الآية 38.

5 الآية 37.

أنّهم الذين تقدّم ذكرهم في الآية:"وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ" ووصفهم بالظّلم، وأخبر لسابق علمه أنّهم هالكون بقوله:"وَلا تُخَاطِبْنِي" فحصل الانفصال عن الإشكال وعُلم أنّ لفظة القوم ليست فضلة في الكلام.

- المساواة[1] :إنّ لفظ الآية لا يزيد على معناها ولا ينقص.

- حسن النّسق[2] في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أوّلا فأوّلا، فإنّه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع، ثمّ عطف على ذلك أمر السّماء بالإقلاع، ثمّ عطف غيض الماء على ذلك، ثمّ على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة النّاجين، ثمّ عطف على ذلك استواء السّفينة على الجوديّ، ثمّ عطف على ذلك الدّعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود.

- ائتلاف اللّفظ مع المعنى لكون كلّ لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.

- الإيجاز لأنّه سبحانه اقتصّ القصّة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخل منها بشيء في أقصر عبارة بألفاظ غير مطوّلة.

- والتّسهيم لأنّ من أوّل الآية إلى قوله تعالى:" أَقْلِعِي " يقتضي آخرها.

- التّهذيب لأنّ مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كلّ لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلوّ من البشاعة، والتّركيب سليم من التّعقيد وأسبابه.

- حسن البيان من جهة أنّ السّامع لا يتوقّف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه.

- والتّمكين لأن الفاصلة مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في مكانها ولا مستدعاة[3].

1 ابن أبي الإصبع: تحرير التّحبير – ص 198. وص 212. و بديع القرآن– ص 341.
2 تحرير التّحبير – ص 425. بديع القرآن — ص 342.
3 بديع القرآن — ص 343.

- الانسجام وهو تحدّر الكلام بسهولة وعذوبة سبك، مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء القليل من الهواء، وما مجموع ألفاظ الآية من الإبداع، وهو الذي سُمِّي به هذا الباب، إذ كلّ لفظةٍ بديعٌ وبديعان، لأنّ كما تقدّم سبع عشرة لفظة تضمّنت أحدا وعشرين ضربا من البلاغة سوى ما يتعدّد من ضروبها، فإنّ الاستعارة وقعت فيها في موضعين، وهما استعارة الابتلاع للأرض والإقلاع للسّماء، والمجاز في مكانين؛ في قوله سبحانه:"ويا سماء" وفي الإشارة والتّمثيل والإرداف لأنّ المجاز مجازان؛ مجاز بالحذف ومجاز بالتّغيير، وقد وقعا معا[1]، ولعلّ خير ما نختم به حديثنا عن هذه الآية نصّ من تفسير القرطبيّ يقول فيه:« لو فتّش كلام العرب والعجم ما وُجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها وبلاغة رصفها واشتمال المعاني فيها»[2].

نخاله قد تبيّن من خلال هذه المباحث التي اشتمل عليها هذا الفصل أنّ سورة هود جديرة بأن تفرد بدراسة على حده، وأنّ ما تختصّ به من معارف وفنونه كفيل بأن يؤسّس للبلاغة العربيّة معجما من شأنه أن يثري مكتبة الباحث في نظم القرآن وإعجازه، وأنّ هذه العلوم والفنون لم تكن لو لم تقترن الكلمات والجمل ويجتمع بعضها ببعض، فقد تضامت من أوّل حرف، وأعطت نصّا فريدا كاع القوم ونكصوا عن معارضته بعدما كان لهم في البلاغة القدح الفالج، وجبنوا منذ القديم أن يأتوا بمثله وفيهم مَن تُرضى حكومته في البلاغة والبيان.

لنتوجّه بالدّراسة إلى الشّطر الآخر من الموضوع؛ وهو دراسة التّضام في سورة طه، عسى أن نقف عند أهم المحطّات البلاغية الكبرى المتعلّقة به، أو أن نعيد صياغة بعض المباحث والفصول الذي ذكرها العلماء في هذه السّورة في شكل عناصر متفرّقة تتّصل بالموضوع كما مرّ معنا في هذا الفصل.

---

1 ابن أبي الإصبع: تحرير التّحبير- ص 212. وينظر: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي- ج03- ص 126. وينظر: أنوار التّجلّي على ما تضمّنته قصيدة الحلّي: أبو عبد الله بن أبي القاسم – ج02- ص 367. وما كتبه النّسفي: مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل – مج 02- ص 723. والبيضاوي:أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل–ج 01- ص 459. والقمّي النّيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان- ج12- ص 35. والثّعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن– ج 02- ص 279. وينظر على سبيل المثال بحث: الفنون البلاغية في سورة هود: ماجد بن محمّد الماجد، فقد ذكر عدا هذا ما يلي:الائتلاف، والحذف، وإيجاز القصر، والتّصدير، والتّعريض، والتّنسيق، والتّنظير، والسّجع، والمناسبة اللّفظية، والنّظم المعجز – ص 89..91.

2 الجامع لأحكام القرآن – مج 05- ج09- ص 28.

الفصل الثّالث

التّضامّ في سورة طه

- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني
- التّقديم والتّأخير
- المناسبـــــــــة
- الفصل والوصل
- الرّبط والارتباط
- التّكرار والإعادة
- التّضمين والتّعدية
- التّعريف والتّنكير
- الفاصلة القرآنية
- الإطناب والإيجاز
- الحـــــــــذف
- الذّكر والزّيادة
- مسائل متفرّقات

سورة طه، لفور ما بينهما وقربه[1]، أيّ من حيث قوله تعالى في سورة طه:﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾[2]، وقوله تعالى في القَصص:﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3]، وإن اختلف محلّهما، بخلاف ذلك في سورة النّمل، وغير بعيد عن هذا قول الحقّ سبحانه:﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ ﴾[4]، وقوله تعالى في سورة الشّعراء:﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[5]، وقوله تعالى في سورة القَصص:﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾[6]، حيث اقتصر في سورة طه على فرعون، لأنّه الأصل بالنّسبة إلى قومه، مع سبق سورة طه، واكتفى في سورة الشّعراء بذكره في الإضافة (قوم فرعون) عن ذكره مفردا، وجمع بينهما في سورة القَصص ليوافق قوله:"فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ " في التّعدُّد[7]، ومن هذا القبيل أيضا ما جاء في الآية الكريمة:﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴾[8]، في بادئ الرّأي يظهر أنّ سرّ العدول في التّعبير هو مراعاة الفاصلة القرآنية، ميد أنّ:«النّظرة المدقّقة تكشف

و وردت مادّة جاء في سورة النّمل ثلاث عشرة مرّة منها: [فلمّا جاءهم- الآية13]. [وجئتك- الآية22]. [فلمّا جاء سليمان- الآية 36]. [فلمّا جاءت- الآية42]. [حتّى إذا جاءوا- الآية84]. [من جاء -الآية89]. [ومن جاء -الآية90]. وأُلحق ما في سورة القصص بما في سورة طه لقرب ما بينهما. ينظر: البرهان في متشابه القرآن:محمود بن حمزة الكرماني- تحقيق: عبد القادر عطا- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1406هـ/1986م- ص 126.

1 أبو زكريّا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- ص 360.

2 الآيتان 11. 12.

3 الآية 20.

4 سورة طه – الآية 24.

5 الآيتان 11. 12.

6 الآية 32.

7 أبو زكريّا الأنصاري: السّابق- ص 363.

8 الآية 65.

رغبة القرآن في تصوير نفسية هؤلاء السّحرة، وأنّهم لم يكونوا يوم تحدّوا موسى عليه السّلام خائفين أو شاكّين في نجاحهم، وإنّما كان الأمل يملأ قلوبهم في نصر مؤزّر عاجل، إنّهم لا ينتظرون ما عسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه، بل كانوا مؤمنين بالنّصر، سواء أألقى عصاه أوّلا أم كانوا هم أوّل من ألقى»[1]، ومن دقّة القرآن في توارد بعض الكلمات في أماكن مخصّصة قوله تعالى في هذه السّورة:﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة القصص:﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]، فقد قاله في الأولى بلفظ"رجعناك" وفي الأخرى بلفظ"رددناه"، وهما وإن اتّحدا معنى؛ فإنّه خصّ في الأولى بالرّجع لأنّه ألطف، بينما الرّدّ يقتضي كراهية المردود[4]، وتصديقا لقوله:﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[5].

يقول تعالى:﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾[6]، ويقول في موضع آخر:﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[7]، وردت الآية الأولى بلفظ"سلك" ووردت الأخرى بلفظ"جعل"، ومردُّ هذه المغايرة في تضامّ الكلمات مع طائفة معيّنة من التّراكيب دون أخرى هو أنّ لفظ السّلوك مع السّبيل أكثر استعمالا به، لذلك خصّ به سورة طه، وخصّ سورة

1 بكري شيخ أمين: التّعبير الفنّي في القرآن الكريم- ص 189.
2 الآية 40.
3 الآية 13.
4 محمود بن حمزة الكرماني: البرهان في متشابه القرآن- ص 126.
5 سورة القصص- الآية 07.
6 سورة طه – الآية 53.
7 سورة الزّخرف – الآية 10.

الزّخرف بـــ"جعل" ازدواجا للكلام، وموافقة لما قبلها وما بعدها[1]، نحو قوله تعالى:﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾[2]، ويصحّ أن يكون السّبب أنّ (الخلق) تأتي لما لا يتكرّر ويتبدّل، أمّا (الجعل) فتأتي لما يتكرّر ويتبدّل، فالسّبل تتغيّر بفعل الانسان، وكذلك الأرض الممهّدة يحيلها الانسان إلى وعر أو بالعكس، أمّا السّماوات والأرض فخلقُها لله، ولا يمكن تكرار نماذج منها[3]، ومنه قوله تعالى في هذه السّورة:﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴾[4]، وقوله تعالى في سورة الشّعراء:﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[5]، وقوله تعالى في سورة القَصص:﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[6]، فتجد التّصريح بعقدة اللّسان في سورة طه لسبقها، والكناية عنها في الآية الثّانية بما يقترب من التّصريح، ثمّ في الآية الثّالثة بكناية مبهمة، لدلالة تلك الكناية عنها[7]، وفيما يخصّ ائتلاف اللفظ والمعنى وتضامّهما فتجده في القرآن كلّه، ومنه قوله تعالى في هذه السّورة:﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾[8]، فإنّه تعالى لم يُراع فيه مناسبة الرّيّ للشّبع والاستظلال للّبس في تحصيل المنفعة، بل روعِي مناسبة اللّبس للشّبع في حاجة الانسان إليه، وعدم استغنائه عنه، ومناسبة الاستظلال للريّ في كونهما تابعين للّبس والشّبع ومكمِّلين لمنافعهما، لأنّ رعاية ذلك أدخل في حسن الوعد، والامتنان بالنّعم المذكورة لما في جمع الأهمّ منها في الجملة الأولى، وعطف باقيها في الجملة الثّانية من الاستمتاع؛ في مرّة للبشارة بنيل أصول النّعم

1 مادّة (جعل) وردت في سورة الزّخرف اثني عشرة مرّة منـــها: [جعلنـــاه- الآيـــة03].[جعـــل-الآيـــة10].[جعـــل- الآية10].[وجعلوا-الآية15].[وجعلـــوا- الآيـــة19].[أجعلنـــا- الآيـــة45].[فجعلنـــاهم- الآيـــة56].[وجعلنـــاه- الآية59].[لجعلنا- الآية60]. وينظر: التّعبير القرآني: فاضل صالح السّامرّائي- ص 241.

2 سور الزّخرف- الآية 15.

3 محمود بن حمزة الكرماني: البرهان في متشابه القرآن- ص 126.

4 الآية 27.

5 الآية 13.

6 الآية 34.

7 أبو زكريا الأنصاري: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- ص 363.

8 الآيتان – 118. 119.

ومن تكميلها بذكر التّوابع والمتمّمات ما كان يفوت لو لم يفعل ذلك[1]، وقد يتعلّق توارد الكلمات بصيغتها والزّمن الذي ترد فيه، نحو قوله تعالى:﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾[2]، فتجد أساليب ودلالات مختلفة ينسجم كلّ منها مع الآيات التي ترد فيها الأفعال، فالفعل "أتى" في هذه الآية زمن الإتيان هو ما بعد الماضي، فكونُ الفعل قد أتى للدّلالة على ما بعد الماضي، يدلّ على استناده إلى أصل دلالته الإفرادية، وهي المضيّ، لأنّ ما بعد الماضي في هذا السّياق إنّما هو واقع في الماضي كذلك، وفي السّورة نفسها في قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[3]، زمن الإتيان به للحال المستمرّة التي تشبه الحقائق الثّابتة، فالآية عبّرت بالماضي لتأخذ منه دلالته على التّحقّق، أي لا يفلح السّاحر مهما أتى بسحره محقّقا على وجه الكمال[4] ويقول تعالى في هذه السّورة:﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾[5]، وورود المصدر الجاري على غير الفعل[تنزيلا] في هذه الآية إشارة إلى أنّه يتمهّل عليهم رفقا بهم، وأنّ هذا القرآن لا ينزل إلاّ تدريجا إزالةً لشبههم، وشرحا لصدورهم، وتسكينا لنفوسهم، ومدّا لمدّة البركة فيهم بتردّد الملائكة الكرام إليهم، كما أنّه لم يهلكهم بمعاصيهم اكتفاء ببيّنة ما في الصّحف الأولى، بل أرسل إليهم رسولا لئلاّ يقولوا: "ربّنا لولا" كما اقتضته حكمته وتمّت به كلمته، ولمّا كان رجوعهم إلى الدّين على ما يشاهد منهم من الشّدّة والأنفة والشّماخة التي سمّاهم الله بها قوما لدًّا في غاية البعد، شرع سبحانه يذكّر بقدرته إشارة إلى أنّ القلوب بيده يقلّبها بيده كيف شاء كما صوّرها كما شاء، وأنّ شأنه الرّفق والأناة، فقال ملتفتا من التّكلّم إلى الغيبة ليدلّ على ما اقتضته النّون من العظمة، مقدّما ما اقتضى من الحال تقديمه من سكن المدعوّين المعتنى بتذكرهم وهداية

---

1 أبو عبد الله بن أبي القاسم: أنوار التّحلّي على ما تضمّنته قصيدة الحلّي- أعدّه للنّشر وعلّق عليه: مصطفى مرزوقي- تقديم: مختار نويوات- منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية- ط01- 1427هـ/2006م- ج01- ص 523. وينظر:المصباح في المعاني والبيان والبديع: ابن النّاظم- ص 248.

2 سورة طه- الآية 60.

3 الآية 69.

4 عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التّوظيف البلاغي لصيغة الكلمة- بيروت- المكتبة العصرية- صيدا- د ط- 1423هـ/2002م – ص 54.

5 الآية 04.

من أُريد منهم(ممّن خلق الأرض) المنخفضة[1]، ومن دلالات الزّمن التي ترتبط بالتّركيب ما في قوله تعالى:﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾[2]، لمّا كانت الفتنة لم تستغرق جميع الزّمن الذي كان بعده؛ وإنّما كانت في بعضه، أدخل الجار فقال:"من بعدك"[3]، وما يُلاحظ في سورة طه أنّها تستعرض حياة موسى عليه السّلام منذ المولد إلى مراحل متقدّمة من حياته، والصّيغة السّردية في عمومها خطابية، إذ جاء السّرد يعتمد ضمير المخاطب، فالسّرد هنا داخلي، وتمتدي إلى ذلك بداية من الشّروع في القصّة بالأداة (إذ) والموقف موقف اهتداء واستئناس، ثمّ فجأة نورانية وموقف احتمال فموقف المواجهة والاسترسال في الطّلب:"امكثوا"، و"اخلع" و"فاعبدني"[4] بعد ذلك تتماهى الزّمان في كينونة المطلق الممثّل في الحضرة الإلهية بقوله تعالى:﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[5]، وإلى جانب الزّمن والصّيغة اللذين ترد فيهما كلمة مع أخرى فإنّ هناك دلالة تؤدّيها المغايرة في المحكيّ الذي ترد فيه هذه الكلمات عند تضام بعضها مع بعض، نحو ما في قوله تعالى من هذه السّورة:﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[6]، إلى قوله تعالى:﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[7]، وهذه المغايرة في المحكيّ بين ما ورد فيها وما ورد في سورة الشّعراء أو سورة القَصص مناسب لما بُنيت عليه سورة طه من التّأنيس والبشارة لنبيّنا صلّى الله عليه وسلّم من لدن افتتاحها إلى ختامها بقوله لنبيّه:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[8]، وقوله تعالى تهديدا ووعيدا لأعدائه عليه

1برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 267.

2 سورة طه- الآية 85.

3 برهان الدّين البقاعي: المصدر السّابق- ج16- ص 330.

4 سليمان عشراتي: الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السّرد الإعجازي- الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية- د ط - 1998م – ص 118.

5 سورة طه - الآية 14.

6 الآية 24.

7 الآية 36.

8 الآية 132.

السّلام، بخلاف ما بُنيت عليه سورتا الشّعراء والقَصص[1]، أمّا سورة الشّعراء فمبنيّة على ابتداء الرّسالة ودعائه فرعون ومراجعته إيّاه إلى نجاة بني إسرائيل وإغراق فرعون، أمّا سورة القصص فمبنية على ابتداء امتحان بني إسرائيل إلى خروجه عليه السّلام إلى مدين إلى أخذ فرعون وهلاكه.

وممّا وقع في حيّز المغايرة في نسق الاستعمال ما جاء في الآية الكريمة:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾[2]،فالتّعبير القرآني هنا يفرّق بين الإذن والأمر، فإذا أمر انسان انسانا بعمل شيء، فهو يجبّ أن يتمّ عمل هذا الشّيء، ولكن إذا أذن لأحد بعمل شيء معيّن فليس من الضّروري أن يكون محبّا بهذا العمل[3]، ففرعون لم يقل:"قبل أن آمركم"، فهو لم يأت منه أمر بهذا الشّيء، لأنّه ليس على هواه ولا يحبّه، ومنه قوله تعالى:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾[4]، وقوله تعالى في سورة الأعراف:﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ ﴾[5] وقوله تعالى في سورة الشّعراء:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[6]، وردت آية الأعراف بلفظ:"آمنتم به"، وفي الآيتين الأخريين بلفظ:"آمنتم له"، لأنّ الهاء في (آمنتم به) غير الهاء في(آمنتم له)، فالتي في (آمنتم به) لربّ العالمين، وهو الذي دعا إليه موسى عليه السّلام، وأمّا الهاء التي في(آمنتم له) فلنبيّ الله موسى[7]، والدّليل أنّها جاءت في السّورتين وبعدها في كلّ واحدة منهما:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[8]، والذي جاء في قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا

---

1 ابن الزبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التّنزيل- ج02- ص 816.

2 سورة طه – الآية 71.

3 محمّد متولّي الشّعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين- ص 285.

4 سورة طه – الآية 71.

5 الآية 123.

6 الآية 49.

7 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل- ص 130.

8 الآية 71.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[1]، ومن لطائف الإشارات في استعمال القرآن الدّقيق للكلمة مع جاراتها في السّياق قوله تعالى في هذه السّورة:﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[2]، في الآية حبٌّ لموسى عليه السّلام ممّن يراه، وميل القلوب نحوه، حتّى أحبّه فرعون وزوجته، وهذا هو معنى الاستعارة الأولى، أمّا الاستعارة الأخرى ففيها اختصاص بشدّة الرّعاية، وفرط الحفظ والكلاءة. وجاء سبحانه بلفظ العين بدلا من ذكر الحفظ والحراسة إشارة إلى التوفّر عليه بالرّعاية والانصراف إليه بالمراعاة[3]، وهذا أبلغ، ومن دقّة الاستعمال في توارد الكلمة مع ما يناسبها المجيء بلفظ"الجسد" في قوله تعالى:﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾[4] باعتبار أنّ الجسد يُطلق على ما لا روح فيه، بخلاف الجسم مثلا فإنّه خاصّ بالعقلاء حال الحياة[5]، وبخلاف البَدَن الذي يطلق على العقلاء بعد الموت[6]، ومن دلالات تغيّر الصّيغة وتجدُّدها ما في قوله تعالى:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[7]، وما في قوله تعالى في سورة البقرة:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[8]، حيث جاءت الأولى بلفظ:"اتّبع"على وزن "افتعل"وفي الأخرى بلفظ"تبِع" على وزن"فَعِل"، وهذا الوزن الأخير لا يلزم مخالفة الفعل قبله أمّا وزن(افتعل) الذي جاء في الآية الأولى فيُشعِر بتجدّد الفعل، وبيان قصّة آدم عليه السّلام في سورة البقرة لفعله فجاء بـــ (من تَبِع) أمّا في سورة طه فجاء بعد قوله:"ولم نجد له عزماً" و"عصى آدم ربّه فغوى" فناسب ذلك أنّه يأتي (من اتّبع) أي جدّد قصّة الاتّباع[9]، وإضافة الهدى والذّكر إلى الذّات العليّة في قوله تعالى:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ

---

1 سورة الأعراف- الآية 123.

2 الآية 39.

3 فتحي أحمد عامر : المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني- القاهرة- منشأة المعارف- د ط – د ت- ص 417.

4 سورة طه – الآية 88.

5 ينظر الآية 247 من سورة البقرة.

6 ينظر الآية 92 من سورة يونس.

7 سورة طه – الآية 123.

8 الآية 38.

9 أحمد مصطفى متولّي: الموسوعة الذّهبيّة في إعجاز القرآن والسّنّة النّبويّة- ص 561.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[1] تفيد التّعظيم، وإعلاء شان الهُدى والذّكر، ونبّهت إلى وجوب القَبول وضرورة الاتّباع، فإنّ ذكرا وهُدىً ذاك شأنهما لحريّان بوجوب التّمسّك بهما، وحسن الانقياد لهما، ففي هذا الفلاح كلّ الفلاح والفوز كلّ الفوز[2]، وفيما عداه البوار والخسران، وممّا جاء أيضا في ضوء المغايرة قوله تعالى في هذه السّورة:﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[3]، وقوله تعالى في سورة السّجدة:﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[4]، وذلك أنّ الآية الأولى جاءت بعد ذكر موسى عليه السّلام وفرعون والسّامريّ وهلاكهم، وذكر آدم وحوّاء عليهما السّلام فناسب ذكر (قبل) العامّة لما تقدّم من الزّمان، وآية سورة السّجدة خالية من ذلك[5]، فأتى بـــ (من) المقرّبة للزّمان، ومنه مغايرة الصّيغ في الأفعال، نحو (أمدّ) و (مدّ)، حيث يقصر القرآن الفعل (أمدّ) على الخير دائما[6]، في حين ترد (مدّ) في الخير والشّرّ، فترد في الخير إذا كان الحديث عن الإخبار عن غير الانسان[7]، وترد في المكروه إذا جاءت في سياق الحديث عن الانسان، نحو قوله تعالى:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[8]،وفي القرآن آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى، ولا تختلف عنها إلاّ في مواطن قليلة، كأن يكون الاختلاف في حرف أو حركة أو كلمة، وذلك نحو قوله تعالى في هذه السّورة:﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ ﴾[9]، وقوله تعالى في

---

1 الآيتان 123. 124.

2 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني– ص 44.

3 الآية 128.

4 الآية 26.

5 أحمد مصطفى متولّي: الموسوعة الذّهبيّة في إعجاز القرآن والسّنّة النّبويّة– ص 635.

6 ينظر الآية 132 من سورة الشّعراء.

7 ينظر الآية 03 من سورة الرّعد.

8 سورة طه – الآية 131.

9 الآية 128.

سورة السّجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[1]، الأولى بلفظ"أفلم" والأخرى بلفظ"أو لم"، لأنّه ذكر في سورة طه العقوبات في الدّنيا علاوة على الآخرة، في الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2]، والآية الكريمة بعدها: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[3]، فذكر المعيشة الضّنك في الدّنيا، بخلاف سورة السّجدة، فإنّه أخّر الأمر إلى يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[4]، فجاء بالفاء في سورة طه لأنّها تفيد التّعقيب، وجاء بالواو في سورة السّجدة، وملحظ آخر هو أنّه في سورة طه جاء بجملة "قبلهم من القرون" وفي الآية الأخرى "من قبلهم من القرون" بدون "من"، لأنّه في سورة السّجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه، فبدأ بهلاك من هو أقرب فجاء بـ"من" الدّالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في سورة طه، فإنّه ذكر قوم موسى وهم قبل الرّسول بمدّة طويلة وليسوا من قبله، ثمّ ننظر كيف ختم سورة السّجدة بقوله:"أفلا يسمعون" وذلك لأنّهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإنّ خاتمة الأقرب ممّا يؤخذ عن طريق السّماع، بخلاف الأقدمين إليهم، وهذه إشارة تهدينا إلى خاتمة سورة طه[5]، لندرك جلالة هذا الكلام وارتفاعه، ومن الأساليب التي تربط السّورة بمضمونها العامّ أسلوب النّهي الذي تردّد كثيرا فيها، مرّة في نهي موسى عليه السّلام عن الانصداد وإظهار اللّين للكافرين في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾[6] ومرّة في قوله تعالى بغرض الإيناس ورفع الرّهبة: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا

---

1 الآية 26.

2 الآية 124.

3 الآية 127.

4 الآية 25.

5 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني- ص 197.

6 الآية 16.

ٱلْأُولَىٰ﴾[1]، وفي قوله تعالى:﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[2]، في جملة مستأنفة وجواب سؤال مقدّر، وهو كثير في القرآن الكريم، وهو نهي لهما – عليهما السّلام- عن الخوف وقوله تعالى:﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾[3]، دعا عليهم بالويل ونهاهم عن افتراء الكذب عن سبيل التّوجيه والإرشاد. ، ومنه قوله تعالى:﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾[4]، وهو اعتذار من هارون عند موسى عليهما السّلام بسبب تأخُّره عنه، وقد ترقّق له بذكر الأمّ مع أنّه شقيقه لأبويه،لأنّ ذكر الأمّ هنا أرقّ وأبلغ، أي في الحنوّ والعطف، وبالتّالي فأسلوب النّهي في هذه الآيات هو أسلوب يطلب به الكفّ عن شيء على طريق الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بـــ (لا) النّاهية[5]، فلا شكّ في أنّ كلمة من الكلمات وُضعت في مكانها الأليق بها وضامّت ما يناسبها، وأنّ كلّ أسلوب من الأساليب مقصود، وأنّ كلّ تغيير في ذلك له بيانه وغرضه، ومن لطائف الصّيغ التي افتتح بها الله سبحانه هذه السّورة ذلك الاستفهام في بداية القصّة، وليس المراد به حقيقة الاستفهام، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سرّ لطيف ومعنى بديع، فإنّ المتكلّم إذا أراد أن يخبر المخاطَب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذّهن له، صدّر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبَر به فتارة يصدّر بـــ"ألا"وتارة يصدّر بـــ"هل" في نحو هذه الآيةالمتضمّن لتعظيم هذه القصص والتّنبيه على تدبّرها ومعرفة ما تضمّنته، وفيه أمر آخر هو التّنبيه على أنّ إتيان هذا إليك عَلَمٌ من أعلام النّبوّة، فإنّه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلاّ من قِبَلِنا؟[6] فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام وتأمّل عِظَم موقعه من جميع موارده، يشهد أنّه من الفصاحة في ذروتها العليا.

---

1 الآية 21.

2 الآية 46.

3 الآية 61.

4 الآية 94.

5 محمود السّيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز- ص 305.

6 ابن قيّم الجوزية: البدائع في علوم القرآن- انتقاء وتحقيق: يسري محمّد السّيّد- بيروت- دار المعرفة- ط01- 1424هـ/2003م- ص 434.

2- التّقديم والتّأخير:

أشرنا إلى هذا المبحث في الفصل السّابق وقلنا إنّه من مظاهر التّوارد الرّئيسة، وإنّـه ذو صلة وثيقة بموضوع التّضام وقضايا البلاغة والإعجاز، وستكون لنا وقفة معه في آيات من سورة أخرى هي سورة طه.

يقول الحقّ تعالى:﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾[1]، في القرآن ما يزيد على مئتي موضع تقدّمت فيها السّماء على الأرض جريا على الأصل في تقديم الأشرف، بينما تقدّمت الأرض على السّماوات في ثلاث عشرة آية، منها آيتان وقعت السّماء فيهما فاصلة وإحداهما فقط وقعت الفاصلة مسجوعة هي هذه الآية من سورة طه[2]، فتقديم الأرض على السّماء من المواطن التي قيل فيهاإنّ القرآن غاير فيها بين المتعاطفات لتناسب الفواصل، مخالفة للأصل من تقديم الأشرف على ما هو دونه، فقيل إنّ تقديمها على سبيل تحقيق السّجع، وقد جاء عن بعضهم أنّ عشرات المرّات ورد ذكر الأرض مقرونة بالسّماء مفردة ومجموعة، وفي هذه المرّات نجد أنّ السّماء أو السّماوات مقدّمة على الأرض إلاّ في مواضع قليلة جدّا قدّم فيها ذكر الأرض ويتجلّى في موضعين، وذلك من أجل تناسب الفواصل، منه هذه الآية)فإنّ فواصل الآيات على الألف ومراعاة للتّناسب بين هذه الفواصل قدّمت الأرض على السّماوات التي وُصفت بـــ"العُلى" المختوم بالألف، ولذلك لمّا انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرّة أخرى بينهما في الآية التّالية للآيات السّابقة مباشرة عاد الاقتران إلى أصله، فقدّمت السّماوات على الأرض[3]، وإذا اعتددنا بمثل هذا القول الذي يعتبر التّقديم فيه لمجرّد رعاية الفواصل، فإنّ عشرة مواضع أخرى تقدّمت فيها الأرض على السّماء وليست فاصلة يصبح تقديمها عاريا من الفائدة، وهو ما لا يصحّ وقوعه بحال في بيان المعجز، على أنّ أحد الموضعين اللذين وقعت فيهما السّماء فاصلة جاءت فاصلته بين فواصل متغايرة الرّويّ والوزن، في قوله تعالى:﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ

---

1 الآية 04.

2 السّهيلي: نتائج الفكر في النّحو- ص 270. وينظر: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية: هدى عطيّة عبد الغفّار- ص 259.

3 الآية 06. وينظر: الآيتان 38. 39 من سورة إبراهيم.

ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]، فجاءت الفواصل[الإنجيل، انتقام، السّماء، الحكيم]، وفهم أسرار التّقديم والتّأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب التّقديم في الزّمان والشّرف، فإذا لم يكن المتقدّم أسبق زمانا أو أعلى رتبة فقد مرجّحات تقديمه، وقد أشار السّهيلي إلى أسباب عديدة للتّقديم فقال:« ما تقدّم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدّم المعاني في الجنان، والمعاني تتقدّم في إحدى خمسة أشياء: إمّا بالزّمان، وإمّا بالطّبع، وإمّا بالرّتبة، وإمّا بالسّبب، وإمّا بالفضل والكمال، فإذا سبق معنى من المعاني على الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها سبق اللّفظ الدّالّ على ذلك المعنى السّابق، نعم وربّما كان ترتّب الألفاظ بحسب الخفّة والثّقل لا بحسب المعنى كقولهم:ربيعة ومضر، وكان تقديم مُضَر أولى من جهة الفضل، ولكنّهم آثروا الخفّة لأنّك لو قدّمت مُضَر في اللّفظ كثرت الحركات وتوالت، فلمّا أُخّرت وقف عليها بالسّكون»[2] فهو يذكر خمسة أسباب للتّرتيب بحسب المعاني، وسببا لفظيا جرى عليه لسان العرب في الميل إلى خفّة اللّفظ وسهولة جريانه على الألسنة، ثمّ إنّ هذه الأسباب تختلف في ذاتها طبقا لمواقعها ودواعي السّياق، فمثلا التّقدّم في الرّتبة قد ينظر إلى الفضل والشّرف فيقدّم الأعلى، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدّم الأدنى إذا كان سياقه أقرب[3]، وبهذا فسّر السّهيلي تقديم السّماء على الأرض تارة، وتقديم الأرض تارة أخرى، فقال:« أمّا تقديم السّماء على الأرض فبالرّتبة والفضل والشّرف، وأمّا تقديم الأرض من قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾[4]، فالبرتبة لأنّها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه، وهو المخاطبون بقوله:"ولا تعملون من عمل" فاقتضى حسن النّظم تقديمها مترتّبة في الذّكر مع المخاطبين الذين هم أهلها»[5]، أمّا آية سورة طه فقد وقع البيضاوي على سرّ دقيق لتقديم الأرض

---

1 سورة آل عمران– الآيات: 02– 06.

2 السّهيلي: نتائج الفكر في النّحو– ص 267.

3 محمّد الأمين الخضري: من أسرا المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية– ص 13.

4 سورة يونس– الآية 61.

5 السّهيلي: السّابق– ص 270.

يكشف عنه قوله:«تفخيم لشأن المنزّل بغرض تعظيم المنزّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسّماوات وهي أصول العالم، وقدّم الأرض لأنّها أقرب إلى الحسّ وأظهر عنده من السّماوات»[1]، فنظر في ترتيب المعاني وحصرها في الألفاظ إلى حركة العقل في توجيه لإدراك حقائق الخلق، توصّلا منها إلى الخالق، فهو يدرك ظواهر الأشياء أوّلا ثمّ ينفذ منها إلى خوافيها، لذا كان نسق الآيات متجاوبا مع هذه الحركة العقلية فقدّم القرآن بين يدي تعظيم المنزّل صفات الأفعال على صفات الذّات، فبدأ بخلق الأرض والسّماوات)والخلق صفة فعل، وهي تابعة في الوجود لصفة الذّات، وهي الرّحمة التي بها كان الخلق، ثمّ جاء قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[2] لأنّه لمّا كان القادر قد لا يكون ملكا، قال دالاّ على ملكه مادحا له بالقطع خبرا لمبتدأ محذوف، مفتتحا بالوصف المفيض للنّعم العامّة للطّائع والعاصي[3] وربطا للمحسوس بالمعقول، واهتداء بالشّاهد على الغائب، ثمّ كان البدء بالأرض في صفة الخلق هو الأحقّ، لقربها من الانسان وظهور العلم بها، انطلاقا إلى العلم بما هو أعظم وأخفى، فليس التّرتيب هنا بين الأرض والسّماوات ترتيب وجود، ولا ترتيب تعظيم، وإنّما هو مسايرة لحركة العقل في إدراك حقائق الأشياء حسب قربها وظهورها بغية الاستدلال بالقريب الأظهر على البعيد الأخفى[4]، وقد ذهب الألوسي إلى أنّ تقديم الأرض بحسب المقام، فإنّ الإنعام على النّاس بخلق الأرض أظهر وأتمّ وهي أقرب إلى الحسّ، وقيل لأنّه أوفق بمفتتح السّورة على جعل (طه) جملة فعلية أي"(طأ الأرض) بقدميك، أو لقوله تعالى:﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[5]، بناء على أنّه جملة مستأنفة لصرفه صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان عليه من رفع إحدى رجليه على الأرض في الصّلاة كما جاء في أسباب النّزول[6]، ففي تقديم الأرض- بين يدي مواساة الله لنبيّه، وإزالة ما سبّبه له إعراض قومه من آلام وأحزان- تلمح الارتباط بين الشّقاء وموطنه هو الأرض[7]، فكان

1 أنوار التنزيل وأسرار التأويل- ج01- ص 449.
2 سورة طه – الآية 05.
3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 268.
4 محمّد الأمين الخضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية- ص 15.
5 الآية 02.
6 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- بيروت- دار إحياء التراث- د ط – د ت- ج16- ص 152.
7 محمّد الأمين الخضري: السّابق- ص 15.

البدء به هو الأليق ببلاغة النّظم، ولمّا قدّم الأرض إعلاما بالاعتناء برحمها والترفّق بسكّانها ليملأها بالإيمان منهم تحقيقا لمقصود السّورة وتشريفا للمنزّل عليه،أتبعها محل الإنزال على سبيل الترقّي من بيت العزّة إلى ما كنزه في خزانة العرش، وبعد ذلك لمّا كان الملك قد لا يكون مالكا قال:﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾[1]، مقدّما الأشرف على العادة؛ (له ما في السّماوات) كلّه من عاقل وغيره، و(ما في الأرض) جميعه و(ما بينهما) و(ما تحت الثّرى)[2].

ومن أسرار التّقديم والتّأخير في هذه السّورة قوله تعالى:﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[3]، فالاستماع مسبّب للاختيار ومترتّب عليه، فإنّ الاختيار من موجبات الاستماع:"لِمَا يُوحَىٰٓ "للذي يوحي،أو للوحي والأمر بالاستماع أمر بالتّأهّب، وبعدها رتّب على وحدانية الله العبادة بالفاء في قوله:"فَٱعۡبُدۡنِي " ولمزيّة الصّلاة خصّها بالذّكر بعد ذلك تخصيصا بعد تعميم العبادة[4]، فقدّم "فاستمع" اهتماما به، ثمّ تسبّب عن ذلك وجوب إفراده بالعبادة، ثمّ خصّ من بين العبادات معدن الأنس والخلوة، وآية الخضوع والمراقبة وروح الدّين فجاء بالصّلاة، وهكذا القرآن في التّقديم والتّأخير يعرب عن جلالة نظمه وعلوّ منزلته، ومنه أيضا قوله تعالى:﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴾[5] تقديم الجار والمجرور على الفاعل من الاهتمام بالمقدّم والتّشويق إلى المؤخّر، ولأنّ في المؤخّر نوعَ طول بما يخلّ تقديمه بجزالة النّظم الكريم، وقدّم عليه السّلام بيان مصلحة نفسه في قوله:"أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا " وثنى بمصلحة رعيّته في قوله:"وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي" وقيل لعلّ تقديم التّوكّؤ عليها لأنّه أوفق للسّؤال بما تلك بيمينك[6]، وممّا يظهر جرّاء التّقديم مثلا ما

1 سورة طه – الآية 06.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور-ج16- ص 269.

3 الآيتان 13. 14.

4 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير- ج09- ص 129.

5 سورة طه – الآية 18.

6 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج 16- ص 176.

جاء في قوله تعالى:﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾[1]، فقال بعضهم إنّ تقديم الجار والمجرور (بنا) على متعلّقه (بصيرا) لمراعاة الفواصل، وكأنّه رأى أنّ التّخصيص لا يتأتّى فيه، لأنّ بصر الله تعالى لا يغيب عنه شيء من خلقه، فلا يصحّ حصره في المتكلّم، لكنّك حين تنعم النّظر ترى أنّ البصر الذي عناه موسى هو ما خصّه الله به من العناية واللّطف في كلّ أطوار حياته، منذ تعلّقت إرادة له بوجوده، إلى الوقت الذي صدح فيه بهذا الدّعاء، كما هو صريح قوله تعالى امتنانا عليه:﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾[2]، فكان التّقديم وحده هو الذي يظهر إحساس موسى عليه السّلام بفضل الله عليه[3]، وما خصّه من الفضل المستوجب لعظيم الشّكر والذّكر، ومنه قوله تعالى:﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾[4]، لفظ:"وزير" هنا مفعول ثان لـــ (اجعل)، وقدّم على الأوّل الذي هو قوله:"هارون" اعتناء بشأن الوزارة لأنّها مطلوبة، و قيل في تقديم التّسبيح على الذّكر إنّ التّسبيح تنزيه عمّا يليق، ومحلّه القلب، والذّكر ثناء بما يليق ومحلّه اللّسان، والقلب مقدّم على اللّسان[5]،ومنه قوله تعالى:﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[6]، وهنا قضيّة تقديم السّمع والبصر، أمّا تقديم السّمع على البصر فهو متقدّم عليه حيث وقع في القرآن مصدرا أو فعلا أو اسما، ومثال الفعل نحو هذه الآية، وهذا التّقديم للسّمع على البصر قيل إنّ له سببين؛ إنّ إنكار الأوهام الفاسدة لسمع الكلام، مع غاية البعد بين السّامع والمسموع، أشدّ من إنكارها لرؤيته مع بعده، أمّا الآخر فأن يكون السّياق يقتضيه، بحيث يكون ذكرها بين الصّفتين متضمّنا للتّهديد والوعيد، كما جرت عادة القرآن بتهديد المخاطَبين وتحذيرهم بما يذكره من صفاته التي تقتضي الحذر والاستقامة، والقرآن مملوء من هذا، وعلى هذا فيكون في ضمن ذلك أنّي أسمع ما

1 الآيات 33. 34. 35.

2 الآية 39.

3 محمّد الأمين الخضري: من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية– ص 60.

4 سورة طه –الآيات 29. 30. 31. 32.

5 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني– ج16– ص 186.

6 سورة طه – الآية 46.

يردون به عليك وما يقابلون به رسالاتي، وأبصر ما يفعلون، ولا ريب أنّ المخاطَبين بالرّسالة بالنّسبة إلى الإجابة والطّاعة نوعان؛ أحدهما قابلوها بقولهم: صدقت ثمّ عملوا بموجبها والآخر: قابلوها بالتّكذيب، ثمّ عملوا بخلافها، فكانت مرتبةُ المسموع منهم قبل مرتبة البصر فقدّم ما يتعلّق به على ما يتعلّق بالمبصر، وتأمّل هذا المعنى في قوله تعالى لموسى عليه السّلام في هذه الآية السّابقة:"أَسْمَعُ وَأَرَىٰ"، هو يسمع ما يجيبهم ويرى ما يصنعه[1]، وهذا لا يعمّ سائر المواضع، بل يختصّ منها بما هذا شأنه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[2]، لمّا كان المقام لإظهار الخوارق على يديه، فكان ربّما فهم أنّه أوقعه في نفس أحد غيره، كان المقام للاهتمام بتقديم المتعلّق، فقال ذلك لا مراعاة للفواصل "في نفسه" أيّ خاصّة، وقدّم ما المقام به والاهتمام به، فقال:"خيفة موسى" مثل ما خاف من عصاه أوّل ما رآها كذلك على ما هو طبع البشر، وللنّظر إلى الطّبع عبّر بالنّفس لا بالقلب مثلاً[3]، فتأخير الفاعل على غير ما ترسمه قواعد النّحو، إلاّ لأمر فنّي هو ما يقولون: إنّ النّفس تتشوّق لفاعل "أوجس"، فإذا جاء بعد أن أُخّر وقع بموقع[4] لأنّ أصل الكلام أن يتّصل الفعلُ بفاعله ويؤخّر المفعول، لكن أخّر الفاعل هنا، فالتّقديم في الآية لم يلجأ إليه القرآن لأجل مزيّة السّجع وحدها أو لتناسب الفواصل؛ وإلاّ كان شأنه في هذا شأن السّجع في غيره، بل من مزايا التّقديم في الآيتين غير مزية السّجع الاهتمام بشأن سحرهم والمبالغة في الخيفة التي حدثت في نفسه، والاهتمام بإثباتها له[5]، لأنّ التّقديم للضّرورة ليس من البلاغة في شيء، وممّا يُتوهّم فيه أنّ تقديم بعض الألفاظ على بعض لتعادل رؤوس الآي قوله تعالى في هذه السّورة:﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[6]، ولقد نالت هذه الآية الكريمة عناية كبيرة من قبل الباحثين، وتكلّموا فيها من حيث التّقديم والتّأخير وأثر الفواصل، فردّ بعضهم هذا التّقديم والتّأخير لموافقة رؤوس الآي في السّورة، نحو ما يقوله ابن جزي:« قدّم

1 ابن قيّم الجوزية: البدائع في علوم القرآن- ص 235.

2 سورة طه – الآية 67.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج 16- ص 307.

4 بدر الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج01- ص 62.

5 عبد المتعال الصّعيدي: البلاغة العالية، علم المعاني- ص 86.

6 الآية 70.

هارون على موسى لتعادل رؤوس الآي»[1]، وقد برّر بعضهم هذا بسبب ما يقتضيه السّياق، لأنّ الآية بعد هذا:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[2]، والضّمير في (له) يعود إلى أقرب مذكور، ولهذا لم يقل :"ربّ موسى وهارون"، فكان لابدّ لإقامة السّياق من التّرتيب الذي عليه الآية، وأمّا الفاصلة فلأنّ رؤوس الآيات في السّورة جاءت في الأغلب بألف المدّ المقصورة أو الممدودة[3]، فإذا تتبّعنا اقتران موسى وهارون عليهما السّلام في القرآن فسنجده عشر مرّات، في تسع منها يتقدّم فيها ذكر موسى على هارون، وفي أربع منها في غير الفاصلة، وخمس في الفاصلة، وتقدّم ذكر هارون على موسى في موضع واحد وفي الفاصلة، تمثّله هذه الآية، وهو موضع الخلاف، ومن مسوّغات الابتداء بـــ (هارون) هنا أنّ (هارون) أفصح من (موسى) عليهما السّلام، وأكبر منه بثلاث سنوات، وهما ميزتان تسمحان له بتقدّمه في أحد المواضع حين يُذكران[4]، ولكن الإشكال الذي يبقى مطروحا هو لماذا هذا الموضع دون موضع آخر؟ وهنا نعود بالمسألة إلى التّراث حين أثارها الباقلاّني عند حديثه عن نفي السّجع من القرآن ليتعرّض لهذه المسألة بقوله:« وأمّا ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السّلام في موضع، وتأخيره عنه في موضع، لمكان السّجع، ولتساوي مقاطع الكلام، فليس بصحيح، لأنّ الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أنّ إعادة ذكر القصّة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدّي معنى واحدا من الأمر الصّعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبيّن فيه البلاغة، وأُعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونبّهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله، مبتدأ به ومُكرّرا»[5]، بيد أنّ جوابه هذا يبقى محلّ إشكال أيضا، لأنّه يفترض أنّ اختلاف الصّياغات في تكرار القصص إنّما هو إظهار القدرة على إعادة القصّة مع إحكام الصّوغ ودقّة السّبك، وهذا ممّا يصعب، وليس اختلاف الصّياغة في تكرار القصّة لذلك، ولا لبيان عجزهم عنها

1 التّسهيل لعلوم التّنزيل– ج02– ص22.

2 سورة طه – الآية 71.

3 كمال الدّين مرسي: فواصل الآيات القرآنية – ص 74.

4 محمّد الحسناوي: الفاصلة في القرآن– عمان – دار عمار– ط02– 1421هـ/2000م– ص 119.

5 إعجاز القرآن– ص115.

ابتداء وتكررا[1] أمّا تقديم هارون على موسى عليهما السّلام في آية سورة طه، ففيه إشارة معنوية لا تكون لو أُخّر، وذلك أنّ موسى وهارون عليهما السّلام، وإنْ حُمّلا معا أمر الله:﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[2]، إلاّ أن موسى عليه السّلام هو الأصل فهو الذي خوطب:﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾[3] وهو الذي أوتي الكتاب وأيّد بالحجّة يجعل لقولهم:﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[4]، معنى ليس في قولهم:" آمنّا بربّ موسى وهارون" لأنّ بدءهم بمن ليس أفضل دالّ على إظهار قوّة الاقتناع بالحجّة والإيمان بها، وذاك لأنّ الآية لم تظهر على يد هارون عليه السّلام ولم يكن هو الغالب،وليس في تقديم موسى عليه السّلام الذي لفقت عصاه ما صنعوا شيءٍيلفت لأنّه هو الأصل، أمّا تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللاّفت لأنّه جاء على خلاف الأصل، ويُلاحظ أنّ سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السّحرة بهذه المغالبة[5] واحتشادهم لها احتشادا جعل موسى عليه السّلام يقول لهم بعدما جعلوا موعدهم يوم الزّينة: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾[6]، وقد ذهب الخطيب الإسكافي إلى تفسير هذا التّقديم والحذف، إذ لم يذكر جملة:"ربّ العالمين" مثلما ذكرها في سورتي الأعراف والشّعراء، بسبب الفواصل، مراعيا في ذلك جانب المعنى لا أداء اللّفظ[7]، كما ذهب أبو بكر الرّازي إلى أنّ تقديم موسى على هارون في الآية إنّما ليقع موسى مؤخّرا في اللّفظ فيناسب الفواصل، يعني رؤوس الآيات، وقد وقف محمّد الأمين الخضري عند هذه الآراء وبدأ يمعن في صحّتها، ومن جملة ما ذهب إليه أنّ القول بحذف "ربّ العالمين" من سورة طه -كما ذهب الخطيب الإسكافي- لمجرّد التّشاكل إهمال لما بُنيت عليه هذه السّورة من الإيجاز في تصوير

---

1 محمّد محمّد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم- القاهرة- مكتبة وهبة- د ط- 1427هـ/2006م- ص 204.

2 سورة طه – الآية 43.

3 سورة طه – الآية 42.

4 الآية 70.

5 محمّد محمّد أبو موسى: السّابق – ص 205.

6 الآية 61.

7 درّة التنزيل وغرّة التأويل- ص 128.

هذا الحدث، كما يدلّ عليه ترتّب سجود السّحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء، دون ذكر إلقاء موسى عصاه، وهو ما تفرّدت به سورة طه. أمّا تقديم هارون عليه السّلام على موسى عليه السلام فقد تكاثرت فيه التّعليلات كانت أوهاها ما ردّ الباقلاني على القائلين بالسجع في القرآن[1]، وهو أنّ «إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا، من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبيّن فيه البلاغة»[2] لأنه يردّ عليه أنّ مخالفة التّرتيب تتمّ على وجهها لو وقعت في إحدى السّورتين: الأعراف والشعراء، لمغايرها لفواصل السّورة. أمّا أن تكون المخالفة في سورة طه التي تتحقّق بها مراعاة الفواصل، فإنّ هذا لا يُسقِط حجّة المعارضين، ومثل هذا يردّ كذلك على ما قاله بعضهم من أنّ تقديم هارون عليه السّلام لكبر سنّه، أو لدفع وهم أن يكون المقصود بربّ موسى عليه السّلام لو قدّم هو فرعون لسابق تربيته له، ويكون ذكر هارون عليه السّلام على ذكر الاستتباع. فيقال لهم: ولِمَ لَمْ يراعِ هذا في سورتي الأعراف والشّعراء؟ وما الذي استدعى دفع هذا التوهّم في هذا الموضع خاصّة؟

وهذا نفسه يردّ على ما ذهب إليه الحسناوي من أن هذا التّقديم (يصوّر الحالة النّفسيّة التي كان عليها السّحرة لمّا ظهرت معجزة موسى، فألْقُوا سجّدا يتلعثمون بالشّهادة، فلِمَ ظهر هذا التلعثم في سورة طه وحدها دون الموضعين الآخرين؟ اللّهم إلاّ أن يقال: إنّ تصوير الحدث في سورة طه بما تضمّنه من اختفاء موسى عليه السّلام بعد أن أمر الله تعالى بالإلقاء، وترتيب سجودهم وإيمانهم وقولهم هذا على الأمر بالإلقاء، وكأنّ المعركة بينهم وبين الله تعالى لا بينهم وبين موسى عليه السّلام، وما يوحيه من السّرعة في حسم المعركة وشدّة الهزيمة، وهو ما تميّزت به هذه السّورة؛ ولكنّه لم يقل هذا ولا شيئا يبرّر به هذه المغايرة.

ولعلّ أقرب الآراء إلى القبول ما ذكره محمّد أبو موسى معتمدا على وحي السّياق، وهو أنّ بدء السحرة(بمن ليس أفضل دالٌّ على إظهار قوة الاقتناع بالحجّة والإيمان بها، وذلك لأنّ الآية لم تظهر على يد هارون، ولم يكن هو الغالب، وليس في تقديم موسى عليه السّلام الذي لقفت عصاه ما صنعوا شيء يلفت، لأنه هو الأصل، أمّا تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللاّفت، لأنّه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أنّ سياق سورة طه فيه فضل عناية

1 من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية– ص 16.

2 إعجاز القرآن– ص115.

بيان حفاوة السّحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشادا جعل موسى عليه السّلام يقول بعد ما جعلوا موعدهم يوم الزينة:﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾[1]، وتوسيعا لدائرة السّياق وامتدادا لما ذكره أبو موسى يظهر هنا ملحظ آخر، تمتدّ فيه العناية من التّركيز على احتشاد السّحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون عليه السّلام ومشاركته المؤثّرة في الأحداث، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل التّرقّي بعد أن كان ذكره في السّورتين على سبيل التّبعيّة، أمّا لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون عليه السّلام في هذه السّورة وحدها فهذا ما يفصح عنه السّياق، حيث جاء في دعاء موسى عليه السّلام من هذه السّورة:﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾[2]، فهي السّورة الوحيدة التي صرّح فيها بهذه المشاركة، وهي أقوى في إبراز دوره من قوله في سورة الشّعراء:﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ ﴾[3] وهي الوحيدة بين السّور الثّلاث التي طلب فيها من ربّه أن يجعله وزيراً، وقال في هذه السّورة: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[4] فأبرز بتثنية الرّسول استقلال هارون عليه السّلام، في حين ظهرت تبعيّته في إفراد الرّسول من سورة الشّعراء:﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5]، واستمرارا لإبراز استقلال هارون عليه السّلام ومشاركته المؤثّرة في الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى عليه السّلام من السّحر، في قوله تعالى:﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾[6]، فتوالت ضمائر التّثنية لتؤكّد مشاركة هارون لموسى عليهما السّلام في مجابهة القوم، أمّا في سورتي

1 الآية 61.
2 سورة طه – الآيات 29. 30. 31. 32.
3 الآية 13.
4 الآية 47.
5 الآية 16.
6 الآية 63.

الأعراف وطه فقد أفردوا موسى عليه السّلام بوصف السّحر وتوارت شخصية هارون عليه السّلام تماما، فجاء في سورة الأعراف:﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[1]، وفي سورة الشّعراء:﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[2]،كلّ ذلك جعل من تقديم هارون عليه السّلام في سورة طه إبرازا لدوره، وتركيزا في مشاركته في الأحداث ثمّ جاء موسى عليه السّلام بعده على سبيل التّرقّي من البدء بالأفضل فالأفضل[3]، بخلاف ذكره بعد موسى عليه السّلام في مثل سياقاته فإنّه يوحي بتبعيّته، ويبدو في دور المساند لا المشارك.

يقول الحقّ تعالى:﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾[4]، والتّقديم في الآية في (جسد)، والمعروف أنّ عجليته صورة لا معنى، على قوله:"له خُوار" لئلاّ يسبق إلى وهم أنّه حيّ، فتمرّ عليه لمحة على اعتقاد الباطل[5] ، وممّا وقع في حيّز التّقديم والتّأخير أيضا قوله تعالى:﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾[6]، فقدّم (من لدنّا) على طريق الاهتمام[7]، وأخّر (ذكرا) للتّشويق وهو القرآن الكريم، ومن لطائف ما جاء من التّقديم والتّأخير في هذه السّورة قوله تعالى:﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[8]، وأصل الكلام:" ولولا كلمة سبقت من ربّك وأجل مسمّى لكان لزاما"، ولتوضيح المعنى، علينا أن نذكر قول الله تعالى في الآية السّابقة عليها، وهو قول الحقّ سبحانه:﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

1 الآيتان 109. 110.

2 الآيتان 34. 35.

3 محمّد الأمين الخضري: من نسق الفاصلة في القرآن الكريم- ص 17- 19.

4 سورة طه- الآية 88.

5 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 330.

6 سورة طه – الآية 99.

7 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير- ج09- ص 212.

8 الآية 129.

لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[1]، والمعنى : ألم يعتبر هؤلاء بما حدث للأمم السّالفة؟ ولولا كلمة سبقت من ربّك بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لكان العذاب لازما وواقعا عليهم لعدم اعتبارهم وغفلتهم ويتّضح أيضا أنّ (أجل مسمّى) معطوفة على (كلمة)، وهذا الإجمال قد أتى في هذه الآية في حالة التّقديم والتّأخير، ومعلوم أنّ التّقديم والتّأخير لون من ألوان الفصاحة في الأسلوب، وله ما له من الأغراض البلاغية[2]، نحو الاهتمام بالشّيء وإظهار ضرورته.

1 الآية 128.

2 السّيد أحمد عبد الغفّار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه– ص 219.

3. المناسبـــة:

سورة طه تُسمّى أيضا سورة الكليم، وهي سورة مكيّة في قول الجميع[1]، كما ذكر ذلك السّخاوي في جمال القرّاء، وكما أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس، وابن الزّبير رضي الله تعالى عنهم أنّها سورة مكيّة، واستثنى بعضهم[2] منها قوله تعالى:﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[3]، وقوله تعالى:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4]، وهناك من ردّ قول من قال إنّ هاتين الآيتين مدنيّتان، بل انسجامهما كلّيا مع السّياق سبكا وموضوعا يسوّغ الشّكّ في الرّواية، وفي فاتحة السّورة ما يمكن أن يكون قرينة على صحّة نزولها بعد سورة مريم، وأنّ فصول السّورة مترابطة منسجمة، كما أنّ آياتها متماثلة في التّسجيع، وأكثر مقاطعها متوازنة مقفّاة، ممّا يسوّغ القول إنّها نزلت فصولا متلاحقة[5] .

هذه السّورة هي الخامسة والأربعون في ترتيب النّزول، نزلت بعد سورة مريم، وقبل سورة الواقعة، ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وعُدّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكّة مئة وأربعا وثلاثين، وفي عدد أهل الشّام مئة وأربعين، وفي عدد أهل البصرة مئة واثنتين وثلاثين، وفي عدد أهل الكوفة مئة وخمسا وثلاثين[6]، وفي سبب نزولها قالت فرقة إنّما هو ما كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتحمّله من مشقّة الصّلاة حتّى كانت قدماه الشّريفتان تتورّم ويحتاج إلى التّرويح بين قدميه فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب حتّى تحتاج إلى التّرويح

---

1 القرطبي: الجامع لأحكام القرآن- مج06- ج11- ص 110. وينظر: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:ابن عطيـــة الأندلسي(ت546هـــ)- عبد السّلام عبد الشّافي محمّد- بيروت- دار الكتب العلميـــة- ط01- 1422هـــ/2001م- ج04- ص 36.

2 ينظر: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل: الزّمخشري- ج04- ص 63. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: شهاب الدّين الألوسي- ج15- ص 147.

3 الآية 130.

4 الآية 131.

5 محمّد عزّة دروزة: التّفسير الحديث- بيروت- دار إحياء الكتـــب العربيـــة، عيســـى البـــابي الحلـــبي وشـــركاه- د ط- 1381هـــ/1963م- ص ج03- ص 69.

6 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير- ج16- ص 181.

فالضّمير في (طه) على هذا القول للأرض وخفّفت الهمزة فصارت ألفا ساكنة. وقالت فرقة إنّما سبب الآية أنّ قريشا لمّا نظرت إلى عيش رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشظفه وكثرة عبادته قالت: إنّ محمّدا مع ربّه في شقاء، فنزلت الآية رادّة عليهم، أيّ إنّ الله لم ينزّل القرآن ليجعل محمّدا شقيّا، بل ليجعله أسعد بني آدم بالنّعيم المقيم في أعلى المراتب[1]، وقد روى السّيوطي وقال:«أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس أنّ النّبي صلّى اله عليه وسلّم كان أوّل ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على قدميه إذا صلّى، فأنزل الله:﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[2] وأخرج عبد بن حميد في تفسيره عن الرّبيع بن أنس قال: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يراوح بين قدميه ليقوم على كلّ رجل، حتّى نزلت:﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ وأخرج بن مردويه من طريق العوفي عن ابن عبّاس قال: قالوا لقد شقي هذا الرّجل بربّه[3]، فأنزل الله:﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ »، وقد شكّك بعضهم في صحّة أنّ سبب نزولها كان بمناسبة ما كان من إجهاد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الصّلاة، والوقوف للعبادة وقراءة القرآن، بدليل أنّ هذا لا ينسجم مع روح الآيات بقطع النّظر عن حقيقة جهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لعبادة الله، ممّا حكته سورة المزّمّل، و« المتبادر أن الآيات نزلت بسبيل تخفيف ما يبدو من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من جهد وتعب في دعوة النّاس وهدايتهم»[4]، وهذا المعنى قد اختتمت به السّورة السّابقة بعد سلسلة من صور مواقف الكفّار وأقوالهم، وما يُلاحظ أنّ هذا المعنى قد تكرّر في سورة فاطر التي سبقت سورة مريم في التّزول، فكانت آيات هذه السّورة تسلية له عليه السّلام بعد تلك الأقوال التي تثير في نفسه أزمات حزن وغمّ. أمّا ما ينهض به هذا المبحث فبالتّركيز فيه على مناسبة هذه السّورة من حيث محاورها الكبرى، ووجه ترتيبها وارتباط أوّلها بآخرها، وارتباط ما قبلها بما بعدها، وذكر بعض المواطن الخاصّة بقصّة موسى عليه السّلام.

1 ابن عطيّة: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ج04- ص 37.
2 الآيتان 01. 02.
3 ينظر: لباب النّقول في أسباب النّزول- الجزائر- المؤسّسة الوطنيّة للكتاب- تونس – الدّار التونسيّة- د ط- 1404هـ/1984م- ص 183.
4 محمّد عزّة دروزة: التّفسير الحديث- ج03- ص 70.

تتألّف السّورة من مقدّمة، ثمّ من قصّة موسى عليه السّلام على ثلاث مراحل، ثمّ فاصل ثمّ قصّة آدم عليه السّلام، ثمّ خاتمة، أمّا القضايا التي جاءت في تضاعيف هذه السّورة وكُرّرت في عبارات مختلفة وأساليب متعدّدة فتفصيلها في العناصر الآتية:

- خصائص الوحي المترل برفع الحرج ودفع المشقّة، فهو رحمة وسعادة.
- النّاس مع الوحي المبارك مختلفون، فتذكر الآيات قصّة الوحي مع موسى عليه السّلام.
- قصّة موسى عليه السّلام مع ربّه، فكما بدأ نزول الوحي على محمّد صلّى الله عليه وسلّم في غار حراء كانت كذلك أولى الآيات مع موسى عليه السّلام بالواد المقدّس طوى، وأنّ ما خوطب به موسى عليه السّلام نفسه ما خوطب به جميع الرّسل.
- معجزة العصا وانقلابها حيّة.
- معجزة اليد وإخراجها بيضاء من غير سوء.
- نعم الله على سيّدنا موسى عليه السّلام قبل النّبوّة، وهي سنّة الله في تأييد الأنبياء بالآيات.
- توجيهات الله لموسى وهارون عليهما السّلام في دعوة فرعون.
- الحوار بين فرعون وموسى عليه السّلام حول الرّبوبية.
- اتّهام موسى عليه السّلام بالسّحر.
- جمع فرعون السّحرة وتحذير موسى عليه السّلام.
- بين موسى عليه السّلام والسّحرة وإعلان إيمانهم علنًا.
- المسير ببني إسرائيل وإغراق فرعون وجنوده، ونعم الله على بني إسرائيل، ومظاهر عناية الله بالمرسلين.
- استعجال موسى عليه السّلام وفتنة السّامريّ.
- معاتبة موسى لأخيه هارون عليهما السّلام، وقصّة تأليه العجل.
- أخذ العبرة من قَصص الماضين وجزاء المُعرض عن القرآن.
- أحوال الجبال والنّاس يوم القيامة.

- إنزال الله القرآن عربيا وأمره نبيَّه عليه السّلام بعدم العجلة بقراءته عند تلاوة جبريل عليه السّلام.
- قصّة إخراج آدم عليه السّلام من الجنّة بعد وسوسة الشّيطان لهما.
- الاعتبار بهلاك الأمم الماضية، والصّبر على أذى المشركين، وعدم الالتفات إلى مُتَعِهم، وأمرُ الأهل بالصّلاة.
- تختتم السّورة بذكر مطلب المشركين لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم بآية كالنّاقة والعصا. واقتراحهم الإتيان بمعجزة أخرى غير مكتفين بمعجزة القرآن.
- توعّده سبحانه لهم بالتربّص، وأمرهم بالتّذكّر في أصحاب الصّراط السّويّ ومن اهتدى، فمثلما بدأت السّورة خطابا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تختتم أيضا خطابا له عليه السّلام ببيان وظيفته وحدود تكاليفه، إنّها ليست شقوة كتبت عليه، وليست عناء يعذّب به، إنّما هي الدّعوة والتّذكرة، وهي التّبشير والإنذار، وأنّ أمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره، وبين المطلع والختام تُعرَض قصّة موسى عليه السّلام كما مرّ في هذه العناصر من حلقة الرّسالة إلى حلقة اتّخاذ بني إسرائيل العجل بعد خروجهم من مصر مطوّلة ومفصّلة، وبخاصّة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى، وموقف الجدل بين موسى عليه السّلام وفرعون، وموقف المباراة بين موسى والسّحرة، وتتجلّى في غضون القصّة رعاية الله لموسى عليه السّلام الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه، وتعرض بعدها قصّة آدم عليه السّلام سريعة قصيرة، تبرز فيها رحمة الله لآدم عليه السّلام بعد خطيئته، وهدايته له، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أوظلال بعد التّذكير والإنذار، وتحيط بالقصّة مشاهد القيامة، وكأنّما هي تكملة لما كان أوّل الأمر في الملأ الأعلى من قصّة آدم عليه السّلام، حيث يعود الطّائعون إلى الجنّة ويذهب العُصاة إلى النّار تصديقا لما قيل لأبيهم آدم عيه السّلام وهو يهبط إلى الأرض بعد ما كان، ومن ثمّ يمضي السّياق في هذه السّورة في شوطين اثنين: الشّوط الأوّل يتضمّن مطلع السّورة بالخطاب إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾[1] تتبعه قصّة موسى عليه السّلام نموذجا كاملا لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم في رعايته، والشّوط الآخر يتضمّن مشاهد القيامة وقصّة آدم عليه السّلام، وهما

1 الآيات 01. 02. 03.

يسيران في اتّجاه مطلع السّورة وقصّة موسى عليه السّلام، ثمّ ختام السّورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جوّ السّورة[1]، وعلى نحو ما رأينا صلة سورة هود بالآيات الأولى من سورة البقرة، فإنّ سورة طه أيضا مشابهة لهذه الظّاهرة، فهي تفصّل آياتٍ من سورة البقرة، وترتبط بها وذلك أنّ سورة طه تبتدئ بقوله تعالى:﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[2]، وتنتهي بقوله تعالى:﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[3]، لاحظ كلمة (أنزلنا) في بدايتها وكلمة (اهتدى) في نهايتها، وتأمّل الآيات الأولى من سورة البقرة:﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4]، لاحظ كلمة (بما أنزلنا إليك) وكلمة (أولئك على هدى من ربّهم) لترى الصّلة واضحة بين سورة طه وبين الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، وإذا نظرنا إلى مضمون السّورة وإلى كونها تقصّ علينا من نبأ موسى عليه السّلام وإلى قوله تعالى فيها:﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾[5]، وإلى قوله تعالى فيها:﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[6]، وصلة ذلك كلّه بقوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾[7] وإذا نظرنا إلى قوله تعالى:﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[8]، وصلة ذلك بقوله تعالى:

---

1 سيّد قطب: في ظلال القرآن- ج16- ص2326.

2 الآيتان 01. 02.

3 الآية 135.

4 الآيات 01- 05.

5 الآيتان 99. 100.

6 الآية 113.

7 سورة البقرة- الآية 04.

8 سورة طه- الآية 123.

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1]، وإلى قوله تعالى:﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾[2] وصلة ذلك بإقامة الصّلاة، فإنّنا لم نبعد إذا قلنا إنّ محور سورة طه هو الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، وبالتّحديد ينصبّ تفصيلها على الآية الرّابعة والآية الخامسة بشكل مباشر[3]، أي على قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[4].

بعد هذه التّوطئة يتّجه الحديث إلى ترتيبها وافتتاحها بالحروف المقطّعة (طه)، وارتباط فاتحتها مع خاتمة سابقتها، وفاتحتها مع خاتمتها، وخاتمتها مع فاتحة السّورة التي تليها، وذكر بعض الجديد فيها وفي قصّة موسى عليه السّلام، وبعض اللّمسات فيها، أمّا وجه ترتيبها بعد سورة مريم فإنّ المقصود من السّورة كما تقدّم تشريف للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بإعلامه بالرّفق بأمّته والإقبال بقلوبهم حتّى يملأوا الأرض كثرة، كما أنزل عليهم السّكينة وهم في غاية الضّعف والقلّة وحماهم ممّن يريد قتلهم، ولين قلب عمر بن الخطّاب رضي اله عنه بعد ما كان فيه من الغلظة وجعله وزيرا، ثمّ حماه بعدّو، وتأمينه صلّى الله عليه وسلّم أن يُستأصَلُوا بعذاب، وبأنّه يموت نبيّهم قبلهم لا كما وقع للمهلكين من قوم نوح وهود عليهما السّلام ومن بعدهم بما دلّ عليه افتتاح هذه السّورة بنفي الشّقاء وختم تلك بجعل الودّ وغير ذلك، والدّاعي إلى هذا التّأمين أنّه سبحانه لمّا ختم تلك بإهلاك القرون وإبادة الأمم بعد إنذار القوم اللّد، ولم يختم سورة من السّور الماضية بمثل ذلك كان ربّما أفهم أنّه قد انقضت مدّتهم وحلّ بوارهم، وأتى دمارهم، وأنّه لا يؤمن منهم لما هم فيه من اللّدد، إلاّ من آمن، فحصل بذلك من الغمّوالحزن ما لا يعلم قدرَه إلاّ الله، لأنّ الأمر كان في ابتدائه، ولم يسلم منهم إلاّ نفر يسير جدّا[5]، ووجه آخر هو أنّه لمّا ذكر في سورة مريم عدّة قَصص من الأنبياء وهم: زكريّا ويحيى وعيسى الثّلاثة مبسوطة، وإبراهيم وهي بين البسط والإيجاز، وموسى وهي موجزة مجملة، أشار إلى بقيّة النّبيين في الآية الأخيرة إجمالا:﴿أُوْلَٰٓئِكَ

1 سورة البقرة – الآية 05.

2 سورة طه– الآية 132.

3 سعيد حوّى: الأساس في التفسير– مج 04– ص 3339.

4 الآيات 01– 05.

5 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور– ج16– ص 266.

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[1]، وذكر في هذه السّورة شرح قصّة موسى التي أجملها هناك، فاستوعبها غاية الاستيعاب وبسطها أبلغ بسط، ثمّ أشار إلى تفصيل قصّة آدم عليه السّلام الذي وقع بمجرّد اسمه هناك في سورة مريم:﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾[2]، ثمّ أورد في سورة الأنبياء بقيّة قصص لم تذكر في مريم كـ:[نوح ولوط وداود وسليمان وأيّوب وذي الكفل وذي النّون] عليهم السّلام، وأُشير إلى قصّة من ذُكرت قصّته إشارة وجيزة، كموسى وهارون وإسماعيل وزكريّا ومريم عليهم السّلام لتكون السّورتان كالمتقابلتين، وبسطت فيها قصّة إبراهيم البسط التّام فيما يتعلّق مع قومه، ولم تذكر حاله مع أبيه إلاّ إشارة، كما أنّه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطا[3] وزاد الألوسي أنّه ينضمّ إلى هذا اشتراك هذه السّورة وسورة مريم في الافتتاح بالحروف المقطّعة، وقد رُوِي عن ابن عبّاس وجابر بن زيد رضي الله تعالى عنهم أنّ سورة طه نزلت بعد سورة مريم، ووجه ربط أوّل هذه بآخر تلك أنّه سبحانه ذكر هناك تيسير القرآن بلسان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام معلّلا بتبشير المتّقين وإنذار المعاندين وذكر تعالى هنا نوع ما فيه من تأكيد ذلك[4]، ومن حيث المرجعية والتّماسك فإنّ سورة مريم في خاتمتها توجّه الخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى:﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[5]، لتبدأ سور طه بتوجيه الخطاب إلى الرّسول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم لبيان

1 سورة مريم – الآية 58.

2 الآية 58.

3 جلال الدّين السّيوطي: تناسق الدّرر في تناسب الآيات والسّور– ص 102.

4 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني– ج15– ص 147.

5 الآية 97.

وظيفته؛ يقول تعالى:﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[1]، ويمكن تمثيل هذه المرجعية التي تحقّق التّماسك والمناسبة بين هذه السّورة بالتي قبلها على النّحو التّالي:[2]

مرجــعيّــة خلفــيّــة بالضّمــائــر

الخطاب إلى رسول الله	←	الخطاب إلى رسول الله
الحديث عن القرآن الكريم	←	الحديث عن القرآن الكريم
بيان وظيفة البشر[لتنذر]	←	بيان وظيفة البشر [إلاّ تذكرة]

وقد مرّ معنا في الفصل السّابق أثر المرجعيّة في تحقيق التّماسك، وأنّ هذا التّماسك قائم على هذه المرجعيّة، وهي خلفيّة، نظرا لترتيب السّور، فانظر إلى عجيب هذا التّرتيب وبديع هــذا التّأليف، وكلّ هذا يزيد من تضامّ كلمات السّورة وترابطها، ويُخرِج موضوع التّضام كما أشرنا سابقا من مجرّد توارد الكلمة مع أختها إلى مجال أوسع وأرحب؛ يبحث في تضامّ الكلمات علــى مستوى الكلمة والآية والسّور بعضها مع بعض، أمّا وجه افتتاحها بالحروف المقطّعة الهجائية (طه) وعلاقته بترتيب السّور ففيه ملمح غريب ولطيف، وهو أنّه لمّا كان مقصود هذه السّورة الإعــلام بإمهال المدعوّين والحِلم عنهم والتّرفّق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، زيادة في شرف داعيهم صلّى الله عليه وسلّم، دلّ اسمها بطريق الإشارة لتبيين أهل الفطنة والبصارة، وذلك بما في أوّلها من هــذه الحروف المقطّعة، لأنه لمّا كان ختام سورة مريم حاملا على الخوف من أن تَملك أمّته صلّى الله عليه وسلّم قبل ظهور أمره الذي أمره الله به واشتهار دعوته، لقلّة من آمن به منهم ابتــداُه ســبحانه بالطّاء إشارة بمخرجها الذي هو من رأس اللّسان وأصول الثّنيتين العليين إلى قوّة أمره وانتشاره، وعلوّه وكثرة أتباعه، لأنّ هذا المخرج أكثر المخارج حروفا، وأشدّها حركة وأوسعها انتشارا، وبما فيها من صفات الجهر والإطباق والاستعلاء والقلقلة إلى انقلاب ما هو فيه من الإسرار جهرا، وما هو فيه من الرّقة فخامة، لأنها من حروف التّفخيم، وأنّه يُستعلى أمره وينتشر ذكره، حتّى يطبــق جميع الوجود ويقلقل سائر الأمم، ولكن يكون ذلك بما تشير إليه الهاء بمخرجها من أقصى الحلــق

1 الآيتان 02. 03.

2 ينظر: علم اللّغة النّصي: صبحي إبراهيم الفقّي– ص 165.

على حدّ بُعده من طرف اللّسان مع طول كبير وتمادٍ كثير، وبما فيها من صفات الهمس والرّخاوة والانفتاح والاستفال والخفاء من مخافته وضعف كبير، وهدوء وخفاء عظيم، ومقاساة شدائد كبار، مع نوع فخمة واشتهار، وهو وإن كان اشتهارا يسيرا يغلب هذا الضّعف كلّه وإن كان قويّا شديدا، وقراءة الإمالة للهاء تشير إلى شدّة الضّعف، وقراءة التّفخيم وهي لأكثر القرّاء مشيرة إلى فخامة القدر وقوّة الأمر بما لها من الانفتاح، وإن رُئي أنّه ليس كذلك:"أنّه يخافه ملك بني الأصفر"، وإن كان معنى الحرفين:"يا رجل"، فهو إشارة إلى قوّته وعلوّ قدره، وفخامة ذكره وانتشار أتباعه وعموم أمره، وإن كانا إشارة إلى وطئ الأرض فهو الإلاحة إلى قوّة التّمكّن وعظيم القدرة، وبُعْد الصّيت حتّى تصير كلّها مُلْكا له ولأتباعه، ومُلكا لأمرائه وأشياعه[1]، ومناسبة أخرى في افتتاح هذه السّورة بهذين الحرفين، هو أنّ الحرف الأوّل منهما وهو:(طا) تجدها أوّل حرف في مركّبات افتتحت بها أربع سور[طه، الشّعراء، النّمل، القَصص] وكلّها انتظمها الوحي المكّي وليس غريبا في الاتّفاق، لكنّها الدّقّة في الدّلالة أن تجد هذه السّور دارت أحاديثها حول الإسراف في الحزن والتّوغّل في الإشفاق، ففي (طه) نجد لفت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن هذا التّأسّف لكفر قريش، إنّه تحمّل ليس مطلوبا منه؛ ثمّ حديث عن موسى وفرعون، وفي (طه) تجد الهاء تُعنون حديثا طويلا فيه عرضُ موضوعٍ أمّ حنون جزعت على وليدها في أمر إلهي لا جدال فيه ولا معقّب له، وموسى يخاف من حيّة تسعى، وإله يأمره وموسى وهارون يستبدّ بهما الخوف من فرعون، ويُذهب المولى عنهما هذا الخوف، ويطمئن موسى، وفي موقف آخر يجد موسى العدوّ وراءه مدركا والبحر أمامه مغرقا، والله تعالى منجز ما وعده، وأزمة يحدوها الخوف، ثمّ هناك خوف معتمل لدى الصّالحين:﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[2]، وبعدُ؛فإنّك تجد هاء للأمر تأهّب له وأعدّ نفسه لمزاولته، ولا يكون التّأهّب للأمر وإعداد النّفس لمزاولته إن لم تكن النّفس في حاجة إلى مراس، وإن لم تكن قادرة على الخوض والمواجهة دون معاناة، وكيف لا يكون الخوف وأمّ بيدها تقذف بابنها في اليمّ، وقلبها معلّق به موله عليه، والأمر نافذ والرّضا محقّق، وكيف لا يكون الخوف ورسول يقف أمام من ادّعى الألوهية، ثمّ يواجه سحر السّحرة، إنّها أمور تحتاج فيها النّفس لإعداد العدّة وتحتاج فيها العزم، لا

---

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 255.

2 سورة طه – الآية 112.

يتوفّر لكثير لكنّه يتوفّر لأقلّ قليل[1]، وما إن انعقدت النّيّة تنفيذا انعقدت القدرة تعزيزا، ومن حيث ارتباط أوّل هذه السّورة بآخرها فإنّه لمّا علم بهذا أنّ إيمانهم كالممتنع، وجدالهم لا ينقطع، بل إنْ جاءهم الهدى طعنوا فيه، وإن عذّبوا قبله تظلّموا كان كأنّه قيل: فما الذي أفعل معهم؟ فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[2]، فقوله: (قل كلٌّ) أيّ منّي ومنكم، (متربّص) أي منتظر حسن عاقبة أمره، ودوائر الزّمان على عدوّه (فتربّصوا) فإنّكم كالبهائم ليس لكم تأمّل ولا تجوزون الجائز إلاّ عند وقوعه (فستعلمون) أيّ عمّا قريب بوعد لا خلف فيه عند كشف الغطاء (من أصحاب الصّراط) أيّ الطّريق الواضح الواسع (السّويّ) أيّ الذي لا عوج فيه، ولمّا كان صاحب الشّيء قد لا يكون عالما بالشّيء ولا عاملا به بما يعلم منه، قال (ومن اهتدى) أيّ من الضّلالة، فحصل على جميع ما ينفعه، واجتنب ما يضرّه نحن أم أنتم؟ ولقد علموا يقينا ذلك يوم فتح مكّة المشرفة، واشتدّ اغتباطهم بالإسلام، ودخلوا رغبة في الحلم والكرم، ورهبة من السّيف والنّقم، وكانوا بعد ذلك يعجبون من توقّفهم عنه ونفرتهم منه، وهذا معناه أنّه صلّى الله عليه وسلّم ومن اتّبعه هم السّعداء الأغنياء الرّاضون في الدّنيا والآخرة، وهو عين قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[3] فقد انطبق الآخر على الأوّل ودلّ على أنّ العظيم يعامل بالحِلم فلا يعجل[4]، وبالتّالي إذا نظرنا إلى آخر السّورة رأيناه متّصلا بأوّله اتّصالا وثيقا، هؤلاء الذين آذوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وملأوا بالحزن قلبه، ألا يخشون المصير الذي انتهى إليه أسلافهم؟ يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[5]، إنّ المعركة محتدمة بين الحقّ والباطل من بدء الخليقة[6]، أمّا مناسبة خاتمة هذه السّورة لفاتحة السّورة التي تليها وهي سورة الأنبياء فإنّ سورة الأنبياء مقصودها الاستدلال على تحقّق السّاعة وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيهما على

1 محمّد بدري عبد الجليل: براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسّور- ص 273.

2 سورة طه – الآية 135.

3 سورة طه – الآية 02.

4 برهان البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 377.

5 الآية 128.

6 محمّد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لتفسير القرآن الكريم- ص 250.

الجليل والحقير، لأنّ موجدَها لا شريك له يعوقه عنها، والدّال على ذلك أوضح دلالـة مجمـوع قصص جماعة ممّن ذُكر فيها من الأنبياء عليهم السّلام، وأنّه لمّا ختمت سورة طه بإنذار العباد بأنّهم سيعلمون الشّقيّ والسّعيد وكان هذا العلم تارة يكون في الدّنيا بكشف الحجاب بالإيمان، وتـارة بمعاينة ظهور الدّين، وتارة بإحلال العذاب بإزهاق الرّوح بقتل أو غيره، وتارة يبعثها يوم الـدّين؛ افتُتِحَت هذه بأجلّ ذلك وهو اليوم الذي يتمّ فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين، وحقّ اليقين وهو يوم الحساب، وأنّه لمّا تقدّم قوله سبحانه:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾[1]، إلى قوله تعالى: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[2]، قـال تعـالى:﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾[3]، أيّ لا تمدّنّ عينيك إلى ذلك فإنّي جعلته فتنة لمن ناله بغـير حقّ، وأيضا فإنّه تعالى لمّـا قـال:﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾[4] وهم الشّديدو الخصومة في الباطل، ثمّ قال:﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴾[5]، استدعت هذه الجملة بسط الحال، فابتدأت بتأنيسه عليـه الصّـلاة والسّلام، وتسليته، حتّى لا يشق عليه لددهم، فتضمّنت سورة طه من هذا الغرض بشارته بقولـه تعالى:﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾[6]، وتأنيسه بقصّة موسى عليه السّلام وما كان من حال بني إسرائيل وانتهاء أمر فرعون ومكابدة موسى عليه السّلام لردّ فرعون، ومرتكبه إلى أن وقصه الله وأهله، وأورث عباده أرضهم وديارهم، ثمّ أُتْبعت بقصّة آدم عيه السّلام لِيُريَ نبيّه صلّى الله عليـه وسلّم سنّته في عباده حتّى أنّ آدم عليه السّلام وإن لم يكن امتحانه بذرّيته ولا مكابدته من أبنـاء جنسه، فقد كابد من إبليس ما قصّه الله في كتابه، وكلّ هذا تأنيس للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فإنّه

1 سورة طه – الآية 131.
2 سورة طه – الآية 135.
3 سورة الأنبياء– الآية 01.
4 سورة مريم – الآية 97.
5 الآية 98.
6 سورة طه – الآية 02.

إذا تقرّر لديه أنّها سنّة الله تعالى في عباده هان عليه لدد قريش ومكابدهم، ثمّ ابتُدِئت سورة الأنبياء ببقيّة هذا التّأنيس[1]، وقد ردّ السّيوطي وجه اتّصالها بسورة الأنبياء إلى أنّه لمّا قال تعالى في سورة طه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾[2] وقال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[3]، قال في مطلع هذه السّورة، سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[4]، إشارة إلى قرب الأجل ودنوّ الأمل المنتظر[5]، وأنّه لمّا تحدّثت سورة طه عن تمنّي القوم في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾[6] بدأت الأخرى ببيان موقعهم عندما تأتيهم الآية[7]، كما نصّت الآية الكريمة: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[8]، وأنّه لمّا انتهت الأولى بالإخبار في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾[9]، وهذا سوف يكون يوم القيامة، بدأت السّورة الأخرى بالحديث عن قرب الحساب، فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[10] وهذا بالطّبع يوم القيامة، ومن لطائف المناسبات في التعبير القرآني ما جاء في قوله تعالى من هذه السّورة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[11] فقد كان الظّاهر عدم الفصل بين الجوع والظّمأ والعري والضّحو للتّجانس والتّقارب، ميد أنّه

1 برهان البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 380.
2 الآية 135.
3 الآية 129.
4 سورة الأنبياء- الآية 01.
5 تناسق الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ص 102.
6 الآية 133.
7 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي- ص 166.
8 سورة الأنبياء - الآية 02.
9 الآية 135.
10 الآية 01.
11 الآيتان 118. 119.

عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتمّ منه، وهي أنّ الجوع خلو الباطن والعري خلوّ الظّاهر فكأنّه قيل لا يخلو باطنك وظاهرك عمّا يهمّهما، وجمع بين الظّمأ المورّث حرارة الباطن، والبروز للشّمس وهو الضّحو المورّث لحرارة الظّاهر، بمعنى: لا يؤلمك حرارة الباطن والظّاهر، وهو سرّ بديع من أسرار البلاغة. وممّا قاله الزّمخشري وغيره في كتب التّفسير:« إنّه يسمّى قطع النّظير عن النّظير، وذلك أنّه قطع الظّمأ عن الجوع والضّحو عن الكسوة، مع ما بينهما من التّناسب والغرض من ذلك تعداد هذه النّعم وتصنيفها، ولو قرن كلاّ بشكله لتوهّم المعدودات نعمة واحدة، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديما وحديثا»[1]، إذ جَمْعُ النّظائر في الآيتين من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظّاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النّظائر.

فتأمّل في لطائف نظم السّور وبديع ترتيبها على أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ومناسبات نظم آياته.

1 ينظر: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل – ج04 – ص 114. وينظر: التّفسير الكبير: أبو حيّان الأندلسي – ج22 – ص 122. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: شهاب الدّين الألوسي – ج16 – ص 272. وينظر: تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش – ج09 – ص 227. وينظر: تفسير التّحرير والتّنوير: الطّاهر بن عاشور – ج 16 – ص 323.

04. الفصل والوصل:

لقد أجمع البلاغيون على جعل هذا المبحث بابا رئيسا من أبواب البلاغة، وقلنا فيما سبق إنّ الألفاظ يتّحد بعضها مع بعض وتتضامّ لتشكّل جملا، ويتّصل بعض هذه الجمل مع بعض لتشكّل بناء كاملا يعتمد على قوانين وضوابط تحكمه وتجعله مترابط الأجزاء، وهذه العلاقات التي تنشأ بين الكلمات والجمل مردّها إلى عوامل تتّكئ عليها في بنائها، يلزم على المتكلّم مراعاتها ومعرفتها، وهذه العلاقات تتماسك بطرق عديدة ووسائل مختلفة، أجمع البلاغيون على دراستها تحت عنوان"الفصل والوصل"، ومن ثمّ اتجه همّنا إلى معرفة هذا الباب في سورة أخرى من سور القرآن الكريم هي سورة طه.

يقول تعالى:﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾[1]

وهنا يُلاحظ وجود الواو بين الجمل التي اختلفت خبرا وإنشاء، فالواو ليست واو العطف التي تصل بين الجمل المتناسبة، وإنّما هي واو الاستئناف، أو واو القصّة كما يراها البلاغيون، فهي تعطف مضمون كلام على كلام آخر، أو تعطف جملة على عدّة جمل مسوقة لغرض، على جملة أو عدّة جمل مسوقة لغرض آخر[2]، وقد ردّ بعضهم هذه الواو واو عطف[3]، وكان الغرض من ذلك أنْ:«قفاه بقصّة موسى عليه السّلام ليتأسّى به في تحمّل أعباء النّبوّة وتكاليف الرّسالة والصّبر على مقاساة الشّدائد[4]»، حتّى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود، لأنّه لمّا أتبع ذلك قصّة موسى عليه السّلام مصدّرة باستفهام مقترن بهذه الواو أرشد ذلك إلى أنّ المعنى: هل تعلم له سميّا؟ أيّ متّصفا بأوصافه أو بشيء منها له بتلك الوصف مثل فعله، ولمّا كان الجواب قطعا:لا، ثبت أن لا متّصف بشيء من أوصافه، فعطف على هذا المقدّر قصّة موسى عليه السّلام، أو يكون التّقدير: هل علمت بما ذكّرناك به في هذه الآيات أنّا نريد ما هو علينا يسير بما لنا من القدرة التّامّة والعلم الشّامل من إسعادك في الدّارين بتكثير أجرك[5]، فأدّى العطف بين الآيتين غرضه، وجاء بقصّة

---

1 سورة طه – الآية 02.

2 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني– ص 272.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16– ص 270.

4 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل – ج04– ص 68.

5 برهان الدّين البقاعي: السّابق – ج16– ص 270.

موسى عقِب كلمة التّوحيد وأسمائه الحسنى موصولة بسبب أنّه مثلما كان ابتداء أمر موسى عليه السّلام حين أتى النّار ليُقبس أهله منها نارا أو يجد عندها هدى فمُنح بذلك من هدى الدّارين والنّصرة على الأعداء كما سيقصّ هنا ما مُنح، وهذا النّبيّ الكريم كان ابتداء أمره أنّه يذهب إلى غار حراء فيتعبّد اللّيالي ذوات العدد، ويتزوّد لذلك اجتذابا من الحقّ له قبل النّبوّة بمدد، تدريبا له وتقوية لقلبه، ليكون فائدة الاستفهام أن يفرغ أذنه الشّريفة للسّماع وقلبه للوحي العظيم:"وهل أتاك" أيّ يا أشرف الخلق، :"حديث موسى". نادبا إلى التّأسّي بموسى عليه السّلام في تحمّل أعباء النّبوّة وتكليف الرّسالة والصّبر على مقامات الشّدائد، ومن أحوال التّأليف ومراعاتها الّتي جعلها ابن الزّملكّاني ركنا أساسا في إعجاز القرآن؛ قضيّة الفصل والوصل، حيث بحثها في فنّ خاصّ بها وقسّمها إلى ضربين؛ عطف المفرد على مثله، وعطف الجملة على الجملة، وهذا الأخير منه عطف جملة على جملة لها موضع من الإعراب، وعطف جملة على جملة لا موضع لها من الإعراب نحو قولك: زيد أخوك وعمرو صاحبك، فإنّه يعزّ إظهار فائدة الواو فيه بخلاف الفاء وثمّ لإشعارهما بالتّرتيب، ويمكن أن يقال: تفيد أنّ الثّاني مناظر للأوّل ومساوق له، ليضرب لنا شاهدا على ذلك بقوله تعالى من سورة طه:﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[1]، فإنّ مجيء الاهتداء ينبغي أن يتقدّم على العمل الصّالح مثلا، ولكنّ تفسير هذا أنّها محمولة على دوام الاهتداء[2]، ونظير هذا في القرآن كثير منه قوله تعالى في سورة الأعراف:﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾[3]، فلعلّك تقول: كيف يُصنَع بهذا، فإنّ مجيء البأس ينبغي أن يتقدّم الإهلاك، ومناسبة العطف في آية سورة طه أنّه لمّا كان الانسان محلّ زلل وإن اجتهد رجاه واستعطفه بقوله:(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ) أيّ ستّار بإسبال ذيل العفو (لِّمَن تَابَ) أيّ رجع عن ذنوبه من الشّرك وما يقاربه و(وَءَامَنَ) بكلّ ما يجب الإيمان به (وَعَمِلَ صَٰلِحًا) تصديقا لإيمانه، ولمّا كانت رتبة الاستمرار على الاستقامة في غاية العلوّ، عبّر عنها بأداة التّراخي فقال:(ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ) أيّ استمر على العمل الصّالح متحرّيا به إيقاعه على حسب أمرنا وعلى أقرب الوجوه المرضيّة له

---

1 الآية 82.

2 المجيد في إعجاز القرآن المجيد– ص 139.

3 الآية 04.

إلى ذلك غاية التوجّه كما يدلّ عليه صيغة افتعل[1]، وممّا وقع في حيّز القول بالفصل والوصل قوله تعالى:﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ ﴾[2]، الواضح في هذه الآيات أنّ الجبال الشُّمّ، والمرتفعات الشاهقة على أديم الأرض ستصبح مستوية ملساء، وقد أفاد العطف(...ولا أمتا) استكمال معنى الاستواء، وظهر ووضح حينما قضى على كلّ واد وربوة في الأرض، ويورد المفسّرون أنّ (عوجا): واد، وأنّ (أمتا) رابية، والأمْتُ في اللّغة هو المكان المرتفع والتّلال الصّغيرة والارتفاع والانخفاض والاختلاف في الشّيء، والقرآن هنا يقدّم صورة واضحة للاستواء الكامل دليلا على قدرة الله التي لا تعلوها قدرة، ويسوقها في أسلوب تتّضح فيه القوّة والشّدّة، فمن المعروف أنّ تلك الآيات من المكّي الذي هو بألفاظ تقرع مسامع القوم لتكون رادعة زاجرة حيث المماراة واللّجاجة في القول، ولا زال القوم في جاهلية تصمّ آذانهم وتعمي أبصارهم، فمن عبادة الأصنام تارة، وإشراك بالله تارة، وإنكار للوحي، وما من شكّ في أن يكون البيان هنا قويّا، وواضحا وشديدا، حتّى يتصدّى لهذا الجوّ المملوء بالعناد والجحود[3]، و من أساليب العطف في هذه السّورة قوله تعالى:﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝ ﴾[4]، حيث تظهر القيمة البيانية هنا في أسلوب العطف (وَلَا هَضْمًا) إذ لو جاء الأسلوب خلوا منها لما أدّى إلى هذا الوضوح والبيان.

فالذي يقدّم العمل الصّالح وهو مؤمن إذ لا يقبل العمل بغير إيمان، فلا خوف عليه ولا نقصان لحقّه، فإنّ كلمة[ظلما] تعني إنقاصا لثواب طاعته، أمّا أسلوب العطف(وَلَا هَضْمًا) فتفيد أحقيّته في الثّواب، لأنّ الهضم، هو النّقص، والفرق بين الظّلم والهضم أنّ الظّلم المنع من الحقّ كلّه، والهضم المنع من بعضه، والهضم ظلم، وإنّ افترقا من وجه، والله تعالى يريد أن يبيّن حقّ المؤمن في جلاء ووضوح، وأن يقرّ له ذلك الحقّ ويطمئنه عليه، إذ لا يخاف ظلما بزيادة سيّئاته

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 320.
2 سورة طه – الآيات 1054. 106. 107.
3 أحمد عبد الغفّار: قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه – ص262.
4 الآية 112.

ولا بخسا ولا نقصا لحسناته، بل يوفّى حقّه كاملا لا نقصان فيه[1]، وجاءت هذه الآيات عقِب ذكر الظّالم، فقال تعالى:(وَمَن يَعۡمَلۡ)، ولمّا كان الانسان محلّ العجز وإن اجتهد، قال:(مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) أيّ التي أمره الله بها بحسب استطاعته، و(وَهُوَ مُؤۡمِنٞ) ليكون بناؤها على الأساس وعبّر بالفاء إشارة إلى قبول الأعمال وجعلها سببا لذلك الحال، فقال:(فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا) بأن يُنسب إليه سوء لم يقترفه، لأنّ الجزاء من جنس العمل، و(وَلَا هَضۡمٗا) أيّ نقصا من جزائه وإن كان هو لم يوفّ المقام حقّه لأنّه لا يستطيع ذلك، وأصل الهضم الكسر، أمّا غير المؤمن فلو عمل أمثال الجبال من الأعمال لم يكن لها وزر[2]، ليكون هذا مثالا من أمثلة أساليب العطف يكشف لنا أسلوب القرآن ومدى مساهمة نظمه في قضيّة البيان وطريقة الإحكام، فتأمّل ما اشتملت عليه هذه الآيات على الذّروة من حسن المعاني، فبشّرت ويسّرت، وأنذرت وحذّرت، وبيّنت الخفايا وأظهرت الخبايا، مع ما لها من جلالة السّبك وبراعة النّظم.

يُحمِل الخطيب القزويني قضيّة كمال الاتّصال التي مرّت معنا في الفصل الثّاني في ثلاثة أمور[3]؛ الأوّل أن تكون الجملة الثّانية مؤكّدة للأولى، والثّاني أن تكون الثّانية بدلا من الأولى والمقتضي للإبدال كونُ الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثّانية، والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لنُكتة، والثّالث أن تكون الثّانية بيانا للأولى، وذلك بأن تُنزّل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح، والمُقتضي للتّبيين أن يكون في الأولى نوعُ خفاء، مع اقتضاء إزالته، من هذا النّوع الأخير اختار قوله تعالى:﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝﴾[4] شاهدا عليه، حيث فصل جملة:(قال) عمّا قبلها، لكونها تفسيرا وتبيينا وهو مثال حيّ على الامتزاج المعنويّ بين جملتين، كان«منشؤه أنّ الجملة الثّانية شارحة وموضّحة للجملة الأولى، فجاء قوله:(قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ) بدون واو، لأنّه يوضّح الوسوسة ويبيّن عنها، ولو أنّه

1 أحمد عبد الغفّار: المرجع السّابق – ص 260.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 350.

3 الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع- ص 154.

4 سورة طه – الآية 120.

5. الرّبط والارتباط:

يحتلّ موضوع الرّبط والارتباط مكانة هامّة في الدّراسات البلاغيّة، حيث يبحث في تلازم الكلمات وتواردها، وإحكام صياغة الجمل وتراكيبها، وائتلاف بعضها مع بعض، ويتجاوز هذا الموضوع مستوى الكلمة والجمل إلى نطاق أوسع يشمل التّراكيب والنّصوص، وكذا المعاني لأنّ المعنى الواحد إنّما يكتسب حيويته بالتّضافر والتّرابط مع المعاني الأخرى المشتركة معه في جسم الموضوع[1]، وقد استشهدنا في الفصل السّابق بما قاله فخر الدّين الرّازي حول أهميّة البحث في ترابط الجمل والتّراكيب وطريقة ذلك، وذكرنا أنّه يلخّص لنا كلّ هذا بقوله:«اعلم أنّ الجمل الكثيرة إذا نظمت نظما واحدا فلا يخلو إمّا أن يتعلّق البعض بالبعض أو لا يتعلّق، فإن لم يتعلّق البعض بالبعض لم يحتج واضع ذلك النّظم إلى فكرة ورويّة في استخراج ذلك النّظم..وهذا النّظم لا يستحق الفضيلة إلاّ بسلامة معناه وسلاسة ألفاظه؛ أمّا القسم الثّاني وهو الذي تكون فيه الجمل المذكورة متعلّقا بعضهابعض، وهناك تظهر قوّة الطّبع وجودة القريحة واستقامة الذّهن، وكلما كان آخر الكلام أقوى ارتباطا وأشدّ التحاما كان أدخل في الفصاحة»[2]، وستكون سورة طه مجالا تطبيقيا فسيحا نرى من خلاله هذا الموضوع.

يقول الحقّ تعالى:﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[3]، والشّاهد في الآية أنّه أعاد اللّفظ، ولعلّ الأصل في الرّبط أن يكون بإعادة اللّفظ، لأنّ ذلك أدعى للتّذكير وأقوى ضمانا للوصول إليه[4]، وهو ما نجده في هذه الآية إذ تكرّر ذكر النّار بدلا من أن يقول مثلا:"عليها"، ومن المناسبات التي يرتبط فيها الكلام بين بعض الآيات وبعض قوله تعالى:﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝﴾، عقب الإبهام ثمّ التعيين لأنّه لمّا حصل هذا كان معه تشويق ثمّ تعظيم، ولمّا ارتبطت هذه ببعضها بُني للمفعول؛"نودِي" من الهادي الذي لا هادي غيره، ثمّ بيّن النّداء بقوله:"يَٰمُوسَىٰٓ"، ولمّا كان المقام للتّعريف بالأيادي

---

1 ينظر: مراعاة النّظير في كلام الله العليّ القدير: كمال الدّين مرسي– ص 10.

2 نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز– ص 148.

3 سورة طه – الآية 10.

4 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن– ص 117.

تلطّفا قال مؤكّدا تنبيها له على تعرّف أنّه كلامه سبحانه من جهة أنّه يسمعه من غير جهة معيّنة على غير الهيئة التي عهدها في مكالمة المخلوقين[1]، ليذكّره بعدها بالاسم العلم، لأنّ هذا المقام مقامه، وحسن إثر ذلك أن ترتبط الآية بالتّعقيب بكلمة التّوحيد:"لا إله إلاّ الله" والأمر بالعبادة والذّكر، ثمّ علّل الأمر بالعبادة بأنّه لم يخلق الخلق سُدى، بل لابدّ من إماتتهم، ثمّ بعثهم لإظهار العظمة ونصب موازين العدل بأنّ السّاعة آتية، فأكّد إنكارهم وعبّر بما يدلّ على سهولة ذلك عليه جدّا، لأنّ السّاعة أعظم باعث على الطّاعة، ومن لطائف المناسبات في ربط الكلام بعضه ببعض، أنّه لمّا كان المقام مرشدا إلى أن يقال: ما جوابك يا موسى عمّا سمعت؟ وكان تعالى عالما بأنّه يبادر إلى الجواب بالطّاعة في كلّ ما تقدّم، طوى هذا المقال، وعطف عليه قوله تعالى:﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾[2]، مريدا بعد تأنيسه بسؤاله عمّا هو أعلم به منه إقامة البيّنة لديه بما يكون دليلا على السّاعة من سرعة القدرة على إيجاد ما لم يكن، بقلب العصا حيّة بعد تحقّق أنّها عصاة بقرب النّظر إليها عند السّؤال عنها ليزداد بذلك ثباتا ويثبّت من يرسل إليهم[3]، ووجه الإشارة إلى العصا بالبعد مع أنّها في يمينه إعظاما لعلوّ قدرها، أو لدهشه عنها حتّى كأنّها بعيدة عنه[4]، وبعدما أراه آية في بعض الآفاق، أراد أن يريه آية في نفسه، ولمّا كان البرص أبغض شيء إلى العرب، قاله بالنّفي له ولغيره، ولم يسمّه باسمه لأنّ إسماعهم له لحاجة، لأنّ نفي الأعمّ من الشّيء أبلغ من نفيه بخصوصه، ويقول الحقّ تعالى بعد هذا:﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[5]، فلمّا كان إنجاؤه من يد فرعون حيث وُلد في السّنة الذي يذبح فيها الأبناء بيد فرعون أمرا عظيما التفت إلى فمه العظمة مذكّرا له بذلك تنويرا لبصيرته وتقوية لقلبه، إعلاما بأنّه ينجّيه منه الآن، كما أنجاه في ذلك الزّمان، والتّابوت من التّوب الذي معناه الرّجوع تفاؤلا به، والقذف مجاز عن المسارعة إلى

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 276.

2 سورة طه – الآية 17.

3 برهان الدّين البقاعي: السّابق- ج16- ص280.

4 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير- ج09- ص 133.

5 سورة طه – الآيات 37، 38، 39.

وضعه من غير تمهّل لشيء أصلا، إشارة إلى أنّه فعل مضمون السّلامة كيف ما كان، ولمّا كانت سلامته من العجائب لتعرضه للغرق بقلب الرّيح للتّابوت، أو بكسره لبعض الجُدر أو غيرها أو بجريه مستقيما مع أقوى جرية من الماء إلى البحر الملح، وغير ذلك من الآفات، أشار إلى تحتّم تنجيته بلام الأمر عبارة عن معنى الخبر في قوله، جاعلا البحر كأنّه ذو تمييز ليطيع الأمر: "فَلْيُلْقِه" أيّ التّابوت الّذي فيه موسى عليه السّلام أو موسى بتابوته[1]، ويستمرّ القرآن في سرد قصّة موسى عليه السّلام إلى غاية قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[2]، مقابلا لأدبهم بأحسن منه، ولأنّه فهم أنّ مرادهم الابتداء وليكون هو الآخر، فتكون العاقبة بتسليط معجزته على سحرهم فلا يكون بعدها شك، لا ألقي أنا أوّلا، بل ألقوا أنتم أوّلا، فانتهزوا الفرصة، لأنّ ذلك كان مرادهم بما أفهموه من تعبير السّياق والتّصريح بالأوّل، وهكذا تلاحظ مدى ارتباط الكلام واتّحاد أجزائه ومناسبة هذا كلّه للسّياق الّذي ترد فيه، وممّا يرد في المقطع رابطا للكلام قول الحقّ سبحانه: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[3]، لأنّه لمّا أرشد السّياق والعطف على غير معطوف عليه ظاهر إلى أنّ التّقدير: "ذلك الجزاء العظيم والنّعيم المقيم جزاء الموصوفين لتركيتهم « عطف عليه قوله: "وَذَٰلِكَ جَزَآءُ" كلّ: "مَن تَزَكَّىٰ" أيّ طهّر نفسه بما ذكر من الإيمان والأعمال الصّالحة، وفي هذا تسلية للصّحابة رضوان الله عليهم فيما كان يُفعل بهم عند نزول هذه السّورة إذ كانوا مستضعفين»[4]، ولمّا تمّت هذه القصّة على ذلك الأسلوب الأعظم، والسّبيل الأقوم، متكلّفة بالدّلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة، أوّل السّورة بتكثير هذه الأمّة وردّ العرب عن غيّهم بعد طول التّمادي في العناد والتّنكّب عن سبيل الرّشاد، إلى ما تخلّله من التّسلية بأحوال السّلف الصّالح والتّأسية، مفصّلة من أدلّة التّوحيد والبعث، وغير ذلك من الحكم، بما يبعث الهمم على معالي الشّيم، كان كأنّه قيل: هل يعاد شيء من القصص على هذا الأسلوب البديع والمثال الرّفيع؟ فقيل: نعم، كذلك أي مثل

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 286.

2 الآيتان 65. 66.

3 سورة طه – الآية 76.

4 برهان الدّين البقاعي: السّابق- ج16- ص 316.

هذا القصّ العالي في هذا النّظم العزيز الغالي لقصّة موسى ومن ذُكر معه[1]، وبعد ما تقرّر في هذه القصّة، وما أشار إليه سبحانه في أوّل السّورة ممّا هو عليه من الحلم والتّأني على عباده، ومدح هذا الذّكر، وذمّ من أعرض عنه، وختمه بما عهد إليه صلّى الله عليه وسلّم في أمره نهيا وأمرا؛ ربط ذلك كلّه بقصّة آدم عليه السّلام، تحذيرا من الرّكون إلى ما يسبّبه النّسيان، وحثّا على رجوع من نسي إلى طاعة الرّحمن، لأنّه لمّا كان المقصود من السّورة الإعلام بالحلم والأناة والتّلطّف على التّائي والقدرة على المعرض ذكر« فِعلة آدم عليه السّلام في هذه السّورة بلفظ المعصية مع التّصريح بأنّها على وجه الانسان، ذكر ذلك أوّلا مجملا ثمّ أتبعه تفصيله ليكون ذلك مذكورا مرّتين تأكيدا للمعنى المشار إليه وتحذيرا من الوقوع في منهيّ، وإرشادا لمن غلب عليه طبع النّقص إلى المبادرة إلى النّدم وتعاطي أسباب التّوبة ليتوب الله عليه كما فعل بآدم عليه السّلام»[2]، ويظهر ارتباط أوّل السّورة بآخرها حين تقرب السّور على نهايتها، فحين تقرأ قوله تعالى:﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾[3]، تدرك أنّه لمّا هدّدهم بإهلاك الماضين ذكر سبب تأخير العذاب عنهم عاطفا إلى ما أرشد إلى تقديره السّياق، وهو غاية في إكرام النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ورحمة أمّته عليه الصّلاة والسّلام كما قال تعالى في أوّل السورة:﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[4]، ولعلّ ما يتعلّق كثيرا بموضوع الرّبط قضيّة حروف العطف، فحروف العطف تربط بين المتعاطفين من جهة التّشريك أو التّرتيب أو التّعقيب أو التّراخي أو الإضراب أو التّشريك أو التّسوية، ولكلّ معنى من معاني العطف حرف يختصّ بهذا المعنى بواسطة النّقل، فقد تدلّ "إلاّ" على الاستدراك نحو ما في هذه الآية من سورة طه:﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴾[5]، فمعنى إلاّ تذكرة: لكن تذكرة[6]، إذ لا معنى للاستثناء هنا ولا وجه له، وحروف العطف التي تربط أجزاء الكلام بعضها ببعض تختلف من موضع إلى آخر، ليؤدّي كلّ منها غرضه البلاغي في موضعه الذي

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 339.
2 المصدر نفسه- ج16- ص 355.
3 سورة طه - الآية 129.
4 الآية 02.
5 الآية 03.
6 برهان الدّين البقاعي: السّابق- ج16- ص 140.

حلّ فيه، على نحو ما نجده من تنوّع في الاستعمال بين سورة الأعراف في الآية الكريمة:﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، وبين قوله تعالى في سورة طه:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾[2]، وقوله تعالى في سورة الشّعراء:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3]، فجاءت الآية الأولى بـــ"ثمّ" وجاءت الثّانية والثّالثة بـــ"الواو"، ومردّ هذا التّنوّع في الرّبط بحروف العطف أنّ السّورتين اللّتين جاء الواو فيهما بهذا اللّفظ منهما هما المبنيتان على الاقتصاص الأكثر والبسط الأوسع،والواو أشبه بهذا المعنى لأنّه يجوز أن يكون ما بعدها ملاصقا لما قبلها كالتّعقيب الذي يفاد بالفاء ويجوز أن يكون متراخيا عنه كالمهملة التي يُفاد بـــ"ثمّ"[4]، ونحو هذا كثير في القرآن الكريم، إذ يراعى فيه فيه العلاقة بين استعمال الحروف وبناء الموضوع بسطا أو إيجازا، وارتباط كلّ بما يناسبه.

1 الآية 124.

2 الآية 71.

3 الآية 47.

4 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل – ص 132.

6. التّكرار والتّوكيد:

سبق بيان أنّ قضيّة التّكرار والتّوكيد المراد دراستها في ضوء موضوع التّضام ترتبط بمحورين هامّين، أحدهما يمسّ جانب الألفاظ والأساليب، والآخر يمسّ جانب القَصص في القرآن الكريم، إذ لا يتعدّى موضوعنا البحث في إعادة ذكر كلمة أو جملة أو مجموعة من الجمل والتّراكيب في مواضع متعدّدة وبأساليب متنوّعة، أو إعادة عرض قصّة من القَصص في أكثر من مناسبة، لما يقتضيه الموضع وتدعو إليه الحاجة ويتطلّبه الموقف من تأكيد و عناية وزيادة اهتمام.

تُفتتح سورة طه بذكر القرآن الكريم، في قوله تعالى:﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾[1]، فجاء بلفظ:"القرآن" بدل الكتاب مثلا، لأنّ استعمالات القرآن الكريم للفظ"القرآن" في هذه السّورة يتكرّر ثلاث مرّات، في حين ورد ذكر لفظ"الكتاب" في هذه السّورة مرّة واحدة فكان لابدّ من ذكر القرآن هنا لأنّه يستعمل الكتاب عندما تكون عدد استعمالاته تفوق استعماله القرآنَ أو أنّه لا يذكر القرآن مطلقا، وممّا ورد مكرّرا ما في قول الحقّ سبحانه:﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[2]، فجاء بهذه الكلمة (يخشى) هنا في مقدّمة السّورة، ويكرّرها القرآن حين يكلّف المولى سبحانه موسى عليه السّلام أن يدعو فرعون إلى الله قائلا له:﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[3]، ليبيّن السّياق أنّ إنزال الله القرآنَ على محمّد صلّى الله عليه وسلّم إنّما هو استمرار لسنّة الله في إرسال الرّسالات، فما القرآن إلا وحي الله الذي أنزله على عبده عليه الصّلاة والسّلام، كما أنزل وحيه على غيره من الرّسل. فالرّسل أمّة واحدة والوحي واحد، والهدف واحد، والمؤمن يؤمن بوحي الله كلّه[4]، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

1 الآية 02.

2 سورة طه – الآية 03.

3 سورة طه – الآية 44.

4 سعيد حوّى: الأساس في التفسير- مج 04- ص 3361.

قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾[1]، فيكون هذا المحور من سورة طه هو محور بداية سورة البقرة كما مرّ معنا في مناسبة هذه السّورة في هذا الفصل.

يقول تعالى:﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾[2]، تبدأ الآيات باستفهام غرضه التّقرير، بمعنى: يا أشرف المخلوقات، لتكون فائدة هذا الاستفهام أن يفرغ أذنه الشّريفة للسّماع وقلبه للوحي العظيم، و في الآية شاهد على توكيد الكلام، فإنّه لمّا كان الإيناس مقطوعا متيقّنا حقّقه لهم بكلمة (إنّ) ليوطن أنفسهم، وإن لم يكن هناك تردّد أو إنكار[3]، ولمّا كان الإتيان بالقبس ووجود الهدى مترقّبين متوقّعين بنى الأمر فيهما على الرّجاء والطّمع وقال:"لَّعَلِّيٓ " و لم يقطع فيقول: إنّي"ءَاتِيكُم" لئلاّ يَعِد ما ليس بمستيقن الوفاء به[4]، وتكرير الضّمير في:"إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ" لتوكيد الدّلالة، وتحقيق المعرفة وإماطة الشّبهة[5]، ويستمرّ موسى عليه السلام في تلقّي النّداء العلوي، فيقول له الحقّ سبحانه:﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝ ﴾[6]، بعد إعلامه بالتّكريم والاختيار والاستعداد والتّهيّؤ بخلع نعليه، يجيء التّنبيه للتّلقّي:"فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ" ويلخّص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة؛ الاعتقاد بالوحدانية، والتّوجّه بالعبادة، والإيمان بالسّاعة وهي أسس رسالة الله الواحدة[7]، وفي الآيات جميعها تأكيد وتحقيق بأكثر من مؤكّد، فقد فسّر

1 سورة البقرة – الآية 04.

2 سورة طه – الآيات 09 –12.

3 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل – ج04- ص 69 – وشهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج16- ص 165.

4 الزّمخشري: السّابق – ج04- ص 69.

5 المصدر نفسه – ج04- ص 70.

6 الآيات 13- 15.

7 سيّد قطب: في ظلال القرآن- ج16- ص 2331.

الموحي بأولّ الواجبات وهو معرفة الله تعالى، فقال مؤكّدا لعظم الخبر وخروجه عن العادات :"إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ "، فذكر الاسم العلم لأنّ هذا مقامه، إذ الأنسب للملطوف به بعد التعرّف إليه بالإكرام الإقامة في مقام الجلال والجمال، ثمّ قال:"إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ" مؤكّدا لإنكارهم معبّرا بما يدلّ على سهولة ذلك جدّا[1]، لأنّه لا ريب في إتيانها، ومن الطف ما تجده في هذه الآيات أنّه تعالى قال في هذه السّورة:"إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ "، أمّا في سورة غافر فقد قال سبحانه:﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، أكّد إتيان السّاعة بـ"إنّ واللاّم" في سورة غافر، وبـ"إنّ"وحدها في سورة طه، وذلك لأسباب منها؛ أنّ الكلام في سورة غافر على الكفّار الذين ينكرون السّاعة كما في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3]، أمّا في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السّلام وموسى غير منكر لها، ولذلك أكّد مع من ينكرها، ومنها أنّه قال تعقيبا على إتيان السّاعة في سور غافر"وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ " فحسن أن يؤكّد إتيانها بخلاف سورة طه، ومنها أنّ الجوّ في سورة غافر في الكلام على السّاعة[4]؛ يقول تعالى:﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[5] فاقتضى المقام زيادة التّوكيد في سورة غافر، والاكتفاء بما جاء في سورة طه، ومن مواطن التّكرار ما جاء في قوله تعالى:﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾[6]، والمكرّر في الآية هو النّداء فقد سبق نداء موسى عليه السّلام وهذا التّكرار أو إعادة النّداء لزيادة التّأنيس، والتّنبيه على شأن العصا، ومن مواطن

1 شهاب الدّين الألوسي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 279.

2 الآية 59.

3 سورة غافر- الآية 56. وينظر: الآية 59.

4 فاضل صالح السّامرّائي:التّعبير القرآني- ص 167. 168.

5 الآية 47.

6 الآية 19.

توكيد الكلام في هذه السّورة قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾[1]، ففي ذكر "لي" مع صحّة الاستغناء عنها زيادة ربط، وتأكيد بالتّلويح إجمالا، حتّى إنّه لو لم يذكر "صدري" و"أمري" لكفى، ولو اقتصر عليها بدون"لي" لم يفده الكلام تلك الفائدة، والمراد بـــ"أمري" ما يجري فيه من التّبليغ وشأنه[2]، ومن مواطن الإعادة قوله تعالى:﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ ﴾[3]، أعاد "العدوّ" للمبالغة بذكر عداوتين إذ لم يقل:" عدوّ لي وله"، ولو قاله لصحّ، وليس فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز فضلا عن أن يخرج على عموم المجاز، لأنّ فرعون عدوّ لله حين الأخذ، وعدوّ لموسى أيضا، إذ كان يبغض الأولاد لّما علم أنّ ملكه يزول على يد ولد، فلا حاجة إلى ما قيل: إنّه عدوّ لله في الحين ولموسى عليه السّلام فيما بعد[4]، ويقول تعالى في موضع آخر من هذه السّورة:﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[5] والتّعليل بـــ"لعلّ" أولى من التّشبيه، والاستفهام بعيد لأنّ الآية ليست لمقام هل يتذكّر أو يخشى؟ ولا لأنّ يقولا له: هل تتذكّر أو تخشى؟ وقال:"لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ" مع علمه أنّ لا يتذكّر ولا يخشى، لأنّ التّرجّي لموسى وهارون، أيّ اذهبا على رجائكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله، ولإلزام الحجّة وقطع المعذرة، ليجيء بعد هذه الآية قوله تعالى:﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾[6]،فقوله:"أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ" بمعنى يزداد طغيانا بالجرأة على حقّك، وكرّر:"أن" ليستحضر بها معنى نخاف على المسلّط "أن يَفۡرُطَ" استحضارا قويّا، ووجه آخر زيادة على هذا التّوكيد هو أنّه لّما كان فرعون في غاية الجبروت، وكان حاله حال من يهلكهما إلاّ أن يمنعهما الله، وأرادا علم ما يكون من ذلك:"قَالَا رَبَّنَآ "أيّ أيّها المحسن إلينا، ولّما كان مضمون إخبارهما بالخوف مع كونهما من جهة الله، من شأنه أن لا

1 الآيتان 25.26.

2 امحمّد بن يوسف أطفيّش:تيسير التّفسير – ج09- ص 140.

3 سورة طه – الآية39.

4 امحمّد بن يوسف أطفيّش: السّابق- ص ج09- ص 148.

5 الآية 44.

6 الآية 45.

يكون وأن ينكر، أكدّا فقالا مبالغين فيه بإظهار النّون الثّالثة إبلاغا في إظهار الشّكوى ليأتي الخبر على قدر ما يظهر من الكسر:"إِنَّنَا نَخَافُ" لما هو فيه من المُكنة:"أن يَفْرُطَ " أي يعجل:"عَلَيْنَا " بالعقوبة قبل إتمام البلاغ عجلة من يطفر ويثبّ إلى الشّيء:"أَوْ أن يَطْغَىٰ " ليجيب مسلّيا عند قولهما:"رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ؟" بقوله تعالى:﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1]، ليتجاوز إلى أعظم ممّا هو فيه من الاستكبار، ثمّ يعلّل بما هو مناط النّصرة والحياطة للوليّ والإهلاك للعدوّ، فقال مؤكّدا إشارة إلى عِظم الخبر، وتنبيها لمضمونه لأنّه خارج عن العوائد، وأثبت النّون الثّالثة على وِزان تأكيدهما:"إِنَّنِى مَعَكُمَآ " لا أغيب كما تغيب الملوك إذا أرسلوا رسلهم،"أَسْمَعُ وَأَرَىٰ " ولمّا تمهّد ذلك، تسبّب عنه تعليمهما ما يقولان، فقال مؤكّدا للذّهاب أيضا لما مضى:"فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ " أيّ له، ولمّا كان فرعون ينكر ما تضمّنه قولهما، أكّد سبحانه فقال:"فَقُولَآ إِنَّا "، ولمّا كان التّنبيه على معنى المؤازرة هنا مطلوبا ثنّى فقال:"رَسُولَا رَبِّكَ " الذي ربّاك فأحسن تربيتك بعد أن أوجدك من العدم إشارة إلى تحقيره[2]، ثمّ فرّع الإرسال على:"إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ " بالفاء السّببية للتّأكيد:"قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ" وفي هذا تقرير لدعوى الرّسالة وتعليل وجوب الإرسال، لأنّه من الله، وقالا:"مِّن رَّبِّكَ " لا منه لتأكيد التّقرير والتّعليل، ونفي الرّبوبية عنه، وأكدّ بـــ"قد"[3]، وفي تكرير مخاطبته بذلك تأكيد لتبكيته في ادّعاء الرّبوبية، ونسبته إلى كفران الإحسان[4]، وأفرد الآية ولو تعدّدت آياته، لأنّ المراد بها الأولى التي بدأه بها، أو لمّا ترادفت آياته كلّها على معنى واحد وهو التّوحيد عُدّت واحدة، كأنّه قيل: قد جئناك بما يثبت دعوانا[5]، ويقول تعالى:﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ

---

1 الآيتان 46، 47.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 292.

3 امحمّد بن يوسف أطفيّش:تيسير التّفسير – ج09- ص 158.

4 برهان الدّين البقاعي: السّابق- ج16- ص 293.

5 امحمّد بن يوسف أطفيّش: السّابق – ج09- ص 58.

﴿ ﴾ وذلك عندما كمل ذلك البرهان القويم الخاصّ بمحاورة موسى عليه السّلام وفرعون، دالاّ على العليم الحكيم، منبّها على انتشار أنواره، وجلالة مقداره، ومؤكّدا لأجل إنكار المنكرين:"إِنَّ فِي ذَٰلِكَ" أيّ الإنشاء على هذه الوجوه المختلفة:"لَآيَٰتٍ" على مُنشئه[1]، ومن مواطن التّوكيد في هذا السّياق أيضا قول الحقّ سبحانه بعد هذه الآية:﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾[2]، والشّاهد في الآية يندرج تحت موضوع التّقييد بالتّوابع، ومن أنواعه ما يكون بالتّوكيد، فيكون [illegible] دفع توهّم التّجوّز أو السّهو أو عدم الشّمول، ولا شكّ أنّ هذا لا يكون إلاّ حيث يدعو إلى هذا داع في الكلام وإلاّ كان التّوكيد عبثا لا فائدة فيه، ففي التّوكيد وتكراره ما فيه من الدّلالة على عِظم جرم فرعون[3]، إذ فعل من ذلك ما لم يفعله أحد غيره بيقين، وكأنّه قيل: كيف صنع في تكذيبه وإبائه؟ فجاءت الآية:﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[4] ثـــــمّ وصل به الفاء السّببية قوله مؤكّدا إيذانا بعلمه أنّ ما أتى به موسى عليه السّلام ينكر كلّ من يراه أن يقدر غيره على معارضته[5]. على أنّ من عجائب ما ذكره العلماء من جماليات أسلوب التّوكيد في هذه السّورة ما سيق في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[6] وفي الآية تأكيد الضّمير المتّصل بالمنفصل لغرض تثبيت قلب موسى عليه السّلام وبعث الطّمأنينة إليه[7]، ويذكر العلويّ أنّ التّوكيد هنا قد دلّ على طمأنينة موسى عليه عليه السّلام، وعلى الغلبة بالقهر والنّصر،وفي قوله:"إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ" نهاية البلاغة بدليل أمور ستّة؛ أمّا أوّلا فالإتيان بـــ"إنّ" في أوّل الخطاب لتأكيد الأمر وتقرير ثبوته، وأمّا ثانيا فتأكيد

---

1 المصدر السّابق- ج16- ص 298.

2 سورة طه – الآية 56.

3 عبد المتعال الصّعيدي: البلاغة العالية، علم المعاني- ص 125.

4 الآيتان 57. 58.

5 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 301.

6 الآيتان 67. 68.

7 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن- ص 114.

الضّمير المتّصل بالمنفصل مبالغة في تخصيصه بالقهر والغلبة، وأمّا ثالثا فإتيانه بلام التّعريف في قوله: "ٱلْأَعْلَىٰ" ولم يقل:"أعلى "ولا عال"، لأنّها دالّة على الاختصاص كأنّه قال:"أنت ٱلْأَعْلَىٰ " دون غيرك وفيه تعريض بأمرهم وتهكّم بحالهم وإبطال لما هم عليه من أمر السّحر وأمّا رابعا فقوله: "ٱلْأَعْلَىٰ" إنّما جاء بلفظ:"أفعل" ولم يقل:"العالي" لأنّ مجيئها على جهة الزّيادة في تلك الخصلة للمبالغة، وأمّا خامسا فتحقيق الغلبة بقوله:"ٱلْأَعْلَىٰ " لأنّ معناه:"الأغلب" وعدل إلى لفظ "الأعلى" لما فيه من الدّلالة على الغلبة بالفوقية لا بالمساواة، وأمّا سادسا فلأنّه أتى بقوله: "إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ " على جهة الاستئناف ولم يقل:"قلنا لا تخف لأنّك أنت الأعلى"، لأنّه لم يجعل عدم الخوف سببا لكونه غالبا لهم، وإنّما نفى الخوف بقوله:"لا تخف" ثمّ استأنف الكلام بقوله:"إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ" فلا جَرَمَ كان أبلغَ في شرح صدر موسى عليه السّلام، وأقرّ لعينه في القهر والاستيلاء[1]، وبهذا تبين إفادة التّوكيد في القرآن ومترلتها من مباحث البلاغة والإعجاز، ومن الألفاظ التي تكرّرت في هذه السّورة لفظ "القيامة" فقد جاء في قوله تعالى:﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾[2]، والإعادة لذكر يوم القيامة لزيادة التّقرير والتّهويل[3] ولم يقتصر الأمر على تكرار الأساليب والعبارات وتأكيدها، بل يُتجاوَز إلى ملاحظة تكرار قصّة موسى عليه السّلام ما دام الحديث عن قصّة موسى في سورة طه، فقد تكرّر ذكر موسى عليه السّلام في القرآن الكريم في مئة وستّة وثلاثين موضعا، جاءت في أربع وثلاثين سورة، منها سبع وعشرون سورة مكّيّة، على أنّ الذي تكرّر تكريرا تامّا هو اسم موسى عليه السّلام، ومناسبة ذكر قصّته في السّور المكّية أكثر من السّور المدنية يرجع إلى أنّ أشدّ الفترات إيذاء للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كانت في مكّة، وقد تعدّدت ألوان هذا الإيذاء، ومن ثمّ احتاج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى العون الشّديد من الله، فأنزل سبحانه هذه المواقف الشّديدة من فرعون وقومه وبني إسرائيل ضدّ موسى عليه السّلام، وهكذا تبرز العبرة لرسول الله عليه الصّلاة

1 الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز- ج02- ص 78. 79.

2 الآيتان 100. 101.

3 امحمّد بن يوسف أطفيّش:تيسير التفسير – ج09- ص 213.

والسّلام، وأنّ أخاه موسى عليه السّلام قد أصابه الكثير من قبله في سبيل الدّعوة؛ لأنّ من خواصّ القرآن المكّي أنّه قصّ عليهم من أنباء الرّسل وأممهم السّابقة، ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر، من تقرير سنَنه تعالى الكونيّة في إهلاك أهل الكفر والطّغيان، وانتصار أهل الإيمان والإحسان، مهما طالت الأيّام وامتدّ الزّمن، ما داموا قائمين بنصرة الحقّ وتأييد الإيمان[1]، إذ إنّ كلّ سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السّابقة فهي سورة مكّيّة عدا سورة البقرة، وهذا فرق جوهريّ بين القرآن المكّي والقرآن المدني، إلى غير ذلك من الفروق ممّا يؤكّد أنّ هذه السّور المكّية تعالج قضيّة الألوهيّة وما يتعلّق بها،ومن ثمّ يجمعها إطار دلالي أو أكثر ومرجعيتها تكاد تكون واحدة من حيث القضيّة والتّناول،لذلك ترى وحدات هذه السّورة متماسكة نصّيا[2]، وكلماتها متضامّ بعضها إلى بعض، إعادة وتكريرا أو تقريرا وتأكيدا.

لعلّ ممّا يشدّ انتباهنا في هذه السّورة الكريمة عند دراسة موضوع التّكرار هو ذلك الحضور العجيب لألفاظ الذّكر والنّسيان، فهذه الموادّ اللّغوية تكرّر ورودها في السّورة في أكثر من عشرة مواضع، أوّلا في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[3]، لأنّ الوحي تذكرة وتبصرة؛ ومحوّ للغفلة والذّهول، وثانيا في قوله تعالى:﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[4] فلمزيّة الصّلاة على ما بعد التّوحيد خصّها بالذّكر هنا، تخصيصا بعد تعميم العبادة لاشتمالها على ذكر المعبود وشغل القلب واللّسان، أو يمكن اعتبار أنّ ذكر الصّلاة سبب لذكر الله، فأطلق المسبّب على السّبب، أو أوقع ضمير الله موقع ضمير الصّلاة لشرفها، أو المراد الذّكر الحاصل منّي، فأضيف الذّكر بمعنى التّذكّر لله عزّ وجلّ لأحد هذه الملابسات[5]، وإقام الصّلاة أداؤها في جماعة تصطفّ لها، وتستعدّ بدنيا ونفسيا لتسبيح الله وتحيّته، وثالثا في قوله تعالى:﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[6]، حين طلب موسى من ربّه أن يكون أخوه هارون شريكا

1 عبد العظيم الزّرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن- ج01- ص 196.

2 صبحي إبراهيم الفقي: علم اللّغة النّصي بين النّظرية والتّطبيق- ص 175.

3 الآية 03.

4 الآية 14.

5 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التفسير – ج09 – ص 130.

6 الآيتان 33، 34.

له في أعباء الرّسالة، ورابعا في قوله تعالى لموسى عليه السّلام بعدئذ:﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾[1]، وخامسا في قوله تعالى:﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[2] حيث يجعل الغاية من الإرسال أن يفيق فرعون من غشيته ويتوب إلى ربّه، وسادسا في قوله تعالى عندما يصف موسى عليه السّلام علم الله بالكائنات في الأزل والأبد:﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[3]، وسابعا في قوله تعالى:﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾[4]، فكان من الطّريف أن يصف السّامريّ العجل الذي صنعه ويقول معه المخدوعون به، وثامنا في التّعقيب على قصّة موسى عليه السّلام مع قومه، حيث يقول تعالى لنبيّه:﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴾[5] وتاسعا في قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[6]، وصفا للقرآن الكريم وسرّ نزوله،وعاشرا في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[7]،في إخراج آدم عليه السّلام من الجنّة بعدما كان مُكرَما فيها، لتُختتم السّورة بالمادّتين اللّغويتين معا ويجيء هذا الإنذار العامّ للأفراد والجماعات في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[8]، فسورة طه في سياقها كلّه تعرض لخطورة الغفلة عن الله والبعد عن توجيهه، إذ النّسيان العارض لا يخاف على صاحبه؛ فسرعان ما

1 الآية 42.

2 الآية 44.

3 الآية 52.

4 الآية 88.

5 الآيتان 99.

6 الآية 113.

7 الآية 115.

8 الآيات 124 – 126.

يتذكّر، في حين إنّ المخوّف أن ينسج النّسيان غشاوة طامسة تعمي معها البصيرة، ويصير المرء بها حطبا لجهنّم[1] وإذا تمعّن المرء في هذا القصص القرآني أدرك أنّه يتكرّر في حياتنا كلّ يوم؛ فالنّسيان يغلب ليجيء بعده السّقوط، والجنّة لا يرشّح لها إلاّ ذاكر واضح الرّقابة لله، ومن فضل الله علينا أنّه فتح أبواب التّوبة أمام العاثرين حتى لا يُحرموا رضاه إلى الأبد إذا زلّت الأقدام.

1 محمّد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم — ص 249.

7. التّعدية والتّضمين:

إنّ ما حذا بنا إلى اختيار هذا المبحث ضمن مباحث الدّراسة التّطبيقية للتّضام في إحدى سور القرآن الكريم هو البحث في القيمة الفنّية للعبارة[1]، فضلا عن تركيبها الصّحيح، مثلما أشرنا في الفصل السّابق، وباعتبار هذا الموضوع يتأسّس على جملة من العوامل التي ترتبط بقضيّة رصف الجمل والكلمات بعضها مع بعض، وإمكانية توارد بعضها مع بعض، فإنّ إدخال الحرف على غير مدخوله[2]، واستعمال الحروف بعضها مكان بعض[3]، أو نيابة بعضها عن بعض[4]؛ يتّصل اتّصالا قويّا به وإنّ كلّ ما من شأنه أن يدخل تحت هذه المباحث ذو علاقة بموضوع التّوارد والتّضام.

يقول تعالى:﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾[5]، في الآية خروج نمط الاستفهام عن معنى الطّلب إلى معان أخرى؛ منها التّعجّب[6]، فـ"هل" أداة استفهام، والاستفهام طلب الفهم، ولكن الله تعالى يعلم الحكاية كلّها وليس في حاجة إلى الاستفهام من أحد، إذًا؛فهذا أسلوب تشويق[7] وقوله:"وَهَلْ أَتَىٰكَ" وإن كانّ على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى إلاّ المقصود منه تقرير الجواب في قلبه، وهذه الصّيغة أبلغ في ذلك كما يقول المرء لصاحبه: هل بلغك خبر كذا؟ فيتطلّع السّامع معرفة ما يرمي إليه، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قِبَل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لا من قِبَل الله تعالى، فالاستفهام في الآية للتّقرير[8]، وذلك بغرض تسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما أوذي به موسى عليه السّلام كغيره، أنّهم عراهم من أقوامهم ما عراك، وإعلانا بأنّ شأن الأنبياء القيام بالتّوحيد وأموره، ونادبا إلى التّأسّي بموسى عليه السّلام في تحمّل أعباء النّبوّة وتكليف الرّسالة، والصّبر على مقامات الشّدائد، وشارحا بذكر ما في هذه

---

1 أحمد حسن حامد: التّضمين في العربية- ص 41.

2 ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن- ص 507. وينظر: بيان إعجاز القرآن: الخطّابي- ص26.

3 ابن جنّي: الخصائص- ص 509-511.

4 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 188.

5 سورة طه – الآية 09.

6 تمّام حسّان: السّابق- ص 78.

7 محمّد متولّي الشّعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين- ص 251.

8 فخر الدّين الرّازي: التّفسير الكبير- ج 22- ص 17. وينظر: البحر المحيط في التّفسير: أبو حيّان الأندلسي- ج07- ص 314.

السّورة من سياق قصّة ما أُجمل منها في سورة مريم، مقرِّرا بما نظمه في أساليبها ما تقدّم أنّه مقصد السّورة من أنّه يسعده ولا يشقيه، بعدما سلاّه عن تكذيب قومه بقوله سبحانه:﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[1]، وأشار بحديث موسى وإنجائه عليه السّلام على يد عدوّه وإلقائه المحبّة عليه وهداية السّحرة دون فرعون وقومه، وعبادة بني إسرائيل العجل بعد ما رأوا من الآيات والنّعم والنّقم، ثمّ رجوعهم عنها إلى عظيم قدرتهم في التّصرّف في القلوب لمن كاد يبخع نفسه بكفرهم بهذا الحديث أسفا، وكذا في قصّة آدم عليه السّلام من قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[2] وقوله:﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[3]، ولعلّ أشار بقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾[4] إلى ما أنعم الله به عليه من تيسير هذا الذّكر بلسانه، وأرشد بدعاء موسى عليه السّلام بشرح الصّدر وتيسير الأمر وطلب وزير من أهله إلى الدّعاء بمثل ذلك حتّى دعا المنزّل عليه القرآن بأن يؤيّد الله الدّين بأحد الرّجلين، فأيّده بأعظم وزير؛ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[5]، وقيل هو بمعنى"قد"[6]، أيّ: قد أتاك ذلك في الزّمان المتقدّم، فكأنّه قال أليس قد أتاك، والظّاهر خلاف هذا، لأنّ السّورة مكّيّة والظّاهر أنّه لم يكن أطلعه على قصّة موسى قبل هذا، وأجاز بعضهم أن يكون هذا الاستفهام للنّفي[7] أيّ: ما أخبرناك قبل هذه السّورة بقصّة موسى، ونحن الآن قاصّون قصّته لتتسلّى وتتأسّى، أو بمعنى: لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبّه له[8]، وقد جمع الطّاهر بن عاشور بين هذه الأقوال فقال:«والاستفهام مستعمل في التّشويق إلى الخبر مجازا، وليس مستعملا في حقيقته، سواء كانت هذه القصّة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، من قبل أو كان هذا أوّل قصصها عليه، وأوثر

---

1 الآية 02.

2 سورة طه- الآية 115.

3 الآية 122.

4 الآيات 27- 29.

5 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب لآيات والسّور- ج16- ص 272.

6 فخر الدّين الرّازي: التّفسير الكبير - ج 22- ص 17. وسعيد حوّى: الأساس في التّفسير- مج 04- ص 3352.

7 البحر المحيط في التّفسير: أبو حيّان الأندلسي- ج07- ص 314. و ينظر: تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش- ج09- ص 124.

8 فخر الدّين الرّازي: السّابق - ج 22- ص 17.

حرف:"هل" في هذا المقام لما فيه من معنى التّحقيق، لأنّ"هل" في الاستفهام مثل"قد" في الإخبار»[1] إلى غير ذلك من التّخريجات الخاصّة بهذا الحرف وما يتضمّنه من معان، ويقول تعالى في هذه السّورة:﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[2]، وفي الآية شاهد على التّعبير بحرف دون آخر فقد عبّر بـــ"على" دون "الباء"، وهناك فرق في المعنى بين دخول حرف"على" وحرف "الباء" على لفظ (العين) ولحرف"على" من دلالته على المعنى ما ليس لحرف الباء، إذ حرف"على" في هذه الآية يدلّ على أنّ تغذية موسى عليه السّلام على حال أمن وسرور، لا تحت خوف واستسرار فحرف"على" يعطي معنى الاستعلاء ويدلّ على الظّهور، ومعنى:"وَلِتُصْنَعَ " أي تربّى بأيسر أمر تربية بمن هو ملازم لك، لا ينفكّ عن الاعتناء بمصالحك عناية شديدة، "عَلَىٰ عَيْنِىٓ " أيّ مستعليا على حافظيك، غير مستخف في تربيتك على أحد ولا مخوف عليك منه، أنا حافظ لك حفظ من يلاحظ الشّيء بعينه لا يغيب عنها[3]، أمّا حرف"الباء" في قوله تعالى:﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[4]، وقوله تعالى:﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[5]، فليس في حاجة إلى التّعبير بـــ"على" إذ المراد الرّعاية والحفظ فقط، وهذا يكفي في إفادته حرف الباء، ويضيف ابن قيّم إضافة على ما أفاده من السّهيلي[6]، وهي أنّ صيغة الإفراد في قوله "وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ " فيها معنى الاختصاص الذي خصّ الله به موسى عليه السّلام بقوله تعالى:﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[7]، وهذا مفقود في الآيتين الأخريين، ومن مواطن التّعدية في هذه السّورة ببعض الحروف دون بعض قوله تعالى:﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[8]، وقد مرّ في الفصل السّابق بعض الكلام عن سرّ تعدية

1 تفسير التّحرير والتّنوير- ج16- ص 192.

2 الآية 39.

3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب لآيات والسّور- ج16- ص287.

4 سورة القمر – الآية 14.

5 سورة هود – الآية 39.

6 عبد الفتّاح لاشين: ابن قيّم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن- ص 66.

7 سورة طه – الآية 41.

8 الآية 43.

الفعل"ذهب"، فتارة يجيء متعدّيا بالباء، وتارة بـ"عن"، وتارة بـ"إلى"، وقد جاء متعدّيا بـ"إلى" في صورتي الماضي والأمر خمس مرّات، ومرّة واحدة باسم الفاعل[1]،ولعلّك لست في حاجة إلى كبير عناد في إدراك السّرّ البلاغي لتعدية فعل الذّهاب بـ"إلى" في مواطن وروده، ومنها ما جاء في هذه الآية، فقد دلّ حرف الانتهاء على أنّ الله عزّ وجلّ يأمر موسى عليه السّلام أن يجعل منتهى غايته الوصول إلى فرعون لدعوته لعبادة الله سبحانه وتعالى[2]، ويقول تعالى في هذه السّورة:﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[3]، والشّاهد في الآية أنّ "على" هنا بمعنى"اللاّم"، وقد ورد عكسه في قوله تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[4]، فقال:"وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ" وحروف الجرّ على حدّ تعبير الألوسي كثيرا ما تتقارض[5]، وقد حسُن ذلك هنا للمشاكلة، حيث جيء بـ"على" في قوله تعالى:﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[6]، فقوله "إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ" من جهة ربّنا "أَنَّ ٱلْعَذَابَ" الدّنيوي والأخرويّ "عَلَىٰ مَن كَذَّبَ" بآياته عزّ وجلّ و"تولّى" أي أعرض عن قبولها، ومنه أيضا قوله تعالى:﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[7]، فإيثار كلمة "في" على كلمة "إلى" للدّلالة على الاستقرار المديد فيها[8]، فتأمّل ما يؤدّيه استعمال هذه الحروف دون غيرها في تراكيب معيّنة، من معاني البلاغة والإعجاز.

1 يقول تعالى:﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.[سورة الصّافّات-الآية 99].

2 يوسف الأنصاري: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- ص 757.

3 الآية 47.

4 سورة غافر – الآية 52.

5 روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج16 – ص 198.

6 الآية 48.

7 سورة طه – الآية 55.

8 شهاب الدّين الألوسي:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج16 – ص 208.

يقول تعالى:﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[1]، وفي الآية نموذج آخر من نماذج المغايرة في تضمين بعض الحروف معنى بعض آخر، ولقد وقفَ جملة من العلماء **على**هذه الآية، وسنكتفي ببعض الآراء والأقوال، ومحلّ الشّاهد هنا حول استعمال الحرف"في" بدل الحرف"على" وتخريج هذا أهو على أصله، أم أنّ في ذلك تضمينا؟ فقد صحّ عن الفرّاء أنّ (على) تصلح في موضع (في)، وإنّما صلحت (في) لأنّه يرفع في الخشبة في طولها فصلحت (في)، وصلحت (على) لأنّه يرفع فيها فيصير عليها[2]، ورُوي عن أبي عبيدة أنّ قوله:"في جذوع النّخل" بمعنى على جذوع النّخل[3]، وقد ورد هذا الشّاهد عند ابن قتيبة للاستدلال على إمكانية دخول بعض حروف الصّفات مكان بعض[4]، وقد جاء في كتاب الخصائص أنّ هذا الباب-باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض- يتلقّاه النّاس مغسولا ساذجا من الصّنعة، وما أبعد الصّواب عنه وأوقفه دونه، وذلك أنّهم يقولون إنّ(في) تكون بمعنى (على) ويحتجّون بهذه الآية الكريمة[5]، ومجيء (في) بمعنى (على) قليل، وإنّما من باب الاحتواء والاستعلاء، ومكانه صالح لهما فهو موقعهما، نحو جلس في الأرض وعليها، وعلى قول من قال: إنّ المراد بالظّرف ما كان المظروف ممكنا فيه فكان (في) في الآية بمعناه، لا بمعنى (على) كما اختاره الزّمخشري، لأنّ المصلوب في الجذوع متمكّن فيه تمكّن المظروف في الظّرف[6]، فقد روى هذا الأخير أنّه:«شبّه تمكّن المصلوب في الجذع بتمكّن الشّيء الموعى في وعائه، فلذلك قيل:"في جذوع"»[7]، وفي الآية على تقدير ابن عطيّة اتّساع من حيث هو مربوط بالجذع، وليس على حدّ قولك ركبت على الفرس[8]، وأراد بالتّقطيع والتّصليب في الجذوع التّمثيل بهم، ولمّا كان

1 سورة طه - الآية 71.

2 معاني القرآن- ج02- ص 186.

3 مجاز القرآن- ج02- ص 23.

4 تأويل مشكل القرآن- ص 568.

5 ابن جنّي- ص 509.

6 عبد القاهر الجرجاني: العوامل المائة النّحوية في أصول علم العربية- شرح: خالد الأزهري الجرجاني(ت905هـ)- تحقيق وتقديم وتعليق: بدراوي الزّهران- القاهرة- دار المعارف- ط02- د ت- ص 113.

7 الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل - ج04- ص 97. وينظر: التّفسير الكبير: فخر الدّين الرّازي- ج22- ص 88.

8 المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- ج04- ص 53.

الجذع مقرّا للمصلوب واشتمل عليه اشتمال الظّرف على المظروف، عُدِّي الفعل بـ(في) التي للوعاء[1]، أضف إلى ذلك أنّ في الآية من جانب آخر استعارة تبعيّة، فقد استعيرت الظّرفية المستفادة من (في) للاستعلاء فجرت الاستعارة أوّلا في المتعلّق، وبتبعيّة في الحرف تنبيها على اشتمال الشّجرة على مصلوب وكونها كوعاء له، تحوطه حياطة المكان الحاوي لما فيه[2]، ثمّ إنّ في إيثار كلمة (في) دلالةً على إيقاعهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار الظّرف في المظروف المشتمل عليه[3]، فشبّه إعلاءهم فيها مدّة طويلة بجعلهم في داخلها لجامع التّمكّن استعارة أصلية واستعارة (في) ، من جانب المشبّه به بمعنى (على) من جانب المشبّه تبعية[4]، وعلى هذا التّقدير الأخير من القول بالاستعارة التّبعية جاء تخريج الطّاهر بن عاشور من حيث «تعدية فعل(لأصلّبنّكم) بحرف (في) مع أنّ الصّلب يكون فوق الجذع لا داخله ليدلّ على أنّه صلب متمكّن، يشبه حصول المظروف في الظّرف، فحرف (في) استعارة تبعية تابعة لاستعارة متعلّقِ معنى (في) لمتعلّق معنى (على)»[5]، وبهذا تظهر مزيّة استعمال الحروف بعضها مكان بعض، وما تؤدّيه من بلاغة في هذا الكلام المعجز، ومن شواهد التّعدية في هذه السّورة قول الحقّ سبحانه:﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[6]، فالفعل (وسوس) في هذه الآية تعدّى بحرف(إلى)، بينما تعدّى بـ(اللاّم) في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[7]، والفرق في ذلك لاعتبار كيفية تعليق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلّم، فإنّه فعل قاصر لا غنى له عن التّعدية بالحرف، فتعديته بحرف (إلى) هنا

1 أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التّفسير- ج07- ص358.

2 أحمد بن محمّد الحموي(ت1098هـ): درر العبارات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات- تحقيق ودراسة: عبد الحميد التلب- القاهرة- مطبعة السّعادة- 1407هـ/1987م- ص 11.

3 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج16- ص 231.

4 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التفسير- ج09- ص 185.

5 تفسير التّحرير والتّنوير- ج16- ص 265.

6 الآية 120.

7 الآية 20.

باعتبار انتهاء الوسوسة، وبلوغها إيّاه، وتعديته باللاّم في سورة الأعراف باعتبار أنّ الوسوسة كانت لأجلهما[1]، وفي التّعبير بـــ(إلى) دلالة على أنّ المقام لبيان سرعة قبول هذا النّوع للنّقائص إن أتته من بعد، أو لأنّه ما أنهى إليه ذلك إلاّ بواسطة زوجه، لذلك عدّى الفعل عند ذكرها باللاّم[2] والاستفهام في قوله:"هَلْ أَدُلُّكَ " استفهام مستعمل في العَرض[3]، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام لقربه من حقيقته، لأنّ النّفس شديدة الطّلب لعلم ما تجهله.

1 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير- ج16- ص 325. وينظر: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم: يوســـف الأنصاري- ص 744.

2 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 358.

3 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 77.

8. التّعريف والتّنكير:

يحتلّ موضوع التّعريف والتّنكير مكانا مرموقا من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وسبق بيان بعض اهتمامات البلاغيين وعنايتهم به، وذكر بعض الأسرار البلاغية في الفصل السّابق الخاصّ بسورة هود، وقلنا إنّ لكلّ من التّعريف والتّنكير خصائصَ يتميّز بها عن غيره توجب على الدّارس إمعان النّظر والتّدبّر في كتاب الله العزيز، بهدف معرفة فاعلية التّعريف والتّنكير في توارد الكلمة مع أخواتها، وتضامّ بعضها مع بعض، وغرضنا في هذا الفصل لا يخرج عمّا ورد في ذلك الفصل السّابق سوى التّطرّق إلى هذا الموضوع في سورة طه.

يقول تعالى:﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾[1]، لتجد أنّ استعمال الاسم الموصول (مَن) في الآية قد أفاد معنى التّعظيم والتّفخيم، وهو ما فعله البلاغيون – وفي مقدّمتهم عبد القاهر– حين توقّفوا عند تركيب الموصول مبّينين الدّلالات الفنّيّة كاشفين بعض الأسرار البلاغية والدّلالية والأسلوبية التي يتميّز بها هذا التّركيب، فيؤثر على غيره من المعارف في مواضيع كثيرة من الكلام[2]، ومن هذه الأغراض البلاغية ما وقع من تعظيم في هذه الآية، فقوله:"مِمَّن" تفخيم وتعظيم لشأن القرآن إذ هو منسوب تتريله إلى مَن هذه أفعاله وصفاته، وتحقير لمعبوداتهم وتعريض للنّفوس على الفكر والنّظر، وقد حصل التّعظيم من وجهين، وذلك من حيث جريان هذه الصّفات على لفظ الغيبة والتّفخيم بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظّم نفسه، ثمّ إسناده إلى من اختصّ بصفات العظمة التي لم يشركه فيها أحد[3]، لأنّ نسبة التّتريل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبة الإنزال إلى نون العظمة لبيان فخامته وتعظيمه تعالى شأنه[4]، ولأنّ التّعبير بالموصول إنّما حصل لما تؤذن به الصّلة من تحتّم إفراده بالعبادة، لأنّه خالق المخاطَبين بالقرآن وغيرهم ممّا هو أعظم منهم خلقا، ولذلك وُصفت "السّماوات" بـــ:"العُلى" صفة كاشفة زيادةً في تقرير معنى عظمة خلقها، وأيضا ما كان ذلك شأن مُترل القرآن لا جرم كان القرآن عظيما[5]، وقد

---

1 سورة طه – الآية 04.

2 طال محمّد الزّوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين– ص 196.

3 أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير– ج07– ص 311.

4 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني– ج16– ص 152.

5 الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير– ج16–ص 186.

قرأ ابن عبلة(تنزيل) بالرّفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أيّ هو تنزيل:(مِمَّنْ خَلَقَ) متعلّق بتنزيل[1] وجوّز أن يكون المتعلّق بمضمر هو صفة له مؤكّدة لما في تنكيره من الفخامة الذّاتية بالفخامة الإضافية[2]، وممّا وقع في حيّز القول بالنّكرة في هذه السّورة قوله تعالى:﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[3]، ففي تنكير العقدة- وإن لم يقل عقدة لساني- أنّه طلب حلّ بعضها إرادة أن يفهم عنه فهمًا جيّدا و لم يطلب الفصاحة الكاملة، و:"من لساني" صفة للعقدة، كأنّه قيل: عقدة من عقد لساني[4]، وشبّه إزالة الرّتة من لسانه بحلّ عقدة في خيط أو نحوه، واشتقّ منه (احلل) على طريق التّبعية التّمثيلية، لأنّ ذلك مركّب من الحلّ بمعنى الإزالة، ومن العقدة بمعنى الرّتة، تجوّزا فيها، ثمّ المراد إمّا طلب حلّ العقدة كلّها، ونكّرها لعظمها إلى الله عزّ وجلّ، وإمّا طلب حلّ بعضها، أيّ عقدة من عقد لساني[5]، وجاءت بالإضافة ليتأتّى التّنكير المشعر بأنّها عقدة شديدة[6]، ومن ألوان المعارف واستعمالات الضّمائر في هذه السّورة قوله تعالى:﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[7]، إذ تُستعمل في مواضعها الدّقيقة الجديرة بها، فيستعمل الضّمير الذي يجمع بين الاختصار الشّديد والارتباط المتين بين جمل الآية بعضها وبعض، لأنّ عادة القرآن الكريم في ضمائر الغيبة أنّها تتّفق إذا كان مرجعها واحدا، حتّى لا يتشتّت الذّهن، ولا يغمض المعنى، ولذا كانت الضّمائر كلّها تعود إلى موسى عليه السّلام، نحو هذه الآية وبعدها، وليس من قوّة النّظم في شيء أن يعود بعض هذه الضّمائر على موسى عليه السّلام وبعضها على التّابوت[8].

---

1 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- ص 66. و ينظر: البحر المحيط في التّفسير: أبو حيّان الأندلسي - ج07- ص 311.

2 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني - ج16- ص 152.

3 الآية 27.

4 الزّمخشري: السّابق- ج04- ص 79.وينظر: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ابن عطيّة- ج04- ص 42. وينظر: التّسهيل لعلوم التّنزيل: ابن جزيّ- ج 02- ص 18.

5 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير- ج09- ص 141.

6 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير- ج16- ص 212.

7 سورة طه- الآيتان 38. 39.

8 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن- ص 104.

ومن مواطن التّنكير في هذه السّورة قوله تعالى:﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾[1]، فقوله:(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) إشارة إلى ما ذُكر من شؤونه تعالى وأفعاله، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبته وبعد مترلته في الكمال، قيل لعدم ذكر المشار إليه بلفظه، والتّنكير في قوله (لَأٓيَٰتٖ) للتّفخيم كمّا وكيفا، أي لآيات كثيرة جليلة واضحة الدّلالة على شؤون الله تعالى في ذاته وصفاته[2]، وقد جاء هذا التّنكير في جملة معترضة مؤكّدة للاستدلال؛ فبعد أن أُشير إلى ما في المخلوقات المذكورة آنفا من الدّلالة على وجود الصّانع ووحدانيته، والمِنّة بها على الانسان لمن تأمّل، جُمعن في هذه الجملة، وصُرّح بها في جميعها من الآيات الكثيرة، وكلّ من الاعتراض والتّوكيد مقتض لفصل الجملة، وتأكيد الخبر بحرف (إنّ) لتتريل المخاطبين مترلة المنكرين، لأنّهم لم ينظروا في دلالة تلك المخلوقات على وحدانية الله، وهو يحسبون أنفسهم من أولي النّهى[3]، ومن مواطن التّعريف في هذه السّورة ما نجده في قوله تعالى:﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[4] فقوله:"إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ" فيه تقرير لغلبته وقهره، وتوكيد بالاستئناف، وبكلمة التّجديد وبتكرير الضّمير، وبلام التّعريف، وبلفظ العلوّ، وهو الغلبة الظّاهرة وبالتّفضيل[5]، ومن دلالات التّعريف الاختصاص؛ فلم يقل:"أعلى ولا عال" لأنّها دالّة على الاختصاص كأنّه قال:"أنت الأعلى دون غيرك"، وفيه تعريض بأمرهم وتهكّم بحالهم وإبطالهم لما هم عليه من أمر السّحر[6]، ويقول تعالى بعد هذه الآية الكريمة:﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾[7]، ليكون الشّاهد في الآية في التّعبير بالاسم الموصول لما في ذلك من الدّلالة على التّهويل والتّعظيم، حتّى كأنّه قال: ألق هذا الأمر الهائل الذي في يمينك، فإنّه يبطل ما

1 الآية 54.

2 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني - ج16- ص 207.

3 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير- ج16- ص 239.

4 سورة طه - الآية 68.

5 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّتريل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- 94. و شهاب الدّين الألوسي: المصدر السّابق - ج16- ص 228.

6 يحيى بن حمزة العلويّ: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز- ج02- ص 77.

7 الآية 69.

أتوا به من سحرهم العظيم وإفكهم الكبير[1]، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى إن قلتَ: فلم نكّر أوّلا وعرّف ثانيا؟ قلت: إنّما نكّر من أجل تنكير المضاف، لا من أجل تنكيره في نفسه[2]، لأنّه لمّا كان المقصود تحقير هذا الجيش أفرد ونكّر لتنكير المضاف وتحقيره[3]، فقال:"كَيْدُ سَٰحِرٍ" أي: كيد سحريّ، لا حقيقة له، ولا ثبات له سواء كان واحدا أو جمعا، ومنه أيضا قوله تعالى:﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[4] دليلا على بلاغة استعمال الاسم الموصول في مثل هذه المقامات، لأنّ من أغراض التّعريف بجملة الصّلة إفادة معنى التّفخيم والتّهويل، وقد جعله الزّمخشري من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة، أيّ غشيهم ما لا يعلم كنهه إلاّ الله[5]، فالاسم الموصول (ما) في الإبهام أدّى إلى التّهويل، ولو قال غشيهم من اليمّ أمور عظيمة هائلة ما أفاد هذا القول التّهويل الذي أفاده الاسم الموصول[6]، لترى أنّ صلة (مَا غَشِيَهُمْ) أمر مبهم بولغ فيه،وليترك العنان للخيال ليكمل الصّورة ويرسمها، إذ يريد أنّه بلغ مبلغا تقاصرت عنه العبارة عن كنهه فحذف ذلك وأقام الإبهام مقامه، لأنّه أدلّ على البلاغة[7]، وكما يكتسب الاسم النّكرة بإضافته إلى إحدى المعارف المذكورة فإنّ الإضافة تلقي بظلالها على هذا التّعريف، فنجد العديد من المزايا واللّطائف البلاغية، ومن ذلك قول الحقّ تعالى في هذه السّورة:﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[8]، فقد أفادت إضافة كلّ من (الهدى) و(الذّكر) إلى الذّات العليّة (هُدَاىَ) و (ذِكْرِى) التّعظيم، وإعلاء شأن الهدى والذّكر، ونبّهت إلى وجوب القبول

---

1 طالب الزّوبعي: البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى و أسلوبية المحدثين- ص 200.
2 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- 95.
3 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 308.
4 سورة طه- الآيتان 78. 79.
5 الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- 99.
6 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني- ص 39.
7 طالب الزّوبعي: السّابق- ص 198.
8 الآيتان 123. 124.

وضرورة الاتّباع، وكان مقتضى الظّاهر أن يقول:"اتّبعه"، ولكن أظهره وأضافه إلى الله تشريفا وتأكيدا لإيجاب الاتّباع[1]، فإنّ هدًى وذكرا ذاك شأنهما لحريّان بوجوب التّمسّك بهما، وحسن الانقياد لهما، ففي هذا الفلاح كلّ الفلاح والفوز كلّ الفوز، وفيما عداهما البوار والخسران[2]. وهكذا حال التّعريف والتّنكير من حيث توارد الكلمات وتضامّها داخل التّركيب والسّياق في إفادة مزايا لطيفة ومعان دقيقة، تنبئ عن إعجاز القرآن الكريم وتعرب عن بلاغة لا تضاهيها بلاغة.

1 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسر التّفسير- ج09- ص 232.

2 بسيوني عبد الفتّاح: من بلاغة النّظم القرآني- ص 44.

9. الفاصـــلة القرآنيّة:

أشرنا في الفصل السّابق إلى كثرة التّعريفات التي يحتملها مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم، وذكرنا أنّها تتباين حسب استعمال الدّارسين، واستقرّ تعريفها على أنّها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى[1]، وأنّ الفاصلة إلى جانب ما تضفيه من جمال وروعة في التّعبير القرآني، فإنّها أيضا عامل من عوامل إظهار المعنى وبروزه، وأنّها تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطّريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام[2]، ومكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت، إذ تصبح الآية لبنة متميّزة في بناء هيكل السّورة، وتترل الفاصلة من آيتها، تكمّل من معناها، ويتمّ بها النّغم الموسيقي لهذه الآية[3]، وقلنا إنّ وجه جعلنا إيّاها مبحثا من مباحث هذا الفصل هو عناية القرآن بانسجام الفواصل بعضها مع بعض عناية واضحة، وتأثيرها الكبير على السّمع ووقعها في النّفس، إذ ترى القرآن تارة يقدّم وتارة يؤخّر، تارة يحذف شيئا من الكلم لينسجم مع فواصل الآي، وتارة يبدل كلمة بأخرى، وتارة تراه يزيد للغرض نفسه[4]؛ هذا من جهة، ولأنّ الفواصل لم تكن من قبيل المنمّقات اللّفظية والتّرصيعات البديعية التي تعنى بالشّكل دون المضمون؛ ولكن من قبيل امتزاجٍ بين اللّفظ والمعنى، وتآلفٍ لا يعصى فيه أحدهما على الآخر ولا يتمرّد فيه اللّفظ على المعنى أو العكس، من جهة أخرى، وكما أنّ الفاصلة تثير الانتباه داخل الأسلوب القرآني فإنّ لها أيضا دورا في تفهيم النّص القرآني وزيادة التّوضيح والتّأكيد لما جاء من مفاهيم في تلك الآيات القرآنية، يقول عبد الفتّاح لاشين إنّ الفاصلة:« لها قيمتها في إتمام المعنى وتوضيح الصّورة، وهي مرتبطة تماما بآياتها، ولها أثرها البالغ قدره في نظام الكلام، وأهميّتها العظمى في نفسية السّامع»[5]، ثمّ إنّها توفّر للقرآن على مدى إفضائه الفكري وعبر أجزائه القرآنية المتعدّدة حدّا من التّماسك الدّاخلي الذي نزع النّص إليه[6]، وستكون لنا في هذا الفصل وقفات عند نماذج من الفاصلة القرآنية في سورة طه.

---

1 أبو بكر الباقلاّني: إعجاز القرآن– ص 270.

2بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن– ج01– ص 53. 54.

3 أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن – ص 64.

4 فاضل صالح السّامرّائي: التعبير القرآني– الأردن– ص 217.

5 من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية – ص 163.

6 هدى عطيّة عبد الغفّار: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية– ص 206.

لعلّ أوّل ما يُلاحظ ونحن بصدد البحث في فواصل سورة طه هو تلك الاستمرارية في الفاصلة في هذه السّورة الكريمة، لأنّه مثلما يسهم الوزن والقافية في تحقيق صفة النّصية للنّصّ الشّعريّ ، فإنّ الفاصلة تسهم في تحقيق التّماسك له، ويتحقّق هذا التّماسك عبر تحقيق هذه الفاصلة للاستمرارية في النّص، وهذه الاستمرارية لفواصل سورة طه كانت نتيجة لما كانت عليه في سورة الإسراء، حيث انتهت كلّها بفاصلة واحدة باستثناء آية واحدة، هي الآية الأولى، وتليها سورة الكهف في التّرتيب المصحفي على الفاصلة نفسها، فآياتها كلّها على فاصلة واحدة، وتسير أيضا سورة مريم على الفاصلة نفسها باستثناء ستّ آيات، وكذلك هذه السّورة؛ سورة طه تنتهي آياتها كلّها بفاصلة واحدة باستثناء سبع آيات، إذا فهذه السّور الأربع كلّها على فاصلة واحدة[1] ثمّ إنّنا نلاحظ أمرا آخر هو أنّ سورة طه أيضا ترتكز – مثلها مثل سورتي الكهف ومريم- على ذكر قصص مختلفة، وهذا لا يحتاج إلى شدّة في التّنويعات الصّوتية لفواصل الآي، لذلك فإنّ فواصل سورة طه هادئة في إيقاع آياتها، ودلالاتها[2] ومن ثمّ ففواصل آياتها تميل إلى اللّين لا إلى الشّدّة، وهذا كلّه مناسب لما بُنيت عليه السّورة منذ بدايتها بخطاب النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وبيان وظيفته وحدود تكاليفه،مرورا إلى عرض قصّة موسى عليه السّلام مفصّلة مطوّلة، ثمّ ذكر قصّة آدم عليه السّلام بإيجاز، وبهذا كان لسورة طه ظلّ خاصّ يملأ جوّها كلّه، ظلّ علويّ تخشع له القلوب، وتسكن له النّفوس، ممّا ينسجم مع ذلك الإيقاع الموسيقي الذي يُستطرد في مثل هذا الجوّ من مطلع السّورة إلى ختامها رخيا شجيّا نديّا بذلك المدّ الذّاهب مع الألف المقصورة[3]، إلى جانب ملاحظة قضيّة الطّول والقصر في هذه الفواصل، فإنّ فواصل سورة طه من حيث الطّول والقصر على خلاف ما ورد مثلا في فواصل سورتي النّمل والقَصص، وتخصيص كلّ سورة من هذه السّور بما ورد فيها مقتضاه بيّن؛ إذ إنّ فواصل هذه السّورة ومقاطع آيها مناسبة للوارد فيها، فمقاطع آي سورة طه لازمة الألف المقصورة، وعلى ذلك السّورة كلّها، وأمّا سورتا النّمل والقَصص فقد اكتنف الواقع في آي هذه القصّة فيها ما مقطعه النّون الواقع قبلها الياء والواو السّاكنتان بحسَب ما تقدّمها من حركتي الضّمّة والكسرة. فإن قلتَ: إنّ السّورتين مستويتان في هذا فما الفارق؟ قلت:

1 صبحي إبراهيم الفقّي: علم اللغة النّصي– ص 139.

2 المرجع نفسه– ص 140.

3 سيّد قطب: في ظلال القرآن– ج 16– ص 2326.

الإيجاز والطّول[1]، أمّا سورة النّمل فأوجز في هذا المقصد، وأمّا سورة القصص فإنّ خبر موسى عليه السّلام فيها يكاد يستغرق آيها كلّها فناسبه طول الوارد فيهما ممّا فيه الكلام؛ وذلك غير خاف وتأمّل سورة طه مخبرا عن نبيّه عليه السّلام، ومناسبة ذلك لما بنيت عليه السّورة من تأنيسه عليه السّلام وما جاء في افتتاحها يلح لك ذلك[2]، وممّا وقع في هذا الصّدد قوله تعالى:﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾[3]، فقد جاءت الآيات قصيرة والفواصل متآخية، والمعاني متكاملة، عدا الأخيرة منها فإنّها طويلة نسبيا، وهذا راجع إلى أنّ فيها عتابا، والعتاب لا يكون قصيرا، ولا يكون بالإشارة[4]، ومنه أيضا قوله تعالى:﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾[5]، فإنّنا نجد في الظّاهرة القرآنية العالية أنّ الآيات القصار تختصّ عن غيرها بأنّ لها خاصّية، تتمثّل في الاعتبار والوقوف عند فواصلها المتقاربة غير المتباعدة، فتكون وقفة يقضي السّكون عندها، فالجواب عن حال الجبال وهي أوتاد الأرض وها تتماسك بأمر الله تعالى، بأنّ الله تعالى ينسفها نسفا، وفي هذه الوقفة

---

1 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من اللّفظ من آي التّنزيل- ج02- ص 813.

2 المصدر نفسه- ج02- ص 813.

3 سورة طه – الآيات 83. 87.

4 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى- ص 235.

5 سورة طه - الآيات 105. 111.

الصّامتة يتدبّر أمر الله في نسف الجبال، ويتخيّل ذلك، فيدرك قدرة الله تعالى على الإعادة، ويتدبّر الأرض وقد نُسفت جبالها ليس لها علوّ بتضاريس، ولا انخفاض بجوار علوّ[1]، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يدعوك إلى أن تقف لتتدبّر وتتفكّر وأنّه لا غرابة في أن تعاد الأجسام يوم البعث والنّشور وبالإضافة إلى قضيّة الاستمرارية في الفاصلة والطّول والقصر في نسقها، فإنّ لها علاقة بمستويات من الدّرس البلاغي، إذ ترتبط مثلا بالمستوى اللّغوي من ناحية تقديم المعمول على معمول آخر أصله التّقديم[2]، نحو قوله تعالى:﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾[3]، إذا أعربنا "الكبرى" مفعول "نُري"[4]، وممّا وقع بين الفواصل من ربط فنّي قوله تعالى:﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[5] فقد أُخّر ما أصله أن يُقدّم، لأنّ أصل الكلام أن يتّصل الفعل بفاعله ويُؤخّر المفعول. لكن أُخّر الفاعل، وهو موسى عليه السّلام، ولهذا التّأخير حكمة أخرى غير رعاية الفاصلة، وهي أنّ النّفس تتشوّق لفاعل:"أوجس" فإذا جاء بعد أن أُخّر وقع بموقع[6]، ومن لطائف ما يخصّ الفاصلة في هذه السّورة قوله تعالى:﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[7]، وقد تقدّم القول في هذه الآية في مبحث التّقديم والتّأخير من هذا الفصل، وأشرنا إلى أنّ الرّماني كان من أوائل من وقفوا على هذه الآية، وأنّ الله سبحانه وتعالى قال في سورة الشّعراء:﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[8]، فكان من جملة ما استشهد به العلماء أنّ تقدّم هارون على موسى فيه إشارة معنوية لا تكون لو أُخّر، وذلك أنّ موسى وهارون

1 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى- ص 236.

2 جلال الدّين السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن- ج02- ص 435. وينظر: فواصل الآيات القرآنية :كمال الدّين مرسي- ص 72.

3 سورة طه – الآية 23.

4 ينظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه: محيي الدّين الدّرويش- ج04- ص 668.

5 سورة طه – الآية 67.

6 بدر الدّين الزّركشي: البرهان في علوم القرآن- ج01- ص 62. وينظر: الإتقان في علوم القرآن: السّابق- ج02- ص 435.

7 الآية 70.

8 الآيات 46. 47. 48.

عليهما السّلام، وإن حُمِّلا معا أمر الله:﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1]، إلاّ أنّ موسى عليه السّلام هو الأصل، فهو الذي خوطب:﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾[2]، وهو أوتي الكتاب وأُيّد بالحجّة وهذا يجعل لقولهم:﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[3]، معنى ليس في قولهم:"آمنّا بربّ موسى وهارون" لأنّ بَدْأهم بمن ليس أفضل دالٌّ على إظهار قوّة الاقتناع بالحجّة والإيمان بها، وذلك لأنّ الآية لم تظهر على يد هارون و لم يكن هو الغالب، وليس في تقديم موسى الذي لقفت عصاه ما صنعوا شيئ يلفت لأنّه هو الأصل، أمّا تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللاّفت لأنّه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أنّ سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السّحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشادا جعل موسى عليه السّلام بعدما جعلوا موعدهم يوم الزّينة:﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖ﴾[4]، ومن آيات احتشادهم أنّهم تذاكروا خطر موسى وهارون على هيبتهم في قومهم وفي أرضهم:﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾[5]، وهذا دافع تستفرغ به ما في النّفوس ليحقّقوا الغلبة، وقالوا أيضا: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾[6]،ثمّ لنتأمّل قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾[7]، وننظر كيف واجه الحقّ حالته هذه بتلك التّأكيدات المترادفة في قوله تعالى:﴿ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[8]، ولم يكن كلّ ذلك في سورة الأعراف الذي قُدّم فيها موسى على هارون عليهما السّلام، وإنّما أشارت الآيات هناك إلى عناية

1 الآية 43.

2 الآية 42.

3 الآية 70.

4 الآية 61.

5 الآية 63.

6 الآية 64

7 الآية 6

8 الآية 68

السّحرة بالغلبة للاقتراب من فرعون وطمعا في الأجر منه، وكأنّهم كانوا يعملون لصالح فرعون: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾[1]، فاختلاف السّياقين أمر واضح وتحفّزهم للغلبة في سورة طه واضح بصورة أظهر[2]،على أنّنا نسجّل ملاحظات أخرى هي أقرب إلى موضوع الفاصلة، تنسجم مع الفرق بين القصّتين في السّورتين؛ فذكر هارون عليه السّلام في سورة طه تكرّر كثيرا، وقد جعله الله شريكا لموسى عليه السّلام في التبليغ، في حين ورد قليلا في سورة الشّعراء، وذلك أنّه:

- لم يخصّ الذّهاب بموسى فقط بل كلاهما معا، يقول تعالى:﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾[3].
- كرّر هذا في السّورة في قوله تعالى:﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾[4].
- صدر الجواب منهما:﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾[5].
- طمأنهما ربُّهما معا، الدّليل قوله تعالى:﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[6].
- أمرهما معا، فقال تعالى:﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾[7].
- نُسبا كلاهما إلى السّحر، يقول تعالى:﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾[8].

---

1 سورة الأعراف – الآيتان 113. 114.

2 محمّد محمّد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم- ص 205. 206.

3 الآية 42.

4 الآية 44.

5 الآية 45.

6 الآية 46.

7 الآية 47.

8 الآية 63.

●ورد تخليف موسى لهارون في قومه فنصح لهم في غيبته، يقول تعالى:﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾[1].

●عوتب هارون من قِبل موسى بشدّة، يقول تعالى:﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾[2].

في حين لم يرد هارون عليه السّلام في سورة الشّعراء إلاّ قليلا:

● في قوله تعالى:﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[3]،وفي قوله تعالى:﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[4].

●وأنّ الخطاب كان موجّها لموسى عليه السّلام وحده في سورة الشّعراء، يقول تعالى:﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[5].

●وأنّه نسب موسى عليه السّلام وحده إلى السّحر، و لم ينسب معه هارون عليه السّلام، يقول تعالى:﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾[6].

●إنّه لم يرد ذكرٌ لهارون بعد هذا.

وعلى هذا الأساس فالقصّة في سورة طه مبنية على التّثنية، وفي سورة الشّعراء مبنية على الإفراد[7]، ومن وجهة أخرى؛ فإنّه في سورة طه ذكر خوف موسى في قوله تعالى:﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[8]، ولم يذكر حالة الخوف في سورة الشّعراء، وذُكرت جوانب الكمال والقوّة فيها، و لم ترد حالة الضّعف البشري، فاقتضى كلّ ذلك المغايرة في التّعبير بين القصّتين.

1 الآية 90.
2 الآية 93.
3 الآية 13.
4 الآية 48.
5 الآية 29.
6 الآية 35.
7 فاضل صالح السّامرّائي: التّعبير القرآني– ص 222.
8 الآية 67.

علاوة على ذلك فهناك طريقة أخرى؛ هي أنّ سورة طه تبدأ بالحرفين الطّاء والهاء وسورة الشّعراء تبدأ بـــ"طسم" فكلتا السّورتين تبدأ بالطّاء، غير أنّ الحرف الأخير من "طه" وهو الهاء فإنّه أوّل حروف هارون، وليس فيها حرف من حروف موسى، والحرف الأخير من "طسم" وهو الميم، فإنّه أوّل حروف موسى، وليس فيها حرف من حروف هارون[1]، فأيّ سر من أسرار التّعبير هذا، وملحظ آخر فيه العجب كلّ العجب، يرتبط بفواتح السّور وتفصيل القصص، وهو أنّ كلّ سورة تبدأ بالطّاء ترد فيها قصّة موسى في أوائلها مفصّلة قبل سائر السّور، مثل[طه، طس، طسم في سورة القَصص، وطسم في سورة الشّعراء]، وليس في المواطن ممّا يبدأ بالحروف المقطّعة مثل ذلك، فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحرف[ط] قصّة موسى مفصّلة في أوائل السّورة، وأنّ ما يبدأ بـــ [طسم] تكون قصّة موسى فيها أطول ممّا يبدأ بـــ [طس] فكأنّ زيادة الميم إشعار بزيادة القصّة، فلنتأمّل توارد كلّ كلمة أو آية مع ما يناسبها، وتضامّها مع ذواتها، وما يميّز القرآن عن كلام البشر، بأنّه المعجزة الخالدة من لدن حكيم خبير.

1 فاضل صالح السّامرّائي: المرجع السّابق- ص 224.

10. الإيجاز والإطناب:

إنّ لكلّ واحد من الإيجاز والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر، لأنّ الحاجة إليه أشدّ والاهتمام به أعظم، ولقد نقلنا في الفصل الثّاني كلاما عن الرّمّاني فحواه أنّ الإطناب كمن سلك طريقا بعيدا لما فيه من النّزهة الكثيرة والفوائد العظيمة، فيحصل في الطّريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب[1]، وأنّ الإيجاز كما عرّفه السّكاكي أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط[2]، وسنتعرّف على علاقة هذه الأساليب بموضوع التّوارد والتّضام في ضوء سورة من سور القرآن الكريم هي سورة طه.

يقول الحقّ تعالى:﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[3]، من باب الإطناب، إذ لو أُريد الإيجاز لكفى:"عصاي"[4]، وقد ردّ ابن أبي الإصبع هذا النوع إلى التّلفيف، الذي عرّفه بقوله:«هو عبارة عن إخراج الكلام مخرج التّعليم بحكم أو أدب، لم يُرد المتكلّم ذكره، وإنّما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي صرّح بتعليمه، وبيان هذا التّعريف أن يسأل السّائل عن حكم هو نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها، كلّها أو أكثرها فيعدل المسؤول عن الجواب الخاصّ عمّا سُئل عنه من تبيين ذلك النّوع، ويجيب بجواب عامّ يتضمّن الإجابة عن الحكم المسؤول عنه وعن غيره بدعاء الحاجة إلى بيانه»[5]، حيث ابتدأ موسى عليه السّلام ببيان الماهية بأسلوب يؤذن بانكشاف حقيقة المسؤول عنه، وتوقّع أنّ توسّل لتطلّب بيان ورائه، فقال:"هِيَ عَصَايَ" بذكر المسند إليه، مع أنّ غالب الاستعمال حذفه في مقام السّؤال للاستغناء عن ذكره في الجواب بوقوعه مسؤولا عنه، فكان الإيجاز يقتضي أن يقول :"عصاي" فلمّا قال:"هي عصاي" كان الأسلوب أسلوب كلام من يتعجّب من الاحتياج إلى الإخبار[6]، فواصل موسى عليه السّلام

1 النكت في إعجاز القرآن- ص 72. 73.
2 كتاب مفتاح العلوم- ص 120.
3 سورة طه- الآيتان 17. 18.
4 كتاب مفتاح العلوم- ص 123.
5 بديع القرآن- ص 123. و ينظر:تحرير التحبير- ص 343.
6 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير – ج16- ص 205.

به مستأنسا بلذيذ المخاطبة قوله بيانا لمنافع هذه العصا خوفا من الأمر بإلقائها كالنّعل[1]، وذلك أنّ موسى إنسان كُرِّم بأن يكلّمه ربّه سبحانه فأراد أن يطيل أُنسه بكلام الله تعالى[2]، فذكر هذه الصّفات للعصا واستعمالاتها وفوائدها لأنّ الموقف صعب على موسى، فأراد الله أن يؤنسه، ومقام الإيناس إذا كان من الله لعبده فلابدّ أن يستغلّ العبد هذا الإيناس، فلا يردّ ردّا مقتضبا، على الرّغم من أنّ الله تعالى لم يسأله عن عمله بهذه العصا، وكلمة"هي" في الجواب غير مطلوبة، فلم يقل له:"لمن هذه العصا؟" و لم يقل:"ما ذا تفعل بها؟" حتّى يقول له:"أتوكّأ"، وما أشرنا إليه في الفصل السّابق هو عينه ما يستفاد من الإطناب الذي يكون في المعاني لا الألفاظ، وبتفصيل القول لا بإجماله، كما نراه هنا إطنابا حلوا تترطّب به الألسنة والأسماع[3]، فكان الإيجاز أن يقول غير ذلك ولكن محبّة موسى عليه السّلام لربّه سبحانه، ورغبة في أن يطيل المحادثة، صرّح بما يفهم ضمنا، و لم يقع ذلك من موسى عليه السّلام إلاّ لأمور منها؛ بغية الشّكر لله تعالى الذي رزقه تلك العصا التي وجد فيها من المآرب ما لا يوجد في غيرها، ومنها لأنّ المقام مقام خطاب الحبيب، وهو يقتضي البسط والإسهاب، ومنها تعظيم مساءلة ربّه له عن منافعها، فابتدأه بالجواب عن السّؤال المقدّر قبل وقوعه أدبا مع ربّه[4]، ليجمل بعد ذلك في قوله:"وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ "، وقالوا: إنّما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا انقطع لسانه بالهيبة فأجمل[5]، وقيل الإجمال في هذا يحتمل أن يكون رجاء أن يسأله سبحانه عن تلك المآرب، فيسمع كلامه عزّ وجلّ مرّة أخرى، وتطول المكالمة وتزداد اللّذاذة التي لأجلها أطنب أوّلا، وما ألذّ مكالمة المحبوب[6]، ومردُّ هذا ربّما إلى أنّه لمّا كان أكملَ أهل ذلك الزّمان خاف التّطويل على الملك فقطع نفسه ما هو فيه من

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور – ج16- ص 280. وينظر: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن – ص 362.

2 محمّد متولّي الشّعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين- ص 253.

3 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى- ص 306.

4 محيي الدّين الدّرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه- مج04- ص 669.

5 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- ص 75.

6 شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج16- ص 176.

لذّة المخاطبة كما قيل:"اجلس على البساط وإيّاك والانبساط"[1]، وطمعا في سماع كلامه سبحانه وتعالى، فقال ذلك مجملا.

يقول تعالى:﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[2].بزيادة "لي" لاكتساء الكلام معها من تأكيد الطّلب لانشراح الصّدر ما لا يكون بدونه، ألا تراك إذا قلت:"اشرح لي" أفاد أنّ شيئا ما عندك تطلب شرحه فكنت مجملا، فإذا قلت صدري عدت مفصّلا وإن كان الطّلب وقت الإرسال الذي هو مقام مزيد احتياج إلى انشراح الصّدر لما تؤذن به الرّسالة من تلقّي المكاره وضروب الشّدائد[3]، وهنا نجد في هذا الكلام إطنابا في خطاب موسى عليه السّلام كليم الله تعالى لربّه، فهو لا يكتفي بالملزوم حتّى ينطق باللاّزم، لأنّ الخطاب محبّب إلى نفسه لأنّه يخاطب ربّه فيسهب في القول من غير تزيّد، ثمّ تجد بعد ذلك في كلامه إيجازا غير مخلّ قد حذف منه ما صرّح به آيات أخر من قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون[4]، فذكر أنّ أخته قالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم، ولم تذكر أنّه حُرّم عليه المراضع، وقد عُرف هذا

1 برهان الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور – ج16- ص 280.

2 سورة طه – الآيات 25. 40.

3 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- ص78. وينظر: كتاب مفتاح العلوم: السكاكي- ص 123. وينظر: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: حمزة بن يحيى العلوي- ج03 ص 178. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: شهاب الدّين الألوسي - ج16- ص 182.

4 محمّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى- ص 307.

من الآيات الأخرى، إذ إنّه لا يمكن أن يكونوا في حاجة إلى من يكفله لهم، إلا إذا احتاجوا إلى ذلك، وحذف من قبل كلام امرأة فرعون، وقد فُهم ضمنا من قوله تعالى:"وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ". وذكر هنا قتله نفسا، وطوى ذكر ما كان منه عندما بلغ أشدّه، ورؤيته رجلا من شيعته يستغيثه فأغاثه، وقتل الذي من عدوّه، ثمّ طوى سبحانه وتعالى خبر الائتمار عليه ليقتله المتآمرون ثمّ خروجه، والتقاؤه بابنتي شعيب، وسقيه لهما، ومجيء إحداهما تمشي على استحياء، ثمّ زواجه، على أن يكون المهر عمله ثماني حجج أو عشر، ثمّ إيناسه بالنّار ثمّ مكالمة الله له، وقد ذُكر كلّه في قوله تعالى:"فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى "، وهكذا نجد أنّ الإطناب لا يكون بكثرة الألفاظ فقط، بل بكثرتها مع كثرة المعاني، والإيجاز لا يكون بكثرة المعاني فقط، بل لابدّ أن يكون في الألفاظ دلالة واضحة على المعاني الكثيرة، أو أن تكون هذه المعاني ذُكرت في مقام آخر من القرآن الكريم، وممّا يقتضيه السّياق والمشهد من إطناب وإيجاز قوله تعالى في هذه السّورة الكريمة:﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى في سورة يونس:﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2]، نلاحظ استعمال واو العطف في سورة يونس، وفي هذا الاستعمال تعبير قطعي أنّ فرعون خرج مع جنوده وأتبع موسى عليه السّلام، والباء في سورة طه تفيد في اللّغة المصاحبة والاستعانة، وفي الآية تحتمل المصاحبة وتحتمل الاستعانة، بمعنى أمدّهم بجنوده ولا يشترط ذهابه معهم، والتّعبير في سورة يونس يوحي بأنّ فرعون عازم على البطش والتّنكيل هو بنفسه، لذا خرج مع جنوده، وأراد استئصال موسى، لأنّ سياق الآية يفرض ذلك، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا

1 الآيتان 77. 78.

2 الآية 90.

مُجۡرِمِينَ ﴾[1]، فذكر أنّهم مجرمون مستكبرون، وأنّ من آمن قليل، وأنّ فرعون عال في الأرض ومسرف وأنّه يفتن قومه، ومآل الأمر في سورة يونس أنّ موسى عليه السّلام دعا على فرعون وقومه، يقول تعالى:﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[2]، فذِكْر "بغيا" و"عدْوًا" مناسب لسياق الآيات التي ذكرت عذاب فرعون وتنكيله بموسى عليه السّلام وقومه، ولم يذكر في سورة طه، أنّ فرعون آذى موسى عليه السّلام وقومه ولم يتعرّض لهذا الأمر مطلقا، لذا فالسّياق هنا مختلف لذا اختلف التّعبير، ولم يذكر "بغيا ولا عدوا" ثمّ إنّه بعد أن ضاق قوم موسى عليه السّلام ذرعا من فرعون وبطشه تدخّل الله سبحانه فتولّى أمر النّجاة بنفسه، في قوله تعالى:"حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ" وكان الغرق لفرعون وإيمان فرعون عند الهلاك هو استجابة لدعوة موسى عليه السّلام، يقول تعالى:"فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ" أمّا في سورة طه فقد جاء الأمر وحيا منه تعالى لموسى عليه السّلام ولن يتولّى تعالى أمر النّجاة بنفسه وإنّما خاطب موسى بقوله:﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴾[3]، وبعدها ذكر غرق فرعون وقومه بقوله تعالى:﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾[4]، وفي هذا الكثير من الاختصار الذي يُعدّ من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة[5]، بمعنى غشيهم من اليمّ ما لا يعلم كنهه إلاّ الله.

1 الآية 75.
2 الآية 88.
3 الآية 77.
4 الآية 78.
5 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- ص 99.

11. الحـــذف:

إنّ الحذف له في البلاغة مدخل عظيم، وأكثر ما يرد في كتاب الله تعالى، وما ذاك إلاّ من أجل رسوخ قدمه، وظهور أثره، واشتهار علمه[1]، كونه أحد أساليب القرآن وفنونه البلاغية[2] وقد ذكرنا في الفصل السّابق ما وصفه به عبد القاهر الجرجاني من أنّه « باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسّحر، ترى به ترك الذّكر أفصح من الذّكر، والصّمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِن»[3]، وأشرنا في هذا الصّدد إلى أنّ المحذوف « يفهم غالبا من خلال السّياق أو وجود قرينة تدلّ عليه وفي الحذف فوائد جليلة من الاختصار مع عدم الإخلال بالمعنى وهذا من خصائص النّظم القرآني»[4]، وأنّ هذا الحذف والاستغناء لا يكون اعتباطا وإنّما عدولا من المتكلّم عن الذّكر إلى الحذف لأداء دلالة معيّنة أو لسرّ بلاغي[5].

يقول تعالى:﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[6]، وفي الآيات حذف جمل متعدّدة يقتضيها المعنى بقرينة السّياق، فكأنّه قيل:"قلنا لا تخف إنّك أنت الأعلى وألق ما في يمينك فألقى عصاه فابتلعت حبالهم وعصيّهم فبهتوا لذلك وآمنوا بالله" ودليل الحذف في كلّ ذلك هو قرينة السّياق، والمحذوف من كلّ ذلك حشو لا ضرورة له ولا وجه لذكره[7]، وفي هذه الآيات ملمح بياني آخر؛ هو الجانب الخاصّ بحذف الحروف، فإنّه لمّا كان المعلوم أنّ الله معه، وأنّه جدير بإبطال سحرهم قال له:"تَلْقَفْ" بقوّة

1 ينظر: الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحي بن حمزة العلوي- ج02- ص51.
2 ينظر:البرهان في علوم القرآن: بدر الدّين الزّركشي- ج03- ص 103.
3 دلائل الإعجاز- ص 120.
4 محمود السّيد حسن: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز- 2003م- ص 318.
5: ينظر: النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: شفيع السّيد - ص 61.
6 سورة طه – الآيات 68- 70.
7 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 384.

واجتهاد مع سرعة لا تكاد تدرك، وهو ما يشير إليه حذف حرف التّاء، وكان ما وعده به سبحانه من تلقّفها لما صنعوا من غير أن يظهر عليها زيادة في ثخن ولا غيره مع أنّ حبالهم وعصيّهم كانت شيئا كثيرا، فعلم كلّ من رأى ذلك أحقّيته وبطلان ما فعل السّحرة، فبادر السّحرة منهم إلى الخضوع لأمر الله ساجدين، كأنّه ألقاه ملق على وجهه، ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر مكرهم واجتهادهم في معارضة موسى عليه الصّلاة والسّلام، وحذف ذكر الإلقاء وما سببه من التّلقّف لأنّ مقصود السّورة على تلين القلوب القاسية:"فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ "، أيّ فألقاهم ما رأوا من أمر الله بغاية السّرعة وبأيسر أمر... وما أعظم الفرق بين الإلقاءين، فكأنّ قائلا قال:"هذا فعلهم فما قالوا؟" فقيل:"قَالُوٓاْ ءَامَنَّا"[1]، وهناك ملحظ في الآية الأخيرة من هذه الآيات الثلاث،هو حذف جملة :"ربّ العالمين" التي وردت في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[2]، وفي سورة الشّعراء في قوله تعالى:﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[3] وذلك لأنّه لمّا كان القصد حكاية المعنى في سورة طه، لا أداء اللّفظ على جهته كما في سورتي الأعراف والشّعراء حذفت منه:"ربّ العالمين" استغناء عنها بما دلّ عليها من قبل[4]، وقد أجاب بعضهم عن سبب هذا الحذف بأن يقال:«إذا قيل:"ربّ العالمين" فقد دخل فيهم موسى وهارون عليهما السّلام، وهما دعوا ربّ العالمين، لمّا قالا:﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] إلاّ أنّه ذكر في السّورتين:"رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ " ليدلّ بتخصيصهما بعد العموم على تصديقهما بما جاءا به عليهما السّلام عن الله تعالى، فكأنّه قيل "ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ " وهو الذي يدعو إليه موسى وهارون، وأمّا في سورة طه فلم يذكر:"ربّ العالمين" لأنّه ما كان الكلام يتمّ به آية كما تمّ في السّورتين، فيكون مقطع الآية فاصلة مخالفة للفواصل التي بنيت عليها فواصل سورة طه، فقال

1 شهاب الدّين الألوسي:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- ج16- ص 166.
2 الآيات 120- 122.
3 الآيات 46- 48.
4 عبد الفتّاح لاشين: من أسرار التّعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية- ص 35.
5 سورة الشّعراء – الآية 16.

تعالى:"ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ " وربّهما هو ربّ العالمين، وكان القصد حكاية المعنى لا أداء اللّفظ على جهته»[1] فردّ هذا الحذف إلى مراعاة الفاصلة، و كما أنّ فرعون ينكر إله موسى، وهو إله العالمين؛ فإنّه من الأليق أن تذكر الصّفة وما يتعلّق بها، لتستلفت نظر فرعون وقومه، وتتيح لفكره أن ينشط ويتهيّأ إمّا للإقناع أو الاقتناع، فربّ السّماوات والأرض وما بينهما وربّ آبائهم وربّ المشرق والمغرب وما بينهما فيه إشارة ذهنية وعاطفية نحو الله، ومن ثمّ آمن به السّحرة بعد إلقاء موسى عليه السّلام عصاه فإذا هي حيّة تسعى[2]، وممّا استغني عن ذكره في هذه السّورة وحُذف؛اسمُ فرعون لعنه الله، فقد جاءت الآية الكريمة من سورة طه:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[3] خالية من ذكره، وكذلك سورة الشّعراء لم يُذكر فيها، يقول تعالى:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[4] بينما ورد في قوله تعالى من سورة الأعراف:﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[5]، ومردّ هذا أنّ الذّكر العائد إلى فرعون في سورة الأعراف بَعُد، لأنّه جاء في الآية العاشرة من الآية التي أضمر فيها ذكره وهي قوله:﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[6] وجاء في الآية العاشرة من سورة الأعراف:﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[7]، ولم يبعد في الآيتين اللّتين في سورتي طه والشّعراء، لأنّ فرعون مذكور في سورة طه في جملة قومه الذين أُخبر عنهم:﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾[8]، وقوله تعالى:﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[9]، وهذا خطابه لفرعون وضميرهم منطوٍ على ضميره إلى قوله:﴿فَأَجْمِعُوا۟

1 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل- ص 129.

2 فتحي أحمد عامر: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني- ص 392.

3 الآية 71.

4 الآية 49.

5 الآية 123.

6 سورة الأعراف – الآية 114.

7 الآية 123.

8 سورة طه – الآية 57.

9 الآيتان 60. 61.

﴿كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ ﴾[1]، بذكر في قوله:"قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ" إنّما هو السّابع من الآي التي جرى ذكره فيها، وكذلك في سورة الشّعراء؛ لم يبعد الذّكر بُعدَه في سورة الأعراف، ألا ترى أنّ أن آخر ما ذُكر فيما اتّصل بهذه الآية قوله تعالى:﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[2]، وذكره بعد ذلك في الآية الثّامنة من الآية التي جرى ذكره فيها، فلمّا بَعُد الذّكر في سورة الأعراف خلاف بُعده في السّورتين إذ كان في إحداهما في السّابعة وفي الأخرى في الثّامنة وهي في سورة الأعراف في العاشرة أعيد ذكرُه الظّاهر لذلك[3]، وحذف ذكره في سورتي طه والشّعراء، ومن ألطف ما جاء في هذا السّياق ما ذكره البقاعي من أنّ حذف كلمة:"فرعون" يرجع إلى أنّه لّما كان موسى عليه السّلام هو المقصود بالإرسال إلى فرعون استأنف تعالى الإخبار عن فرعون عندما فَجئَه ذلك فقال:"قَال " أيّ: "فرعون" للسّحرة منكرا عليهم، وأُضمر اسمه – أو حذف– هنا ولم يظهره كما في سورة الأعراف لأنّ مقصود السّورة الرّفق بالمدعوين والحلم عنهم، وهو غير متأهّل لذكر اسمه في هذا المقام[4]، وممّا جاء في باب الحذف في هذه الشّواهد القرآنية جملة:"سوف تعلمون"، فقد حُذفت من تلك الآية سورة طه في قوله تعالى:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾[5]، على أنّه ورد ذكرها في سورة الأعراف:﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[6] وفي سورة الشّعراء:﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[7]، فلِمَ قال في سورة الأعراف:"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" ولم يقل في سورة طه

1 الآية 64.
2 سورة الشّعراء – الآية 42.
3 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل– ص 129. 130.
4 نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور– ج16 – ص 311.
5 الآية 71.
6 الآية 123.
7 الآية 49.

ذلك، ولِمَ أدخل الفاء في:"فَلَأُقَطِّعَنَّ " وأنّه في سورة الشّعراء أتى بـــ:"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" مع اللاّم؟ والجواب عن هذا أنّ قوله:"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" من الوعيد المبهم المعرض به أي: فعلت بجهل ما تعرف من بعد نتيجته وطرحت بذر شرّ عند حصده تعلم نهايته، وهذا النّوع من الوعيد أبلغ من الإفصاح بعذره على أنّه قرن إليه بيانه، وهو:"لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ" فنطق القرآن بحكاية التّعريض بالوعيد والإفصاح بالتّهديد معا، فأمّا اختصاص سورة الشّعراء بقوله:"فلسوف" وزيادة اللاّم فلتقريب ما خوّفهم به من إطلاّعه عليهم وقربه منهم حتّى كأنّه في الحال موجود، واللاّم للحال والجمع بينها وبين:"سوف" التي للاستقبال إنّما هو لتحقيق الفعل وإدنائه من الوقوع، وقد سبق في أكثر من موضع بيان أنّ سورة الشّعراء أكثر اقتصاصا لأحوال موسى عليه السّلام في بعثه وابتداء أمره وانتهاء حاله مع عدوّه، فجَمَعت لفظ الوعيد المبهم مع اللّفظ المقرّب له المحقّق وقوعه إلى اللّفظ المفصح بمعناه، ثمّ وقع الاقتصار في السّورة التي لم يقصد فيها من اقتصاص الحال ما قصد في سورة الشّعراء على ذكر نقص ما في موضع البسط والشّرح وهو التّعريض بالوعيد مع الإفصاح به، فأمّا في سورة طه فإنّه اقتصر فيها على التّصريح بما أوعدهم به وتَرَكَ:"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" وقال: "فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ"؛ إلاّ أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ويقارب ما جاء في سورة الشّعراء التي هي مثلها في اقتصاص أحواله من ابتدائها إلى حين انتهائها، وهو قوله تعالى:﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[1] فاللاّم والنّون في قوله:"وَلَتَعْلَمُنَّ " للقسم، وهما لتحقيق الفعل وتوكيده، كما أتى باللاّم في قوله:"فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ " لإدناء الفعل وتقريبه[2]، فقد تجاوز ما في السّورتين المقصود إلى اقتصاص الحالين من إعلاء الحقّ وإزهاق الباطل.

يقول تعالى:﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[3]، وفي الآية حذف

1 سورة طه- الآية 71.

2 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التأويل- ص 131.

3 سورة طه – الآية 78.

من جهة المجاز[1]، حيث يحسن مثل هذا الحذف ما لم يُشكل به المعنى، لقوّة الدّلالة عليه، والآية من باب الاختصار، ففاعل غشّاهم إمّا الله سبحانه، أو ما غشّاهم، أو فرعون؛ لأنّه الذي ورّط جنوده وتسبّب لهلاكهم[2]، ليكون الحاصل من الحذف تهويلَ أمر العذاب بالغرق، متناسبا مع صلابة الكفر وطغيان الضّلال، وادّعاء الألوهية، وليكون درسَ اعتبارٍ لبني إسرائيل الذين نجّاهم الله من الموت. وقد يكون المحذوف عنصرا غير نحوي، ولكن تقتضيه استقامة النّص، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾[3]، أيّ:"قال وقد أخذ بلحية أخيه ورأسه يجرّه إليه يا هارون ما منعك؟"[4]، ومنه ما وقع في حيّز حذف أكثر من جملة في هذه السّورة، نحو قوله تعالى:﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾[5]، لأنه بمعنى:"فاستمع إليه وأطاع وسوسته فأكلا منها"[6] أو بمعنى:"فعمل آدم بوسوسة الشّيطان فأكل من الشّجرة وأكلت معه حوّاء"[7]، على اعتبار أنّ هناك تفريعا على ما قبله، وجملة محذوفة دلّ عليها العرض، ومن الحذف في هذه السّورة على سبيل الاختصار أيضا ما جاء في قوله تعالى:﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[8]، حيث ذكر المذهوب إليه في الأوّل في قوله:"اذهب أنت وأخوك" اختصارا في الكلام، وقيل: أُمرا أوّلا بالذّهاب لعموم النّاس ثمّ ثانيا لفرعون بخصوصه، وفيه بعد، بل الذّاهبان متوجّهان لشيء واحد هو فرعون، وقد حذف من كلٍّ من الذّهابين ما أثبته في الآخر، وذلك أنّه حذف المذهوب إليه من الأوّل وأثبته في الثّاني

1 فتحي أحمد عامر: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني- ص 392.
2 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04 – ص 99.
3 سورة طه – الآيتان 92 93.
4 تمّام حسّان: البيان في روائع القرآن- ص 170.
5 الآيتان 120. 121.
6 تمّام حسّان: السّابق- ص 384.
7 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير- ج 16 – ص 326.
8 الآية 43.

وحذف المذهوب به وهو"آياتي" من الثّاني وأثبته في الأوّل[1]، وهذا من عجيب التّصرّف في النّظم المعجز، والتّنوّع في أفانين الكلام.

1 ينظر: الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: السّمين الحلبي- ج08- ص 42.

12. الذّكر والزّيـــادة:

إذا كان الحذف في القرآن الكريم لا يُقصد إلاّ لغرض بلاغي، فإنّ العدول عنه إلى الذّكر لا يكون أيضا إلاّ لغرض بلاغي، فيصبح الذّكر هو الأصل، والحذف هو الفرع، وهذا ما يقصده البلاغيون بقولهم إنّ الذّكر نقيض الحذف والحالة المقابلة للاستغناء[1]، أمّا الزّيادة فإنّها إحدى وسائل التّوكيد لا مشاحة في ذلك؛ باعتبار أنّ كلّ زيادة إنّما جيء بها لتأكيد المعنى كما مرّ معنا في الفصل السّابق، وما نرمي إليه في هذا الفصل لا يكاد يختلف عن سابقه، في كوننا نتطرّق إلى قضيّة الذّكر والزّيادة في سورة من سور القرآن الكريم، ولتكن سورة طه.

يقول تعالى:﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[2]، وقد روى أكثر من مفسّر أنّ الظّاهر أن يقول:"عليها"، إلاّ أنّه جيء بالظّاهر تصريحا بما هو كالعلّة لوجدان الهدى، إذ النّار لا تخلو من أناس عندها، وصدرت الجملة بكلمة التّرجّي لما أنّ الإتيان وما عطف عليه ليسا محقّقي الوقوع، بل هما مترقّبان متوقّعان، وذلك إمّا علّة لفعل قد حُذف ثقة بما يدلّ عليه من الأمر بالمكث والإخبار بإيناس النّاس وتفاديا عن التّصريح بما يوحشهم، وإمّا حال من فاعله فأذهب إليها آتيكم أو كي آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس[3] واستعمل"أو"التي للتّخيير هنا للدّلالة على أنّ إتيانه أمر محقّق، فهو إمّا أن يأخذ القبس لا غير، وإمّا أن يزيد فيجد صاحب النّار قاصدا الطّريق مثله فيصحبه، وحرف"على" هنا مستعمل في الاستعلاء المجازي، أي شدّة القرب من النّار قربا أشبه الاستعلاء[4]، ومنه قوله تعالى:﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[5]، فقد جاء بلفظ الرّبوبية التي تفيد الإيناس لأنّ لفظ الجلالة"الله"مطلوبها عبادة وتكليف وهو المُطاع فيما أمر، لكنّ الرّبّ عطّاء ولو للكافر فخاطبه

1ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها: أحمد مطلوب – ص 492.

2 سورة طه – الآية 10.

3ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل: الزّمخشري – ج04– ص 69. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: شهاب الدّين الألوسي– ج16– ص 166. وينظر: تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش – ج09– ص126.

4 الطّاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير – ج 16 – ص 195.

5 سورة طه – الآية 12.

بصفة الرّبّ الذي يتولّى التّربية والعطاء، ولم يقل:"إنّي أنا الرّب المطلق" ولكن قال له:"إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ" أيّ: أنت، وذلك لأنّ الرّسل لهم تربية خاصّة تختلف عن باقي الخلق جميعا، ولذلك قال له في آية أخرى من هذه السّورة:﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾[1]، وقال له أيضا:﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾[2] فهو سبحانه يعطيك من التّربيّة ما يناسب مهمّتك عنده[3]، وممّا زيد في المبنى لغرض الزّيادة في المعنى ما جاء في قوله تعالى:﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[4]، فقال له:"استمع"ولم يقل له:"اسمع"؛ لأنّ الانسان يسمع ما يهمّه وما لا يهمّه، ولأنّ الأذن ليست كالعين يمكن إغلاقها عن الشّيء الذي لا تحبّ أن تسمعه، فكانت كلمة "استمع" بمعنى أن تتكلّف السّماع، وأرهف أذنك من أجله، وأن تهيّئ كلّ جوارحك لأن تسمع، وأن تجنّد كلّ حواسّك وتستحضر قلبك لتنفّذ المطلوب[5]، وممّا تنوّع فيه النّظم بالذّكر والزّيادة في مواضع دون أخرى ما ورد في هذه السّورة في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾[6]، وقوله تعالى في سورة غافر:﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[7]، فقد ذكر في سورة طه:"أكاد أخفيها" وورد وصفها في سورة غافر:"لا ريب فيها"، وأنّه زاد اللاّم في سورة غافر:"لآتية لا ريب فيها"، وهذا الاختلاف مردّه أنّ الآية في سورة طه خطاب للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام يتضمّن تأنيسه وتسليته عن حال كفّار قريش في توقّفهم عن الإيمان، فافتتحت السّورة بأجل التّأنيس، ثمّ تابع التّعريف بتعظيم الكتاب وذكر منزلته تعالى بما انفرد فيه من ملك السّماوات والأرض وما بينهما وبين الثّرى، ووصفه بأنّه يعلم السّر وأخفى، وانفراده بأسمائه الحسنى، ثمّ عرف نبيّه عليه السّلام بابتداء أمر موسى عليه السّلام إلى هذه الآية، تعريفا بعظيم خفاء أمر السّاعة وتغييب كنهها عن الخلق، حتّى كأنّ أمرها لم يخبر عنه ولا وقع تعريف بشيء منه، فهو إخبار

1 الآية 39.
2 الآية 41.
3 محمّد متولّي الشّعراوي: قصص الأنبياء والمرسلين – ص 252.
4 سورة طه – الآية 13.
5 محمّد متولّي الشّعراوي: السّابق– ص 255.
6 الآية 15.
7 الآية 59.

بفرط إخفاء أمرها، وذلك إعلام بوصف وحال من قد تقرّر بوقوعها يقينه، ولمّا كان هذا الخطاب والتّعريف لمن جرى ذكره من تنزّهه عليه السلام عن الارتياب في أمر السّاعة،لم يحتج إلى نفي الرّيب، إذ مقام النّبوّة في الإيمان بها المقام الذي لا يُدانى، فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب، وإنّما عُرفوا بحال وصف تابع، أمّا الآية الأخرى من سورة غافر في أكثر الخطاب المتقدّم قبلها من أوّل السّورة إليها فخطاب لقريش وسائر كفّار العرب، وهم المجادلون في أمر السّاعة والجاهلون بكيانها، فقدّم لهم قبل ذكر الآيات قوله تعالى:﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، فذكروا بما لم يمكن لأحد من المخلوقين إلاّ الاعتراف بعظيم أمره والعجز عنه، وهو الخلق الأعظم، ثمّ أُتبع بنفي الرّيب الذي هو ملتبسهم وصفتهم، وأُتبع بتأكيد الأخبار بدخول اللاّم، نفي الرّيب في ذلك[2]، وهذا أوضح شيء في المناسبة فكلّ من الآيتين وارد على أتمّ مناسبة، ولا يمكن أن يقع الوارد في سورة غافر في سورة طه، ولا الوارد في سورة طه في سورة غافر، والشّطر الآخر من هذا التّشابه والاختلاف في النّظم فإنّ الآية في سورة طه كما سبق وردت أثناء خطاب رسول الله بالتّأنيس والتّسلية من مكابدة قريش وسائر كفّار العرب، وتعريفه بما جرى لموسى عليه السّلام، وظهوره على فرعون فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر السّاعة، إذ هو عليه السّلام من أمرها على أوضح الجادّة، أمّا الآية في سورة غافر فإنّ قبلها تعنيفا لكفّار من قريش وغيرها، وعلى ذلك استمرّت الآيات من أوّل السّورة إلى قوله:﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] فناسب ذلك من حالهم تأكيد الأخبار عن إتيان السّاعة بدخول اللاّم، وصيرورة الآية بذلك في قوّة المعبّر عنه تحقيقا للأمر وتأكيدا لما في طيّ ذلك من وعيدهم بسوء مآلهم[4]، فورد كلّ من الآيتين على ما يناسب.

---

1 الآية 57.

2 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التّنزيل – ج02– ص814.

3 سورة غافر – الآية 59.

4 ابن الزّبير الغرناطي: السّابق– ج02– ص815.

يقول تعالى:﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾[1]، ذكر الزّمخشري علّة ورود كلمة:"لي" فقال:«قد أبهم الكلام أوّلا، فقيل:"اشرح لي ويسّر لي" فعلم أنّ ثمّ مشروحا وميسّرا، ثمّ بيّن رفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشّرح والتّيسير لصدره وأمره من أن يقول اشرح صدري، ويسّر أمري على الإيضاح السّاذج، لأنّه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتّفصيل»[2]، أو أن تكون فائدتها الاعتراف بأنّ منفعة شرح الصّدر وتيسير الأمر راجعة إليه وعائدة عليه[3]، وقد سبق في المبحث الخاصّ بالتّكرار والتّأكيد بيان أنّ في ذكر "لي" مع صحّة الاستغناء عنها زيادةَ ربط، وتأكيدا بالتّلويح إجمالا؛ حتّى إنّه لو لم يذكر صدري وأمري لكفى[4] ولو اقتصر عليها بدون"لي" لم يفده الكلام تلك الفائدة، وممّا ورد في هذه السّورة بنوع من الزّيادة والتّفصيل قوله تعالى:﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾[5]، ومثله في سورة الشّعراء:﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾[6]، على أنّه سبحانه قال في سورة الأعراف:﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾[7]، فنجد أنّ المحكيّ في سورتي طه والشّعراء أكثر من المحكيّ في سورة الأعراف، وذلك لأنّ ما في سورة الشّعراء أشدّ اقتصاصا للأحوال التي كانت بين موسى عليه السّلام وبين عدوّه فرعون لاشتماله على ذكر مبعثه إليه فجاء فيها بما لم يجئ في سورة الأعراف[8]، أمّا سورة طه فورد فيها ابتداء أمره

1 سورة طه – الآيتان 25. 26.
2 الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04 – ص 78.
3 محيي الدّين الدّرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه- ج04- ص 677.
4 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير – ج09 – ص 140.
5 الآيات 57- 59.
6 الآيات 38- 41.
7 الآية 113.
8 الخطيب الإسكافي: درّة التّنزيل وغرّة التّأويل – ص 126.

عليه السّلام واقتصاص معظم حاله وأوّل ما كان من مبعثه، فناسب هذا تلك الزّيادة في المحكيّ وذكر ما لم يُذكَر في سورة دون أخرى، وملحظ آخر في هذه الصّدد نفسه؛ هو أنّه سبحانه قال في سورة الأعراف:﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[1]، وقال في سورة طه:﴿قَالُوٓا إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾[2] وقال في سورة الشّعراء:﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[3]، بزيادة:"بسحره" في سورتي طه والشّعراء، ومردّ ذلك أنّه لمّا أسند الفعل في الأولى إلى فرعون وحكى ما قاله:"إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ" وكان أشدّهم تمرّدا وأوّلهم تجبّرا وأبلغهم فيما يردّ به الحقّ كان في هذا القول ذكر السّبب الذي يصل به إلى الإخراج، وهو "بسحره" فأشيع المقال بأن ذكر أنّه يريد إخراجكم بسحره، أمّا الموضع الذي لم يذكر فيه "بسحره" فهو ما حكى من قول الملأ، والملأ لم يبلغوا ما بلغه فرعون في إبطال ما أورده موسى عليه السّلام، ولم يجفوا في الخطاب جفاه فتناولت الحكاية ما قاله فرعون على جهته بتكرير لفظ السّحر بعدما أخرجه في صفته حيث قال:"إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ"، بيد أنّه قد يقول قائل:"فقد ذكر سبحانه في سورة طه عن الملأ أنّهم قالوا:لَسَـٰحِرَٰنِ ؟" فيكون جوابه[4] أنّه قال تعالى في هذه السّورة:﴿فَتَنَـٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ ﴾[5] فهو خبر عن فرعون وقومه، فلمّا كان في جملتهم غلب أمره على أمرهم، إذ ابتداء ذلك:﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾[6] ، وهذا خبر عن فرعون ثمّ تتوالى الآيات بعد ذلك في خطاب عن فرعون ومن تبعه، فذكر قوله:"بسحره" فيما حكاه من كلام فرعون، فلذلك خلا منه الموضع الذي كان فيه الخبر عن الملأ من قومه، ومن لطائف ما جاء

1 الآيتان 109. 110.
2 الآية 63.
3 الآيتان 34. 35.
4 ينظر: درّة التّزيل وغرّة التّأويل: الخطيب الإسكافي – ص 125.
5 الآية 62.
6 الآية 56.

في هذا الموضوع من هذه السّورة قوله تعالى:﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾[1]، ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأعراف:﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]، وذِكْر الحرف وحذفه له دوافع، والقاعدة العامّة فيه أنّه عندما يكون السّياق في مقام البسط والتّفصيل يذكر الحرف سواء كان ياءً أو غيرها من الحروف، كما هو هنا في سورة طه لأنّه فصّل فيها[3]، وإذا كان المقام مقام إيجاز يوجز ويُحذف الحرف إذا لم يؤدّ ذلك إلى التباس في المعنى، كما هو هنا في سورة الأعراف.

يقول تعالى:﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[4] وفي موضع آخر يقول الحقّ تعالى:﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾[5]، المُلاحَظ في الآيتين أنّ الأولى وردت على نسق ما قبلها بالواو والأخرى بالفاء المقتضية في مثل هذا استئناف التّفصيل مع بنائه على ما قبله بمقتضى الفاء فقوله:"ومن يعمل"بواو النّسق في الأولى ورد في مقابل ما تقدّمه، فكان على أصله وما يقتضيه موضع الواو، ولا مدخل للفاء فيه بخلاف الأخرى، لأنّ فيه افتتاحا لتفصيل أحوال الفريقين فاستؤنف هذا التّفصيل بالفاء، أمّا الملحظ الآخر الذي يرتبط بمبحث الذّكر والزّيادة ففي تعقيب الآية من سورة طه:"فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا " إذ إنّ فيه إفصاحا بالتّأنيس المناسب لما بُنيت عليه كما هو واضح في الآيات التي قبلها[6]، ولم تُبْنَ آية سورة الأنبياء على ما ذكر فجيئ فيها بما يناسب، دون الحاجة إلى مزيد زيادة وتفصيل، وورد كلّ على ما يجب، وممّا زيد في مبناه لزيادة

---

1 الآية 94.

2 الآية 150.

3 ينظر:الآيات 86- 93.

4سورة طه - الآية 112.

5 سورة الأنبياء - الآية 94.

6 ابن الزّبير الغرناطي: ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التّنزيل - ج02- ص 826.ري

التّأكيد عليه والتّنبيه إليه ما ورد في قوله تعالى من هذه السّورة:﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[1]، فـ"اصطبر" جاءت في الصّلاة، لأنّها مستمرّة كلّ يوم، ولأنّها شديدة على النّفس عظيمة النّفع، والصّلاة كلّ يوم في أوقاتها وأدائها وإتمامها يحتاج إلى صبر كبير، لذا جاءت كلمة"اصطبر" بصيغة الافتعال للدّلالة على الزّيادة في الصّبر، في حين جاءت الصّيغة بلفظها في موضع آخر من هذه السّورة:﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[2]، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم نحو قوله تعالى:﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[3] فناسب زيادة المبنى زيادة المعنى والاهتمام به، والدّلالة على قيمة هذا الأمر وفائدته.

---

1 الآية 132.

2 الآية 130.

3 سورة الكهف – الآية 28.

13- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار:

لعلّ أوّل ما يختصّ به هذا المبحث في سورة طه هو تلك الطّريقة الفريدة في الحوار الذي جرى بين موسى عليه السّلام وفرعون، ومن أوائل الآيات التي تنقل لنا هذا الحوار قول الحقّ سبحانه:﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾[1]، فقد بدأ موسى عليه السلام ببسط مهمّته الرّئيسة، ولأنّ فرعون يعتزّ بألوهيته دائما فإنّ المولى سبحانه يريد أن يردّ عليه ويبيّن له أنّ هذه النّعم ليس له صلة بإيجادها وخلقها، كما أنّه لم يخلق البشر الذين يريد أن يتألّه عليهم فردّه الحقّ إلى قضيّة الخلق الأولى، لذلك ترى فرعون نقل هذا الأمر من قضيّة جوهريّة إلى قضيّة تافهة فقال:"قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ " إلاّ أنّ موسى عليه السّلام أغلق أمامه هذا الباب فقال: "عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى" وبعد ذلك دخل معه في قضيّة أخرى تفصيليّة لما سبق أن حدّثه فيه[2]، ومن عجيب النّظم في هذا الحوار استئناف فرعون الإخبار عن جوابه بقوله:"قال" أيّ فرعون مدافعا لهما بالمناظرة لا بالبطش، لئلاّ ينسب إلى السّفه والجهل، ولم يقل:"ربّي" حيدة عن سواء النّظر وصرفا للكلام على الوجه الموضح لخزيه، ولّما كان موسى عليه السّلام هو الأصل في ذلك، وكان ربّما طمع فرعون بمكره وسوء طريقه في حبسة تحصل في لسانه، أفرده بقوله:"يا موسى". قال له موسى على الفور:"ربّنا" أيّ موجدنا ومربّينا ومولانا، ولّما كان في إفاضة الرّوح من الجلالة والعظم ما يضمحلّ عنده غيره من المفاوتة أشار إلى ذلك بحرف التّراخي فقال:"ثمّ هدى"، وأنّه لمّا لم يكن لأحد بالطّعن في هذا الجواب قبل لأنّه لا زلل فيه ولا خلل، مع رشاقته واختصاره وسبقه بالجمع إلى غاية مضماره صرف الكلام عنه بسرعة، خوفا من الاتّضاح بزيادة موسى عليه السّلام

1 من الآية 49 إلى الآية 56.

2 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير – ج09- ص 161. وينظر: قصص الأنبياء والمرسلين: محمّد متولّي الشّعراوي- ص 271.

في الإيضاح، ليخبر عنه سبحانه على طريق الاستئناف بقوله:"فما"، ولّما فهم عنه موسى عليه السّلام ما أراد ترتّب على الخوض في ذلك ممّا لا طائل تحته من الرّدّ والمطاولة، ولم تكن التّوراة نزلت عليه إذ ذاك[1]، وإنّما نزلت بعد هلاك فرعون، لم يمش معه في ذلك، قال له قاطعا له عنه: "عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى" أيّ: المحسن إليّ بإرسالي وتلقيني الحجاج.

وإنّ من لطائف ما جاء في هذا الموضوع من هذه السّورة قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾[2]، إنّما سأل الله تعالى موسى عليه السّلام عن سبب استعجاله دون قومه، وكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشّوق إلى كلامك، بيد أنّ الجواب غير منطبق عليه واقتضى الأمر هذه الزّيادة في الذّكر والتّعبير، لأنّ ما واجهه به ربّ العزّة تضمّن شيئين؛ أحدهما إنكار العجلة في نفسها، والاخرعن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى عليه السّلام بسط العذر وتمهيد العلّة في نفس ما أنكر عليه فاعتلّ بأنّه لم يوجد منّي إلاّ تقدّم يسير مثله لا يعتدّ به في العادة ولا يحتفل به، ثمّ عقبه بجواب السّؤال عن السّبب[3]، ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التّهيّب لعتاب الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتّب على حدود الكلام.

14- الخطاب بالاسم والفعل:

لقد أشرنا في الفصل السّابق إشارة سريعة إلى أثر هذا المبحث وأهمّيته في الدّرس البلاغي على وجه العموم، والنّظم والإعجاز على وجه الخصوص، وتقرّر عند الاستشهاد بتلك الآيات أنّ الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها، بخلاف الفعل الذي له دلالة على الحقيقة وزمانها، وأنّ كلّ ما كان زمانيا من شأنه التّغيّر الذي يشعر بالتّجدّد، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني:«إنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشّيء من غير أن يقتضي تجدّده شيئا بعد شيء، وأمّا الفعل

1 شهاب الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 294.

2 الآيتان 83، 84.

3 الزّمخشري: الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل – ج04- ص 101. وينظر: التّسهيل لعلوم التّنزيل: ابن جزي – ج02 – ص 30.

فموضوعه على أنّه يقتضي تجدّد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء»[1]، وسنكتفي للاستدلال على هذا المبحث ببعض الآيات من هذه السّورة الكريمة.

يقول تعالى:﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾[2]، بمعنى: لأنّا قد أوحي إلينا من ربّنا أنّ العذاب كلّه؛ إذ اللاّم للاستغراق أو الماهية[3]، وعلى التّقديرين يقتضي ثبوت هذا الجنس ودوامه لما تفهمه الاسميّة، ومنه قوله تعالى:﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾[4] أيّ أضلّ فرعون على تحذلقه قومه مع ما لهم من قوّة الأجساد ومعانيها، ولمّا كان إثبات الفعل لا يفيد العموم، نفى ضدّه ليفيده مع كونه أوكد وأوقع في النّفس وأروع لها[5]، فقال:"وما هدى" أي ما وقع منه شيء من الهداية، لا لنفسه ولا لأحد من قومه، فتمّ الدّليل الشّهودي على تمام القدرة على إنجاء الطّائع وإهلاك العاصي، ثمّ في مجيء قوله:"وما هدى" مع إمكان الاستغناء عنها مبالغة وتأكيد.

يقول تعالى:﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[6]، أيّ: لا تستمرّ على الخوف الذي أوجست، ليعلّل له ذلك بقوله:"إنّك أنت الأعلى" وهو تعليل جملي مؤكّد بالجملة الاسميّة و"إن" و"أنت" والحصر بتعريف الطّرفين وخروجهم عن العلوّ، لأنّ الأعلى خارج عن التّفضيل، بمعنى: أنت العليّ دونهم، وهم في السّفل، وهذا أولى من إبقائه على التّفضيل، اعتبارا لظاهر علوّهم بأن يكون المعنى: لهم علوّ ظاهر للنّاظرين وأنت أعلى منهم[7]، فتأمّل هذا النّظم البديع يلح لك أنّه كلام – لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها– من لدن حكيم خبير.

1 دلائل الإعجاز – ص 138.
2 سورة طه – الآية 48.
3 شهاب الدّين البقاعي: نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج16- ص 293.
4 سورة طه – الآية 79.
5 شهاب الدّين البقاعي: السّابق- ج 16- ص 318.
6 سورة طه – الآية 68.
7 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير – ج09- ص 181.

15- الإفراد والجمع:

على نحو ما وقفنا عنده في الفصل السّابق، نجدنا أيضا ملزمين بمتابعة هذا المبحث والإشادة بشيء من العلاقة التي تربطه بموضوع التّضام في آيات معدودات من سورة طه.

يقول الحقّ تعالى:﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[1]، لنجد أنّ التّعبير القرآني آثر صيغة المفرد، على أنّه في مقامات أخرى يستعمل الجمع على نحو ما في قوله تعالى في سورة هود:﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[2]، وقوله تعالى في سورة القمر:﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[3] لأنّ صيغة الإفراد هنا في سورة طه تفيد الاختصاص الذي خصّ الله به موسى عليه السّلام، وهذا مفقود في الآيتين الأخريين[4]، ومن الإفراد أيضا قوله تعالى:﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[5]

أفرد الآية ولو تعدّدت لأنّ المراد بها الأولى التي بدأه بها، أو لمّا ترادفت آياتها كلّها على معنى واحد وهو التّوحيد عُدّت واحدة، كأنّه قيل: قد جئناك بما يثبت دعوانا[6]، و الأمر الملاحظ في هذه الآية أنّ الآية الكريمة جاءت بالإخبار بالمثنّى عن المثنّى، في حين إنّه في آيات أخر يكون الإخبار أحيانا بالمفرد عن المثنّى كما في قوله تعالى في سورة الشّعراء:﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا

---

1 سورة طه – الآيات 39، 40، 41.

2 الآية 37.

3 الآية 14.

4 عبد الفتّاح لاشين: ابن قيّم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن – ص 67.

5 سورة طه – الآية 47.

6 امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير- ج09- ص 159.

رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1]، وبالإخبار بالمفرد عن المفرد كما في قوله تعالى في سورة الزّخرف: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2]، وبالرّجوع إلى سياق الآيات يتّضح سبب هذه المغايرة بين الإفراد والجمع، ففي سورة الشّعراء ورد ذكرٌ لهارون مع موسى عليهما السّلام، غير أنّ القصّة مبنيّة على الوحدة[3] حيث يستمرّ النّقاش مع موسى عليه السّلام وحده، في حين بنى الكلام في سورة طه على التّثنية[4]، ليستمرّ الكلام على التّثنية، وفيما يلي الفرق بين السّياق:

في سورة طه	في سورة الشّعراء
- قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ [الآية 45]	- وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ [الآية 14]
- قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ [الآية 47]	- قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٍ مُّبِينٍ [الآية 30]

1 الآية 16.

2 الآية 46.

3 يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۞ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۞ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۞ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾[الآيات: من 12 إلى 17] لينتقل إلى الوحدة بعدها في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾[الآية 18].

4 يقول تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۞ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[الآيتان 42، 43].

- وقوله تعالى:﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾[الآية 63 من سورة طه] في مقابل قوله تعالى:﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[الآية 34 من سورة الشّعراء].

فلمّا بنى الكلام في سورة طه على التّثنية؛ قال:"فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ" بتثنية الرّسول ولّما بنى الكلام في سورة الشّعراء على الوحدة مع إشارات إلى هارون؛ قال:"فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ" بإفراد الرّسالة وتثنية الضّمير، ولّما لم تكن أيّة إشارة إلى هارون في سورة الزّخرف قاله بإفراد الضّمير والرّسول:"فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ "[1] وبذلك جاء كلّ جمع أو إفراد في مكانه ومستقرّه الذي يليق به. ومن هذه المغايرة أيضا قوله تعالى:﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾[2]حيث أفرد موسى بالنّداء، بعد أن جمعه مع أخيه، لأنّه الأصل في النّبوّة، وأخوه تابع له[3]، وفي القرآن الكريم أمثلة رائعة في استعمال الإفراد بدل الجمع نحو قوله تعالى في هذه السّورة:﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾[4] ونحو قوله تعالى من هذه السّورة نفسها:﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾[5]، إذ الصّورة الحقيقية كذلك كلّما كانت مثارا للانفعالات الشّعوريّة في بساطة ودقّة وإحكام كانت مركز إيحاء يدخل في نطاق السّورة الأدبية[6] وعلى هذا الأساس فلاستعمال القرآن الكريم للمفرد والجمع دواع كثيرة توجب التّأمّل وإمعان النّظر، إذ تجده متناهي الدّقة في توظيف الجمل والتّراكيب بتلك الصّيغ حسب ما يتطلّبه المقام ويقتضيه الحال دون تكلّف أو شطط.

1 ينظر: بلاغة الكلمة في القرآن الكريم: فاضل صالح السّامرّائي- ص 97.

2 الآية 49.

3 ابن جزي الكلبي: التّسهيل لعلوم التّنزيل- ج02- ص 19.

4 الآية 68.

5 الآية 68.

6 فتحي أحمد عامر: المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني- ص 50.

16- التّضام الصّوتيّ:

إنّ أوّل ما يطالعنا في سورة طه هو تلك الحروف المقطّعة في بداية السّورة، ولا بأس أن نذكّر أنّه قد مرّ معنا في هذا الفصل في المبحث المخصّص للمناسبة شيءٌ من الحديث عن بعض هذه الحروف، واستعرضنا ما جاء به شهاب الدّين البقاعي من تخريج عجيب ولطيف، ورأينا كيف استطاع أن يصل بهذين الحرفين إلى أبعد الحدود في التّفسير، متجاوزا كلّ ما قيل، إلى الحديث عنهما من منطلق الدّلالة الصّوتية التي يحملانها معا وبمختلف القراءات الممكنة، وقد ربط سيّد قطب بين هذه الحروف وظلّ السّورة العام، فوجد أنّ للسّورة ظلاّ خاصّا يغمر جوّها كلّه هو ظلّ علويّ جليل، تخشع له القلوب، وتسكن له النّفوس، ورأى أنّ الإيقاع الموسيقيّ للسّورة كلّها يستطرد هذا الجوّ من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيّا بذلك المدّ الذّاهب مع الألف المقصورة في القافية كلّها تقريبا، للتّنبيه على أنّ هذه السّورة كهذا القرآن مؤلّفة من مثل تلك الحروف المقطّعة، ويقصران ولا يمدّان لتنسيق الإيقاع كذلك[1].

يقول تعالى:﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾[2]، فنلاحظ أنّ الآية كانت بلفظ:"فَرَجَعْنَٰكَ " أيّ من مادّة:"الرّجع" على أنّه في موضع آخر جاء بلفظ:"فَرَدَدْنَٰهُ" من مادّة:"الرّدّ" وهو قوله تعالى:﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] واللّفظان وإن اتّحدا معنى وأدّياه معا؛ إلاّ أنّ الرّجع خُصّ بما هنا، ليقاوم ثقلُ الرّجع خفّة فتح الكاف، والرّدّ بسورة القَصص لتقاوم خفّة الرّدّ ثقل ضمّة الهاء[4]، وليوافق قوله تعالى:﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[5].

---

1 في ظلال القرآن- ج16- ص 2327.

2 سورة طه – الآية 40.

3 سورة القَصص – الآية 13.

4 ينظر: فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: أبو زكريا الأنصاري- ص 264.

5 سورة القَصص – الآية 07.

17- الالتفـــات:

إنّ أبرز ما لاحظه العلماء بخصوص هذه السّورة عند الحديث عن الالتفات هو ما جاء في قوله تعالى:﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾[1]، حيث أجمع الكثير منهم على أنّ في هذه الآية انتقالا في الخطاب، فقد جاء في تفسير الزّمخشري أنّ فائدة النّقلة من لفظ المتكلّم إلى لفظ الغائب غير واحدة؛ منها عادة الافتنان في الكلام وما يعطيه من الحسن والرّوعة، ومنها أنّ هذه الصّفات إنّما تسرّدت مع لفظ الغيبة، ومنها قال أوّلا:"أنزلنا"، ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع، ثمّ ثنّى بالنّسبة إلى المختصّ بصفات العظمة والتّمجيد فضوعِفت الفخامة من طريقين[2]، ولعلّ كلّ من وقف على الآية بعد الزّمخشري لا يعدو أن يكون نسج على منواله، فقد عدّ غير واحد هذا الالتفات أيضا ممّا يحسن، إذ لا يبقى على نظام واحد وجريان هذه الصّفات على لفظ الغيبة بإسناد الإنزال إلى ضمير الواحد المعظّم نفسه[3]، وعلّل البقاعي هذا الالتفات بقوله: «فقال ملتفتا من التّكلّم إلى الغيبة ليدلّ على ما اقتضته النّون من العظمة، مقدّما ما اقتضى الحال تقديمه من سكن المدعوّين المعتنى بتذكرهم وهداية من أُريد منهم »[4]، وعلى نحو ما مرّ معنا في الفصل السّابق؛ فإنّ في هذه المباحث البلاغية التي رأيناها في هذه السّورة ما يعرب كذلك عن بعض خصائصها، ولعلّ فيها ما يتعلّق بموضوع التّضام من حيث ارتباط الحروف والكلمات وائتلاف بعضها مع بعض، وما يكفل تأسيس معجم بلاغي من شأنه أن يثري مكتبة الباحث في نظم القرآن وإعجازه.

---

1 سورة طه – الآية 04.

2 الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- ج04- ص 66.

3 ينظر:البحر المحيط في التّفسير: أبو حيان الأندلسي – ج07- ص 311. وينظر: التّفسير الكبير: فخر الدّين الرّازي- ج 22- ص 09.

4 نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- ج 12- ص 267. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: شهاب الدّين الألوسي- ج 15- ص 151. وينظر: تيسير التّفسير: امحمّد بن يوسف أطفيّش- ج09- ص 116.

الخاتمـــــــة

إنّ مرادنا من هذه الخاتمة – بعد الرّحلة المباركة التي عشناها مع القرآن الكريم – هو تحديد بعض النّتائج التي نزعم أنّ البحث قد حقّقها وتوصّل إليها في فصوله الثّلاثة، إذ ليس من السّهل بمكان أن تكون لموضوع التّضام في القرآن الكريم خاتمة تحيط بجميع جوانبه، وهذه النّتائج نجملها فيما يلي:

أوّلا: لقد صاغ الدّارسون المحدثون النّصوصَ النّحوية صياغة جديدة معتمدين على عنصريّ المعنى والمبنى، فكان لهم دور بارز في إعطاء ظاهرة التّضام لفظها الاصطلاحي وعدّها واحدة من القرائن النّحويّة الدّالّة على المعنى النّحوي، كما كان لهم فضلُ تناولِها في أكثر من دراسة، بعدما كانت ظاهرة متناثرة في كتب موروثنا النّحوي.

ثانيا: إنّ علاقة التّضام هي المسؤولة عن تسلسل الكلام، وترابط أجزائه، واستمرار وحداته، فتضامّ الكلمات هو الذي ينهض بالتّركيب ويسمو به إلى حدّ الإعجاز، ويزيد من رونق العبارة، حتّى إذا ضامّت الكلمات أخواتها والعبارات ذواتها خرج الكلام في نسيج لغويّ متميّز ينفرد ببديع الرّصف والتّأليف.

ثالثا: لقد كانت عناية النّحويين بموضوع التّضام واضحة، نستشفّها من خلال تلك النّصوص الصّريحة والضّمنيّة، فتارة يسمّونه باسمه أو بأحد أقسامه، وتارة أخرى بغير مصطلح معيّن كحديثهم عن تلازم الأجزاء النّحويّة وتركيبها الذي يجعلها كالكلمة الواحدة.

رابعا: صاحبَ قضيّة التّضامّ كثير من المصطلحات والنّصوص التي تناولها القدامى بالدّرس والتّحليل، ومن هذه المصطلحات المتعلّقة بالتّضامّ: النّظم، والتّعليق، والبناء، والرّصف والتّأليف وغنيّ عن البيان أنّها مصطلحات من صميم الموروث النّقدي والبلاغي، أمّا نصوصهم في التّضام فقد جاءت في عبارات كثيرة أشهرها هي قولهم: استعمال بعض الكلم مع بعض، والكلام الآخذ بعضه بأعناق بعض.

خامسا: حاز عبد القاهر الجرجاني قصب السّبق في قضيّة التّضامّ، وفاق سابقيه من النّقّاد والبلاغيّين شأنه في ذلك شأن سبقه في دلائل النّظم والإعجاز، ورأى البحث أنّه خير من أسّس

لقضيّة التّضامّ في ضوء نظريّته في النّظم، إذ أعطاها بعدا وصل به إلى قمّة شامخة من حيث المصطلح، الشّمول والاكتمال.

سادسا: يُعدّ موضوع التّضامّ من أهمّ المباحث اللّغويّة صلاحيّة للدّلالة على وجوب إعادة النّظر في المقولات اللّسانية المعاصرة المنوطة بتماسك النّص واتّحاد أجزائه وترابط عناصره.

سابعا: إنّ موضوع التّضام ذو بعدين لغويين؛ بعد نحويّ يهتمّ بالمسائل النّحويّة المعيارية الخالصة وبعد آخر بلاغي يرتبط في القرآن الكريم بعلم المعاني، ولا يكاد يتميّز في الطّرح عن بحوث النّظم والإعجاز، فموضوع التّضام في القرآن كفيل بالكشف عن جملة من العلاقات التّركيبية التي تربط بين آيات القرآن وسوره، ولعلّ أهمّ هذه القضايا التي تدور في فلك التّضام قضيّة التّقديم والتّأخير والفصل والوصل، والذّكر والحذف.

ثامنا:لئن كانت ظاهرة التّضام في جانبها النّحويّ ظاهرة شكلية كبرى تصوّر أسلوب تآلف الكلمات بإعطاء المعنى العامّ للتّركيب الكلامي؛ فإنّها في طرحها البلاغيّ تنمّ عن عوامل النّبوغ وجمالية النّصوص وتذوّق قيمتها الفنّيّة.

تاسعا: لحالنا تأكّدنا من أنّ اختيار سورتي هود وطه لم يكن وليد أسباب ذاتيّة فقط؛ بل تراءى لنا أنّ تلك الخصائص التي تتميّزان بها دواعٍ رئيسة لتناول موضوع نحويّ بلاغي في ضوئهما، وهنا يجدر بنا التّذكير أنّ موضوع التّضام في القرآن الكريم موضوع مفتوح من حيث تنظيرُ المسائل وتفريعها، لا تحصره شواهد دراسة أو دراستين، لذا حريّ أن نكثّف الجهود ونوسّع البحث عسى أن نميط اللّثام عن بعض جوانبه.

عاشرا:اطمأنّ البحث إلى ما قاله العلماء عن القرآن الكريم من أنّ فيه أسبابا ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمتّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، وأنّ هذا هو حال القرآن كلّه؛ تسلّم كلّ سورة منه القيادة لما بعدها في خطوات متعانقة ومتآلفة حتّى يأتي كأنّه كلمة واحدة وظهر لنا فعلا أنّ هذا الأمر ثابت وعام في القرآن متحقّق من أوّل حرف فيه.

وحسبنا أنّنا لم ندّخر جهدا في ذلك، وأنّ هذا ما أمكننا الوصول إليه، فإن وُفّقنا فبعون الله، وإلاّ فــ:

عليك أن تسعى لشيء وما عليك أن تضمن عقبى النّجاح

وليس من اليسير الاقتراب من موضوع ذي صلة بالقرآن الكريم، بل ليس من اليسير أن تكشف قراءة أو قراءتان عن الموضوع برمّته، على أمل النّهوض به في دراسات أخرى أكثر عمقا ونجاحا.

والحمد لله وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

أوّلا: الكتب العربية.

ابن أبي الإصبع المصري(ت654هـ):

1. بديع القرآن– تقديم وتحقيق: حفني محمّد شرف – مصر– نهضة مصر– د ط– د ت.
2. تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان لإعجاز القرآن – تحقيق: حفني محمّد شرف– القاهرة– د ط – 1983هـ/1663م .

ابن أبي القاسم، أبو عبد اللّه:

3. أنوار التّحلّي على ما تضمّنته قصيدة الحلّي– أعدّه للنّشر وعلّق عليه: مصطفى مرزوقي– تقديم: مختار نويوات– منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية– ط01– 1427هـ/2006م.

ابن الأثير، ضياء الدّين(ت637هـ):

4. المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر– قدّمه وحقّقه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة– مصر– دار نهضة مصر– د ط – د ت .

ابن إسحاق، محمّد بن سيار(ت151هـ):

5. سيرة ابن إسحاق– تحقيق: محمّد حميد الله – معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريف – دط – دت .

ابن الأنباري، أبو البركات(ت577هـ):

6. الإنصاف في مسائل الخلاف، بين البصريين والكوفيين– تحقيق:محمّد محيي الدّين عبد الحميد– بيروت– مكتبة صيدا العصرية– د ط– 1419هـ/1998م.

ابن جزي، أبو القاسم الكلبي(ت741هـ):

7. التّسهيل لعلوم التّزيل– ضبطه وصحّحه وخرّج آياته: محمّد سالم هاشم– بيروت– دار الكتب العلمية– ط01- 1415هـ/1995م.

ابن جماعة، بدر الدّين (ت733هـ):

8. كشف المعاني في المتشابه من المثاني- تحقيق وتعليق: عبد الجواد خلف- القـاهرة- دار الوفاء- ط01-1410هـ/1990م.

ابن جنّي، أبو الفتح عثمان(ت393هـ):

9. الخصائص - حقّقـه: محمّـد علـيّ النّجّـار- بـيروت- عـالم الكتـب- ط01-1427هـ/2006م.

10. المنصف، شرح كتاب التّصريف للمازني- تحقيق: إبراهيم مصطفى- عبد الله أمـين- وزارة المعارف العمومية- إحياء التراث العربي- ط01- 1973م.

ابن ذريل، عدنان:

11. اللّغة و الأسلوب - مراجعة وتقديم: حـسن حميـد- الأردن- مجـدولاي للنّـشر والتوزيع- ط02- 1427هـ/ 2006م.

ابن رشيق، أبو علي الحسن (456هـ):

12. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده- قدّم له: صلاح الدّين الهواري- دار ومكتبـة الهلال- د ط — 2002م .

ابن الزّملكّاني، جمال الدّين:

13. المجيد في إعجاز القرآن المجيد- دراسة وتحقيق: شعبان صلاح- القاهرة- دار غريـب- ط02- 2006م.

ابن سراج، فؤاد عبد الغفّار:

14. سيرة شهداء الصّحابة-القاهرة - المكتبة التّوفيقية- د ط-د ت.

ابن السّراج، أبو بكر(ت316هـ):

15. الأصول في النّحو- تحقيق عبد الحـسين الفتلـي- بـيروت- مؤسّـسة الرّسـالة- 1405هـ/1985م.

ابن سيده، أبو الحسن (ت458هـ):

16. المحكم والمحيط الأعظم- تحقيق: عبد الحميد هنداوي- بيروت- منشورات محمد علي بيضون- ط01-1421هـ/2000م .

ابن طباطبا، محمّد بن أحمد(ت322هـ):

17. عيار الشّعر:دراسة وتحقيق وتعليق: محمد زغلول سلام- الإسكندرية – منشأة المعارف- ط03- د ت .

ابن عاشور، محمّد الطّاهر (ت 1972م):

18. التّحرير والتّنوير- تونس، الدّار التّونسية للنّشر- الجزائر، المؤسّسة الوطنية- د ط- دت.

ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد (ت368هـ):

19. العقد الفريد- بيروت- مكتبة تحقيق التّراث.دط- دت.

ابن عقيل، بهاء الدّين(ت769هـ):

20. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك- قدّ م له ووضع هوامشه وفهارسه: إميل بديع يعقوب- بيروت- دار الكتب العلمية- 1418هـ/1997م.

. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق: محمد محيي الدين- بيروت- المكتبة العصرية- صيدا- 1426هـ/2005م.

. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك– تحقيق:محمّد محيي الدّين عبد الحميد- القاهرة- دار التراث- د ط- دت.

ابن فارس، أبو الحسن أحمد (ت395هـ):

21. الصّاحبي في فقه اللّغة العربية وسنن العرب في كلامها – علّق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج- بيروت- دار الكتب العلمية – ط01- 1418هـ/1997م.

22. معجم مقاييس اللغة- تحقيق و ضبط: عبد السلام محمد هارون- بيروت- دار الجيل- د ط – د ت.

ابن قيّم الجوزية، شمس الدّين(ت751هـ):

23. البدائع في علوم القرآن- انتقاء وتحقيق: يسري محمّد السّيّد- بيروت- دار المعرفة- ط01- 1424هـ/2003م.

24. كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان – دراسة وتحقيق:محمّد عثمان الخشن – القاهرة- مكتبة القرآن- د ط – د ت.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل(ت747هـ):

25. السّيرة النّبويّة – تحقيق: مصطفى عبد الواحد – بيروت – دار المعرفة – د ط – 1396هـ/ 1971م.

ابن مرداس، العباس (الشّاعر):

26. الدّيوان – جمع وتحقيق: يحيى العبدوري- بغداد- نشر مديرية الثّقافة- د ط- 1968م.

ابن المقفّع، عبد الله(ت 142هـ):

27. الأدب الصّغير – بيروت- دار صادر- د ط – د ت .

ابن منقذ، أسامة (ت584هـ):

28. البديع في البديع في نقد الشّعر – حقّقه وقدّم له: عبد آ. علي مهنّا- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1407هـ/1987م.

ابن منظور جمال الدين أبو الفضل (ت711هـ):

29. لسان العرب- حقّقه وعلّق عليه ووضع حواشيه: أحمد عامر حيدر- راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم- بيروت- منشورات محمد علي بيضون- ط01- 1424هـ/2003م.

. لسان العرب- بيروت – دار صادر- ط 06- 1417هـ. 1997م .

ابن النّاظم ، بدر الدّين بن مالك الدّمشقي(ت686هـ):

30. المصباح في المعاني والبيان والبديع- حقّقه" عبد الحميد هنداوي- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1422هـ/2001م.

ابن هشام ، عبد الله جمال الدّين الأنصاري (ت 671هـ):

31. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك- تحقيق: محمود مصطفى الحلاوي، أحمد سليم الحموي- بيروت- مؤسسة التاريخ الإسلامي- دار إحياء التراث العربي – ط01- 1418هـ/1998م.

32. شرح شذور الذّهب – مراجعة وتصحيح : يوسف الشيخ محمد البقاعي.

33. مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب- تحقيق: صلاح عبد العزيز علي السيد- القاهرة- دار السلام- ط01- 1424هـ/2004م.

ابن يعيش النّحوي، موفّق الدّين (ت643هـ):

34. شرح المفصّل- بيروت- عالم الكتب- د ط – د ت.

أبو تمام، حبيب بن أوس (الشّاعر):

35. الديوان – بشرح الخطيب التّبريزي- تحقيق: محمّد عبده عزام- القاهرة- د ط – دت.

أبو زهرة، محمّد:

36. المعجزة الكبرى (نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به)- القاهرة- دار الفكر العربي- د ط- د ت.

أبو عبيدة، معمر بن المثنّى(ت210هـ):

37. مجاز القرآن- عارضه بأصوله وعلّق عليه: محمّد فؤاد زكين- بيروت- مؤسّسة الرّسالة- ط01- 1401هـ/1981م.

الأشموني، أو الحسن علي نور الدّين(ت في حدود900هـ):

38. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو والصرف- مصر- مطبعة السعادة- 1343هـ.

الأُرميّ، محمّد الأمين بن عبد الله :

39. تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن- إشراف ومراجعة: هاشم محمّد علي بن حسين مهدي- مكّة المكرّمة- دار طوق النّجاة- ط01 – 1421هـ/2001م.

أطفيّش، امحمّد بن يوسف (ت1332هـ):

40. تيسير التّفسير: تحقيق:إبراهيم بن محمّد طلاي- غرداية-1420هـ/1999م.

الألباني، محمّد ناصر الدّين:

41. صحيح الجامع الصّغير وزيادته- أشرف على طبعه:زهير الشاوش-المكتب الإسلامي- ط03-1408هـ/1988م.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدّين(ت1270هـ):

42. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني- بيروت- دار إحياء التّراث- د ط- د ت.

إميل بديع، يعقوب:

43. المعجم المفصّل في شواهد اللّغة العربية- لبنان- دار الكتب العلمية- ط01-1417هـ/1996م.

الأندلسي، ابن عطيّة (ت546هـ):

44. المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- عبد السّلام عبد الشّافي محمّد- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1422هـ/2001م.

الأندلسي، أبو حيّان محمّد بن يوسف(ت754هـ):

45. البحر المحيط في التّفسير – طبعة جديدة بعناية الشّيخ زهير جعيد- بيروت- دار الفكر- 1413هـ/1992م.

الأنصاري، أبو يحيى زكريا(ت926هـ):

46. فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن- حقّقه:محمّد علي الصّابوني- الجزائر-ط02- 1988م.

أنيس، إبراهيم:

47. أسرار اللغة – القاهرة- مكتبة الأنجلو المصرية- ط07 – 1985م..

أنيس، إبراهيم ، وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد:

48. المعجم الوسيط- قام بإخراج هذه الطبعة: – أشرف على الطبع: حسن علي عطية، ومحمد شوقي أمين- بيروت – دار الفكر – د ط – د ت.

الباقلاني، أبو بكر (ت403هـ):

49. إعجاز القرآن- تحقيق: أحمد صقر- ط03- مصر- دار المعارف.

50. الإنصاف فيما يجب الاعتقاد ولا يجوز الجهل به- تحقيق:محمد زاهد الكوثري- القاهرة- المكتبة الأزهرية- ط02- 2000م.

51. نكت الانتصار لنقل القرآن- دراسة وتحقيق: محمد زغلول سلام – الإسكندرية- منشأة المعارف- د ط – د ت.

البحتري، أبو عبادة الوليد (الشّاعر):

52. الدّيوان –تحقيق: حسن كامل الصّيرفي – مصر – دار المعارف- ط03 – دت.

بحيري، سعيد حسن:

53. التّبعية في التّحليل النّحوي - مكتبة الأنجلو المصرية- ط01- 1408هـ/1988م.

54. علم لغة النّصّ، المفاهيم والاتّجاهات – مصر- جامعة عين شمس- الشّركة المصرية العالمية للنّشر- لونجمان- ط01- 1997م.

البخاري، محمّد بن إسماعيل أبو عبد الله:

55. صحيح البخاري – تحقيق: مصطفى ديب البغا – بيروت- دار ابن كثير، اليمامة – ط 03- 1407هـ/ 1987م.

بدري، محمّد عبد الجليل:

56. براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسّور- الإسكندرية- مطبعة الجيزة- د ط- د ت.

بدوي، أحمد أحمد:

57. من بلاغة القرآن- مصر- نهضة مصر- د ط- مارس 2004م.

بسيوني، عبد الفتّاح:

58. من بلاغة النّظم القرآني: القاهرة- المطبعة الحسينية- ط01- 1413هـ/1992م.

البقاعي، برهان الدّين (ت885هـ):

59. نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور- القاهرة- ط01- 1495هـ/1975م .

بكري، عبد الكريم:

60. الزّمن في القرآن الكريم، دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه- دار الكتاب الحديث- دط- 1421هـ/2001م.

البوطي، محمّد سعيد رمضان:

61. من روائع القرآن، تأمّلات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ- دمشق- مكتبة الفارابي- د ط- د ت.

البيضاوي، ناصر الدّين:

62. أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: - بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1424هـ/2003م.

تمّـــام، حسّـــان:

63. الأصول، دراسة ايبستيمولوجية للفكر اللّغوي عند العرب، النّحو.الفقه.البلاغة- الهيئـــة المصرية العامّة للكتّاب- 1982م.

64. البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنّص القرآني- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1413هـ/1993م.

65. اجتهادات لغوية- القاهرة- عالم الكتب-1428هـ/ 2007م.

66. الخلاصة النّحويّة- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1420هـ/2000م.

67. اللغة بين المعيارية والوصفية – القاهرة- مكتبة الأنجلو المصريّة- د ط- 1958م.

68. اللغة العربية معناها ومبناها- القاهرة - عالم الكتب- ط04- 1425هـ/2004هـ.

69. مقالات في اللّغة والأدب- القاهرة - عالم الكتب- ط1-1427هـ/ 2006م.

70. مناهج البحث في اللغة – الدار البيضاء- دار الثقافة- د ط- 1407هـ/1986م.

التّهانوي، محمّد علي (ت 1158هـ):

71. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون – تقديم وإشراف ومرجعـــة: رفيـــق العجـــم- تحقيق:علي دحروج- لبنان- مكتبة ناشرون - د ط- د ت.

التوحيدي، أبو حيان (ت414هـ) :

72. الإمتاع والمؤانسة – صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين. أحمد الزين- بيروت- د ط – د ت .

الثّعالبي، عبد الرّحمن:

73. الجواهر الحسان في تفسير القرآن- تحقيق: عمّار طالبي- الجزائر- المؤسّـــسة الوطنيـــة للكتاب- د ط – د ت.

الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر(ت255هـ):

74. البيان والتبيين:– تقديم وتبويب وشرح: علي أبو ملجم – ط01 -1408هـ/1988م.

. البيان والتّبيين- تحقيق: محمّد عبد السّلام هارون- القاهرة- مكتبة الخـــانجي- ط07- 1418هـ/ 1998م.

75. كتاب الحيوان- بتحقيق وشرح:عبد السلام محمّد هارون- مصر- شـــركة ومطبعـــة مصطفى البابي الحلبي وشركاه- ط02- 1385هـ/1965م.

الجرجاني، عبد القاهر (ت471هـ):

76. أسرار البلاغة – صحّحه وعلّق على حواشيه: السيد محمد رشيد رضا- القاهرة- مكتبة ابن تيمية – د ط – د ت.

77. دلائل الإعجاز- اعتنى به: محمد علي زينو – بيروت- مؤسّسة الرّسالة ناشرون- ط01- 1426هـ/2005م.

78. الرّسالة الشافية- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – مصر- دار السلام- د ط- د ت.

79. شرح رسالة الرّماني لعالم مجهول كأنه عبد القاهر الجرجاني - كشفه وعلّق عليه: زكريا سعيد علي- القاهرة- دار الفكر العربي- ط01- 1417هـ/1997م

80. العوامل المائة النّحوية في أصول علم العربية- شرح: خالد الأزهري الجرجاني(ت905هـ)- تحقيق وتقديم وتعليق: بدراوي الزّهران- القاهرة- دار المعارف- ط02- د ت.

81. كتاب الجمل في النحو: - شرح ودراسة وتحقيق: يسري عبد الغني عبد الله- بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1410هـ/1990م.

82. المقتصد في شرح الإيضاح – تحقيق كاظم بحر المرجان- الجمهورية العراقية- منشورات وزارة الثقافة والإعلام- د ط- 1982م.

جرير (الشّاعر):

83. الدّيوان- بيروت- دار صادر- دط- 1398 هـ/ 1978م.

جلال، شمس الدّين:

84. الأنماط الشّكلية لكلام العرب، نظرية وتطبيقا، دراسة بنيوية – الإسكندرية – مؤسسة الثقافة الجامعية – د ط – 2005م.

الجنـدي، درويـش:

85. نظرية عبد القاهر في النّظم- مصر – مكتبة نهضة مصر بالفجالة- د ط- 1960م.

الجوهري، اسماعيل بن حمّاد (ت393هـ):

86. تاج اللغة وصحاح العربية- تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- بيروت- دار العلم للملايين- ط04- 1990م.

حامد، أحمد حسن:

87. التّضمين في العربية، بحث في البلاغة والنّحو-بيروت- دار العلوم- عمّان- دار الشّروق- ط01-1422هـ/2001م.

حسن،محمود السّيد:

88. روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز- الإسكندرية- ط02- 2003م.

الحسناوي، محمّد:

89. الفاصلة في القرآن- عمان - دار عمار- ط02- 1421هـ/2000م.

حسين رفعت، حسين:

90. الموقعية في النّحو العربي- تقديم: تمام حسان- القاهرة - عالم الكتب- ط01- 1426هـ/ 2005م.

حمّادي، صمّود:

91. التّفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس(مشروع قراءة) — تونس- منشورات الجامعة التّونسية- د ط — 1981م.

حماسة، محمّد عبد اللّطيف:

92. العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث - القاهرة— دار الفكر العربي- د ط- دت.

93. النّحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدّلالي- القاهرة- دار الشّروق- ط02- دت.

حمدي بركات ، محمّد أبو علي:

94. البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل - عمّان - دار البشير- ط01- 1412هـ/1992م.

حمودة، عبد العزيز:

95. المرايا المقعّرة، نحو نظرية نقدية عربية: - الكويت- سلسلة عالم المعرفة- العدد 272- - مطابع الوطن- 1422هـ/2001م.

الحموي، شهاب الدّين (1098هـ):

96. درر العبارات وغرر الإشارات في تحقيق معاني الاستعارات- دراسة وتحقيق: إبـراهيم عبد الحميد التّلب- القاهرة- مطبعة السّعادة- 1407هـ/1987م.

حميدة، مصطفى:

97. نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربية- مكتبة لبنان ناشرون- الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان- ط01- 1997م.

حوّى، سعيد:

98. الأساس في التّفسير- القاهرة- دار السّلام- ط02- 1409هـ/1989م.

الخازن، علاء الدّين البغدادي:

99. لباب التّأويل في معاني التّنزيل- مصر- مطبعة التّقدّم العلميّة- دط – دت.

الخالدي، صلاح عبد الفتّاح:

100. لطائف قرآنية- دمشق-دار القلم- ط03- 1425هـ/2004م.

101. وقفات مع هذه الآيات- دمشق- دار القلم- ط01- 1426هـ/2007م.

الخالدي، كريم حسين ناصح:

102. نظرية المعنى في الدّراسات النّحوية- الأردن- دار صفاء- ط 01- 1427هـ/2006م.

الخضري، محمّد الأمين:

103. من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية- القاهرة- د ط – 1414هـ/1994م.

خطّابي، محمّـد:

104. لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطاب – 1988م.

الخطّابي، محمّد بن محمّد(ت388هـ):

105. بيان إعجاز القرآن- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- حقّقها وعلّق عليها: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام- مصر- دار السلام- د ط- د ت.

الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله(ت431هـ):

106. درّة التّنزيل وغرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز- اعتنى بـه: الشّيخ خليل مأمون شيحا- بيروت- دار المعرفة- ط01- 1422هـ/2002م.

الخطيب، عبد الكريم:

107. إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السّابقين، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها- بيروت- دار الفكر العربي- د ط – د ت.

الخطيب القزويني، جلال الدّين(ت739هـ):

108. الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبديع- بيروت- دار الكتب العلمية- د ط – د ت.

الخفاجي، ابن سنان(ت466هـ) :

109. سرّ الفصاحة – بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1402هـ/1982م.

الخياط، أبو الحسن كتاب:

110. الانتصار والرّد على ابن الرّوندي الملحد- نقله إلى الفرنسية:ألبير نصري نادر- بيروت – د ط – 1957م .

دراز، محمد عبد الله (ت 1966م):

111. النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن- الكويت- دار القلم- د ط- 1957م .

دروزة، محمّد عزّة:

112. التّفسير الحديث- بيروت- دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه- دط- 1381هـ/1963م.

الدّرويش، محيي الدّين:

113. إعراب القرآن الكريم وبيانه- اليمامة - دار ابن كثير- بيروت، دمشق – ط 07- 1420هـ/1999م.

ذو الرّمّة، غيلان بن عقبة (الشّاعر):

114. الدّيوان – شرح أحمد ين حاتم الباهلي- رواية أبي العبّاس ثعلب- تحقيق: عبد القدّوس أبي صالح- بيروت- مؤسّسة الإيمان- ط01- 1982م.

الرّاجحي، عبده:

115. النّحو العربي والدّرس الحديث، بحث في المنهج- بيروت- دار النّهضة العربية- د ط- 1979م.

الرّازي، فخر الدّين (ت604هـ):

116. التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب- قدّم له: هاني الحاج- حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه:عماد زكي البارودي- القاهرة- المكتبة التّوفيقية- د ط – د ت.

117. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – دراسة وتحقيق: سعد سليمان حمودة- الإسكندرية- دار المعرفة الجامعية- د ط – 2003م .

راضي، عبد الحكيم:

118.نظرية اللّغة في النّقد الأدبي- مصر- مكتبة الخانجي- د ط- 1980م.

الرّافعي، مصطفى صادق (ت1356هـ):

119. إعجاز القرآن والبلاغة العربية – القاهرة- مؤسسة المختار- ط01- 1423هـ/2003م.

رضا، محمّد رشيد (ت1935م):

120.تفسير القرآن الكريم(المنار) –مصر- مطبعة المنار – د ط- د ت.

الرّماني، أبو الحسن علي بن عيسى(ت386هـ):

121.النكت في إعجاز القرآن– ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – مصر- دار السلام- د ط- دت.

رمضان، النّجار نادية:

122.أبحاث نحويّة ولغويّة؛ القسم الأوّل- الإسكندرية- دار الوفاء للنّشر- ط01- 2006م.

الزرقاني، عبد العظيم:

123. مناهل العرفان في علوم القرآن – دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي وشركاه- ط03- د ت.

الزّركشي، بدر الدين (ت794هـ):

124.البرهان في علوم القرآن - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- القاهرة- مكتبة دار التّراث- ط03- 1404هـ/1984م .

زغلول، محمد سلام:

125. أثر القرآن في تطوّر النّقد العربي، إلى آخر القرن الرابع الهجري: - قدّم له: محمد خلف الله أحمد- - مكتبة الشباب- ط01- 1982م.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود (ت538هـ):

126. أساس البلاغة- حقّقه وقدّم له ووضع فهارسه: مزيد نعيم وشوقي المعرّي – بيروت- مكتبة لبنان ناشرون- – ط 01- 1998م.

127. الكشّاف عن حقائق غوامض التّزيل وعيون الأقاويل في وجه التّأويل- تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود. وعلي محمّد معوّض- شارك في تحقيقه: فتحي عبد الرّحمن أحمد حجازي- مكتبة العبيكة- ط01- 1418هـ/1998م.

.الكشّاف عن حقائق التّزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل- حقّقه وخرّج أحاديثه: عبد الرّزّاق المهدي- بيروت- ط02- 1421هـ/2001م.

الزّناد، الأزهد:

128. نسيج النّص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصّا- بيروت- المركز الثقافي العربي- ط01- 1993م.

الزّوبعي، طالب محمّد اسماعيل:

129. البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين- بنغازي- جامعة قار يونس- ط01- 1997م.

السّاقي، فاضل مصطفى:

130. أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة- تقديم تمام حسان- القاهرة- مكتبة الخانجي- د ط – 1497هـ/1977م.

إبراهيم السّامرائي:

131. الفعل زمانه وأبنيته- بغداد- كطبعة العاني- دط- 1966م.

السّامرّائي، فاضل صالح:

132. بلاغة الكلمة في القرآن الكريم- عمّان- دار عمار- ط05- 1429هـ/2008م.

133. التّعبير القرآني- عمّان- دار عمار- ط05- 1428هـ/2007م.

134. الجملة العربية والمعنى- بيروت- دار ابن حزم- ط01- 1421هـ/ 2000م .

السّجلماسي، أبو محمّد القاسم:

135. المترع البديع في تجنيس أساليب البديع- تقديم وتحقيق:علاء الغازي- القاهرة- دار المعارف- ط01-1401هـ/ 1980م.

السّعران، محمود:

136. علم اللّغة، مقدّمة للقـــارئ العـــربي – القـــاهرة- دار الفكـــر العـــربي- د ط – 1420هـ/1999م.

سعد، أحمد محمّد:

137. التّوجيــــه البلاغــــي للقــــراءات القرآنيــــة- القــــاهرة- مكتبــــة الآداب- ط02- 1421هـ/2000م.

السّكاكي، يوسف بن أبي بكر(ت626هـ):

138. كتاب مفتاح العلوم – بيروت –دار الكتب العلمية- دط– دت.

سلّــــوم، تامــــر:

139. نظريّة اللّغة والجمال في النّقد العربيّ – سوريا- اللاّذقية- دار الحوار للنّشر- ط01 – 1983م.

السّمين الحلبي، أحمد بن يوسف (ت756هـ):

140. الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون- تحقيق: أحمد محمّد الخــرّاط- دمــشق- دار القلم- دط – دت.

السّهيلي، أبو القاسم عبد الرّحمن(ت581هـ) :

141. نتائج الفكر في النّحــو- تحقيــق: محمّـــد البنّـــا- دار الرّيـــاض للنــشّر- ط02- 1404هـ/1984م.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان(ت180هـ):

142. الكتاب – تحقيق:عبد السلام هارون–ط01- 1411هـ/1991م.

السّيد أحمد، عبد الغفّار:

143. قضايا في علوم القرآن تعين على فهمه- الإسكندرية- دار المعرفة الجامعية- 1995م.

السيد، عبد الحميد:

144. دراسات في اللسانيات العربية، بنية الجملة العربية، التراكيب النحوية والتداولية، علم النحو وعلم المعاني- عمان- دار الحامد للنشر- ط01- 1424هـ/2004م.

145. دراسات في اللّسانيات العربية؛ المشاكلة. التّنغــيم، رؤى تحليليــة: - عمــان- دار الحامد- ط01- 1425هـ/2004م.

السّيد، شفيــــع :

146.النّظم وبناء الأسلوب في البلاغة العربية: - القاهرة- دار غريب- ط01- 2006م.

السيوطي، جلال الدّين(ت911هـ):

147.الإتقان في علوم القرآن– عنايــة خالــد العطّــار- بــيروت- دار الفكــر- ط01- 1423هـ/2003م.

148. الأشباه والنظائر في النّحو – اعتنى به:محمد فاضلي- الجزائر- أبحاث للنشر والتوزيع- ط01- 2007م.

149.تناسق الدّرر في تناسب الآيات والسّور- دراسة وتحقيق: عبد القادر عطا- بــيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1406هـ/1986م.

150. جمع الجوامع، الجامع الكبير في الحديث والجامع الصّغير في الحديث وزوائده- تخــريج وتعليق وضبط: خالد عبد الفتّاح شــبل- بــيروت- دار الكتــب العلميــة- ط01- 1421هـ/2000م.

151. شرح شواهد المغني- ذُيِّل بتصحيحات وتعليقات العلامة الشيخ محمد محمــود بــن التلاميذ التركزي الشنقيطي- بيروت- منشورات دار مكتبة الحياة- د ط – د ت .

152.شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان- بيروت- دار الفكر- د ط – دت.

153. لباب النّقول في أسباب النّزول- الجزائر- المؤسّسة الوطنية للكتاب- تونس – الــدّار التونسية- د ط- 1404هـ/1984م.

الشريف الجرجاني، أبو الحسن السّيد (ت816هـ):

154.التعريفات – وضع حواشيه:باسل عيون السّود- بيروت-دار الكتب العلمية- ط02- 1424هـ/2003م.

الشّريف الرّضي، محمّد بن الحسين(ت406هـ):

155.تلخيص البيان في مجازات القرآن – تحقيق وتقديم: علي محمّد مقــدّم- بــيروت- دار مكتبة الحياة- د ط – 1984م.

الشّعراوي، محمّد متولّي:

156. قصص الأنبياء والمرسلين- بيروت- المكتبة العــصرية صــيدا- د ط- 1425هـ/ 2004م.

شيخون، محمود السّيد:

157. الإعجاز في نظم القرآن- القاهرة- مكتبة الكليات الأزهرية- ط01- 1398هـ/1978م.

الصابوني، محمّد علي:

158. إيجاز البيان في سور القرآن - القاهرة- مكتبة الغزالي- ط02- 1399هـ/1979م.

159. صفوة التّفاسير- بيروت- دار القرآن الكريم- ط01- 1401هـ/1981م.

160. مختصر ابن كثير: - بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1420هـ/2000م.

الصادق، خليفة راشد:

161. دور الحرف في أداء معنى الجملة-منشورات جامعة قار يونس-بنغازي- د ط- 1996م.

الصبّان، محمّد بن علي:

162. حاشية الصّبان على شرح الأشموني، مصر- مطبعة السعادة- 1343هـ.

الصّعيدي، عبد المتعال:

163. البلاغة العالية، علم المعاني- قدّم له وراجعه وأعدّ فهاره:عبد القادر حسين- المطبعة النّموذجية- مكتبة الآداب بالجماميز- ط02- 1411هـ/1991م.

الصّغير، محمّد حسين علي:

164. تطوّر البحث الدّلالي، دراسة تطبيقية في القرآن- بيروت-دار المؤرّخ- ط01- 1420هـ/1999م.

165. علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي – بغداد – وزارة الثقافة والإعلام- ط01- 1989م.

طالب الإبراهيمي، خولة:

166. مبادئ اللّسانيات- الجزائر- دار القصبة للنشر- د ط- 2000م.

الطّبري، محمّد بن جرير:

167. جامع البيان في تفسير القرآن- مصر- المطبعة الميمنية- د ط – د ت .

عامر، أحمد حسن:

168. التّضمين في العربية، بحث في البلاغة والنّحو- بيروت- الدّار العربية للعلوم- الأردن- دار الشّروق- ط01- 1422هـ/2001م.

عبّـاس، محمّـد:

169. الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني – بيروت- دار الفكـر المعاصـر – دمشق- دار الفكر- ط01- 1420هـ/ 1999م.

العبـد، محمّـد:

170. العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتّـصال:- القـاهرة- مكتبـة الآداب- ط01- 1428هـ/2007م.

171. المفارقة القرآنية، دراسـة في بنيـة الدّلالـة- القـاهرة- مكتبـة الآداب- ط02- 1426هـ/2006م.

172. النّص والخطاب والاتّصال – القاهرة- الأكاديمية الحديثة للكتاب الجـامعي- ط01- 1426هـ/ 2005م.

عبد العزيز، محمد عبد الدّايم:

173. النّظريّة اللّغويّة في التّراث العربي- القاهرة- دار السلام- ط 01- 1427هـ/2006م.

عبد الرّحمان، عائشة (ت1998م):

174. الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغويـة وبيانيـة- مـصر- دار المعارف- 1404هـ/1984م.

عبد المجيد، جميل:

175. البديع بين البلاغة العربية واللّسانيات النّصيّة- الإسكندرية- الهيئة المـصرية العامّـة للكتّاب- د ط – 1998م.

عبد المنعم، عبد الجليل:

176. نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية: - الإسكندرية- دار الوفاء- ط01- 2007م.

العبّود، جاسم محمّد عبد:
177. مصطلحات الدّلالة العربي، دراسة في ضوء علم اللّغة الحديث: - بيروت- دار الكتب العلمية- ط01- 1428هـ/2007م.
عبيد بن الأبرص (الشّاعر):
178. الدّيوان — بيروت — دار صادر — د ط - 1418هـ/1998م.
العسكري، أبو هلال(ت395هـ):
179. كتاب الصّناعتين، الكتابة والشّعر- حقّقه وضبط نصّه: مفيد قميحة- بيروت- دار الكتب العلمية- 1409هـ/1989م.
عشراتي، سليمان:
180. الخطاب القرآني، مقاربة توصيفية لجمالية السّرد الإعجازي- الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية- د ط -1998م.
العشماوي، محمد زكي:
181. قضايا النّقد الأدبي بين القديم والحديث- بيروت- دار النهضة العربية- 1404هـ/1984م.
العلوي، يحيى بن حمزة (ت 742هـ):
182. الطّراز المتضمّن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز- تحقيق: عبد الحميد هنداوي- بيروت- المكتبة العصرية- ط01- 1423هـ/2002م.
العمادي، أبو السّعود:
183. إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الحكيم(على هامش تفسير الرّازي)- بيروت- دار الفكر- د ط - 1978م.
العمري، أحمد جمال:
184. المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز، نشأتها وتطوّرها حتى القرن الرابع الهجري- القاهرة- مكتبة الخانجي- د ط - 1410هـ/1990م.
الغرناطي ابن الزّبير:
185. ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه من آي التّنزيل- تحقيق:سعيد الفلاح- لبنان- دار الغرب-ط02- 1403هـ/1983م.

الغزالي، محمّـــد:

186.نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم- الرّوية- منشورات بغدادي- د ط- دت.

فتحي، أحمد عامر:

187. بلاغة القرآن بين الفنّ والتّاريخ -الإسكندرية- منشأة دار المعارف- د ط - د ت.

188.المعاني الثّانية في الأسلوب القرآني- الإسكندرية- منشأة المعارف- د ط- د ت.

الفرّاء، أبو زكريّا(ت207هـ):

189. معاني القرآن- بيروت- عالم الكتب- ط03-1403هـ/1983م.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 175هـ):

190. كتاب العين - تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي- د ط - دت .

الفـــرزدق (الشّاعر):

191. الدّيوان- شرح وتحقيق: كرم البستاني- بيروت- دار صادر- دط- دت.

الفقّي، صبحي إبراهيم:

192. علم اللّغة النّصّي بين النّظرية والتّطبيق، دراسة تطبيقية على السّور المكّية- القاهرة-دار قباء- ط01- 1421هـ/2000م.

الفهري، عبد القادر الفاسي:

193. اللّسانيات و اللغة العربية، نماذج تركيبية - بيروت- منشورات عويـــدات- ط01-1986.

الفيروز آبادي، مجد الدين (ت817هـ):

194. القاموس المحيط - ضبط وتحقيق:يوسف الشيخ محمد البقاعي- إشـــراف: مكتـــب البحوث والدراسات- بيروت - دار الفكر - د ط - 1420هـ/1999م.

القاضي، عبد الجبار المعتزلي(415هـ):

195.المغني في أبواب التّوحيد والعدل - قوّم نصّه: أمين الخولي - القاهرة- مطبعـــة دار الكتب - ط01-1380هـ/ 1960م- ج16- ص199.

القاضي، عبد العزيز الجرجاني (ت366هـ) :

196.الوساطة بين المتنبّي وخصومه- تحقيق وشرح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي- مطبعة عيسى بابي الحلبي — د ط — 1386هـ/ 1966م.

القاضي عياض(ت544هـ):

197.الشّفا بتعريف حقوق المصطفى — خرّج أحاديثه: أحمد بن أحمد محمد بن يحيى المعروف بالشُّمني- القاهرة- دار ابن الهيثم- ط01- 1427هـ/2006م.

قاسم بني دومي، خالد:

198. دلالات الظّاهرة الصّوتية في القرآن الكريم- الأردن- عالم الكتب الحديث- ط01- 2005م.

قدّور، أحمد محمّد:

199. مبادئ اللّسانيّات- بيروت- دار الفكر المعاصر- دمشق- دار الفكر- ط02- 1419هـ. 1999م.

القرضاوي، يوسف:

200.كيف نتعامل مع القرآن الكريم- القاهرة- دار الشروق — ط05- 1427هـ/2006م.

القرطاجنّي، حازم(ت684هـ):

201.منهاج البلغاء وسراج الأدباء — تقديم وتحقيق:محمد الحبيب بن خوجة- تونس- د ط- 1966م.

القرطبي، أبو عبد الله(ت671هـ):

202. الجامع لأحكام القرآن- بيروت- دار إحياء التراث العربي- 1405هـ/1985م.

القطّان، منّاع:

203. مباحث في علوم القرآن- القاهرة - مكتبة وهبة - ط10- 1417هـ/1997م.

قطب، سيّد (1966م):

204.التّصوير الفنّي في القرآن الكريم- القاهرة- دار الشّروق- ط07- 1402هـ/1982م.

205. في ظلال القرآن- القاهرة- دار الشّروق- ط 34- د ت .

القمّي النيسابوري، نظام الدّين:

206. غرائب القرآن في رغائب الفرقان- (على هامش الطّبري)- مصر- المطبعة الميمنية- د ط – د ت.

القوزي، محمّـــد:

207. المصطلح النّحوي، نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن الثالث الهجـــري- - الجزائـــر- ط03- 1983م.

كثيّـــــر(الشّاعر):

208. ملحق الدّيوان- تحقيق:إحسان عبّاس-بيروت- دار الثّقافة- ط01- 1971م.

الكرماني، محمود بن حمزة(ت505هـ):

209.البرهان في توجيه متشابه القرآن- تحقيق: عبد القادر أحمد عطا- بيروت- دار الفكــر العلمية- ط01- 1406هـ/1986م.

لاشين، عبد الفتّاح:

210. ابن قيّم وحسّه البلاغي في تفسير القرآن الكريم- بيروت- دار الرّائد العربي- ط01- 1402هـ/1985م.

211. التّراكيب النّحوية من الوجهة البلاغية عند القـــاهر الجرجـــاني- المملكـــة العربيـــة السّعودية- الرّياض- د ط – دت.

212. المعاني في ضوء أساليب القرآن- مصر- دار المعارف- ط 01- 1976م.

213. من أسرار التّعبير في القرآن، الفاصـــلة القرآنيـــة- الرّيـــاض- دار المـــرّيخ- طبعـــة 1402هـ/1982م.

لبيد، ابن ربيعة (الشّاعر):

214.الدّيوان- بيروت – دار صادر- دط – دت

المالقي، أحمد بن عبد النور:

215. رصف المباني في شرح حروف المعاني – تحقيق: أحمد محمـــد الخـــراط- دمـــشق- مطبوعات مجمع اللغة العربية- د ط- 1394هـ.

المبرّد، أبو العبّاس(ت285هـ):

216.الكامل- حقّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: محمّد أحمد الدّالي- بيروت- مؤسّسة الرّسالة- ط02- 1418هـ/1997م.

217. كتاب المقتضب – تحقيق: محمّد عبد الخالق عظيمة- القاهرة- د ط- 1399هـ/1979م.

محمّد أبو موسى، محمّد:

218. دلالات التّراكيب، دراسة بلاغية - القاهرة- مكتبة وهبة- ط02- 1408هـ/1987م.

219. الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم- القاهرة- مكتبة وهبة- د ط- 1427هـ/2006م.

مختار، أحمد عمر:

220.علم الدّلالة- الكويت- مكتبة دار العروبة للنّشر- ط01- 1402هـ/1982م.

المخزومي، مهدي:

221.النحو العربي، نقد وتوجيه- بيروت- دار الرائد العربي- ط02- 1406هـ/1986م.

مدّاس، أحمد:

222. لسانيات النّص، نحو منهج تحليل الخطاب الشّعري- الأردن- عالم الكتب الحديث- ط01- 2007م.

مرتاض، عبد الجليل:

223. في رحاب اللّغة العربية- الجزائر- بن عكنون- ديوان المطبوعات الجامعية- ط 01- 2004م.

224. في عالم النّص والقراءة – الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية- د ط- 2007م.

المرزوقي، أبو علي(ت421هـ):

225. شرح ديوان الحماسة- نشر وتحقيق:أحمد أمين، عبد السلام هارون- بيروت- دار الجيل- ط01- 1411هـ/1991م.

المرسي، كمال الدّين عبد الغني. والمصري، أحمد:

226. دراسات في الإعجاز القرآني – الإسكندرية – دار الوفاء- ط01- 2007م.

المرسي، كمال الدّين:

227. فواصل الآيات القرآنية- الإسكندرية- دار الوفاء- د ط- دت.

228. مراعاة النّظير في كلام الله العليّ القدير- الإسكندرية- دار الوفاء- ط01- 2005م

المسدّي، عبد السّلام:

229. اللّسانيات وأسسها المعرفية- الدار التونسية للنّشر- المؤسّسة الوطنية للكتاب-دط- أوت 1986م.

مسلم، مصطفى:

230. مباحث في التّفسير الموضوعي- دمشق- دار القلم- ط05- 1428هـ/2007م.

مصطفى، إبراهيم:

231. إحياء النّحو- ط 02- 1413هـ/ 1992م- القاهرة.

مصطفى، محمّد صلاح الدّين:

232. النّحو الوصفي في القرآن الكريم- القاهرة- مؤسسة علي جراح الصباح – دط – دت.

مصلوح، سعد عبد العزيز:

233. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللّسانية، آفاق جديدة – جامعة الكويت- فهرس مكتبة الكويت الوطنية- ط01- 2003م .

مطلوب، أحمد (2004م):

234. معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها- لبنان- مكتبة ناشرون- ط02- 1996م.

235. معجم مصطلحات النّقد العربي القديم- لبنان- مكتبة ناشرون- ط01- 2001م

مطاوع، سعيد عطيّة علي:

236. الإعجاز القصصي في القرآن الكريم- القاهرة- دار الآفاق- ط01- 2006م.

مندور، محمّد:

237. النّقد المنهجي عند العرب – مصر- مطبعة دار نهضة مصر- د ط – 1969م.

نحلة، محمود أحمد:

238. في البلاغة العربية، علم المعاني - بيروت- دار العلوم العربية- ط01- 1410هـ/1990م.

النّسفي، عبد الله بن أحمد:

239.مدار التّنزيل وحقائق التّأويل- قدّم له: قاسم الشّماعي الرّفاعي- راجعه وضبطه:إبراهيم محمّد رمضان- بيروت- دار القلم- ط012- 1408هـ/1089م.

نصر حامد، أبو زيد:

240. النّص والسّلطة والحقيقة- المغرب- لبنان- المركز الثقافي العربي- ط05- 2006م.

الهذلي، أبو ذؤيب (الشّاعر):

241.الدّيوان – تحقيق وشرح: سهام المصري – بيروت- دمشق- عمان- المكتب الإسلامي- 1419هـ/1998م.

هنداوي، عبد الحميد:

242. الإعجاز الصّرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التّوظيف البلاغي لصيغة الكلمة- بيروت- مكتبة صيدا العصرية- د ط- 1423هـ/2002م.

ويس، أحمد محمّد:

243. الانزياح في التّراث النّقدي والبلاغي، دراسة- جامعة حلب- اتّحاد الكتّاب العرب- د ط- دت.

ثانيا: الكتب المترجمة.

بريجيتيه بار تشت:

244.مناهج علم اللّغة، من هرمان باول حتّى نعوم تشو مسكي- ترجمة: سعيد حسن بحيرى- مؤسّسة المختار للنشر -- ط01- 1425هـ/2004م.

دومينيك مانغونو:

245. المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب- ترجمة: محمّد يحياتن- الجزائر- منشورات الاختلاف- بيروت- الدار العربية للعلوم- ط01- 1428هـ/2008م.

دي بوجراند، روبرت:

246. النّص والخطاب والإجراء – ترجمة:تمّام حسان- القاهرة- عالم الكتب- ط01- 1418هـ/1998م.

كلاوس، برينكر:

247. التحليل اللّغوي للنّصوص، مدخل إلى مفاهيم الأساسية: - ترجمه وعلّق عليه ومهّد له: سعيد حسن بحيرى- مؤسّسة المختار- القاهرة- ط01- 1425هـ/2005م

ثالثا: المخطوطات [الرّسائل الجامعيّة].

1. اسماعيل غازي، اسماعيل دويدار: قرينة التّضام في القرآن الكريم.(مخطوط رسالة ماجيستير) جامعة القاهرة-كلية دار العلوم- 1425هـ/2004م.
2. بانقيب، عبد الله بن عبد الرّحمان أحمد: مناهج التّحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرّماني(ت386هـ) إلى عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) — (مخطوط رسالة دكتوراه)- المملكة العربية السعودية- جامعة أمّ القرى- 1429هـ/2008م.
3. بلمليانی، بن عمر: المنهج النّقدي في النّظم والتأليف لدى ابن سنان الخفاجي(ت466هـ) وعبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) .(مخطوط رسالة دكتوراه دولة)- جامعة تلمسان- 1424هـ/2003م.
4. توامة، عبد الجبار: القرائن المعنوية في النّحو العربي.(مخطوط رسالة دكتوراه)- جامعة الجزائر- معهد الآداب واللغة العربية - 1995م.
5. حرير، محمّد: جمالية التّلقّي في القرآن من خلال بحوث الإعجاز.(مخطوط رسالة دكتوراه)- جامعة سيدي بلعبّاس- قسم اللغة العربية وآدابها- 1427هـ/2006م.
6. ديدوح، عمر: الأدوات العاملة في التراكيب العربية، دراسة لسانية صورية- مخطوط رسالة دكتوراه-قسم اللّغة العربية وآدابها- جامعة تلمسان- 2003م/2004م.
7. سعدي، الزبير: العلاقات التّركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية (مخطوط رسالة دكتوراه دولة).جامعة الجزائر- معهد اللغة العربية وآدابها- 1410هـ/1989م.
8. عبّاس، محمّد: منهج البحث الأدبي عند عبد القاهر الجرجاني (مخطوط رسالة دكتوراه دولة)- - جامعة وهران- 1411هـ-1412هـ / 1991م-1992م.
9. عطيّة عبد الغفّار، هدى: السّجع القرآني، دراسة أسلوبية. (مخطوط رسالة ماجيستير)- جامعة عين شمس- قسم اللّغة العربية وآدابها- 2001م.

10.عوني،أحمد محمّد: ظاهرة الاقتصاد اللّغوي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية-(مخطوط رسالة دكتوراه)- جامعة سيدي بلعبّاس- قسم اللّغة العربية وآدابها- 2005م.

11.مبارك، عبد القادر: آراء تمام حسان في نقد النّحو العربي. (مخطوط رسالة ماجيستير - جامعة تلمسان- قسم اللّغة العربيّة وآدابها- 2002م/2003م.

12.مبروك، زيد الخير : العلاقات الإسنادية في القرآن الكريم وأثرها في البلاغة والإعراب(مخطوط رسالة دكتوراه دولة)- جامعة الجزائر- قسم اللّغة العربية وآدابها-2007/ 2008م.

رابعــا: الدّوريات.

1.الأنصاري، يوسف: من أسرار تعدية الفعل في القرآن الكريم- مجلّو جامعة أمّ القــرى لعلــوم الشّريعة واللّغة العربية وآدابها -- 15- العدد27- 1424هـ.

2.بلبشير، لحسن: التّركيب وعلاقته بالنّحو- مجلّة المصطلح- جامعة تلمســان مخــبر: تحليليــة إحصائية في العلوم الانسانية- ع01- مارس 2002م.

3.تمام، حسان: اللّغة العربية والحداثة- مجلّة فصول، مجلّة النقد الأدبي- مج04-العدد03، أبريــل، مايو، يونيه- 1984م.

4.تمّام، حسّان:عنوان المقال: اللغة والنّقد الأدبي- عنوان المجلة :فــصول، مجلــة النّقــد الأدبي- العدد01- المجلّد 04- 1983م.

5.تمام حسّان: المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة - مجلّة فصول - مجلّــة النّقــد الأدبي- الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب- مج07- العددان03 و 04- أبريل، سبتمبر- 1987م.

6.خليفة، عبد الكريم: وسائل تطوير اللّغة العربية العلمية- مجلّة اللّسان العربي- المملكة المغربية- مكتب تنسيق التعريب بالرّباط- 1395هـ/1975م- مج12- ج01.

7.الشّربجي، يوسف محمّد: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للإمــام جــلال الــدّين السّيوطي -- تحقيق -- ضمن مجلّة: الأحمدية- جامعة أمّ القرى- العــدد04- جمــادى الأولى- 1420هـ.

8.عبّاس، محمّد: المصطلح اللّغوي عند تمّام حسّان- مدجلّة المعتمد غب الاصطلاح- مخبر تعريب المصطلح في العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية- العدد05- ديسمبر2006م.

9. عبد المطّلب، محمّد: النّحو بين عبد القاهر وتشومسكي- مجلّة فصول، مجلّة النّقد الأدبي- الهيئة المصريّة العامّة للكتّاب- مج 05- العدد 01- أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر- 1984م.

10. علوي، سالم: الدّرس النّحوي بين التّنظير والتّطبيق – مجلّة اللّغة والأدب – جامعة الجزائر- العدد05- 1994م.

11. بن عيسى، عبد الحليم: اللّسانيات والنّص القرآني- مجلّة الآداب والعلوم الانسانية- جامعة قسنطينة- العدد03- 1424هـ/2003م.

12. المجد، ماجد بن محمّد: الفنون البلاغية في سورة هود- المجلّة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الانسانية والاجتماعية- مج 05- العدد 02- 1425هـ/2004م.

13. مسيس، رياض: لسانيات النّص، حول بعض المفاهيم والمرجعيات والأبعاد. مجلّة المبرِّز- بوزرّيعة- الجزائر- عدد خاص بالملتقى الوطني حول"دور اللسانيات في العلوم الانسانية" فيفري 2002م.

خامسا: الكتب الأجنبيّة.

1- Jean-Louis CHISS; Jacques FILLIOLET; Dominique MAINGUENEA: LINGUISTIQUE FRANCAISE;initiation a la problématique structurale.syntaxe.communication.poétique – CLASSIQUES HACHETTE.PARIS.

2-De Saussure Ferdinand– cours de linguistique -générale :Editions Talantikit-Béjaia- 2002

03 - M.A.K.HALLIDAY, RUQAIYA HASSAN: Cohesion in English – Longman.

04- Shirley Carter Thomas : La cohesion textuelle, pour une nouvelle pédagogie de l'écrit- L'Harmattan- Paris FRANCE- Montréal-CANADA- 2000

فهرس الموضوعات

الموضـــوع الصّفحة

كلمة شكر

إهـــــداء

مقدّمـــــة .... أ

الفصل الأوّل:التّضامّ، أصوله وامتداداته 05

أوّلا: مفهومه ومجالاتـــه 05

1- التّعريف اللّغوي والاصطلاحي 05

2- التّضام قرينة لفظية 09

3- أقسام التّضام.. 16

- التّضام المعجمي.. 16

- التّضام النّحوي.. 20

أنواع التّضام النّحوي.. 21

♦ الاختصاص.. 21

♦ الافتقـــار.. 24

التّضام السّلبـــي.. 27

4- التّضام والتّوارد والمصاحبة اللّغوية.. 31

♦ التّوارد التّضـــــام.. 31

♦ التّوارد والمصاحبة.. 33

5- مظاهره ومتعلّقاته..34

◆ علاقــات التّضـــام..35

◆ القاعدة النّحوية والتّضام..37

6- عوارضـــه 38

◆ الفصـــل..38

◆ الاعتراض..44

7- قرينة التّضام بين قرائن التّعليق الأخرى..47

ثانيـــا: التّضام في الموروث النّحوي 49

1- أقسام الكلم..49

2-التّضام في الأبواب النّحوية..53

❖ في الجملة الاسمية..54

❖ في الجملة الفعلية..58

❖ ظنّ وأخواتها..59

❖ التّعدّد في جملة النّعت..60

❖ التّوكيد..60

❖ التّضام في الحروف..61

❖ الجرّ بعد الحرف..62
❖ حالات متعدّدة لــ:(مــا) 63
- التّضام في كتاب "المقتصد في شرح الإيضاح" لعبد القاهر الجرجاني.......... 68
- التّضام في التّقسيم السّباعي للكلم.. 69
- الفعل من حيث التّضام..69
- الاسم من حيث التّضام..69
- الصّفة من حيث التّضام..70
- الخالفة من حيث التّضام..71
- الضّمير من حيث التّضام.. 71
- الظّــــــرف والأداة.. 71
- التّرخّص في التّضام.. 72
3- صلة التّضام بالدّراسة النّحوية.. 74
- علاقة التّضام ببعض القرائن النّحوية.. 78
- التّضام والمنهج الشّكلي.. 80
ثالثــا: التّضامّ في الموروث البلاغي 83
1. مدخل عام.. 84
2. منزلة التّضام بين وجوه الإعجاز.. 86

3. التّضام في ضوء نظرية النّظم.. 88

❖ الجذور البلاغية لمادّة (ضمم) ومعانيها.. 88

❖ التّضام في ضوء نظريّة النّظم.. 95

4. أثر السّياق في التّضام.. 102

5. التّضام والمصطلح البلاغي.. 107

❖ التّضام ومقولات التّأليف والتّركيب.. 108

❖ التّضام ومقولات السّبك والحبك.. 110

❖ التّضام ومقولات الرّصف والتّعليق.. 116

- جهود أبي بكر البلاقلاّني(ت403هـ) في التّضام.. 119
- جهود القاضي عبد الجبّار المعتزلي(ت415هـ) في التّضام.. 120
- جهود عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) في التّضام.. 123

رابعا: التّضام في الدّرس اللّساني الحديث 129

1- التّضام والمنهج الوصفي.. 129

❖ التّضام والعلاقات الأفقية والاستبدالية.. 131

❖ التّضام والدّراسة الشّكلية.. 135

2- التّضام ولسانيات النّص.. 138

الفصل الثّـــاني: التّضامّ في سورة هود 144

- مدخل عـــامّ........ 144
- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني........ 147
- التّقديم والتّأخير........ 153
- المناسبــــــة 161
- الفصل والوصل 185
- الرّبط والارتباط 196
- التّكرار والإعادة........ 202
- التّضمين والتّعدية........ 210
- التّعريف والتّنكير........ 216
- الفاصلة القرآنية........ 222
- الإطناب والإيجاز........ 229
- الحــــــــذف........ 235
- الذّكر والزّيادة........ 244
- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار........ 256
- التّأنيث والتّذكير 258
- الخطاب بالاسم والفعل 259
- الإفراد والجمع 262
- التّضام الصّوتيّ 265
- الالتفـــات 269
- الآية 44 من السّورة........ 272

الفصل الثّـــالث: التّضامّ في سورة طــه........ 281

- المغايرة في نسق الاستعمال القرآني........ 281
- التّقديم والتّأخير........ 293

- المناسبـــــة 305
- الفصل والوصل 318
- الرّبط والارتباط 322
- التّكرار والإعادة 328
- التّضمين والتّعدية 338
- التّعريف والتّنكير 245
- الفاصلة القرآنية 350
- الإيجاز والإطناب 358
- الحـــــــذف 363
- الذّكر والزّيادة 370
- المخالفة في طريقة الجواب والإخبار 377
- الخطاب بالاسم والفعل 378
- الإفراد والجمع 380
- التّضام الصّوتيّ 383
- الالتفـــات 384

الخاتمـــــة 386

قائمة المصادر والمراجع 390

فهرس الموضوعات 414